

تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الفيب

للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشهور بخطيب الري نفع الله به المسلمين

٥٤٤ — ٦٠٤ هـ



حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

البيوع الثلاثة

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

(٦٢) سُورَةُ الْجُمُعَةِ مَدَنِيَّةٌ
رَأْسُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبِحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الارض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ .

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أنه تعالى قال في أول تلك السورة (يسبح لله) بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسبيح في المستقبل ، فقال في أول هذه السورة بلفظ المستقبل ليدل على التسبيح في زمان الحاضر والمستقبل ، وأما تعلق الأول بالآخر ، فلأنه تعالى ذكر في آخر تلك السورة أنه كان يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا عالين على الكفار ، وذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه إذ هو غنى على الإطلاق ، ومنزه عما يخطر ببال الجهالة في الآفاق ، وفي أول هذه السورة ما يدل على كونه مقدساً ومنزهاً عما لا يليق بحضرة العلية بالاتفاق ، ثم إذا كان خلق السموات والارض بأجمعهم في تسبيح حضرة الله تعالى فله الملك ، كما قال تعالى (يسبح لله ما في السموات وما في الارض له الملك) ولا ملك أعظم من هذا ، وهو أنه خالقهم ومالكهم وكلهم في قبضة قدرته وتحت تصرفه ، يسبحون له أثناء الليل وأطراف النهار بل في سائر الأزمان ، كما مر في أول تلك السورة ، ولما كان الملك كله له فهو الملك على الإطلاق ، ولما كان الكل بخلقه فهو المالك ، والمالك والملك أشرف من المملوك ، فيكون متصفاً بصفات يحصل منها الشرف ، فلا مجال لما ينافيه من الصفات فيكون قدوساً ، فلفظ (الملك) إشارة إلى إثبات ما يكون من الصفات العلية ، ولفظ (القدوس) هو إشارة إلى نفي ما لا يكون منها ، وعن الغزالي (القدوس) المنزه عما يخطر ببال أوليائه ، وقد مر تفسيره وكذلك (العزيز الحكيم) ثم الصفات المذكورة قرئت بالرفع على المدح ، أي هو الملك القدوس ، ولو قرئت بالنصب لكان وجهاً ، كقول العرب : الحمد لله أهل الحمد ، كذا ذكره في الكشاف ، ثم في الآية مباحث :

(الأول) قال تعالى (يسبح لله) ولم يقل : يسبح الله ، فما الفائدة ؟ نقول هذا من جملة

ما يجرى فيه اللفظان : كشكره وشكر له ، ونصحه ونصح له .

(الثاني) (القدوس) من الصفات السلبية ، وقيل معناه المبارك .

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

(الثالث) لفظ (الحكيم) يطلق على الغير أيضاً ، كما قيل في لقمان : إنه حكيم ، نقول الحكيم عند أهل التحقيق هو الذي يضع الأشياء [في] مواضعها ، والله تعالى حكيم بهذا المعنى .

ثم إنه تعالى بعد ما فرغ من التوحيد والتنزيه شرع في النبوة فقال :

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة

وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴿٣٠﴾ .

الأمي منسوب إلى أمة العرب ، لما أنهم أمة أميون لا كتاب لهم ، ولا يقرأون كتاباً ولا يكتبون . وقال ابن عباس : يريد الذين ليس لهم كتاب ولا نبي بعث فيهم ، وقيل الأميون الذين هم على ما خلقوا عليه وقد مر بيانه ، وقرئ الأميين بحذف ياء النسب ، كما قال تعالى (رسولا منهم) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم نسبه من نسبهم ، وهو من جنسهم ، كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال أهل المعاني : وكان هو صلى الله عليه وسلم أيضاً أمياً مثل الأمة التي بعث فيهم ، وكانت البشارة به في الكتب قد تقدمت بأنه النبي الأمي ، وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة بالكتابة ، فكانت حاله مشاكلة لحال الأمة الذين بعث فيهم ، وذلك أقرب إلى صدقة .

وقوله تعالى (يتلوا عليهم آياته) أي بيانه التي تبين رسالته وتظهر نبوته ، ولا يبعد أن تكون الآيات هي الآيات التي تظهر منها الأحكام الشرعية ، والتي يتميز بها الحق من الباطل (يزكيهم) أي يطهرهم من خبث الشرك ، وخبث ما عداه من الأقوال والأفعال ، وعند البعض (يزكيهم) أي يصاحهم ، يعني يدعوهم إلى اتباع ما يصيرون به أزكياً أتقياء (ويعلمهم الكتاب والحكمة) والكتاب : ما يتلى من الآيات ، والحكمة : هي الفرائض ، وقيل (الحكمة) السنة ، لأنه كان يتلو عليهم آياته ويعلمهم سننه ، وقيل (الكتاب) الآيات نصاً ، والحكمة ما أودع فيها من المعاني ، ولا يبعد أن يقال الكتاب آيات القرآن والحكمة وجه التمسك بها ، وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) ظاهر لأنهم كانوا عبدة الأصنام وكانوا في ضلال مبين وهو الشرك ، فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد والإعراض عما كانوا فيه ، وفي هذه الآية مباحث : (أحدها) احتجاج أهل الكتاب بها قالوا قوله (بعث في الأميين رسولا منهم) يدل على أنه عليه السلام كان رسولا إلى الأميين وهم العرب خاصة ، غير أنه ضعيف فإنه لا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نفي ما عداه ، ألا ترى إلى قوله تعالى (ولا تحظه بيمينك) أنه لا يفهم منه أنه

وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣٢﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بُئِسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

يخطه بشأله ، ولأنه لو كان رسولا إلى العرب خاصة كان قوله تعالى (كافة للناس بشيراً ونذيراً) لا يناسب ذلك ، ولا مجال لهذا لما انفقوا على ذلك ، وهو صدق الرسالة المخصوصة ، فيكون قوله تعالى (كافة للناس) دليلاً على أنه عليه الصلاة والسلام كان رسولا إلى الكل .
ثم قال تعالى ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

(وآخرين) عطف على الآميين : يعنى بعث في آخريين منهم ، قال المفسرون : هم الأعاجم يعنون بهم غير العرب أى طائفة كانت قاله ابن عباس وجماعة ، وقال مقاتل يعنى التابعين من هذه الأمة الذين لم يلحقوا بأوائلهم ، وفي الجملة معنى جميع الأقوال فيه كل من دخل في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة فالمراد بالآميين العرب . وبالآخريين سواهم من الأمم ، وقوله (وآخريين) مجرور لأنه عطف على المجرور يعنى الآميين ، ويجوز أن ينتصب عطفاً على المنصوب فى (ويعلمهم) أى ويعلمهم ويعلم آخريين منهم ، أى من الآميين وجعلهم منهم ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة وإن اختلف أجناسهم ، قال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وأما من لم يؤمن بالنبي ﷺ ولم يدخل فى دينه فإنهم كانوا بمعزل عن المراد بقوله (وآخريين منهم) وإن كان الذى مبعوثاً إليهم بالدعوة فإنه تعالى قال فى الآية الأولى (ويزكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وغير المؤمنين ليس من جملة من يعلمه الكتاب والحكمة (وهو العزيز) من حيث جعل فى كل واحد من البشر أثر الذل له والفقير إليه ، والحكيم حيث جعل فى كل مخلوق ما يشهد بوحديته ، قوله تعالى (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) قال ابن عباس : يريد حيث ألحق العجم وابتاهم بقريش ، يعنى إذا آمنوا ألحقوا فى درجة الفضل بمن شاهد الرسول عليه السلام ، وشاركوه فى ذلك ، وقال مقاتل (ذلك فضل الله) يعنى الإسلام (يؤتيه من يشاء) وقال مقاتل بن حيان : يعنى النبوة فضل الله يؤتيه من يشاء ، فاخص بها محمداً صلى الله عليه وسلم : والله ذو المن العظيم على جميع خلقه فى الدنيا بتعليم الكتاب والحكمة كما مر ، وفى الآخرة بتفخيم الجزاء على الأعمال .

ثم إنه تعالى ضرب لليهود الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة ، والإيمان بالنبي ﷺ : مثلاً فقال : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ مثل القوم الذين

الظالمين ﴿٥﴾

كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴿٥﴾

اعلم أنه تعالى لما أثبت التوحيد والنبوة ، وبين في النبوة أنه عليه السلام بعث إلى الأميين واليهود لما أوردوا تلك الشبهة ، وهي أنه عليه السلام بعث إلى العرب خاصة ، ولم يبعث إليهم بمفهوم الآية أتبعه الله تعالى بضرب المثل للذين أعرضوا عن العمل بالتوراة ، والإيمان بالنبي عليه السلام ، والمقصود منه أنهم لما لم يعملوا بما في التوراة شبهوا بالجمار ، لأنهم لو عملوا بمقتضاها لا تنفعوا بها ، ولم يوردوا تلك الشبهة ، وذلك لأن فيها نعت الرسول عليه السلام ، والبشارة بمقدمه ، والدخول في دينه ، وقوله (حملوا التوراة) أي حملوا العمل بما فيها ، وكفوا القيام بها ، وحملوا (وقرىء) بالتخفيف والتثقل ، وقال صاحب النظم : ليس هو من الحمل على الظهر ، وإنما هو من الحالة بمعنى الكفالة والضمان ، ومنه قيل للكفيل الخليل ، والمعنى : ضمنوا أحكام التوراة ثم لم يضمنوها ولم يعملوا بما فيها . قال الأصمى : الخليل ، الكفيل ، وقال الكسائي : حملت له حاملة . أي كفلت به ، والأسفار جمع سفر وهو الكتاب الكبير ، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء ، ونظيره شبر وأشبار ، شبه اليهود إذ لم ينتفعوا بما في التوراة ، وهي دالة على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بالجمار الذي يحمل الكتب العلية ولا يدري ما فيها . وقال أهل المعاني : هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به ، وأعرض عنه لإعراض من لا يحتاج إليه ، ولهذا قال ميمون بن مهران : يا أهل القرآن اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ثم تلا هذه الآية ، وقوله تعالى (لم يحملوها) أي لم يؤدوا حقها ولم يحملوها حق حملها على ما بيناه ، فشبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بجمار يحمل كتباً ، وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع مما يحمله ، كذلك اليهود ليس لهم من كتبهم إلا وبال الحجة عليهم ، ثم ذم المثل ، والمراد منه ذمهم فقال (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) أي بئس القوم مثلاً الذين كذبوا ، كما قال (ساء مثلاً القوم) وموضع الذين رفع ، ويجوز أن يكون جراً ، وبالجملة لما بلغ كذبهم مبلغاً وهو أنهم كذبوا على الله تعالى كان في غاية الشر والفساد ، فلهذا قال (بئس مثل القوم) والمراد بالآيات ههنا الآيات الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ ، وهو قول ابن عباس ومقاتل ، وقيل الآيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا أشبه هنا (والله لا يهدى القوم الظالمين) قال عطاء يريد الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء وههنا مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ ما الحكمة في تعيين الجمار من بين سائر الحيوانات ؟ نقول لوجوه (منها)

أنه تعالى خلق (الخيل والبغال والحمير أتركبوها وزينة) والزينة في الخيل أكثر وأظهر ؛ بالنسبة

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا
 الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

إلى الركوب ، وحمل الشيء عليه ، وفي البغال دون ، وفي الحمار دون البغال ، فالبغال كالمترسطة
 في المعاني الثلاثة ، وحينئذ يلزم أن يكون الحمار في معنى الحمل أظهر وأغلب بالنسبة إلى الخيل
 والبغال ، وغيرهما من الحيوانات ، (ومنها) أن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة ، وذلك في الحمار
 أظهر ، (ومنها) أن في الحمار من الذل والحقارة مالا يكون في الغير ، والغرض من الكلام في هذا المقام
 تعبير القوم بذلك وتحقيرهم ، فيكون تعيين الحمار أليق وأولى ، ومنها أن حمل الأسفار على الحمار
 أتم وأعم وأسهل وأسلم ، لكونه ذلولاً ، سلس القياد ، لين الانقياد ، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير
 كلفة ومشقة . وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة إلى غيره (ومنها) أن رعاية الألفاظ
 والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام ، وبين لفظي الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في
 الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى .

(الثاني) (يحمل) ما محله ؟ نقول النصب على الحال ، أو الجر على الوصف كما قال في الكشف
 إذ الجار كاللثيم في قوله :

ولقد أمر على اللثيم يسبني . [فررت ثمة قلت لا يعنيني]

(الثالث) قال تعالى (بئس مثل القوم) كيف وصف المثل بهذا الوصف ؟ نقول : الوصف
 وإن كان في الظاهر للمثل فهو راجع إلى القوم ، فكأنه قال بئس القوم قوماً مثلهم هكذا .

ثم إنه تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب لهم وهو :

قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ، فتمنوا الموت
 إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ هذه الآية من جملة
 ما مر بيانه ، وقرئ (فتمنوا الموت) بكسر الواو ، و (هادوا) أي تهودوا ، وكانوا يقولون نحن أبناء
 الله وأحباؤه . فلو كان قولكم حقاً وأنتم على ثقة فتمنوا على الله أن يمتكم وينتقمكم سريعاً إلى دار
 كرامته التي أعدها لأولياؤه ، قال الشاعر .

ليس من مات فاستراح يميت إنما الميت ميت الأحياء

فهم يطلبون الموت لا محالة إذا كانت الحالة هذه ، وقوله تعالى (ولا يتمنونه أبداً بما قدمت
 أيديهم) أي بسبب ما قدموا من الكفر وتحريف الآيات ، وذكر مرة بلفظ التأكيدي (ولن

قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فِيَنبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا

الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ

يتمنوه أبدأ) ومرة بدون لفظ التأكيد (ولا يتمنونه) وقوله (أبدأ والله عليهم بالظالمين) أى بظلمهم من تحريف الآيات وعنادهم لها ، ومكابرتهم إياها .

ثم قال تعالى ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملائكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . يعنى أن الموت الذى تفرون منه بما قدمت أيديكم من تحريف الآيات وغيره ملائكم لا محالة ، ولا ينفعكم الفرار ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة يعنى ما أشهدتم الخلق من التوراة والإنجيل وعالم بما غيبتم عن الخلق من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وما أسررتهم فى أنفسكم من تكذيبكم رسالته ، وقوله تعالى (فينبئكم بما كنتم تعملون) إما عياناً مقروناً بلقائكم يوم القيامة ، أو بالجزء إن كان خيراً فخير . وإن كان شراً فشر ، فقوله (إن الموت الذى تفرون منه) هو التنبيه على السعى فيما ينفعهم فى الآخرة وقوله (فينبئكم بما كنتم تعملون) هو الوعيد البليغ والتهديد الشديد . ثم فى الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ أدخل الفاء لما أنه فى معنى الشرط والجزاء ، وفى قراءة ابن مسعود (ملائكم)

من غير (فإنه) .

﴿ الثانى ﴾ أن يقال الموت ملائكم على كل حال ، فروا أولم يفروا ، فما معنى الشرط والجزاء ؟

قيل إن هذا على جهة الرد عليهم إذ ظنوا أن الفرار ينجمهم ، وقد صرح بهذا المعنى ، وأصح عنه بالشرط الحقيقى فى قوله :

ومن هاب أسباب المنايا تناله ولو نال أسباب السماء بسلم

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من

وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

فضل الله واذكروا الله كثيراً لعاسكم تفلحون ﴿١٠﴾ وجه التعاقق بما قبلها هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك ، فنبههم الله تعالى بقوله (فاسعوا إلى ذكر الله) أى إلى ما ينفعكم فى الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية والآخرة وما فيها باقية ، قال تعالى (والآخرة خير وأبقى) ووجه آخر فى التعاقق ، قال بعضهم قد أبطل الله قول اليهود فى ثلاث ، افتخروا بأنهم أولياء الله واحبائه ، فكذبهم بقوله (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) وبأنهم أهل الكتاب ، والعرب لا كتاب لهم ، فشبههم بالخنزير يحمل أسفاراً ، وبالسبت وليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم الجمعة ، وقوله تعالى (إذا نودى) يعنى النداء إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة وهو قول مقاتل ، وأنه كما قال لأنه لم يكن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواء كان إذا جلس عليه الصلاة والسلام على المنبر أذن بلال على باب المسجد ، وكذا على عهد أنى بكر وعمر ، وقوله تعالى (للصلاة) أى لوقت الصلاة يدل عليه قوله (من يوم الجمعة) ولا تكون الصلاة من اليوم ، وإنما يكون وقتها من اليوم ، قال الليث : الجمعة يوم خص به لاجتماع الناس فى ذلك اليوم ، ويجمع على الجومات والجمع ، وعن سلمان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سميت الجمعة جمعة لأن آدم جمع فيها خلقه » وقيل لما أنه تعالى فرغ فيها من خلق الأشياء ، فاجتمعت فيها المخلوقات . قال الفراء وفيها ثلاث لغات التخفيف ، وهى قراءة الأعمش والتثقيب ، وهى قراءة العامة ، ولغة لبني عقيل ، وقوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) أى فامضوا ، وقيل فامشوا وعلى هذا معنى ، السعى : المشى لا العدو ، وقال الفراء : المضى والسعى والذهاب فى معنى واحد ، وعن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ (فاسعوا) قال من أقرأ هذا ، قال أنى ، قال لا يزال يقرأ بالمنسوخ ، لو كانت فاسعوا السعيث حتى يسقط رداًنى ، وقيل المراد بالسعى القصد دون العدو ، والسعى التصرف فى كل عمل ، ومنه قوله تعالى (فلما بلغ منه السعى) قال الحسن : والله ما هو سعى على الأقدام ولكنه سعى بالقلوب ، وسعى بالنية ، وسعى بالرغبة ، ونحو هذا ، والسعى ههنا هو العمل عند قوم ، وهو مذهب مالك والشافعى ، إذ السعى فى كتاب الله العمل ، قال تعالى (وإذا تولى سعى فى الأرض) (وإن سعيكم لشتى) أى العمل ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، ولكن اتتوها وعليكم السكينة » وانفق الفقهاء على « أن النبى ﷺ [كان] متى أتى الجمعة أتى على هيئة » وقوله (إلى ذكر الله) الذكر هو الخطبة عند الأكثر من أهل التفسير ، وقيل هو الصلاة ، وأما الأحكام المتعلقة بهذه الآية فإنها تعرف من الكتب الفقهية ، وقوله تعالى (وذروا البيع) قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع ، وقال عطاء : إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء .

وقال الفراء إنما حرم البيع والشراء إذا نودى للصلاة لمساكن الاجتماع ولندرك له كافة الحسنات ، وقوله تعالى (ذلكم خير لكم) أي في الآخرة (إن كنتم تعلمون) ما هو خير لكم وأصلح ، وقوله تعالى (فإذا قضيت الصلاة) أي إذا صليتم الفريضة يوم الجمعة (فانتشروا في الأرض) هذا صيغة الأمر بمعنى الإباحة لما أن إباحة الانتشار زائلة بفرضية أداء الصلاة ، فإذا زال ذلك عادت الإباحة فيباح لهم أن يتفرقوا في الأرض ويتفخوا من فضل الله ، وهو الرزق ، ونظيره (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) ، وقال ابن عباس : إذا فرغت من الصلاة فإن شئت فاخرج ، وإن شئت فصل إلى العصر ، وإن شئت فاقعد ، كذلك قوله (وابتغوا من فضل الله) فإنه صيغة أمر بمعنى الإباحة أيضاً لجلب الرزق بالتجارة بعد المنع ، بقوله تعالى (وذروا البيع) وعن مقاتل : أحل لهم ابتغاء الرزق بعد الصلاة ، فمن شاء خرج . ومن شاء لم يخرج ، وقال مجاهد : إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ، وقال الضحاك ، هو إذن من الله تعالى إذا فرغ ، فإن شاء خرج ، وإن شاء قعد ، والأفضل في الابتغاء من فضل الله أن يطلب الرزق ، أو الولد الصالح أو العلم النافع وغير ذلك من الأمور الحسنة ، والظاهر هو الأول ، وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد [د] قال : اللهم أجب دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ، وقوله تعالى (واذكروا الله كثيراً) قال مقاتل باللسان ، وقال سعيد ابن جبير بالطاعة ، وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين كثيراً حتى يذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، والمعنى إذا رجعت إلى التجارة وانصرفتم إلى البيع والشراء مرة أخرى فاذكروا الله كثيراً ، قال تعالى (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) . وعن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أتيت السوق فقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، فإن من قالها كتب الله له ألف حسنة وحط عنه ألف خطيئة ورفع له ألف ألف درجة » وقوله تعالى (لعلكم تفلحون) من جملة ما قد مر مراراً ، وفي الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ ما الحكمة في أن شرع الله تعالى في يوم الجمعة هذا التكليف ؟ فنقول : قال القفال هي أن الله عز وجل خلق الخلق فأخرجهم من العدم إلى الوجود وجعل منهم جمادياً ونامياً وحيواناً ، فكان ما سوى الجماد أصنافاً ، منها بهائم وهلائكة وجن وإنس ، ثم هي مختلفة المساكن من العلو والسفل فكان أشرف العالم السفلي هم الناس لعجيب تركيبهم ، ولما كرمهم الله تعالى به من النطق ، وركب فيهم من العقول والطباع التي بها غاية التعبد بالشرائع ، ولم يخف موضع عظم المنة وجلالة قدر الموهبة لهم فأمروا بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة التي فيها أنشئت الخلائق وتم وجودها ، ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله تعالى به عليهم ، وإذا كان شأنهم لم يخل من حين ابتدئوا من نعمة تخللهم ، وإن منة الله مثبتة عليهم

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ

مِنَ اللَّهِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

قبل استحقاقهم لها ، ولكل أهل ملة من الملل المعروفة يوم منها معظم ، فاليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد ، وللمسلمين يوم الجمعة ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يوم الجمعة هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غداً وللنصارى بعد غد » ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذي به تقع شهرته فجمعت الجماعات له كالسنة في الأعياد ، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بالنعمة وحثاً على استدامتها بإقامة ما يعود بآلاء الشكر ، ولما كان مدار التعظيم ، إنما هو عمل الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار لئتم الاجتماع ولم تجز هذه الصلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى إلى الاجتماع والله أعلم .

(الثاني) كيف خص ذكر الله بالخطبة ، وفيها ذكر الله وغير الله ؟ نقول المراد من ذكر الله الخطبة والصلاة لأن كل واحدة منهما مشتملة على ذكر الله ، وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة والشقاء عليهم والدعاء لهم فذلك ذكر الشيطان .

(الثالث) قوله (وذروا البيع) لم خص البيع من جميع الأفعال ؟ نقول لأنه من أهم ما يشتغل به المرء في النهار من أسباب المعاش ، وفيه إشارة إلى ترك التجارة ، ولأن البيع والشراء في الأسواق غالباً ، والغفلة على أهل السوق أغلب ، فقوله (وذروا البيع) تنبيه للعاملين ، فالبيع أولى بالذكر ولم يحرم لهينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المفضوبة .

(الرابع) ما الفرق بين ذكر الله أولاً وذكر الله ثانياً ؟ فنقول الأول من جملة ما لا يجتمع مع التجارة أصلاً إذ المراد منه الخطبة والصلاة كما مر ، والثاني من جملة ما يجتمع كما في قوله تعالى (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من الله ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾

قال مقاتل إن دحية بن خليفة الكلبي أقبل بتجارة من الشام قبل أن يسلم وكان معه من أنواع التجارة ، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل والصفق ؛ وكان ذلك في يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب فخرج إليه الناس وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا اثنا عشر رجلاً أو أقل كثنائية أو أكثر كأربعين ، فقال عليه السلام لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة ، ونزلت الآية : وكان من الذين معه أبو بكر وعمر . وقال الحسن أصاب أهل المدينة جرع وغلاء

سعر فقدمت غير والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا إليها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو اتبع آخرهم أو لهم لالتهم الوادي عليهم ناراً ، قال قتادة فعدلوا ذلك ثلاث مرات ، وقوله تعالى (أو هواً) وهو الطبل ، وكانوا إذا أنكحوا الجوارى يضربون المزامير ، فبروا يضربون ، فتركوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله (انفضوا إليها) أى تفرقوا وقال المبرد : مالوا إليها وعدلوا نحوها ، والضمير فى إليها للتجارة ، وقال الزجاج : انفضوا إليه وإليها ، ومعناها واحد كقوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) واعتبرنا الرجوع إلى التجارة لما أنها أم إليهم ، وقوله تعالى (وترك قائماً) انفضوا على أن هذا القيام كان فى الخطبة للجمعة قال جابر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخطبة إلا وهو قائم ، وسئل عبد الله أكان النبي يخطب قائماً أو قاعداً فقراً (وترك قائماً) وقوله تعالى (قل ما عند الله خير) أى ثواب الصلاة والثبات مع النبي صلى الله عليه وسلم (خير من اللهو ومن التجارة) من اللهو الذى مر ذكره ، والتجارة التى جاء بهادحية ، وقوله تعالى (والله خير الرازقين) هو من قبيل أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين ، والمعنى إن أمكن وجود الرازقين فهو خير الرازقين ، وقيل لفظ الرازق لا يطلق على غيره إلا بطريق المجاز ، ولا يرتاب فى أن الرازق بطريق الحقيقة خير من الرازق بطريق المجاز ، وفى الآية مباحث :

(البحث الأول) أن التجارة واللهو من قبيل ما لا يرى أصلاً ، ولو كان كذلك كيف يصح (وإذا رأوا تجارة أو هواً) ؟ نقول ليس المراد إلا ما يقرب منه اللهو والتجارة ، ومثله حتى يسمع كلام الله ، إذ الكلام غير مسموع ، بل المسموع صوت يدل عليه .

(الثانى) كيف قال (انفضوا إليها) وقد ذكر شيئين وقد مر الكلام فيه ، وقال صاحب الكشف تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو هواً انفضوا إليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه .

(الثالث) أن قوله تعالى (والله خير الرازقين) مناسب للتجارة التى مر ذكرها لا للهو ، نقول بل هو مناسب للمجموع لما أن اللهو الذى مر ذكره كالتبع للتجارة ، لما أنهم أظهروا ذلك فرحاً بوجود التجارة كما مر ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

(٦٣) سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيَّاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن
المنافقين لكاذبون ﴾

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها ، هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول صلى
الله عليه وسلم ، وذكر من كان يكذبه قلباً ولساناً بضرب المثل كما قال (مثل الذين حملوا التوراة)
وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلباً دون اللسان ويصدقه لساناً دون القلب ، وأما الأول
بالآخر ، فذلك أن في آخر تلك السورة تنبيهاً لأهل الإيمان على تعظيم الرسول صلى الله عليه
وسلم ورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة وتقديم متابعتها في الأداء على غيره وأن ترك التعظيم
والمتابعة من شيم المنافقين ، والمنافقون هم الكاذبون ، كما قال في أول هذه السورة (إذا جاءك
المنافقون) يعنى عبد الله بن أبى وأصحابه (قالوا نشهد إنك لرسول الله) وتم الخبر عنهم ثم ابتداء
فقال (والله يعلم إنك لرسوله) أى أنه أرسلك فهو يعلم أنك لرسوله (والله يشهد أنهم) أضمر وا غير
ما أظهروا ، وإنه يدل على أن حقيقة الإيمان بالقلب ، وحقيقة كل كلام كذلك ، فإن من أخبر
عن شيء واعتقد بخلافه فهو كاذب ، لما أن الكذب باعتبار المخالفة بين الوجود اللفظي والوجود
الذهنى ، كما أن الجهل باعتبار المخالفة بين الوجود الذهني ، والوجود الخارجي ، ألا ترى أنهم
كانوا يقولون بالسنتهم نشهد إنك لرسول الله ، وسماهم الله كاذبين لما أن قولهم : يخالف اعتقادهم ،
وقال : قوم لم يكذبهم الله تعالى في قولهم : (نشهد إنك لرسول الله) إنما كذبهم بغير هذا من
الأكاذيب الصادرة عنهم في قوله تعالى (يحلفون بالله ما قالوا) الآية . و (يحلفون بالله إنهم لمنكم)
وجواب إذا (قالوا نشهد) أى أنهم إذا أتوك شهدوا لك بالرسالة ، فهم كاذبون في تلك الشهادة ،
لما مر أن قولهم يخالف اعتقادهم ، وفي الآية مباحث :

اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢١﴾

(البحث الأول) أنهم قالوا نشهد أنك لرسول الله ، فلو قالوا نعلم أنك لرسول الله ، أفاد مثل ما أفاد هذا ، أم لا ؟ نقول ما أفاد ، لأن قولهم : نشهد أنك لرسول الله ، صريح في الشهادة على إثبات الرسالة ، وقولهم : نعلم ليس بصريح في إثبات العلم ، لما أن عليهم في الغيب عند غيرهم . ثم قال تعالى ﴿ اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ .

قوله (اتخذوا إيمانهم جنة) أي سترأ ليستتروا به عما خافوا على أنفسهم من القتل . قال في الكشاف (اتخذوا إيمانهم جنة) يجوز أن يراد أن قولهم (نشهد أنك لرسول الله) يمين من إيمانهم الكاذبة ، لأن الشهادة تجرى مجرى الحلف في التأكيد ، يقول الرجل : أشهد وأشهد بالله ، وأعزم وأعزم بالله في موضع أقسم وأولى : وبه استشهد أبو حنيفة على أن أشهد يمين ، ويجوز أن يكون وصفاً للمنافقين في استخفافهم بالإيمان ، فإن قيل لم قالوا نشهد ، ولم يقولوا نشهد بالله كما قلتم ؟ أجب بعضهم عن هذا بأنه في معنى الحلف من التوهم وهو في المتعارف إنما يكون بالله ، فذلك أخبر بقوله نشهد عن قوله بالله .

وقوله تعالى (فصدوا عن سبيل الله) أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله ، وقيل صدوا ، أي صرفوا ومنعوا الضعفة عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم (ساء) أي بئس (ما كانوا يعملون) حيث آثروا الكفر على الإيمان وأظهروا خلاف ما أضروا مشاكلة للمسلمين .

وقوله تعالى ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ﴾ ذلك إشارة إلى قوله (ساء ما كانوا يعملون) قال مقاتل : ذلك الكذب بأنهم آمنوا في الظاهر ، ثم كفروا في السر ، وفيه تأكيد لقوله (والله يشهد إنهم لكاذبون) وقوله (فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) لا يتدبرون ، ولا يستدلون بالدلائل الظاهرة . قال ابن عباس : ختم على قلوبهم ، وقال مقاتل : طبع على قلوبهم بالكفر فهم لا يفقهون القرآن ، وصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنهم كانوا يظنون أنهم على الحق ، فأخبر تعالى أنهم لا يفقهون أنه طبع على قلوبهم ، ثم في الآية مباحث :

(البحث الأول) أنه تعالى ذكر أفعال الكفرة من قبل ، ولم يقل إنهم ساء ما كانوا يعملون ، فلم قال هنا ؟ نقول إن أفعالهم مقرونة بالإيمان الكاذبة التي جعلوها جنة ، أي سترة لا مواهم ودماهم عن أن يستبيحها المسلمون كما مر .

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ
خُشْبٌ مِّنْ شَجَرَةٍ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ
أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا
رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ
لَهُمْ أَمْ لَمْ تُسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

(الثنائي) المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله تعالى (آمنوا ثم كفروا) ؟ نقول قال في الكشاف ثلاثة أوجه (أحدها) (آمنوا) نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلا كما يفعل من يدخل في الإسلام (ثم كفروا) ثم ظهر كفرهم بعد ذلك (وثانيها) (آمنوا) نطقوا بالإيمان عند المؤمنين (ثم كفروا) نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام كقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) (وثالثها) أن يراد أهل الذمة منهم .

(الثالث) الطبع على القلوب لا يكون إلا من الله تعالى ، ولما طبع الله على قلوبهم لا يمكنهم أن يتدبروا ويستدلوا بالدلائل ، ولو كان كذلك لكان هذا حجة لهم على الله تعالى ، فيقولون إعراضنا عن الحق لغفلتنا ، وغفلتنا بسبب أنه تعالى طبع على قلوبنا ، فنقول هذا الطبع من الله تعالى لسوء أفعالهم ، وقصدهم الإعراض عن الحق ، فكأنه تعالى تركهم في أنفسهم الجاهلة وأهوائهم الباطلة .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صبيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وإذا قيل لهم تعالوا يستغفروا لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

اعلم أن قوله تعالى (وإذا رأيتهم) يعنى عبدالله بن أبى ، ومغيث بن قيس ، وجد بن قيس ، كانت لهم أجسام ومنظر ، تعجبك أجسامهم لحسنها وجمالها ، وكان عبد الله بن أبى جسيما صديحا فصيحاً ، وإذا قال سمع النبي صلى الله عليه وسلم قوله ، وهو قوله تعالى (وإن يقولوا تسمع لقولهم) أى ويقولوا إنك لرسول الله تسمع لقولهم ، وقرئ يسمع على البناء للدفعول ، ثم شبههم بالخشب المسندة ، وفى الخشب التخفيف كبذرة وبدن وأسود وأمد ، والتثقل كذلك كثرة ثمر ، وخشبة

وخشب ، ومدرة ومدر . وهى قراءة ابن عباس ، والتثقيب لغة أهل الحجاز ، والخشب لا تعقل ولا تفهم ، فكذلك أهل النفاق كانوا في ترك التفهم ، والاستبصار بمنزلة الخشب . وأما المسندة يقال سند إلى الشيء ، أى مال إليه ، وأسندته إلى الشيء ، أى أماله فهو مسند ، والتشديد للبالغة ، وإنما وصف الخشب بها ، لأنها تشبه الأشجار القائمة التى تنمو وتثمر بوجه ما ، ثم نسبهم إلى الجبن وعابهم به ، فقال (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) وقال مقاتل : إذا نادى مناد فى العسكر ، وانفلتت دابة ، أو نشدت ضالة مثلا ظنوا أنهم يرادون بذلك لما فى قلوبهم من الرعب ، وذلك لأنهم على وجل من أن يهتك الله أستارهم ، ويكشف أسرارهم ، يتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة ، ثم أعلم [الله] رسوله بعبادتهم فقال : (هم العدو فاحذرهم) أن تأمنهم على السر ولا تلتفت إلى ظاهريهم فإنهم للكاملون فى العداوة بالنسبة إلى غيرهم وقوله تعالى (قائلهم الله أنى يؤفكون) مفسر وهو دعاء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويحزبهم وتعلم للمؤمنين أن يدعوا بذلك ، و(أنى يؤفكون) أى يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق .

وقوله تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله) قال السكبي لما نزل القرآن على الرسول ﷺ بصفة المنافقين مشى إليه عشائريهم من المؤمنين وقالوا لهم ويلكم انتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم فأنوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم ، فأبوا ذلك وزهدوا فى الاستغفار فنزلت ، وقال ابن عباس لما رجع عبد الله بن أبى من أحد بكثير من الناس مقتى المسلمين وعنفوه وأسسموه المكروه فقال له بنو أبيه لو أتيت رسول صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ويرضى عنك ، فقال : لا أذهب إليه ، ولا أريد أن يستغفر لى ، وجعل يلوى رأسه فنزلت . وعند الأكثرين ، إنما دعى إلى الاستغفار لأنه قال (ليخرجن الأعرز منها الأذل) وقال (لا تنفقوا على من عند رسول الله) فقيل له : تعال يستغفر لك رسول الله فقال : ماذا قلت فذلك قوله تعالى (لو وارءوسهم) وقرئ (لووا) بالتخفيف والتشديد للكثرة والكناية قد تجعل جمعاً والمقصود واحد وهو كثير فى أشعار العرب قال جرير :

لا بارك الله فيمن كان يحسبكم إلا على العهد حتى كان ما كانا

وإنما خاطب بهذا امرأة وقوله تعالى (ورأيتمهم يصدون وهم مستكبرون) أى عن استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر تعالى أن استغفاره لا ينفعهم فقال (سواء عليهم أستغفرت لهم) قل فتادة نزلت هذه الآية بعد قوله (استغفر لهم أولاً تستغفر لهم) وذلك لأنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيرنى ربى فلأزيدنهم على السبعين » فأنزل الله تعالى (لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين) قال ابن عباس المنافقين ، وقال قوم فيه بيان أن الله تعالى يملك هداية وراهداية البيان ، وهى خلق فعل الاهتمام فيمن علم منه ذلك ، وقيل معناه لا يهديهم لفسقهم وقالت المعتزلة لا يسميهم المهتدين إذا فسقوا وضلوا وفى الآية مباحث :

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَيَلَّهِ
خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن
رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ

(البحث الأول) لم شبههم بالخشب المسندة لابتغائه من الأشياء المنتفع بها؟ نقول لاشتغال هذا التشبيه على فوائد كثيرة لا توجد في الغير (الأولى) قال في الكشف : شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير ، بالخشب المسندة إلى الحائط ، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغاً غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به في عدم الانتفاع ، ويجوز أن يراد بها الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحائط شبهوا بها في حسن صورهم ، وقلة جداولهم (الثانية) الخشب المسندة في الأصل كانت غصناً طرياً يصاح لأن يكون من الأشياء المنتفع بها ، ثم تصير غليظة يابسة ، والكافر والمنافق كذلك كان في الأصل صالحاً لكذا وكذا ، ثم يخرج عن تلك الصلاحية (الثالثة) الكفرة من جنس الإنس حطب ، كما قال تعالى (حصب جهنم أنتم لها واردون) والخشب المسندة حطب أيضاً (الرابعة) أن الخشب المسندة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهة ، والآخر إلى جهة أخرى ، والمنافقون كذلك ، لأن المنافق أحد طرفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكفر ، والطرف الآخر وهو الظاهر إلى جهة أهل الإسلام (الخامسة) المعتمد عليه الخشب المسندة ما يكون من الجمادات والنباتات ، والمعتمد عليه للمنافقين كذلك ، وإذا كانوا من المشركين إذ هو الأصنام ، إنها من الجمادات أو النباتات .

(الثاني) من المباحث أنه تعالى شبههم بالخشب المسندة ، ثم قال من بعد ما يتأني هذا التشبيه وهو قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) والخشب المسندة لا يحسبون أصلاً ، نقول لا يلزم أن يكون المشبه والمشبه به يشتركان في جميع الأوصاف ، فهم كالخشب المسندة بالنسبة إلى الانتفاع وعدم الانتفاع ، وليسوا كالخشب المسندة بالنسبة إلى الاستماع وعدم الاستماع للصيحة وغيرها .

(الثالث) قال تعالى (إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) ولم يقل القوم الكافرين أو المنافقين أو المستكبرين مع أن كل واحد منهم من جملة ما سبق ذكره ؟ نقول كل أحد من تلك الأقسام داخل تحت قوله (الفاسقين) أي الذين سبق ذكرهم وهم الكافرون والمنافقون والمستكبرون . ثم قال تعالى ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز

وَالْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

منها الأذل والله العزة ورسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴿٨﴾ .

أخبر الله تعالى بشذيع مقالتهم فقال (هم الذين يقولون) كذا وكذا (وينفضوا) أى يتفرقوا ، وقرى. (ينفضوا) من أنفض القوم إذا فنيت أزوادهم . قال المفسرون : اقتتل أجير عمر مع أجير عبد الله ابن أبى فى بعض الغزوات فأسمع أجير عمر عبد الله بن أبى المكروه واشتد عليه لسانه ، فغضب عبد الله وعنده رهط من قومه فقال أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، يعنى بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على قومه فقال لو أمسكتم النفقة عن هؤلاء يعنى المهاجرين لأوشكوا أن يتحللوا عن دياركم وبلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فزلات ، وقرى. (ليخرجن) بفتح الياء ، وقرأ الحسن وابن أبى عيلة (لنخرجن) بالزون ونصب الأعز والأذل ، وقوله تعالى (والله خزائن السموات والأرض) قال مقاتل يعنى مفاتيح الرزق والمطر والنبات ، والمعنى أن الله هو الرزاق (قل من يرزقكم من السماء والأرض) وقال أهل المعانى خزائن الله تعالى مقدوراته لأن فيها كل ما يشاء مما يريد لإخراجه ، وقال الجنيد : خزائن الله تعالى فى السموات الغيوب وفى الأرض القلوب وهو علام الغيوب ومقلب القلوب ، وقوله تعالى (ولكن المنافقين لا يفقهون) أى لا يفقهون أن (أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقوله يقولون (لئن رجعنا) أى من تلك الغزوة وهى غزوة بنى المصطلق إلى المدينة فرد الله تعالى عليه وقال (والله العزة) أى الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وعزم بنصرته لإيامهم وإظهار دينهم على سائر الأديان وأعلم رسوله بذلك ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ولوعلموه ما قالوا مقالتهم هذه ، قال صاحب الكشاف (والله العزة ورسوله للمؤمنين) وهم الإخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين ، وعن بعض الصالحات وكانت فى هيئة رثة ألسنت على الإسلام وهو العز الذى لا ذل معه ، والغنى الذى لا فقر معه ، وعن الحسن بن على رضى الله عنهما أن رجلاً قال له إن الناس يزعمون أن فىك تيباً قال ليس بتيبى ولكنه عزة فإن هذا العز الذى لا ذل معه والغنى الذى لا فقر معه ، وتلا هذه الآية قال بعض العارفين فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها عن أن يضمها لأقسام عاجلة دنيوية كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة كاشدباه التواضع بالضعفة والتواضع محمود ، والضعفة مذمومة ، والكبر مذموم ، والعزة محمودة ، ولما كانت غير مذمومة وفيها مشاكلة للكبر ، قال تعالى (ذلكم بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وفيه إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
 أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن
 مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
 تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر ، فإن قيل : قال في الآية الأولى (لا يفقهون) وفي الأخرى (لا يعلمون) فما الحكمة فيه ؟ فنقول : ليعلم بالأول فلة كياستهم وفهمهم ، والثاني كثرة حماقتهم وجهلهم ، ولا يفقهون من فقه يفقه ، كعلم يعلم ، ومن فقه يفقه : كعظم يعظم ، والأول لحصول الفقه بالتكلف والثاني لا بالتكلف ، فالأول علاجي ، والثاني مزاجي .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون ﴾ (لا تلهكم) لا تشغلكم كما شغلت المنافقين ، وقد اختلف المفسرون منهم من قال : نزلت في حق المنافقين ، ومنهم من قال في حق المؤمنين ، وقوله (عن ذكر الله) عن فرائض الله تعالى نحو الصلاة والزكاة والحج أو عن طاعة الله تعالى وقال الضحاك : الصلوات الخمس ، وعند مقاتل : هذه الآية وما بعدها خطاب للمنافقين الذين أفرؤ بالإيمان (ومن يفعل ذلك) أى ألهاه ماله وولده عن ذكر الله (فأولئك هم الخاسرون) أى في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخصيس القماني وقيل هم الخاسرون في إنكار ما قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوحيد والبعث .

وقال الكلبي الجهاد ، وقيل هو القرآن وقيل هو النظر في القرآن والتفكير والتأمل فيه (وأنفقوا بما رزقناكم) قال ابن عباس يريد زكاة المال ومن للتبعض ، وقيل المراد هو الإنفاق الواجب (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) أى دلائل الموت وعلاماته فيسأل الرجعة إلى الدنيا وهو قوله (رب لولا أخرتني إلى أجل قريب) وقيل حضهم على إدامة الذكر ، وأن لا يعضنوا بالأموال ، أى هلا أمهلتني وأخرت . أجل إلى زمان قليل ، وهو الزيادة في أجله حتى يتصدق وينزكي وهو

قوله تعالى (فأصدق وأكن من الصالحين) قال ابن عباس هذا دليل على أن القوم لم يكونوا مؤمنين إذ المؤمن لا يسأل الرجعة . وقال الضحاك لا ينزل بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة الموت إلا وسأل الرجعة وقرأ هذه الآية ، وقال صاحب الكشاف من قبل أن يعاين ما يبأس معه من الإهمال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الانفاق ، ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعض أناله على فقد ما كان متمكناً منه ، وعن ابن عباس تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل وقوله (وأكن من الصالحين) قال ابن عباس أحج وقرى . فأكون وهر على لفظ فأصدق وأكون ، قال المبرد وأكون على ما قبله لأن قوله (فأصدق) جواب للاستفهام الذى فيه التمنى والجزم على موضع الفاء ، وقرأ أبى فأصدق على الاصل وأكن عطفاً على موضع فأصدق : وأنشد سيديه أبياتاً كثيرة فى الحمل على الموضع منها :

[معاوى [ننا بشر فأصبح] فلسنا بالجبال ولا الحديد

فصب الحديد عطفاً على المحل والباء فى قوله : بالجبال ، للتأكيد لا لمعنى مستقبل يجوز حذفه وعكسه قول ابن أبى سلى :

بدالى أنى لست مدرك ماضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائئاً

توهم أنه قال بمدرك فعطف عليه قوله سابق ، عطفاً على المفهوم ، وأما قراءة أبى عمرو (وأكون) فإنه حمله على اللفظ دون المعنى ، ثم أخبر تعالى أنه لا يؤخر من انقضت مدته وحضر أجله فقال (وان يؤخر الله نفساً) يعنى عن الموت إذا جاء أجلها ، قال فى الكشاف هذا نقي للتأخير على وجه التأكيد الذى معناه منافاة المنفى ، وبالجملة فقوله (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم) تنبيه على الذكرك قبل الموت (وأنفقوا مما رزقناكم) تنبيه على الشكر لذلك وقوله تعالى (والله خير بما تعملون) أى لو رد إلى الدنيا ما زكى ولا حج ، ويكون هذا كقوله (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) والمفسرون على أن هذا خطاب لجامع لكل عمل خيراً أو شراً وقرأ عاصم يعملون بالياء على قوله (ولن يؤخر الله نفساً) لأن النفس وإن كان واحداً فى اللفظ ، فالمراد به الكثير فحمل على المعنى والله أعلم وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

(٦٤) سُوْرَةُ التَّغَابِنِ مَكْنِيَّةٌ
وَأَيُّهَا تَمَانِي عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبِحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ﴾
وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمنافقين
الصادقين ، وأيضاً تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سراً وعلانية ، وهذه السورة على
ما هو التهديد البالغ لهم ، وهو قوله تعالى (يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما
تعلمون والله علیم بذات الصدور) وأما الأول بالآخر فلأن في آخر تلك السورة التنبية على الذكر
والشكر كما مر ، وفي أول هذه إشارة إلى أنهم إن أعرضوا عن الذكر والشكر ، قلنا من الخلق قوم
يواظبون على الذكر والشكر دائماً ، وهم الذين يسبحون ، كما قال تعالى (يسبح لله ما في السموات
في الأرض) ، وقوله تعالى (له الملك وله الحمد) إذا سبح لله ما في السموات وما
في الأرض فله الملك وله الحمد ، ولما كان له الملك فهو متصرف في ملكه والتصرف مفتقر إلى
القدرة فقال (والله على كل شيء قدير) وقال في الكشاف قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى
اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك لأن الملك في الحقيقة له لأنه مبدى لكل شيء ومبدعه
والقائم به والمهيمن عليه ، كذلك الحمد فإن أصول النعم وفروعها منه ، وأما ملك غيره فتسليط
منه واسترعاء ، وحده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده ، وقوله تعالى (وهو على كل شيء قدير)
قيل معناه وهو على كل شيء أرادته قدير ، وقيل قدير يفعل ما يشاء بقدر ما يشاء لا يزيد عليه
ولا ينقص . وقد مر ذلك ، وفي الآية مباحث :

(الأول) أنه تعالى قال في الحديد (سبح) والحشر والصف كذلك ، وفي الجمعة والتغابن
(يسبح لله) فما الحكمة فيه ؟ نقول الجواب عنه قد تقدم .

(البحث الثاني) قال في موضع (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) وفي موضع

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢١﴾
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ۗ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ
 ﴿٢٢﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِّذَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾

آخر (سبح لله ما في السموات والأرض) فما الحكمة فيه ؟ قلنا الحكمة لا بد منها ، ولا نعلمها كما هي ، لكن نقول ما يخطر بالبال ، وهو أن مجموع السموات والأرض شيء واحد ، وهو عالم مؤلف من الأجسام الفلكية والعنصرية ، ثم الأرض من هذا المجموع شيء والباقي منه شيء آخر ، فقوله تعالى (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) بالنسبة إلى هذا الجزء من المجموع وبالنسبة إلى ذلك الجزء منه كذلك ، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال ، قال تعالى في بعض السور كذا وفي البعض هذا ليعلم أن هذا العالم الجسماني من وجه شيء واحد ، ومن وجه شيئين بل أشياء كثيرة ، والخلق في المجموع غير ما في هذا الجزء ، وغير ما في ذلك أيضاً ولا يلزم من وجود الشيء في المجموع أن يوجد في كل جزء من أجزائه إلا بدليل منفصل ، فقوله تعالى (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) على سبيل المبالغة من جملة ذلك الدليل لما أنه يدل على تسبيح ما في السموات وعلى تسبيح ما في الأرض ، كذلك بخلاف قوله تعالى (سبح لله ما في السموات والأرض) .

ثم قال تعالى ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر أو منكم مؤمن ﴾ والله بما تعملون بصير ، خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ، يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴿ قال ابن عباس ﴾ رضي الله عنهما لأنه تعالى خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً ، وقال عطاء إنه يريد فمنكم مصدق ، ومنكم جاحد ، وقال الضحاك مؤمن في العلانية كافر في السر كالمناق ، وكافر في العلانية مؤمن في السر كعمار بن ياسر ، قال الله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وقال الزجاج فمنكم كافر بأنه تعالى خلقه ، وهو من أهل الطبايع والدهرية ، ومنكم مؤمن بأنه تعالى خلقه كما قال (قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه) وقال (أكفرت بالذي خلقك من تراب ، ثم من نطفة) وقال أبو إسحاق : خلقكم في بطون أمهاتكم كفاراً ومؤمنين ، وجاء في بعض التفاسير أن يحيى خلق في بطن أمه مؤمناً وفرعون خلق في بطن أمه كافراً ، دل عليه قوله تعالى (إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله) وقوله تعالى (والله بما تعملون بصير) أي عالم بكفركم

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وإيمانكم للذين من أعمالكم ، والمعنى أنه تعالى تفضل عليكم بأصل النعم التي هي الخلق فانظروا النظر الصحيح وكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين ، فما فعلتم مع تمسكنكم بل تفرقتم فرقاً فنكم كافر ومنكم مؤمن وقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق) أي بالإرادة القيمة على وفق الحكمة ، ومنهم من قال بالحق ، أي للحق ، وهو البعث ، وقوله (وصوركم فأحسن صوركم) يحتمل وجهين (أحدهما) أحسن أي أتقن وأحكم على وجه لا يوجد بذلك الوجه في الغير ، وكيف يوجد وقد وجد في أنفسهم من القوى الدالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته دلالة مخصوصة لحسن هذه الصورة (وثانيهما) أن نصرف الحسن إلى حسن المنظر ، فإن من نظر في قد الإنسان وقامته وبالنسبة بين أعضائه فقد علم أن صورته أحسن صورة وقوله تعالى (وإليه المصير) أي البعث وإنما أضافه إلى نفسه لأنه هو النهاية في خلقهم والمقصود منه ، ثم قال تعالى (وصوركم فأحسن صوركم) لأنه لا يلزم من خلق الشيء أن يكون مصوراً بالصورة ، ولا يلزم من الصورة أن تكون على أحسن الصور ، ثم قال (وإليه المصير) أي المرجع ليس إلا ، وقوله تعالى (يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما يعلنون والله عليم بذات الصدور) نبه بعلمه ما في السموات والأرض ، ثم بعلمه ما يسره العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه ما في الصدور من الكليات والجزئيات على أنه لا يخفى عليه شيء ، لما أنه تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة البتة أزلاً وأبداً ، وفي الآية مباحث :

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى حكيم ، وقد سبق في علمه أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ، والإصرار عليه فأى حكمة دعت إلى خلقهم ؟ نقول إذا علمنا أنه تعالى حكيم ، علمنا أن أفعاله كلها على وفق الحكمة ، وخلق هذه الطائفة فعله ، فيكون على وفق الحكمة ، ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لا يكون كذلك بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة .

﴿ الثاني ﴾ قال (وصوركم فأحسن صوركم) وقد كان من أفراد هذا النوع من كان مشوه الصورة سمج الحلقة ؟ نقول : لا سماجة ثمة لكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب فلا انحطاط لبعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطاً يئس لا يظهر حسنه ، وإلا فهو داخل في حيز الحسن غير خارج عن حده .

﴿ الثالث ﴾ قوله تعالى (وإليه المصير) يوم الانتقال من جانب إلى جانب ، وذلك لا يمكن إلا أن يكون الله في جانب ، فكيف هو ؟ قلت ذلك الوهم بالنسبة إلينا وإلى زماننا لا بالنسبة إلى ما يكون في نفس الأمر ، فإن نفس الأمر بمعزل عن حقيقة الانتقال من جانب إلى جانب إذا كان المنتقل إليه منزهاً عن الجانب وعن الجهة .

ثم قال تعالى ﴿ ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، ذلك

﴿ ذَلِكُ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات . فقالوا أبشرون يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ، زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير . اعلم أن قوله (ألم يأتكم نبا الذين كفروا) خطاب لكفار مكة وذلك إشارة إلى الويل الذى ذاقوه فى الدنيا وإلى ما أعد لهم من العذاب فى الآخرة . فقوله (فذاقوا وبال أمرهم) أى شدة أمرهم مثل قوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وقوله (ذلك بأنه) أى بأن الشأن والحديث أنكروا أن يكون الرسول بشراً . ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً فكفروا وتولوا ، وكفروا بالرسول وأعرضوا واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم من الأزل ، وقوله تعالى (والله غنى حميد) من جملة ما سبق ، والحميد بمعنى المحمود أى المستحق للحمد بذاته ويكون بمعنى الحامد ، وقوله تعالى (زعم الذين كفروا) قال فى الكشاف : الزعم ادعاء العلم ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « زعموا مطية الكذب » وعن شريح لكل شىء كنية وكنية الكذب زعموا ، ويتعدى إلى مفعولين ، تعدى العلم ، قال الشاعر ولم أزعمك عن ذلك معزولا

والذين كفروا هم أهل مكة (بلى) إثبات لما بعد أن وهو البعث وقيل قوله تعالى (قل بلى وربى) يحتمل أن يكون تعليماً للرسول صلى الله عليه وسلم ، أى يعلمه القسم تأكيدياً لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم فى القرآن وقوله تعالى (وذلك على الله يسير) أى لا يصرفه صارف ، وقيل إن أمر البعث على الله يسير ، لأنهم أنكروا البعث بعد أن صاروا تراباً ، فأخبر أن إعادتهم أهون فى العقول من إنشائهم ، وفى الآية مباحث :

(الأول) قوله (فكفروا) يتضمن قوله (وتولوا) فما الحاجة إلى ذكره ؟ نقول إنهم كفروا وقالوا (أبشرون يهدوننا) وهذا فى معنى الإنكار والإعراض بالكلية ، وذلك هو التولى ، فكأنهم كفروا وقالوا تولا يدل على التولى ، ولهذا قال (فكفروا وتولوا) .

(الثانى) قوله (وتولوا واستغنى الله) يوم وجود التولى والاستغناء معاً ، والله تعالى لم يزل غنياً ، قال فى الكشاف معناه أنه ظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك .

(الثالث) كيف يفيد القسم فى إخباره عن البعث وهم قد أنكروا رسالته . نقول إنهم

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

وإن أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون أنه يعتقد ربه اعتقاداً لا مزيد عليه فيعملون أنه لا يقدم
على القسم بربه إلا وأن يكون صدق هذا الإخبار أظهر من الشمس عنده وفي اعتقاده ، والفائدة
في الإخبار مع القسم ليس إلا هذا ، ثم إنه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم .

ولما بالغ في الإخبار عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الإيمان قال :

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير ، يوم يجمعكم ليوم الجمع
ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار
خالدين فيها وبئس المصير ﴾ .

قوله (فآمنوا) يجوز أن يكون صلة لما تقدم لأنه تعالى لما ذكر ما نزل من العقوبة بالآثم
الماضية ، وذلك لكفرهم بالله وتكذيب الرسل قال (فآمنوا) أتم (بالله ورسوله) لئلا ينزل
بكم ما نزل بهم من العقوبة (والنور الذي أنزلنا) وهو القرآن فإنه يهتدى به في الشبهات كما يهتدى
بالنور في الظلمات ، وإنما ذكر النور الذي هو القرآن لما أنه مشتمل على الدلالات الظاهرة
على البعث ، ثم ذكر في الكشف أنه عنى برسوله والنور محمداً ﷺ والقرآن (والله بما تعملون خبير)
أي بما تسرون وما تعلمون فراقبه وخافوه في الحالين جميعاً وقوله تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع)
يريد به يوم القيامة جمع فيه أهل السموات وأهل الأرض ، و (ذلك يوم التغابن) والتغابن تفاعل
من الغبن في المجازاة والتجارات ، يقال غبنه يغبنه غبناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته ، قال ابن
عباس رضي الله عنهما : إن قوماً في النار يعدبون وقوماً في الجنة يتنعمون ، وقيل هو يوم يغبن فيه
أهل الحق ، أهل الباطل ، وأهل الهدى أهل الضلالة ، وأهل الإيمان . أهل الكفر ، فلا غبن أبين
من هذا ، وفي الجملة فالغبن في البيع والشراء وقد ذكر تعالى في حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى ، ثم ذكر أنهم ما رحمت تجارتهم ودل المؤمنين على تجارة رابحة ، فقال (هل أدلكم على تجارة) الآية ، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة فخرت صفقة الكفار ورحمت صفقة المؤمنين ، وقوله تعالى (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً) يؤمن بالله على ما جاءت به الرسل من الحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك ، ويعمل صالحاً أى يعمل فى إيمانه صالحاً إلى أن يموت ، قرى ، يجمعكم ويكفر ويدخل بالياء والنون ، وقوله (والذين كفروا) أى بوحداية الله تعالى وبقدرته (وكذبوا بآياتنا) أى بآياته الدالة على البعث (أولئك أصحاب النار خالدون فيها وبئس المصير ، ثم فى الآية مباحث :

(الأول) قال (فآمنوا بالله ورسوله) بطريق الإضافة ، ولم يقل ونوره الذى أنزلنا بطريق الإضافة مع أن النور ههنا هو القرآن والقرآن كلامه ومضاف إليه ؟ نقول الألف واللام فى النور بمعنى الإضافة كأنه قال ورسوله ونوره الذى أنزلنا .

(الثانى) بم انتصب الظرف ؟ نقول : قال الزجاج بقوله (لتبعثن) وفى الكشف بقوله (لتنبؤن) أو بخير لما فيه من معنى الوعيد . كأنه قيل والله معاقبكم يوم يجمعكم أو باضمار اذكر .

(الثالث) قال تعالى فى الإيمان (ومن يؤمن بالله) بلفظ المستقبل ، وفى الكفر وقال (والذين كفروا) بلفظ الماضى ، فنقول : تقدر الكلام : ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار .

(الرابع) قال تعالى (ومن يؤمن) بلفظ الواحد و (خالدون فيها) بلفظ الجمع ، نقول : ذلك بحسب اللفظ ، وهذا بحسب المعنى .

(الخامس) ما الحكمة فى قوله (وبئس المصير) بعد قوله (خالدون فيها) وذلك ببئس المصير فنقول : ذلك وإن كان فى معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح بما يؤكده .

ثم قال تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ، الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ :

قوله تعالى (إلا بإذن الله) أى بأمر الله قاله الحسن ، وقيل بتقدير الله وقضائه ، وقيل بإرادة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدَوِّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ رَءِيسُ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا

الله تعالى ومشيمته ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما بعلمه وقضائه وقوله تعالى (يهد قلبه) أى عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط ، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع ، فذلك قوله (يهد قلبه) أى للتسليم لأمر الله ، ونظيره قوله (الذين إذا أصابهم مصيبة) إلى قوله (أولئك هم المهتدون) ، قال أهل المعاني يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى وقرىء (يهد قلبه) بالنون وعن عكرمة (يهد قلبه) بفتح الدال وضم الياء ، وقرىء (يهدأ) قال الزجاج هدأ قلبه يهدأ إذا سكن ، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل سفه نفسه (والله بكل شىء عليم) يحتتمل أن يكون إشارة إلى اطمان القلب عند المصيبة ، وقيل (عليم) بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما جاء به من عند الله يعنى هونوا المصائب والنوازل واتبعوا الأوامر الصادرة من الله تعالى ، ومن الرسول فيما دعاكم إليه .

وقوله ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه (فإلى الرسول إلا البلاغ) الظاهر والبيان البائن ، وقوله (الله لا إله إلا هو) يحتتمل أن يكون هذا من جملة ما تقدم من الأوصاف الحميدة لحضرة الله تعالى من قوله (له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) فإن من كان موصوفاً بهذه الصفات ونحوها (فهو الذى لا إله إلا هو) أى لا معبود إلا هو ولا مقصود إلا هو عليه التوكل فى كل باب ، وإليه المرجع والمآب ، وقوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) بيان أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه ، ولا يتقوى إلا به لما أنه يعتقد أن القادر بالحقيقة ليس إلا هو ، وقال فى الكشاف هذا بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه والتقوى به فى أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ، فإن قيل كيف يتعلق (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) بما قبله ويتصل به ؟ نقول يتعلق بقوله تعالى (فأمنوا بالله ورسوله) لما أن من يؤمن بالله فيصدقته يعلم ألا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله .

ثم قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدَوِّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ،

وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾

فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴿٢٧﴾ قال الكلبي كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته . فقالوا أنت تذهب ونذرنا ضائمين فمنهم من يطيع أهله ويقيم خذرم الله طاعة نساءهم وأولادهم ، ومنهم من لا يطيع ويقول أما والله لو لم نهجر ويجمع الله بيننا وبينكم في دار الهجرة لا ننفقكم شيئاً أبداً ، فلما جمع الله بينهم أمرهم أن ينفقوا ويحسنوا ويتفضلوا ، وقال مسلم الخراساني ، نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان أهله وولده يثبطونه عن الهجرة والجهاد ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية ، فقال هؤلاء رجال من أهل مكة أسلبوا وأرادوا أن يأتوا المدينة فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم فهو قوله (عدوا لكم فاحذروهم) أن تطيعوا وتدعوا الهجرة ، وقوله تعالى (وإن تعفوا وتصفحوا) قال هو أن الرجل من هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا بالهجرة وفقهوا في الدين هم أن يعاقب زوجته وولده الذين منعوه الهجرة . وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم ، ولم يصبهم بخير فنزل (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا) الآية ، يعني أن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ، ينهون عن الإسلام ويثبطون عنه وهم من الكفار فاحذروهم ، فظهر أن هذه العداوة إنما هي للكفر والنهي عن الإيمان ، ولا تكون بين المؤمنين فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدواً لهم ، وفي هؤلاء الأزواج والأولاد الذين منعوا عن الهجرة نزل (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) قال ابن عباس رضي الله عنهما ، لا تطيعوهم في معصية الله تعالى وفتنة أي بلاء وشغل عن الآخرة ، وقيل أعلم الله تعالى أن الأموال والأولاد من جميع ما يقع بهم في الفتنة وهذا عام يعم جميع الأولاد ، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه وبأشرف الفعل الحرام لأجله ، كغصب مال الغير وغيره (والله عنده أجر عظيم) أي جزيل ، وهو الجنة أخبر أن عنده أجر عظيم . ليتحملوا المؤونة العظيمة ، والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم . وقوله تعالى (اتقوا الله ما استطعتم) قال مقاتل أي ما أطقتم يجتهد المؤمن في تقوى الله ما استطاع ، قال قتادة نسخت هذه الآية ، قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) ومنهم من طعن فيه وقال لا يصح لأن قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعون لأنه فوق الطاقة والاستطاعة ، وقوله (اسمعوا) أي لله ورسوله ولكتابه وقيل لما أمركم الله ورسوله به (وأطيعوا الله) فيما يأمركم (وأنفقوا) من أموالكم في حق الله خيراً لأنفسكم ، والنصب بقوله (وأنفقوا) كأنه قيل وقدوا خيراً لأنفسكم ، وهو

إِن تَقْرُضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْ لَكُم وَيَغْفِرْ لَكُم وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ

عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

كقوله (فأمنوا خيراً لكم) وقوله تعالى (ومن يوق شح نفسه) الشح هو البخل ، وإنه يعم المال وغيره ، يقال فلان شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف ، وقيل يوق ظلم نفسه فالشح هو الظلم ، ومن كان بمعزل عن الشح فذلك من أهل الفلاح فإن قيل إنما أهوالكم وأولادكم فتنه ، يدل على أن الأموال والأولاد كلها من الأعداء (وإن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) يدل على أن بعضهم من الأعداء دون البعض ، فنقول هذا في حيز المنع فإنه لا يلزم أن يكون البعض من المجموع الذي مر ذكره من الأولاد يعني من الأولاد من يمنع ومنهم من لا يمنع ، فيكون البعض منهم عدواً دون البعض .

قوله تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ .

اعلم أن قوله (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً) أى إن تنفقوا في طاعة الله متقاربين إليه يجزكم بالضعف لما أنه (شكور) يحب المتقربين إلى حضرته (حلیم) لا يعجل بالعقوبة (غفور) يغفر لكم ، والقرض الحسن عند بعضهم هو التصدق من الحلال ، وقيل هو التصدق بطيبة نفسه ، والقرض هو الذى يرجى مثله وهو الثواب مثل الاتفاق فى سبيل الله ، وقال فى الكشاف ذكر القرض تطف في الاستدعاء وقوله (يضاعفه لكم) أى يكتب لكم بالواحدة عشرة وسبعمائة إلى ما شاء من الزيادة وقرى . يضاعفه (شكور) مجاز أى يفعل بكم ما يفعل المبالغ فى الشكر من عظيم الثواب وكذلك (حلیم) يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسىء فلا يعاجلكم بالعذاب مع كثرة ذنوبكم ، ثم لقائل أن يقول هذه الأفعال مفتقرة إلى العلم والقدرة ، والله تعالى ذكر العلم دون القدرة فقال عالم الغيب ، فنقول قوله (العزيز) يدل على القدرة من عز إذا غلب (والحكيم) على الحكمة ، وقيل العزيز الذى لا يعجزه شيء ، والحكيم الذى لا يلحقه الخطأ فى التدبير ، والله تعالى كذلك فيكون عالماً قادراً حكماً جل ثناؤه وعظم كبرياؤه ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

(٦٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّانَهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ﴾
أما التعلق بما قبلها فذلك أنه تعالى قال في أول تلك السورة (له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) والملك يفتقر إلى التصرف على وجه يحصل منه نظام الملك ، والحمد يفتقر إلى أن ذلك التصرف بطريق العدل والإحسان في حق المتصرف فيه وبالقدرة على من يمنعه عن التصرف وتقرير الأحكام في هذه السورة متضمن لهذه الأمور المفتقرة إليها تضمناً لا يفتقر إلى التأمل فيه ، فيكون لهذه السورة نسبة إلى تلك السورة ، وأما الأول بالآخر فلأنه تعالى أشار في آخر تلك السورة إلى كمال علمه بقوله (عالم الغيب) وفي أول هذه السورة إلى كمال علمه بمصالح النساء وبالأحكام المخصوصة بطلاقهن ، فكأنه بين ذلك الكلي بهذه الجزائيات ، وقوله (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة فأتت إلى أهلها فزلت ، وقيل راجعاً فإنها صوامة قوامة . وعلى هذا إنما نزلت الآية بسبب خروجها إلى أهلها لما طلقها النبي صلى الله عليه وسلم فأُنزل الله في هذه الآية (ولا يخرجن من بيوتهن) وقال الكلبي إنه عليه السلام غضب على حفصة لما أسر إليها حديثاً فأظهرته لعائشة فطلقها تطليقة فنزلت ، وقال السدي : نزلت في عبد الله بن عمر لما طلق امرأته حائضاً والقصة في ذلك مشهورة وقال مقاتل : إن رجالاً فعلوا مثل ما فعل ابن عمر ، وهم عمرو بن سعيد بن العاص وعتبة بن غزوان فنزلت فيهم ، وفي قوله تعالى (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) وجهان (أحدهما) أنه نادى النبي صلى الله عليه وسلم ثم خاطب أمته لما أنه سيدهم وقديتهم ، فاذا خاطب الخطاب الجمع كانت أمته داخلية في ذلك الخطاب . قال أبي إسحق هذا خطاب النبي عليه السلام ، والمؤمنون داخلون معه في الخطاب (وثانيهما) أن المعنى يا أيها النبي قل لهم إذا طلقتم النساء فأضمر القول ، وقال الفراء : خاطبه وجعل الحكم للجميع ، كما تقول للرجل ويحك أما تتقون الله أما تستحيون ، تذهب إليه وإلى أهل بيته (وإذا طلقتم) أي إذا أردتم التطلق ، كقوله (إذا قمتم إلى الصلاة) أي إذا أردتم

الصلاة ، وقد مر الكلام فيه ، وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) قال عبد الله : إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته ، فيطلقها طاهراً من غير جماع ، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل والحسن ، قالوا أمر الله تعالى الزوج بتطبيق امرأته إذا شاء الطلاق في طهر لم يجامعها فيه ، وهو قوله تعالى (لعدتهن) أى لزمان عدتهن ، وهو الطهر بإجماع الأمة ، وقيل لإظهار عدتهن ، وجماعة من المفسرين قالوا : الطلاق للعدة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، وبالجملة ، فالطلاق في حال الطهر لازم ، وإلا لا يكون الطلاق سنياً ، والطلاق في السنة إنما يتصور في البالغة المدخول بها غير الآيسة ، والحامل إذ لا سنة في الصغير وغير المدخول بها ، والآيسة والحامل ، ولا بدعة أيضاً لعدم العدة بالإفراء ، وليس في عدد الطلاق سنة وبدعة ، على مذهب الشافعي حتى لو طلقها ثلاثاً في طهر صحيح لم يكن هذا بدعياً بخلاف ما ذهب إليه أهل العراق ، فإنهم قالوا : السنة في عدد الطلاق أن يطلق كل طلقة في طهر صحيح . وقال صاحب النظم : فطلقوهن لعدتهن صفة للطلاق ، كيف يكون ، وهذه اللام تجيء لمعان مختلفة للإضافة وهي أصلها ، وليبيان السبب والعلة كقوله تعالى (إنما نطعمكم لوجه الله) وبمنزلة عند مثل قوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أى عنده ، وبمنزلة في مثل قوله تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) وفي هذه الآية بهذا المعنى ، لأن المعنى فطلقوهن في عدتهن ، أى في الزمان الذي يصلح لعدتهن) فقال صاحب الكشاف (فطلقوهن) مستقبلات (لعدتهن) كقوله : أتيته ليلية بقيت من المحرم أى مستقبلها ، وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : من قبل عدتهن فإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرانها فقد طلقت مستقبله العدة ، المراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه ، يخلين إلى أن تقتضى عدتهن ، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده من الندم ويدل عليه ما روى عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحيون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تقتضى العدة وما كان أخس عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات ، وقال مالك بن أنس لا أعرف طلاقاً إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث بجموعة كانت أو متفرقة ، وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : ما هكذا أمرك الله تعالى إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة . وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح . فمالك يراعى في طلاق السنة الواحدة والوقت ، وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعي يراعى الوقت وحده ، وقوله تعالى (وأحصوا العدة) أى أقرانها فاحفظوا لها واحفظوا الحقوق والأحكام التي يجب في العدة واحفظوا نفس ما تعتدون به وهو عدد الحيض ، ثم جعل الإحصاء إلى الأزواج يحتمل وجهين (أحدهما) أنهم هم الذين يلزمهم الحقوق والمؤن (وثانيهما) ليقع

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ
مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ

تحسين الأولاد في العدة، ثم في الآية مباحث :

(الأول) ما الحكمة في إطلاق السنة وإطلاق البدعة؟ نقول إنما سمي بدعة لأنها إذا كانت حائضاً لم تعدد أيام حيضها عن عدتها بل تزيد على ثلاثة أشهر فتطول العدة عليها حتى تصير كأنها أربعة أشهر وهي في الحيض الذي طلقت فيه في صورة المعلقة التي لاهي معتدة ولا ذات بعسل والعقول تستقيم الإضرار ، وإذا كانت طاهرة بجامعة لم يؤمن أن قد علفت من ذلك الجمع بولد ولو علم الزوج لم يطلقها ، وذلك أن الرجل قد يرغب في دلاق امرأته إذا لم يكن بينهما ولد ولا يرغب في ذلك إذا كانت حاملاً منه بولد ، فإذا طلقها وهي بجامعة وعنده أنها حائض في ظاهر الحال ثم ظهر بها حمل ندم على طلاقها فني طلاقه إياها في الحيض سوء نظر للمرأة ، وفي الطلاق في الطهر الذي جامعها فيه وقد حملت فيه سوء نظر للزوج ، فإذا طلقت وهي طاهر غير بجامعة أمن هذان الأمران ، لأنها تعدد عقب طلاقها إياها ، فنجري في الثلاثة قروء ، والرجل أيضاً في الظاهر على أمن من اشتهاها على ولد منه .

(الثاني) هل يقع الطلاق المخالف للسنة؟ نقول نعم ، وهو إثم . لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه ، فقال له «أوتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم» .
(الثالث) كيف يطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو غير ذلك؟ نقول الصغيرة والأيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة ، وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر ، وقال محمد وزفر : لا يطلق للسنة إلا واحدة . وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ، ولا يرعى الوقت .
(الرابع) هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة؟ نقول اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا ، والظاهر الكراهة .

(الخامس) إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن ، وغير المدخول بهن من ذوات الأقران ، والآيسات والصغار والحوامل ، فكيف يصح تخصيصه بذوات الأقران والمدخول بهن نقول لا عموم ثمة ولا خصوص أيضاً ، لكن النساء اسم جنس للاناث من الإنس ، وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن ، وفي بعضهن ، فجاز أن يراد بالنساء هذا وذلك . فليس قيل (نطلقوهن لعنتهن) علم أنه أطلق على بعضهن ، وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض ، كذا ذكره في الكشف .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة

اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١١﴾

مدينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لاندرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . قوله (اتقوا الله) قال مقاتل : اخشوا الله فلا تعصوه فيما أمركم (ولا تخرجوهن) أى لا تخرجوا المعتدات من المساكن التى كنتم تنسكنونهن فيها قبل الطلاق ، فإن كانت المساكن عارية فارتفعت كان على الأزواج أن يعينوا مساكن أخرى بطريق الشراء ، أو بطريق البكراء ، أو بغير ذلك ، وعلى الزوجات أيضاً أن لا يخرجن حقاً لله تعالى إلا لضرورة ظاهرة ، فإن خرجت ليلاً أو نهاراً كان ذلك الخروج حراماً ، ولا تنقطع العدة .

وقوله تعالى (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال ابن عباس : هو أن يزينن فيخرجن لإقامة الحد عليهن ، قال الضحاك الأكترون : فالفاحشة على هذا القول هى الزنا ، وقال ابن عمر : الفاحشة خروجهن قبل انقضاء العدة ، قال السدى والباقون : الفاحشة المبينة هى العصيان المبين ، وهو الشوز ، وعن ابن عباس : إلا أن يبذون فيحل إخراجهن لبذاتهن وسرء خلقتهن ، فيحل للأزواج إخراجهن من بيوتهن ، وفى الآية مباحث :

(البحث الأول) هل للأزواج التراضى على إسقاطها ؟ نقول السكنى الواجبة فى حال قيام الزوجية حق للمرأة وحدها فلها إبطالها ، ووجه هذا أن الزوجين ماداماً ثابتين على النكاح فإنما مقصودهما المعاشرة والاستمتاع ، ثم لا بد فى تمام ذلك من أن تكون المرأة مستعدة له لأوقات حاجته إليها ، وهذا لا يكون إلا بأنه يكفئها فى نفقتها ، كقطعها وشراها وأدها ولباسها وسكنائها ، وهذه كلها داخلة فى إحصاء الأسباب التى بها يتم كل ما ذكرنا من الاستمتاع ، ثم ما وراء ذلك من حق صيانة الماء ونحوها ، فإن وقعت الفرقة زال الأصل الذى هو الانتفاع وزواله بزوال الأسباب الموصلة إليه من النفقة عليها ، واحتيج إلى صيانة الماء فصارت السكنى فى هذه الحالة بوجوبها الإحصاء لأسبابها ، لأن أصلها السكنى ، لأن بها تحصيلها ، فصارت السكنى فى هذه الحالة لا اختصاص لها بالزوج ، وصيانة الماء من حقوق الله ، وبما لا يجوز التراضى من الزوجين ، على إسقاطها ، فلم يكن لها الخروج ، وإن رضى الزوج ، ولا إخراجها ، وإن رضيت ، إلا عن ضرورة مثل انهدام المنزل ، وإخراج غاصب إياها أو نقلة من دار بكراء قد انقضت إيجارها أو خوف فتنة ، أو سيل أو حريق ، أو غير ذلك من طريق الخوف على النفس ، فإذا انقضت ما أخرجت له رجعت إلى موضعها حيث كان (الثانى) قال (واتقوا الله ربكم) ولم يقل واتقوا الله مقصوراً عليه . فنقول فيه من المبالغة ما ليس فى ذلك فإن لفظ الرب يذهبهم على أن الترية التى هى الإناعام والإكرام بوجوه متعددة غاية التعداد فيبالغون فى التقوى حينئذ خوفاً من فزت تلك الآية (الثانى) ما معنى الجمع بين إخراجهم وخروجهم ؟ نقول معنى الإخراج أن لا يخرجهن

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا
ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٤٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن
يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَبَلِّغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا



البعرة غضباً عليهن وكرهية لمساكنتهن أو الحاجة لهم إلى المساكن وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طابن ذلك ، إيذاناً بأن إذهبن لا أثر له في رفع الحظر ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك . (الثالث) قرى . (بفاحشة مبينة) و (مبينة) فن قرأ مبينة بالخفض فعناه : أن نفس الفاحشة إذا تمكر فيها تبين أنها فاحشة ، ومن قرأ مبينة بفتح فعناه أنها برهنة بالبراهين ، ومبينة بالحجج ، وقوله (وتلك حدود الله) والحدود هي الموانع عن المجاوزة نحو النواهي ، والحد في الحقيقة هو النهاية التي ينهى إليها الشيء ، قال مقاتل : يعود ما ذكر من طلاق السنة وما بعده من الأحكام (ومن يتعد حدود الله) وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة ، ومن يطلق لغير العدة (فقد ظلم نفسه) أي ضر نفسه ، ولا يبعد أن يكون المعنى ومن يتجاوز الحد الذي جعله الله تعالى فقد وضع نفسه موضعاً لم يضعه فيه ربه ، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، وقوله تعالى (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) قال ابن عباس يريد الندم على طلاقها والمحبة لرجعتها في العدة وهو دليل على أن المستحب في التطليق أن يوقع متفرقاً ، قال أبو إسحق إذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد فلا معنى في قوله (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَبَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (فإذا بلغن أجلهن) أي قاربن انقضاء أجل العدة لانقضاء أجلهن ، والمراد من بلوغ الأجل هنا مقاربة البلوغ ، وقد مر تفسيره . قال صاحب الكشاف : هو آخر العدة ومشارفته ، فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة ، وإبقاء الضرر

هو أن يراجعها في آخر العدة ، ثم يطلقها تطويلاً للعدة وتعديلاً لها .

وقوله تعالى (وأشهدوا ذوى عدل منكم) أى أمروا أن يشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة ذوى عدل ، وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة ، كما فى قوله (وأشهدوا إذا تبايعتم) وعند الشافعى هو واجب فى الرجعة مندوب إليه فى الفرقة ، وقيل فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا ينهم فى إمساكها وإثلا يموت أحدهما فيدعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث ، وقيل الإشهاد إنما أمروا به للاحتياط مخافة أن تنكر المرأة المراجعة فتتقاضى العدة فتتسكح زوجها . ثم خاطب الشهداء ، فقال (وأقيموا الشهادة) وهذا أيضاً من تفسيره ، وقوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) قال الشعبي : من يطلق للعدة يجعل الله له سبيلاً إلى الرجعة ، وقال غيره ، مخرجاً من كل أمر ضاق على الناس ، قال الكلبي ومن يصبر على المصيبة يجعل الله له مخرجاً من النار إلى الجنة ، وقرأها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : مخرجاً من شهات الدنيا ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة ، وقال أكثر أهل التفسير ، أنزل هذا وما بعده فى عوف بن مالك الأشجيمى أسر العدو ابنأله فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر له ذلك وشكاً إليه الفاقة فقال له « اتق الله واصبر وأكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله » ففعل الرجل ذلك فبينما هو فى بيته إذ أتاه ابنه ، وقد غفل عنه العدو ، فأصاب إبلا وجاء بها إلى أبيه ، وقال صاحب الكشاف ، فبينما هو فى بيته ، إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها ، فذلك قوله (ويرزقه من حيث لا يحتسب) ويجوز أنه إن اتق الله وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه إن كان ذا ضيق (ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقال فى الكشاف (ومن يتق الله) جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة كما مر . وقوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى من وثق به فيما ناله كفاه الله ما أهمه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » وقرئ (إن الله بالغ أمره) بالإضافة (وبالغ أمره) أى نافذ أمره ، وقرأ المفضل بالغاً أمره ، على أن قوله قد جعل خبر إن ، وبالغاً حال . قال ابن عباس يريد فى جميع خلقه . والمعنى سيبلغ الله أمره فيما يريد منكم (وقد جعل الله لكل شىء قدراً) أى تقديراً وتوقيتاً ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه ، قال الكلبي ومقاتل لكل شىء من الشدة والرخاء أجل ينهى إليه قدر الله تعالى ذلك كله لا يقدم ولا يؤخر . وقال ابن عباس يريد قدرت ما خلقت بمشيئتي ، وقوله (فإذا بلغن أجلهن) أى قوله (مخرجاً) آية ومنه إلى قوله (قدراً) آية أخرى عند الأكثر ، وعند الكوفي والمدنى المجموع آية واحدة ثم فى هذه الآية (لطيفة) وهى أن القرى فى رعاية أحوال النساء مفتقرة إلى المال ، فقال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) وقريب من هذا قوله (إن يكرنوا فقراء يغنهم الله من فضله) فإن قيل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) يدل على عدم الاحتياج للكسب فى طلب الرزق ، وقوله تعالى

وَاللَّاتِي يَئْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ

وَاللَّاتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ

يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ

عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) يدل على الاحتياج فكيف هر؟
نقول لا يدل على الاحتياج ، لأن قوله (فانتشروا وابتغوا من فضل الله) للإباحة كما مر والإباحة
ما يتنافى الاحتياج إلى الكسب لما أن الاحتياج منافي للتخيير .

ثم قال تعالى ﴿ وَاللَّاتِي يئسن من المحيض من نسايتكم إن ارتبتم فعدتھن ثلاثة أشهر واللاتي لم
يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ، ذلك أمر
الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ قوله (واللاتي يئسن من المحيض)
الآية ، ذكر الله تعالى في سورة البقرة عدة ذوات الإقراء والمتوفى عنها زوجها وذكر عدة سائر
النسوة اللاتي لم يذكرن هناك في هذه السورة ، وروى أن معاذ بن جبل ، قال يا رسول الله قد
عرفنا عدة التي تحيض ، فما عدة التي لم تحض فنزل (واللاتي يئسن من المحيض) وقوله (إن ارتبتم)
أى إن أشكل عليكم حملهن في عدة التي لا تحيض ، فهذا حكمهن ، وقيل إن ارتبتم في البالغات
مبلغ الإياس - وقد قدره بستين سنة وبخمس وخمسين - أهو دم حيض أو استحاضة (فعدتھن
ثلاثة أشهر) فلما نزل قوله تعالى (فعدتھن ثلاثة أشهر) قام رجل فقال : يا رسول الله فما عدة الصغيرة
التي لم تحض ؟ فنزل (واللاتي لم يحضن) أى هي بمنزلة الكبيرة التي قد يئست عدتها ثلاثة أشهر ، فقام
آخر وقال ، وما عدة الحوامل يا رسول الله ؟ فنزل (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن)
معناه أجلهن في انقطاع ما يبينهن وبين الأزواج وضع الحمل ، وهذا عام في كل حامل ، وكان على عليه
السلام يعتبر أبعد الأجلين ، ويقول (واللذين يتوفون منكم) لا يجوز أن يدخل في قوله (وأولات
الأحمال) وذلك لأن أولات الأحمال إنما هو في عدة الطلاق ، وهي لا تنقض عدة الوفاة إذا كانت
بالحيض ، وعند ابن عباس عدة الحامل المتوفى عنها زوجها أبعد الأجلين . وأما ابن مسعود فقال :
يجوز أن يكون قوله (وأولات الأحمال) مبتدأ خطاب ليس بمعطوف على قوله تعالى (واللاتي يئسن)
ولما كان مبتدأ يتناول للعدد كلها ، وما يد عليه خبر سيعة بنت الحرث أنها وضعت حملها بعد وفاة
زوجها بخمسة عشر يوماً ، فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتزوج ، فدل على إباحة النكاح

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ
 وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمَلٍ فَانْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ
 أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِستَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ
 ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
 نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

قبل مضي أربعة أشهر وعشر ، على أن عدة الحامل تنقضي بوضع الحمل في جميع الأحوال . وقال
 الحسن : إن وضعت أحد الولدين انقضت عدتها ، واحتج بقوله تعالى (أن يضعن حملهن) ولم
 يقل أحملهن ، لكن لا يصح ، وقرئ أحملهن ، وقوله (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً)
 أي ييسر الله عليه في أمره ، ويوفقه للعمل الصالح . وقال عطاء : يسهل الله عليه أمر الدنيا والآخرة ،
 وقوله (ذلك أمر الله أنزله إليكم) يعني الذي ذكر من الأحكام أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق
 الله بطاعته ، ويعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يكفر عنه سيئاته من الصلاة إلى الصلاة ،
 ومن الجمعة إلى الجمعة ، ويعظم له في الآخرة أجراً ، قاله ابن عباس ، فإن قيل قال تعالى (أجلهن
 أن يضعن حملهن) ولم يقل أن يلدن ، نقول الحمل اسم لجميع ما في بطنهن ، ولو كان كما قاله ، لكانت
 عدتهن بوضع بعض حملهن ، وليس كذلك .

ثم قال تعالى ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن ،
 وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن
 وأمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر
 عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ ،
 قوله تعالى (أسكنوهن) وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله (ومن يتق الله) كأنه
 قيل كيف يعمل بالتقوى في شأن المعتدات ، فقيل (أسكنوهن) قال صاحب الكشاف : من
 صلة ، والمعنى أسكنوهن حيث سكنتم . قال أبو عبيدة (من وجدكم) أي وسعكم وسعتكم ، وقال
 الفراء : على قدر طاقتكم ، وقال أبو إسحاق : يقال وجدت في المال وجداً ، أي صرت ذامال ،
 وقرئ بفتح الواو أيضاً وبخفضمها ، والوجد الوسع والطاقه ، وقوله (ولا تضاروهن)
 نهى عن مضارتهن بالتضييق عليهن في السكنى والنفقة (وإن كن أولات حمل

وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنِّ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا

فأنفقوا عليهم حتى يضعن حملهن) وهذا بيان حكم المطلقة الباتنة ، لأن الرجعية تستحق النفقة ، وإن لم تكن حاملا ، وإن كانت مطلقة ثلاثاً أو محتامة فلا نفقة لها ، إلا أن تكون حاملا ، وعند مالك والشافعي . ليس للبتوتة إلا السكنى ، ولا نفقة لها ، وعن الحسن وحماد لا نفقة لها ولا سكنى ، لحديث فاطمة بنت قيس ، أن زوجها بت ، طلاقها ، فقال : لها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سكنى لك ولا نفقة ، وقوله (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) يعني حق الرضاع وأجرته وقد مر ، وهو دليل على أن اللبن وإن خلق لمكان الولد فهو ملك لها وإلا لم يكن لها أن تأخذ الأجر ، وفيه دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد وحق الإمساك والحضانة والكفالة على الزوجات وإلا لكان لها بعض الأجر دون الكل ، وقوله تعالى (واتمروا بينكم بمعروف) قال عطاء : يريد بفضل معروفاً منك ، وقال مقاتل بتراضى الأب والأم ، وقال المبرد : ليأمر بوضعكم بعضاً بالمعروف ، والخطاب للأزواج من النساء والرجال ، والمعروف ههنا أن لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها ولا هي في حق الولد ورضاعه وقد مر تفسير الاثتار ، وقيل : الاثتار التشاور في إرضاعه إذا تعاسرت هي ، وقوله تعالى (وإن تعاسرتم) أى فى الأجرة (فسترضعه أخرى) غير الأم ، ثم بين قدر الإنفاق بقوله (لينفق ذو سعة من سعته) أمر أهل التوسعة أن يسعوا على نسائهم المرضعات على قدر سعتهن ومن كان رزقه بمقدار القوت فلينفق على مقدار ذلك ، ونظيره (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) وقوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) أى ما أعطاها من الرزق ، قال السدي . لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الثنى ، وقوله (سيجعل الله بعد عسر يسراً) أى بعد ضيق وشدة غنى وسعة ورخاء وكان الغالب فى ذلك الوقت الفقر والفاقة ، فأعلمهم الله تعالى أن يجعل بعد عسر يسراً وهذا كالإشارة لهم بمطلوبهم ، ثم فى الآية مباحث :

(الأول) إذا قيل من فى قوله (من حيث سكنتم) ما هى ؟ نقول هى التبعية أى بعض مكان سكننا كم إن لم يكن [لكم] غير بيت واحد فأسكنوها فى بعض جوانبه .

(الثانى) ما موقع (من وجدكم) ؟ نقول عطف بيان لقوله (من حيث سكنتم) وتفسير له ، أى مكاناً من مسكنكم على قدر طاقتكم .

(الثالث) فإذا كانت كل مطلقه عددكم يجب لها النفقة ، فما فائدة الشرط فى قوله تعالى (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن) نقول فائدته أن مدة الحمل ربما طال وقتها ، فيظن أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار مدة الحمل ، فنفى ذلك الظن .

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسوله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها

عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٥٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٥٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٦٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ مِنَ الظَّلَمَاتِ إِلَى النُّورِ

عذاباً نكراً ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ، أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً ، رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور .

قوله تعالى (وكأين من قرية) الكلام في كأين قد مر ، وقوله (عنت عن أمر ربه) وصف القرية بالعتو والمراد أهلها ، كقوله (وأسأل القرية) قال ابن عباس (عنت عن أمر ربه) أى عرضت عنه ، وقال مقاتل : خالفت أمر ربه ، وخالفت رسله ، فحاسبناها حساباً شديداً ، فحاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها العذاب ، وهو قوله (وعذبتها عذاباً نكراً) أى عذاباً منكرًا عظيمًا ، فسر المحاسبة بالتعذيب . وقال الكلبي : هذا على التقديم والتأخير ، يعنى فمذبتها في الدنيا وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ، والمراد حساب الآخرة وعذابها (فذاقت وبال أمرها) أى شدة أمرها وعقوبة كفرها . وقال ابن عباس : عاقبة كفرها (وكان عاقبة أمرها خسراً) أى عاقبة عثرها خساراً في الآخرة ، وهو قوله تعالى (أعد الله لهم عذاباً شديداً) يخوف كفار مكة أن يكذبوا محمداً فينزل بهم ما نزل بالأمم قبلهم ، وقوله تعالى (فاتقوا الله يا أولى الألباب) خطاب لاهل الإيمان ، أى فاتقوا الله عن أن تكفروا به وبرسوله ، وقوله (قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً) هو على وجهين (أحدهما) أنزل الله إليكم ذكراً ، هو الرسول ، وإنما سماه ذكراً لأنه يذكر ما يرجع إلى دينهم وعقباهم (وثانيهما) أنزل الله إليكم ذكراً ، وأرسل رسولاً . وقال في الكشف : (رسولاً) هو جبريل عليه السلام ، أبدل من ذكراً ، لأنه وصف بتلاوة آيات الله ، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر ، والذكر قد يراد به الشرف ، كما في قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وقد يراد به القرآن ، كما في قوله تعالى (وأنزلنا الذكر) وقرئ رسول على هو رسول ، ويتلو عليكم آيات الله مبينات بالخفض والنصب ، والآيات هى الحجج فبالخفض ، لأنها تبين الأمر والنهى والحلال والحرام ، ومن نصب يريد أنه تعالى أوضح آياته وبينها أنها من عنده .

وقوله تعالى (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) يعنى من ظلمة

وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوْنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ
قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

الكفر إلى نور الإيمان . ومن ظلمة الشبهة إلى نور الحقيقة ، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم .

وفي الآية مباحث :

(الأولى) قوله تعالى (فاتقوا الله يا أولى الألباب) يتعلق بقوله تعالى (وكأين من قرية عنت عن أمر ربها) أم لا ؟ فنقول : قوله (فاتقوا الله) يؤكد قول من قال : المراد من قرية أهله ، لما أنه يدل على أن خطاب الله تعالى لا يكون إلا لذرى العقول فمن لا عقل له فلا خطاب عليه ، وقيل قوله تعالى (وكأين من قرية) هشتعل على الترهيب والترغيب ،

(الثانية) الإيمان هو التقوى في الحقيقة وأولوا الألباب الذين آمنوا كانوا من المتقدمين بالضرورة فكيف يقال لهم (فاتقوا الله) ؟ نقول للتقوى درجات ومراتب فالدرجة الأولى هي التقوى من الشرك والبواقي هي التقوى من المعاصي التي هي غير الشرك فأهل الإيمان إذا أمروا بالتقوى كان ذلك الأمر بالنسبة إلى الكبار والصغار لا بالنسبة إلى الشرك .

(الثالثة) كل من آمن بالله فقد خرج من الظلمات إلى النور وإذا كان كذلك فحق هذا الكلام وهو قوله تعالى (ليخرج الذين آمنوا) أن يقال ليخرج الذين كفروا ؟ نقول يمكن أن يكون المراد : ليخرج الذين يؤمنون على ما جاز أن يراد من الماضي المستقبل كما في قوله تعالى (وإذا قال الله يا عيسى) أى وإذا يقول الله ، ويمكن أن يكون ليخرج الذين آمنوا من ظلمات تحدث لهم بعد إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ، الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ .

قوله (ومن يؤمن بالله) فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب ، وقرىء يدخله بالياء والنون ، وقد أحسن الله له رزقاً قال الزجاج رزقه الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها ، وقيل (رزقاً) أى طاعة فى الدنيا وثواباً فى الآخرة ونظيره (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) قال الكلبى خلق سبع سموات بعضها فوق بعض مثل القبة ، ومن الأرض

مثلهن في كونها طباقاً متلاصقة كما هو المشهور أن الأرض ثلاث طبقات طبقة أرضية محضة وطبقة
طينية، وهي غير محضة؛ وطبقة منكشفة بعضها في البحر وبعضها في البر وهي المعمورة، ولا بعد
في قوله (ومن الأرض مثلهن) من كونها سبعة أقاليم على حسب سبع سموات، وسبع كواكب
فيها وهي السيارة فإن لكل واحد من هذه الكواكب خواص تظهر آثار تلك الخواص في كل
أقليم من أقاليم الأرض فتصير سبعة بهذا الاعتبار، فهذه هي الوجوه التي لا ياباها العقل، وما عداها
من الوجوه المنقولة عن أهل التفسير فذلك من جملة ما ياباها العقل مثل ما يقال السموات السبع
(أولها) موج مكفوف (وثانيها) صخر (وثالثها) حديد (ورابعها) نحاس (وخامسها) فضة
(وسادسها) ذهب (وسابعها) ياقوت، وقول من قال بين كل واحدة منها مسيرة خمسمائة
سنة وغلظ كل واحدة منها كذلك، فذلك غير معتبر عند أهل التحقيق، اللهم إلا أن يكون نقل
متوتر [أ]، ويمكن أن يكون أكثر من ذلك والله أعلم بأنه ما هو وكيف هو فقوله (الله الذي خلق)
مبتدأ وخبر، وقرىء (مثلهن) بالنصب عطفًا على سبع سموات وبالرفع على الإبتداء وخبره من
الأرض: وقوله تعالى (يتنزل الأمر بينهن) قال عطاء يريد الوحي بينهن إلى خلقه في كل أرض
وفي كل سما، وقال مقاتل يعني الوحي من السماء العليا إلى الأرض السفلى، وقال مجاهد (يتنزل
الأمر بينهن) بحياة بعض وموت بعض وسلامة هذا وهلاك ذاك مثلاً وقال قتادة في كل سما
من سمواته وأرض من أرضه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه، وقرىء (ينزل
الأمر بينهن) قوله تعالى (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير) قرىء (ليعلموا) بالياء والتاء أي
لكي تعلموا إذا تكلمتم في خلق السموات والأرض، وما جرى من التدبير فيها أن من بلغت
قدرته هذا المبلغ الذي لا يمكن أن يكون لغيره كانت قدرته ذاتية لا يعجزه شيء عما أرادته وقوله
(أن الله على كل شيء قدير) من قبل ما تقدم ذكره (وقد أحاط بكل شيء علماً) يعني بكل شيء من
الكليات والجزئيات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، عالم بجميع الأشياء
وقادر على الإنشاء بعد الإفناء، فتبارك الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه
أجمعين .

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ فَلْيَتَّبِعُوا
وَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٦٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
أما التعلق بما قبلها ، فذلك لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء ، واشتراك الخطاب بالطلاق في أول تلك السورة مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة لما كان الطلاق في الأكثر من الصور أو في الكل كما هو مذهب البعض مشتملا على تحريم ما أحل الله ، وأما الأول بالآخر ، لأن المذكور في آخر تلك السورة ، يدل على عظمة حضرة الله تعالى ، كما أنه يدل على كمال قدرته وكمال علمه ، لما كان خلق السموات والأرض وما فيهما من الخرائب والعجائب مفتقرا إليهما وعظمة الحضرة بما ينافي القدرة على تحريم ما أحل الله ، ولهذا قال تعالى : (لم تحرم ما أحل الله لك) واختلفوا في الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ، قال في الكشف روى أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلبت بذلك حفصة ، فقال لها اكنمي على وقد حرمت ما رية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدى أمر أمتي ، فأخبرت به عائشة ، وكانتا متصادقتين ، وقيل : خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاهما بذلك واستكتمتا ، فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه ، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت ما رية ، وروى أن عمر قال : لها لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : راجعها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة ، وروى أنه ما طلقها وإنما نوه بطلاقها ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام شرب عسلا في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة ، فقالت له إنا نشم منك ريح المغافير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التفل لحرمة العسل ، فمغناه (لم تحرم ما أحل الله لك) من ملك اليمين ، أو من العسل ، والأول قول الحسن ومجاهد وقناة والشعبي ومسروق ورواية ثابت عن أنس قال مسروق حرم النبي صلى الله عليه وسلم أم ولده وحلف أن لا يقربها

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾
وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ

فأنزل الله تعالى هذه الآية فقليل له أما الحرام خلال ، وأما اليمين التي حلفت عليها ، فقد فرض الله لكم تحلة أيمانكم . وقال الشعبي كان مع الحرام يمين فعوتب في الحرام ، وإنما يكفر اليمين ، فذلك قوله تعالى (قد فرض الله) الآية قال صاحب النظم قوله (لم تحرم) استفهام بمعنى الإنكار والإنكار من الله تعالى نهى ، وتحريم الحلال مكروه ، والحلال لا يحرم إلا بتحريم الله تعالى وقوله تعالى (تبتغي مرضات أزواجك) وتبتغي حال خرجت مخرج المضارع والمعنى (لم تحرم) مبتغياً (مرضات أزواجك) قال في الكشف تبتغي ، أما تفسير التحريم ، أو حال أو استئناف ، وهذا زلة منه ، لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله (والله غفور رحيم) قد غفرك ما تقدم من الزلة ، رحيم قد رحمك لم يؤاخذك به ، ثم في الآية مباحث :

(البحث الأول) (لم تحرم ما أحل الله لك) يوم أن هذا الخطاب بطريق العتاب وخطاب الوصف ، وهو النبي ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم فكيف هو ؟ نقول الظاهر أن هذا الخطاب ليس بطريق العتاب بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن كما ينبغي .

(البحث الثاني) تحريم ما أحل الله تعالى غير ممكن ، لما أن الإحلال ترجيح جانب الحل والتحريم ترجيح جانب الحرمة ، ولا مجال للاجتماع بين الترجيحين فكيف يقال لم تحرم ما أحل الله ؟ نقول المراد من هذا التحريم هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج لا اعتقاد كونه حراماً بعد ما أحل الله تعالى فالنبي ﷺ امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده بكونه حلالاً ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله تعالى بعينه فقد كفر فكيف يضاف إلى الرسول ﷺ مثل هذا .

(البحث الثالث) إذا قيل ما حكم تحريم الحلال ؟ نقول اختلفت الأئمة فيه فأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيء ، ويعتبر الانتفاع المقتصد فيها محرماً ، فإذا حرم طعاماً فقد حلف على أكله أو أمة فعلياً وطئها أو زوجة فعلياً الإيلاء منها إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار فظهار ، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن وكذلك إن نوى الثنين ، وإن نوى ثلاثاً فكما نوى ، فإن قال نويت الكذب دين فبما دينه وبين ربه ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء ، وإن قال كل حلال عليه حرام فعلي الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلي ما نوى ولا يراه الشافعي يميناً ، ولكن سبباً في النساء وخدمهن ، وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده ، وأما اختلاف الصحابة فيه فكما هو في الكشف ، فلا حاجة بنا إلى ذكر ذلك .

ثم قال تعالى ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، والله مولاكم وهو العليم الحكيم ، وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه

بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مِنْ أَنْبَاءِكَ هَذَا قَالَ نَبِيُّ الْعَلِيمِ

الْخَبِيرُ ﴿٤﴾

وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنباءك هذا قال نبي العليم الخبير ﴿٤﴾ (قد فرض الله لكم) قال مقاتل : قد بين الله ، كما في قوله تعالى : (سورة أنزلناها وفرضناها) وقال الباقون قد أوجب ، قال صاحب النظم إذا وصل بعلى لم يحتمل غير الإيجاب كما في قوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم) وإذا وصل باللام احتمل الوجهين ، وقوله تعالى (تحلة أيمانكم) أى تحليلها بالكفارة وتحلة على وزن تفعلة وأصله تحلله وتحلة القسم على وجهين (أحدهما) تحليله بالكفارة كالذى في هذه الآية (وثانيهما) أن يستعمل بمعنى الشيء القليل ، وهذا هو الأكثر كما روى في الحديث «لن يبلغ النار إلا تحلة القسم» معنى زماناً يسيراً ، وقرئ كفارة أيمانكم ، ونقل جماعة من المفسرين أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف أن لا يظأ جاريتيه فذكر الله له ما أوجب من كفارة اليمين ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الحرام يمين ، يعنى إذا قال أنت على حرام ولم ينو طلاقاً ولا ظهاراً كان هذا اللفظ مرجباً لكفارة يمين والله مولاكم ، أى وليكم وناصركم وهو العليم بخلقه الحكيم فيما فرض من حكمه ، وقوله تعالى (وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً) يعنى ما أسر إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه واستكتمها ذلك : وقيل لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها فأسر إليها بشيئين تحريم الأمة على نفسه والبشارة بأن الخلافة بعده فى أبى بكر وأبيها عمر ، قاله ابن عباس وقوله (فلما نبأت به) أى أخبرت به عائشة وأظهره الله عليه أطلع نبيه على قول حفصة لعائشة فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة عند ذلك ببعض قالت وهو قوله تعالى (عرف بعضه) حفصة (وأعرض عن بعض) لم يخبرها أنك أخبرت عائشة على وجه التكرم والإغضاء ، والذي أعرض عنه ذكر خلافة أبى بكر وعمر ، وقرئ عرف مخففاً أى جازى عليه من قولك للمسيء لأعرفن لك ذلك وقد عرفت ما صنعت قال تعالى (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) أى يجازيهم وهو يعلم ما فى قلوب الخاق أجمعين وقوله تعالى (فلما نبأها به قالت) حفصة (من أنباءك هذا قال نبي العليم الخبير) وصفه بكونه خبيراً بعد ما وصفه بكونه عليماً لما أن فى الخبير من المبالغة ما ليس فى العليم ، وفى الآية مباحث :

(البحث الأول) كيف يناسب قوله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) إلى قوله (لم تحرم ما أحل الله لك)؟ نقول يناسبه لما كان تحريم المرأة يميناً حتى إذا قال لأمرأته أنت على حرام فهو يمين ويصير مولياً بذكره من بعد ويكفر .

(البحث الثانى) ظاهر قوله تعالى (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) إنه كانت منه يمين

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ
 وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿١٠١﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ
 أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِيئَاتٍ تَزِينُ لِنَفْسِكُنَّ
 سَلِيحَاتٍ نِيَّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿١٠٢﴾

فهل كفر النبي عليه الصلاة والسلام لذلك ؟ نقول عن الحسن إنه لم يكفر لأنه كان مفقوراً له
 ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين ، وعن مقاتل أنه أعتق رقبة في تحريم مارية .
 قوله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل
 وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك
 مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً ﴾ .

قوله (إن تتوبا إلى الله) خطاب لعائشة وحفصة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما
 والتوبة من التعاون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيذاء (فقد صغت قلوبكما) أى عدلت
 ومالت عن الحق ، وهو حق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك حق عظيم يوجد فيه استحقاق
 العتاب بأدنى تقصير وجواب الشرط محذوف للعلم به على تقدير : كان خيراً لكما ، والمراد بالجمع
 فى قوله تعالى (قلوبكما) التثنية ، قال الفراء : وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما يكون
 عليه الجوارح اثنان اثنان فى الإنسان كاليدين والرجلين والعينين ، فلما جرى أكثره على ذلك
 ذهب بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب الإثنين ، وقد مر هذا ، وقوله تعالى (وإن تظاهرا
 عليه) أى وإن تعاوننا على النبي صلى الله عليه وسلم بالإيذاء (فإن الله هو مولاه) أى لم يضره
 ذلك التظاهر منكما (ومولاه) أى وليه وناصره (وجبريل) رأس الكروبيين ، قرن ذكره بذكره
 مفرداً له من الملائكة تعظيماً له وإظهاراً لمكانته وصالح المؤمنين . قال ابن عباس يريد أبا بكر وعمر
 موالين النبي صلى الله عليه وسلم على من عاداه ، وناصرين له ، وهو قول المقاتلين ، وقال الضحاك
 خيار المؤمنين ، وقيل من صالح من المؤمنين ، أى كل من آمن وعمل صالحاً ، وقيل من برى منهم
 من النفاق ، وقيل الأنبياء كلهم ، وقيل الخلفاء وقيل الصحابة ، وصالح ههنا ينوب عن الجمع ، ويجوز
 أن يراد به الواحد والجمع ، وقوله تعالى (والملائكة بعد ذلك) أى بعد حضرة الله وجبريل
 وصالح المؤمنين (ظهير) أى فوج مظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأعوان له وظهير فى معنى
 الظهور ، كقوله (وحسن أولئك رفيقاً) قال الفراء والملائكة بعد نصرة هؤلاء ظهير ، قال أبو على

وقد جاء فعيل مفرداً يراد به الكثرة كقوله تعالى (ولا يسأل حميم حميماً يصرونهم) ثم خوف نساءه بقوله تعالى (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكهن) قال المفسرون عسى من الله واجب ، وقرأ أهل الكوفة (أن يبدله) بالتخفيف ، ثم إنه تعالى كان عالماً أنه لا يطلقهن لكن أخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدله خيراً ممنهن تخويفاً لهن ، والأكثر في قوله (طلقكن) الإظهار ، وعن أبي عمرو إدغام القاف في الكاف ، لأنهما من حروف الفم ، ثم وصف الأزواج اللاتي كان يبدله فقال مسلمات أى خاضعات لله بالطاعة ومؤمنات ومصدمات بتوحيد الله تعالى مخلصات قانتات طائعات ، وقيل قانتات بالليل للصلاة ، وهذا أشبه لأنه ذكر السائحات بعد هذا (والسائحات) الصائمات ، فلزم أن يكون قيسام الليل مع صيام النهار ، وقرى سيحجات ، وهى أبلغ وقيل للصائم سائح لأن السائح لا زاد معه ، فلا يزال مسكناً إلى أن يجد من يطعمه فشبهه بالصائم الذى يمسك إلى أن يجيء وقت إفطاره ، وقيل سائحات مهاجرات ، ثم قال تعالى (ثيبات وأبكاراً) لأن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة بعضها من الثيب وبعضها من الأبكار ، فالذكر على حسب ما وقع ، وفيه إشارة إلى أن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ليس على حسب الشهرة الرغبة ، بل على حسب ابتغاء مرضات الله تعالى وفى الآية مباحث :

(البحث الأول) قوله بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقرى تظاهروا وتظاهروا وتظهروا

(البحث الثانى) كيف يكون المبدلات خيراً ممنهن ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمهات المؤمنين ؟ نقول إذا طلقهن الرسول لعصيانهن له ، وإيذانهن إياه لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله خيراً ممنهن .

(البحث الثالث) قوله ﴿ مسلمات مؤمنات ﴾ بوجه التكرار ، والمسلمات ، والمؤمنات ، على السواء ؟ نقول الإسلام ، هو التصديق باللسان والإيمان ، هو التصديق بالقلب ، وقد لا يتوافقان فقوله (مسلمات مؤمنات) تحقيق للتصديق بالقلب واللسان .

(البحث الرابع) قال تعالى ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ بواو العطف ، ولم يقل فيها عداهما بواو العطف ، نقول قال فى الكشاف إنها صفتان متنافيتان ، لا يجتمعن فيهما اجتماعاً فى سائر الصفات .

(البحث الخامس) ذكر الثيبات فى مقام المدح وهى من جملة ما يقلل معه رغبة الرجال إليهن . نقول يمكن أن يكون البعض من الثيب خيراً بالنسبة إلى البعض من الأبكار عند الرسول لاختصاصهن بالمال والجمال ، أو النسب ، أو المجموع مثلاً ، وإذا كان كذلك فلا يقدر ذكر الثيب فى المدح لجواز أن يكون المراد مثل ما ذكرناه من الثيب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا

مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ (قوا أنفسكم) أى بالإيناه عما نهاكم الله تعالى عنه ، وقال مقاتل أن يؤدب المسلم نفسه وأهله ، فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر ، وقال فى الكشاف (قوا أنفسكم) بترك المعاصى وفعل الطاعات ، وأهليكم بأن تؤاخذوهم بما تؤاخذون به أنفسكم ، وقيل (قوا أنفسكم) بما تدعو إليه أنفسكم إذ الأنفس تأمرهم بالشر وقرىء (وأهلوكم) عطفاً على واو (قوا) وحسن العطف للفاصل ، وناراً نوعاً من النار لا يعقد إلا بالناس والحجارة ، وعن ابن عباس هى حجارة الكبريت ، لأنها أشد الأشياء حراً إذا أوقد عليها ، وقرىء (وقودها) بالضم ، وقوله (عليها ملائكة) يعنى الزبانية تسعة عشر ، وأعاونهم (شداد غلاظ) فى أفعالهم غلظة وشدة أى جفاء وقوة ، أو فى أفعالهم جفاء وخشونة ، ولا يبعد أن يكونوا بهذه الصفات فى خلقهم ، أو فى أفعالهم بأن يكونوا أشداء على أعداء الله ، رحماء على أولياء الله كما قال تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقوله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) يدل على اشتدادهم لمسكان الأمر ، لا تأخذهم رافة فى تنفيذ أوامر الله تعالى والانتقام من أعدائه ، وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون فى الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهى .

وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ لما ذكر شدة العذاب بالنار ، واشتداد الملائكة فى انتقام الأعداء ، فقال (لا تعتذروا اليوم) أى يقال لهم (لا تعتذروا اليوم) إذ الاعتذار هو التوبة ، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول فى النار ، فلا ينفعكم الاعتذار ، وقوله تعالى (إنما تجزون ما كنتم تعملون) يعنى إنما أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب فى الحكمة ، وفى الآية مباحث :

(البحث الأول) أنه تعالى خاطب المشركين فى قوله (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) وقال (أعدت للكافرين) جعلها معدة للكافرين ، فما معنى مخاطبته به المؤمنين ؟ نقول الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار ، فإنهم مع الكفار فى دار واحدة فقيل للذين آمنوا (قوا أنفسكم) باجتنب الفسق بجاورة الذين أعدت لهم هذه النار ، ولا يبعد أن يأمرهم بالتوقى من الارتداد .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ
 سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ائْتِنَا نُورَنَا
 وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ
 وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَهُمْ جَاهِنٌ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨٨﴾

(البحث الثاني) كيف تكون الملائكة غلاظاً شداداً وهم من الأرواح ، فنقول : الغلظة
 والشدة بحسب الصفات لما كانوا من الأرواح لا بحسب الذات ، وهذا أقرب بالنسبة إلى الغير من الأقوال
 (البحث الثالث) قوله تعالى (لا يهضون الله ما أمرهم) في معنى قوله (ويفعلون ما يؤمرون) فما
 الفائدة في الذكر فنقول : ليس هذا في معنى ذلك لأن معنى الأول أنهم يقبلون أوامره ويلتزمونها
 ولا ينكرونها ، ومعنى الثاني أنهم ما يؤمرون به كذا ذكره في الكشاف .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم
 سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم
 يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا ائتم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ، يا أيها
 النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وماؤم جهنم وبئس المصير ﴾ .

قوله (توبة نصوحا) أى توبة بالغة في النصح ، وقال الفراء : نصوحا من صفة التوبة . والمعنى
 توبة تنصح صاحبها بترك العرد إلى ما تاب منه ، وهو أنها الصادقة الناصحة ينصحون بها أنفسهم ،
 وعن عاصم ، نصوحا بضم التون ، وهو مصدر نحو العقود ، يقال : نصحت له نصحا ونصاحة
 ونصوحا ، وقال في الكشاف : وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي ، وهو أن يتوبوا عن
 القبائح ناديين عليها غاية الندامة لا يعردون ، وقيل من نصاحة الثوب ، أى خياطته (وعسى ربكم)
 إطماع من الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى (يوم لا يخزي الله النبي) نصب بيدخلكم ، ولا يخزي تعريض لمن أخزاهم الله
 من أهل الكفر والفسق واستجداد المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم ، ثم المعتزلة تعلقوا
 بقوله تعالى (يوم لا يخزي الله النبي) وقالوا : الإخزاء يقع بالعذاب ، فقد وعد بأن لا يعذب
 الذين آمنوا ، ولو كان أصحاب الكبار من الإيمان لم نخف عليهم العذاب ، وأهل السنة أجابوا

عنه بأنه تعالى وعد أهل الإيمان بأن لا يخزيهم ، والذين آمنوا ابتداء كلام ، وخبره يسع ، أو لا يخزي الله ، ثم من أهل السنة من يقف على قوله (يوم لا يخزي الله النبي) أى لا يخزيه فى رد الشفاعة ، والإخزاء الفضيحة ، أى لا يفضحهم بين يدي الكفار ، ويجوز أن يعذبهم على وجه لا يقف عليه الكفرة ، وقوله (بين أيديهم) أى عند المشى (وبأيامهم) عند الحساب ، لأنهم يؤتون الكتاب بأيامهم وفيه نور وخير ، ويسعى النور بين أيديهم فى موضع وضع الأقدام وبأيامهم ، لأن خلفهم وشمالهم طريق الكفرة .

وقوله تعالى ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ قال ابن عباس : يقولون ذلك عند إطفاء نور المنافقين إشفافاً ، وعن الحسن : أنه تعالى متم لهم نورهم ، ولكنهم يدعون تقرباً إلى حضرة الله تعالى ، كقوله (واستغفر لذنبيك) وهو مغفور ، وقيل أدناهم منزلة من نوره بقدر ما يصر مواطئ . قدمه ، لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه ، وقيل السابقون إلى الجنة يبرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبوا وزحفاً ، فهم الذين يقولون (ربنا أتمم لنا نورنا) قاله فى الكشف ، وقوله تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) ذكر المنافقين مع أن لفظ الكفار يتناول المنافقين (واغلب عليهم) أى شدد عليهم ، والمجاهدة قد تكون بالقتال ، وقد تكون بالحجة تارة باللسان ، وتارة بالنسنان ، وقيل جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ، لأنهم هم المر تكبون الكبار ، لأن أصحاب الرسول عصموا منها (وأوامهم جهنم) وقد مر بيانه ، وفى الآية مباحث :

(البحث الأول) كيف تعلق (يا أيها الذين آمنوا) بما سبق وهو قوله : (يا أيها الذين كفروا) ؟ فنقول نهيهم تعالى على دفع العذاب فى ذلك اليوم بالتوبة فى هذا اليوم ، إذ فى ذلك اليوم لا تفيد (وفيه لطيفة) وهى أن التنبيه على الدفع بعد التهيب فيها مضى يفيد الترغيب بذكر أحوالهم والإنعام فى حقهم وإكرامهم .

(البحث الثانى) أنه تعالى لا يخزي النبي فى ذلك اليوم ولا الذين آمنوا ، فما الحاجة إلى قوله معه ؟ فنقول : هى إفادة الاجتماع ، يعنى لا يخزي الله المجموع الذى يسع نورهم وهذه فائدة عظيمة ، إذ الاجتماع بين الذين آمنوا وبين نبيهم تشرىف فى حقهم وتعظيم .

(البحث الثالث) قوله (واغفر لنا) يوم أن الذنب لازم لكل واحد من المؤمنين والذنب لا يكون لازماً ، فنقول : يمكن أن يكون طلب المغفرة لما هو اللازم لكل ذنب ، وهو التقصير فى الخدمة والتقصير لازم لكل واحد من المؤمنين .

(البحث الرابع) قال تعالى فى أول السورة (يا أيها النبي لم تحرم) ومن بعده (يا أيها النبي جاهد الكفار) خاطبه بوصفه وهو النبي لا باسمه كقوله لآدم يا آدم ، ولموسى ياموسى ولعيسى ياعيسى ، نقول : خاطبه بهذا الوصف ، ليدل على فضله عليهم وهذا ظاهر .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَأَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿٤١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾

(البحث الخامس) قوله تعالى (وماؤام جهنم) يدل على أن مصيرهم بنس المصير مطلقاً إذ المطلق يدل على العموم ، وغير المطلق لا يدل لما أنه يظهرهم عن الآثام .
قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ .

قوله (ضرب الله مثلاً) أى بين حالهم بطريق التمثيل أنهم يعاقبون على كفرهم وعبادتهم للدؤمين معاقبة مثلهم من غير اتقاء ولا مجاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كانوا فيه من القرابة بينهم وبين نبيهم وإنكارهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما جاء به من عند الله وإصرارهم عليه ، وقطع العلائق ، وجعل الأقارب من جملة الأجانب بل أبعد منهم . وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر نبياً كحال امرأة نوح ولوط ، لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان وقيل لهما في اليوم الآخر (ادخلا النار) ثم بين حال المسلمين فى أن وصلة الكافرين لا تضرهم كحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة ظالم من أعداء الله تعالى ، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومه كانوا كفاراً ، وفى ضمن هذين التمثيلين تعريض بأى المؤمنين ، وهما حفصة وعائشة لما فرط منهما وتحذير لهما على أغاظ وجهه وأشده لما فى التمثيل من ذكر الكفر ، وضرب مثلاً آخر فى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم ، وقيل هى عمه موسى عليه السلام حين سمعت قصة إلقاء موسى عصاه ، وتلقف العصا ، فذهبها فرعون عذاباً شديداً بسبب الإيمان ، وعن أبى هريرة أنه وتدها بأربعة أوتاد ، واستقبل بها الشمس ، وألقى عليها صخرة عظيمة ، فقالت رب نجني من فرعون فرقى بروحها إلى الجنة ، فألقيت الصخرة على

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ

بِكَلِمَاتٍ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

جسد لا زوح فيه ، قال الحسن ، رفقها إلى الجنة تأكل فيها وتشرب ، وقيل لما قالت (رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة) رأت بيتها في الجنة يبني لأجلها ، وهو من درة واحدة ، والله أعلم كيف هو وما هو؟ وفي الآية مباحث:

﴿ البحث الأول ﴾ ما فائدة قوله تعالى من عبادنا؟ نقول: هو علي وجهين (أحدهما) تعظيماً لهم كما مر (الثاني) إظهاراً للعبد بأنه لا يترجح على الآخر عنده إلا بالصلاح .

﴿ البحث الثاني ﴾ ما كانت خيانتهم؟ نقول: نفاقهما وإخفاؤهما الكفر ، وتظاهرهما على الرسولين ، فامرأة نوح قالت لقومه إنه لمجنون وامرأة لوط كانت تدل على نزول ضيف إبراهيم ، ولا يجوز أن تكون خيانتهمما بالفجر ، وعن ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط ، وقيل خيانتهمما في الدين .

﴿ البحث الثالث ﴾ ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة؟ نقول: طلبت القرب من رحمة الله ثم بينت مكان القرب بقولها في الجنة وأرادت ارتفاع درجتها في جنة المأوى التي هي أقرب إلى العرش .

ثم قال تعالى ﴿ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ أحصنت أي عن الفواحش لأنها قذفت بالزنا . والفرج حمل على حقيقته ، قال ابن عباس نفخ جبريل في جيب الدرع ومده بأصبعيه ونفخ فيه ، وكل ما في الدرع من خرق ونحوه فإنه يقع عليه اسم الفرج ، وقيل (أحصنت) تكلفت في عفتها ، والمحصنة المفيضة (ونفخنا فيه من روحنا) أي فرج ثوبها ، وقيل خلقنا فيه ما يظهر به الحياة في الأبدان . وقوله (فيه) أي في عيسى ، ومن قرأ فيها أي في نفس عيسى والنفس مؤنث ، وأما التشبيه بالنفخ فذلك أن الروح إذا خلق فيه انتشر في تمام الجسد كالريح إذا نفخت في شيء ، وقيل بالنفخ سرعة دخوله فيه نحو الريح وصدقت بكلمات ربها . قال مقاتل يعني بعيسى ، ويدل عليه قراءة الحسن بكلمة ربها وسمى عيسى ، كلمة الله في مواضع من القرآن . وجمعت تلك الكلمة هنا ، وقال أبو علي الفارسي الكلمات الشرائع التي شرع لها دون القول ، فكأن المعنى صدقت الشرائع وأخذت بها وصدقت الكتب فلم تكذب والشرائع سميت بكلمات كما في قوله تعالى (ولذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) وقوله تعالى (صدقت) قرىء بالتخفيف والتشديد على أنها جمعت الكلمات والكتب صادقة بمعنى وصفها بالصدق ، وهو معنى التصديق بعينه ، وقرىء كلمة وكلمات ، وكتبه وكتابه ، والمراد بالكتابة هو الكثرة والشياع أيضاً قوله تعالى (وكانت من القانتين) الطائعتين قاله ابن عباس ، وقال عطاء من المصلين ، وفي الآية مباحث .

(البحث الأول) ما كلمات الله وكتبه؟ يقول المراد بكلمات الله الصحف المنزلة على إدريس وغيره، وكتبه السكتب الأربعة، وأن يراد جميع ما كلم الله تعالى ملائكته وما كتبته في اللوح المحفوظ وغيره، وقرئ (بكلمة الله وكتابه) أى بعيسى وكتابه وهو الإنجيل، فإن قيل من القانتين على التذكير، نقول: لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، فغلب ذكره على إناثه، ومن للتبعيض، قاله في الكشاف، وقيل من القانتين، لأن المراد هو القوم، وأنه عام، ك(اركبى مع الراكعين) أى كوفى من المقيمين على طاعة الله تعالى، ولأنها من أعتاب هرون أخى موسى عليهما السلام.

وأما ضرب المثل بامرأة نوح المسماة بوايلة، وامرأة لوط المسماة بواهلة، فشتمل على فوائد متعددة لا يعرفها بتباها إلا الله تعالى، منها التنبيه للرجال والنساء على الثواب العظيم، والعذاب الأليم، ومنها العلم بأن صلاح الغير لا ينفع المفسد، وفساد الغير لا يضر المصلح، ومنها أن الرجل وإن كان في غاية الصلاح فلا يأمن المرأة، ولا يأمن نفسه، كالصادر من امرأتى نوح ولوط، ومنها العلم بأن إحسان المرأة وعفتها مفيدة غاية الإفادة، كما أفاد مريم بنت عمران، كما أخبر الله تعالى، فقال (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك) ومنها التنبيه على أن التضرع بالصدق في حضرة الله تعالى وسيلة إلى الخلاص من العقاب، وإلى الثواب بغير حساب، وأن الرجوع إلى الحضرة الأزلية لازم في كل باب، وإليه المرجع والمآب، جلت قدرته وعلت كلمته، لا إله إلا هو وإليه المصير، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه وسلم.

(٦٧) سُورَةُ الْمَلِكِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا ثَلَاثُونَ

وتسمى (المنجية) لأنها تنجي قارئها من عذاب القبر، وعن ابن عباس أنه كان يسميها (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها في القبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ .
 أما قوله (تبارك) فقد فسرناه في أول سورة الفرقان ، وأما قوله (بيده الملك) فاعلم أن هذه اللفظة إنما تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكاً ومالِكاً ، كما يقال : بيد فلان الأمر والنهي والحل والعقد ، ولا مدخل للجارية في ذلك . قال صاحب الكشاف : بيده الملك على كل موجود ، وهو على كل ما لم يوجد من الممكنات قدير ، وقوله (وهو على كل شيء قدير) فيه مسائل :
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية احتج بها من زعم أن المعدوم شيء ، فقال قوله (إن الله على كل شيء قدير) يقتضى كون مقدوره شيئاً ، فذلك الشيء الذى هو مقدور الله تعالى ، إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، لا جائز أن يكون موجوداً ، لأنه لو كان قادراً على الموجود ، لكان إما أن يكون قادراً على إيجادهِ وهو محال ، لأن إيجاد الموجود محال ، وإما أن يكون قادراً على إعدامهِ وهو محال ، لاستحالة وقوع الإعدام بالفاعل ، وذلك لأن القدرة صفة مؤثرة فلا بد لها من تأثير ، والعدم نفي محض ، فيستحيل جعل العدم أثر القدرة . فيستحيل وقوع الإعدام بالفاعل فثبت أن الشيء الذى هو مقدور الله ليس بموجود ، فوجب أن يكون معدوماً ، فلزم أن يكون ذلك المعدوم شيئاً ، واحتج أصحابنا النافون لكون المعدوم شيئاً بهذه الآية ، فقالوا : لا شك أن الجوهر من حيث إنه جوهر شيء ، والسواد من حيث هو سواد شيء ، والله قادر على كل شيء .
 فبمقتضى هذه الآية يلزم أن يكون قادراً على الجوهر من حيث إنه جوهر ، وعلى السواد من حيث هو سواد ، وإذا كان كذلك كان ككون الجوهر جوهرأ ، والسواد سواداً واقعاً بالفاعل والفاعل المختار لا بد وأن يكون متقدماً على فعله ، فإذا وجود الله وذاته متقدم على كون الجوهر جوهرأ ، أو السواد سواداً ، فيلزم أن لا يكون المعدوم شيئاً وهو المطلوب ، ثم أجابوا عن شبهة

الخصم بأننا لا نسلم أن الإعدام لا يقع بالفاعل ، واثن سلمنا ذلك ، لكن لم يجوز أن يقال المقدر الذي هو معدوم سمي شيئاً ، لأجل أنه سيصير شيئاً ، وهذا وإن كان مجازاً إلا أنه يجب المصير إليه ، لقيام سائر الدلائل الدالة على أن المعدوم ليس بشيء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ زعم القاضي أبو بكر في أحد قوليه أن إعدام الأجسام إنما يقع بالفاعل ، وهذا اختيار أبي الحسن الخياط من المعتزلة ، ومحمود الخوارزمي ، وزعم الجمهور منا ومن المعتزلة أنه يستحيل وقوع الإعدام بالفاعل ، احتج القاضي بأن الموجودات أشياء ، والله على كل شيء قدير ، فهو إذاً قادر على الموجودات ، فإما أن يكون قادراً على إيجادها وهو محال لأن إيجاد الموجود محال ، أو على إعدامها ، وذلك يقتضى إمكان وقوع الإعدام بالفاعل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ زعم الكعبي : أنه تعالى غير قادر على مثل مقدر العبد ، وزعم أبو علي وأبو هاشم أنه تعالى غير قادر على مقدر العبد ، وقال أصحابنا إنه تعالى قادر على مثل مقدر العبد وعلى غير مقدره ، واحتجوا عليه بأن عين مقدر العبد ومثل مقدره شيء ، والله على كل شيء قدير ، فثبت بهذا صحة وجود مقدر واحد بين قادرين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ زعم أصحابنا : أنه لا يؤثر إلا قدرة الله تعالى ، وأبطلوا القول بالطبائع على ما يقوله الفلاسفة ، وأبطلوا القول بالمتولدات على ما يقوله المعتزلة ، وأبطلوا القول بكون العبد موجداً لأفعال نفسه ، واحتجوا على الكل ، بأن الآية دالة على أنه تعالى قادر على كل شيء ، فلو وقع شيء من الممكنات لا بقدرة الله بل بشيء آخر ، لكان ذلك الآخر قد منع قدرة الله عن التأثير فيها كان مقدوراً له وذلك محال ، لأن ما سوى الله يمكن محدث ، فيكون أضعف قوة من قدرة الله ، والأضعف لا يمكن أن يدفع الأقوى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ هذه الآية دالة على أن الإله تعالى واحد ، لأننا لو قدرنا إلهاً ثانياً ، فإما أن يقدر على إيجاد شيء أو لا يقدر ، فإن لم يقدر البتة على إيجاد شيء أصلاً لم يكن إلهاً ، وإن قدر كان مقدر ذلك الإله الثاني شيئاً ، فيلزم كونه مقدوراً للإله الأول لقوله (وهو على كل شيء قدير) فيلزم وقوع مخلوق بين خالقين وهو محال ، لأنه إذا كان واحد منهما مستقلاً بالإيجاد ، يلزم أن يستغنى بكل واحد منهما عن كل واحد منهما ، فيكون محتاجاً إليهما ، وغنياً عنهما ، وذلك محال .

﴿ المسألة السادسة ﴾ احتج جهنم بهذه الآية على أنه تعالى ليس بشيء ، فقال لو كان شيئاً لكان قادراً على نفسه لقوله (وهو على كل شيء قدير) لكن كونه قادراً على نفسه محال ، فيمتنع كونه شيئاً ، وقال أصحابنا لما دل قوله (قل أي شيء أكبر شهادة ، قل الله شهيد) على أنه تعالى شيء وجب تخصيص هذا العموم ، فإذا هذه الآية قد دلت على أن العام المخصوص وارد في كتاب الله تعالى ، ودلت على أن تخصيص العام بدليل العقل جائز بل واقع .

﴿ المسألة السابعة ﴾ زعم جمهور المعتزلة أن الله تعالى قادر على خلق الكذب والجهل

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

والعبث والظلم ، وزعم النظام أنه غير قادر عليه ، واحتج الجمهور بأن الجهل والكذب أشياء . (والله على كل شيء قدير) فوجب كونه تعالى قادراً عليها .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ احتج أهل التوحيد على أنه تعالى منزّه عن الحيز والجهة ، فإنه تعالى لو حصل في حيز دون حيز لكان ذلك الحيز الذي حكم بحصوله فيه متميزاً عن الحيز الذي حكم بأنه غير حاصل فيه ، إذ لو لم يتميز أحد الحيزين عن الآخر لاستحال الحكم بأنه تعالى حاصل فيه ولم يحصل في الآخر . ثم إن امتياز أحد الحيزين عن الآخر في نفسه يقتضي كون الحيز أمراً موجوداً لأن العدم المحض يمتنع أن يكون مشاراً إليه بالحس وأن يكون بعضه متميزاً عن البعض في الحس ، وأن يكون مقصداً للتحرك ، فإذا كان الله تعالى حاصلًا في حيز لكان ذلك الحيز موجوداً ، ولو كان ذلك الحيز موجوداً لكان شيئاً . ولكان مقدور الله لقوله تعالى (وهو على كل شيء قدير) وإذا كان تحقق ذلك الحيز بقدرته الله وبإيجاده ، فيلزم أن يكون الله متقدماً في الوجود على تحقق ذلك الحيز ، ومتى كان كذلك كان وجود الله في الأزل محققاً من غير حيز وله جهة أصلاً والأزلي لا يزول البتة ، فثبت أنه تعالى منزّه عن الحيز والمكان أزلاً وأبداً .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ أنه تعالى قال أولاً (بيده الملك) ثم قال بعده (وهو على كل شيء قدير) وهذا مشعر بأنه إنما يكون بيده الملك لو ثبت أنه على كل شيء قدير ، وهذا هو الذي يقوله أصحابنا من أنه لو وقع مراد العبد ولا يقع مراد الله ، لكان ذلك مشعراً بالعجز والضعف ، وبأن لا يكون مالك الملك على الإطلاق ، فدل ذلك ، على أنه لما كان مالك الملك وجب أن يكون قادراً على جميع الأشياء .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ التسدير مبالغة في القادر ، فلما كان قديراً على كل الأشياء وجب أن لا يمنعه البتة مانع عن إجماد شيء من مقدوراته ، وهذا يقتضي أن لا يجب لأحد عليه شيء وإلا لكان ذلك الوجوب مانعاً له من الترك وأن لا يقبح منه شيء . وإلا لكان ذلك القبح مانعاً له من الفعل ، فلا يكون كاملاً في القدرة ، فلا يكون قديراً والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالوا : الحياة هي الصفة التي يكون الموصوف بها بحيث يصح أن يعلم ويقدر واختلفوا في الموت ، فقال قوم : إنه عبارة عن عدم هذه الصفة وقال أصحابنا : إنه صفة وجودية مضادة للحياة واحتجوا على قولهم : بأنه تعالى قال : (الذي خلق الموت) والعدم لا يكون مخلوقاً هذا هو التحقيق ، وروى الكلبي بإسناده عن ابن عباس : أن الله تعالى خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء ، ولا يجد رائحته شيء إلا مات وخلق الحياة

لَيْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢٠﴾

في صورة فارس يلقاه فوق الحمار وذون البغل ، لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حي . واعلم أن هذا لا بد وأن يكون مقولاً على سبيل التمثيل والتصوير ، وإلا فالتحقيق هو الذي ذكرناه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما قدم ذكر الموت على ذكر الحياة مع أن الحياة مقدمة على الموت لوجوه : (أحدها) قال مقاتل يعني بالموت نطفة وعلقة ومضغة والحياة نفخ الروح (وثانيها) روى عطاء عن ابن عباس قال يريد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة دار الحيوان (وثالثها) أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن منادياً ينادى يوم القيامة يا أهل الجنة ، فيعلمون أنه من قبل الله عز وجل فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم ، ثم يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ويذبح . ثم ينادى يا أهل الجنة خلود بلاء موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرح ، ويزداد أهل النار جزناً إلى حزن » واعلم أنا بينما أن الموت عرض من الأعراض كالسكون والحركة فلا يجوز أن يصير كبشاً بل المراد منه التمثيل ليعلم أن في ذلك اليوم قد انقضى أمر الموت ، فظهر بما ذكرناه أن أيام الموت هي أيام الدنيا وهي منقضية ، وأما أيام الآخرة فهي أيام الحياة وهي متأخرة فلما كانت أيام الموت متقدمة على أيام الحياة لاجرم قدم الله ذكر الموت على ذكر الحياة (ورابعها) إنما قدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض له أهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن الحياة هي الأصل في النعم ولولاها لم يتنعم أحد في الدنيا وهي الأصل أيضاً في نعم الآخرة ولولاها لم يثبت الثواب الدائم ، والموت أيضاً نعمة على ما شرحنا الحال فيه في مواضع من هذا الكتاب ، وكيف لا وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة وهو نعمة من هذا الوجه ، قال عليه الصلاة والسلام « أكثروا من ذكر هازم اللذات » وقال لقوم « لو أكثرتم ذكر هازم اللذات لشغلكم عما أرى » وسأل عليه الصلاة والسلام عن رجل فأنشأ عليه ، فقال « كيف ذكره الموت ؟ قالوا قليل ، قال فليس كما تقولون » .

قوله تعالى : ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصى وذلك في حق من وجب أن يكون عالماً بجميع المعلومات أزلاً وأبداً محال ، إلا أنا قد حققنا هذه المسألة في تأويل قوله (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) والحاصل أن الابتلاء من الله هو أن يعامل عبده معاملة تشبه [الابتلاء] على الاختبر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج القائلون بأنه تعالى يفعل الفعل لغرض بقوله (ليلوكم) قالوا هذه اللام للغرض ونظيره قوله تعالى (إلا ليعبدون) وجوابه أن الفعل في نفسه ليس بابتلاء إلا أنه

لما أشبه الابتلاء سمي مجازاً ، فكذلك ههنا ، فإنه يشبه الغرض وإن لم يسن في نفسه غرضاً ، فذكر فيه حرف الغرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنا فسرنا (الموت والحياة) بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة ، والحياة بعد ذلك فوجه الابتلاء على هذا الوجه أن يعلم أنه تعالى هو الذي ينقله من الموت إلى الحياة وكما فعل ذلك فلا بد وأن يكون قادراً على أن ينقله من الحياة إلى الموت فيجذب بجي الموت الذي به ينقطع استدراك ما فات ويستوى فيه الفقيير والغني والمولى والعبد ، وأما إن فسرناهما بالموت في الدنيا وبالحياء في القيامة فالابتلاء فيهما أتم لأن الخوف من الموت في الدنيا حاصل وأشد منه الخوف من تبعات الحياة في القيامة ، والمراد من الابتلاء أنه هل ينزجر عن القبائح بسبب هذا الخوف أم لا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في تعاق قوله (ليلوكم) بقوله (أيكم أحسن عملاً) وجهان : (الأول) وهو قول الفراء والزجاج إن المتعلق (بأيكم) مضمرة والتقدير (ليلوكم) فيعلم أو فينظر (أيكم) أحسن عملاً (والثاني) قال صاحب الكشف (ليلوكم) في معنى ليعلمكم والتقدير ليعلمكم (أيكم أحسن عملاً) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ارتفعت أي بالابتداء ولا يعمل فيها ما قبلها لأنها على أصل الاستفهام فإنك إذا قلت لا أعلم أيكم أفضل كان المعنى لا أعلم أزيد أفضل أم عمرو ، واعلم أن ما لا يعمل فيما بعد الألف فكذلك لا يعمل في أي لأن المعنى واحد ، ونظير هذه الآية قوله (سلهم أيهم بذلك زعيم) ، وقد تقدم الكلام فيه .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ذكروا في تفسير (أحسن عملاً) وجوها : (أحدها) أن يكون أخلص الأعمال وأصوبها لأن العمل إذا كان خالصاً غير صواب لم يقبل ، وكذلك إذا كان صواباً غير خالص فالخالص أن يكون لوجه الله ، والصواب أن يكون على السنة (وثانيها) قال قتادة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يقول أيكم أحسن عقلاً » ثم قال أتمم عقلاً أشدكم لله خوفاً وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً ، وإنما جاز أن يفسر حسن العمل بتمام العقل لأنه يترتب على العقل ، فمن كان أتم عقلاً كان أحسن عملاً على ما ذكر في حديث قتادة (وثالثها) روى عن الحسن أيكم أزهدي في الدنيا وأشد تركاً لها ، واعلم أنه لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده (وهو العزيز الغفور) أي وهو العزيز الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ، الغفور لمن تاب من أهل الإساءة ،

واعلم أن كونه عزيزاً غفوراً لا يتم إلا بعد كونه قادراً على كل المفدورات عالماً بكل المعلومات أما أنه لا بد من القدرة التامة ، فلاجل أن يتمكن من إيصال جزاء كل أحد بتامه إليه سواء كان عقاباً أو ثواباً ، وأما أنه لا بد من العلم التام فلاجل أن يعلم أن المطيع من هو والعاصي من هو فلا يقع الخطأ في إيصال الحق إلى مستحقه ، فثبت أن كونه عزيزاً غفوراً لا يمكن ثبوتها إلا بعد ثبوت

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ

الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٥٧﴾

القدرة التامة والعلم التام ، فهذا السبب ذكر الله الدليل على ثبوت هاتين الصفتين في هذا المقام ، ولما كان العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً ، لا جرم ذكر أولاً دلائل القدرة وثانياً دلائل العلم .

أما دليل القدرة فهو قوله ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر صاحب الكشاف في (طباقاً) ثلاثة أوجه (أولها) طباقاً أى مطابقة بعضها فوق بعض من طباق النعل إذا خصفها طباقاً على طبق ، وهذا وصف بالمصدر (وثانيها) أن يكون التقدير ذات طباق (وثالثها) أن يكون التقدير طوبقت طباقاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلالة هذه السموات على القدرة من وجوه (أحدها) من حيث إنها بقيت في جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة (وثانيها) من حيث إن كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص (وثالثها) أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدره بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معينة (ورابعها) كونها في ذواتها محدثة وكل ذلك يدل على استدادها إلى قادر تام القدرة .

وأما دليل العلم فهو قوله ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي من تفوت والباقون من تفاوت ، قال الفراء : وهما بمنزلة واحدة مثل تظهر وتظاهر ، وتهد وتعاهد ، وقال الأخفش : تفاوت أجود لأنهم يقولون تفاوت الأمر ولا يكادون يقولون تفوت ، واختار أبو عبيدة : تفوت ، وقال يقال تفوت الشيء إذا فات ، واحتج بما روى في الحديث أن رجلاً تفوت على أبيه في ماله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ حقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعينه ولا يلائمه ومنه قولهم تعلق متعلق متفاوت ونقيضه متناسب ، وأما ألفاظ المفسرين : فقال السدي من تفاوت أى من اختلاف عيب ، يقول الناظر لو كان كذا كان أحسن ، وقال آخرون (التفاوت) الفطور بدليل قوله بعد ذلك (فارجع البصر هل ترى من فطور) نظيره قوله (وما لها من فروج) قال القفال ويحتمل أن يكون المعنى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) في الدلالة على حكمة صانعها وأنه لم يخلقها عبثاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الخطاب في قوله (ما ترى) إما للرسول أو لكل مخاطب وكذا القول في

﴿ ثُمَّ أَرْجِعُ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

قوله (فأرجع البصر هل ترى من فطور ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً) .
 ﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (طباقاً) صفة للسماوات ، وقوله بعد ذلك (ما ترى في خاق الرحمن من تفاوت) صفة أخرى للسماوات والتقدير خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى فيهن من تفاوت إلا أنه وضع مكان الضمير قوله (خلق الرحمن) تعظيها لخالقهن وتنبهياً على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه (خلق الرحمن) وأنه بياهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المناسب .
 ﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أن وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالى هو أن الحس دل أن هذه السموات السبع ، أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان ، وكل فاعل كان فعله محكماً متقناً فإنه لا بد وأن يكون عالماً ، فدل هذه الدلالة على كونه تعالى عالماً بالمعلومات فقوله (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) إشارة إلى كونها محكمة متقنة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ احتج السكمي بهذه الآية على أن المعاصي ليست من خلق الله تعالى ، قال لأنه تعالى نفى التفاوت في خلقه ، وليس المراد نفي التفاوت في الصغر والكبير والنقص والعيب فوجب حمله على نفي التفاوت في خلقه من حيث الحكمة ، فبدل من هذا الوجه على أن أفعال العباد ليست من خلقه على ما فيها من التفاوت الذي بدمه جهل وبدمه كذب وبدمه سفه ، (الجواب) بل نحن نحمله على أنه لا تفاوت فيها بالنسبة إليه ، من حيث إن الشكل يصح منه بحسب القدرة والإرادة والداعية ، وإنه لا يقيح منه شيء أصلاً ، فلم كان حمل الآية على التفاوت من الوجه الذي ذكرتم أولى من حملها على نفي التفاوت من الوجه الذي ذكرناه ، ثم إنه تعالى أكد بيان كونها محكمة متقنة ، وقال (فأرجع البصر هل ترى من فطور) والمعنى أنه لما قال (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) كأنه قال بعده ، ولعلك لا تحكم بمقتضى ذلك بالبصر الواحد ، ولا تعتمد عليه بسبب أنه قد يقع الغلط في النظرة الواحدة ، ولكن أرجع البصر واررد النظرة مرة أخرى ، حتى تتيقن أنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت البتة . والفطور جمع فطر ، وهو الشق يقال فطره فانفطر ومنه فطر ناب البعير ، كما يقال شق ومعناه شق اللحم فطاع ، قال المفسرون (هل ترى من فطور) أى من فروج وصدوع وشقوق ، وفتوق ، وخروق ، كل هذا ألفاظهم .

ثم قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْجِعُ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

أمر بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل التصفيح والتتبع ، هل يجد فيه عيباً وخللاً ، يعنى أنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب ، بل يرجع إليك خاسئاً أى مبعداً من قولك خسأت الكلب إذا باعدته ، قال المبرد : الخاسيء المبعد المصغر ، وقال ابن عباس : الخاسيء الذي لم ير ما يهوى ، وأما الحسير فقال ابن عباس هو الكليل ، قال الليث

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا

لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥٩﴾

الحسور والحسور الأعياء ، وذكر الواحدى ههنا احتمالين (أحدهما) أن يكون الحسير مفعولا من حسر العين بعد المرئى ، قال رؤبة :

يحسر طرف عيناه فضا

(الثانى) قول الفراء أن يكون فاعلا من الحسور الذى هو الإعياء ، والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيباً ولا فطوراً ، بل البصر يرجع خاسئاً من الكلال والإعياء ، وههنا سؤالان : (السؤال الأول) كيف ينقلب البصر خاسئاً حسيراً برجمه كرتين اثنتين (الجواب) الثنية للتكرار بكثرة كقولهم ليبيك وسعديك يريد إجابات متوالية .

(السؤال الثانى) فما معنى ثم ارجع (الجواب) أمره يرجع البصر ثم أمره بأن لا يقنع بالرجعة الأولى ، بل أن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعيده ويعاوده إلى أن يحسر بصره من طول المعاردة فإنه لا يعثر على شىء من فطور .

قوله تعالى : ﴿ ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ أعلم أن هذا هو الدليل الثانى على كونه تعالى قادراً عالماً ، وذلك لأن هذه الكواكب نظراً إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص ، وموضع معين ، وسير معين ، تدل على أن صانعها قادر ونظراً إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا ، وسبباً لانتفاعهم بها ، تدل على أن صانعها عالم ، ونظير هذه الآية فى سورة الصفات (إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ السماء الدنيا السماء القربى ، وذلك لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناها السماء الدنيا من الناس ، والمصابيح السرج سميت بها الكواكب ، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح ، فقول : ولقد زيننا سقف الدار التى اجتمعتم فيها بمصابيح أى بمصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ، أما قوله تعالى (وجعلناها رجوماً للشياطين) فاعلم أن الرجوم جمع رجم ، وهو مصدر سمي به ما يرمى به ، وذكروا فى معرض هذه الآية وجهين : (الوجه الأول) أن الشياطين إذا أرادوا استراق السمع رجوا بها ، فإن قيل جعل الكواكب زينة للسماء يقتضى بقاءها واستمرارها وجعلها رجوماً للشياطين ورميهم بها يقتضى زوالها والجمع بينهما متناقض ، قلنا ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب ، بل يجوز أن يفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها ، وتلك الشعل هى الشهب ، وما ذلك إلا قبس يؤخذ من نار والنار

باقية (الوجه الثاني) في تفسير كون الكواكب رجوماً للشياطين أنا جعلناها ظوناً ورجوماً بالغيب للشياطين الإنس وهم الأحكاميون من المنجمين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن هذه الكواكب مركزوزة في السماء الدنيا ، وذلك لأن السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو كانت في سموات أخرى فوقها ، فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها ، فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح .

واعلم أن أصحاب الهيئة اتفقوا على أن هذه الثوابت مركزوزة في الفلك الثامن الذي هو فوق كرات السيارات ، واحتجوا عليه بأن بعض هذه الثوابت في الفلك الثامن ، فيجب أن تكون كلها هناك ، وإنما قلنا إن بعضها في الفلك الثامن ، وذلك لأن الثوابت التي تكون قريبة من المنطقة تنكسف بهذه السيارات ، فوجب أن تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة ، وإنما قلنا إن هذه الثوابت لما كانت في الفلك الثامن وجب أن تكون كلها هناك ، لأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة في كل مائة سنة درجة واحدة ، فلا بد وأن تكون مركزوزة في كرة واحدة واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، فإنه لا يلزم من كون بعض الثوابت فوق السيارات كون كلها هناك ، لأنه لا يبعد وجود كرة تحت القمر ، وتكون في البطم مساوية لكرة الثوابت ، وتكون الكواكب المركوزة فيما يقارن القطبين مركزوزة في هذه الكرة السفلية ، إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة ، وعلى هذا التقدير لا يمتنع أن تكون هذه المصابيح مركزوزة في السماء الدنيا ، فثبت أن مذهب الفلاسفة في هذا الباب ضعيف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن منافع النجوم كثيرة ، منها أن الله تعالى زين السماء بها ، ومنها أنه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء ، ولذلك فإنه إذا تكاثف السحاب في الليل عظمت الظلمة ، وذلك بسبب أن السحاب يجب أنوارها ، ومنها أنه يحصل بسببها تفاوت في أحوال الفصول الأربعة ، فإنها أجسام عظيمة نورانية ، فإذا قارنت الشمس كوكباً مستخفاً في الصيف ، صار الصيف أقوى حراً ، وهو مثل نار تضم إلى نار أخرى ، فإنه لا شك أن يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى ، ومنها أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، على ما قال تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) ومنها أنه تعالى جعلها رجوماً للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر ، يروى أن السبب في ذلك أن الجن كانت تتسمع لخبر السماء ، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء ، ورصدت الشياطين ، فمن جاء منهم مستيقاً للسمع رمى بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخاطب على النبي أمره ويرتاب الناس بخبره ، فهذا هو السبب في انقضاء الشهب ، وهو المراد من قوله (وجعلناها رجوماً للشياطين) ومن الناس

من طعن في هذا من وجوه (أحدها) أن انقراض الكواكب المذكور في كتب قدماء الفلاسفة ، قالوا إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس ، وإذا بلغ النار التي دون الفلك احترق بها ، فتلك الشعلة هي الشهاب (وثانيها) أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحداً وألفاً من جنسهم يشترقون السمع فيحترقون ، ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرة ومراراً وألفاً امتنع أن يعود إليه من غير فائدة (وثالثها) أنه يقال في نحن السماء فإنه مسيرة خمسمائة عام ، فهؤلاء الجن إن نفذوا في جرم السماء وخرقوا اتصاله ، فهذا باطل لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال (فارجع البصر هل ترى من فطور) وإن كانوا لا ينفذون في جرم السماء ، فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم ، ثم إن جاز أن يسمعوا كلامهم من ذلك البعد العظيم ، فلا يسمعون كلام الملائكة حال كونهم في الأرض (ورابعها) أن الملائكة إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلية ، إما لأنهم طالعوها في اللوح المحفوظ أو لأنهم تلففوها من وحى الله تعالى إليهم ، وعلى التقديرين فلم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها (وخامسها) أن الشياطين مخلوقون من النار ، والنار لا تحرق النار بل تقويه ، فكيف يعقل أن يقال إن الشياطين زجروا عن استراق السمع بهذه الشهب (وسادسها) أنه كان هذا الحذف لأجل النبوة فلم دام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام (وسابعها) أن هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض ، بدليل أنها نشاهد حركتها بالعين ولو كانت قريبة من الفلك ، لما شاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب ، وإذا ثبت أن هذه الشهب إنما تحدث بالقرب من الأرض ، فكيف يقال إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك (وثامنها) أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة ، فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار ، حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم ؟ (وتاسعها) لم لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب ؟ .

و (الجراب عن السؤال الأول) أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم لأسباب آخر ، إلا أن ذلك لا يتنافى أنها بعد مبعث النبي عليه الصلاة والسلام قد توجد بسبب آخر وهو دفع الجن وزجرهم . يروى أنه قيل للزهري : أكان يرمى في الجاهلية قال نعم ، قيل أفرايت قوله تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) قال غلظت ، وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

و (الجواب عن السؤال الثاني) أنه إذا جاء القدر عن البصر ، فإذا قضى الله على طائفة منها الحرق لطغيانها وضلالها ، قيض لها من الدواعي المطمعة في درك المقصود ما عندها ، تقدم على العمل المفضى إلى الهلاك والبوار .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦١﴾

﴿الجواب عن السؤال الثالث﴾ أن البعد بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، فأما نحن الفلك فاعله لا يكون عظيماً .

﴿أما الجواب عن السؤال الرابع﴾ ما روى الزهري عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن ابن عباس قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم جالساً في نفر من أصحابه إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال « ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حدث مثل هذا ، قالوا كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم ، قال عليه الصلاة والسلام « فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تعالى إذا قضى الأمر في السماء سبحت حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء . . . وسمح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ، ويستخبر أهل السماء حملة العرش ، ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ولا يزال ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، ويتخطف الجن فيرمون ، فما جاءوا به فهو حق ، ولكنهم يزيدون فيه .

﴿والجواب عن السؤال الخامس﴾ أن النار قد تكون أقوى من نار أخرى ، فالأقوى يبطل الأضعف .

﴿والجواب عن السؤال السادس﴾ أنه إنما دام لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر ببطان الكهانة ، فلو لم يدم هذا العذاب لعادت الكهانة ، وذلك يقدر في خبر الرسول عن بطان الكهانة ،

﴿الجواب عن السؤال السابع﴾ أن البعد على مذهبنا غير مانع من السماع ، فاعله تعالى أجرى عادته بأنهم إذا وقفوا في تلك الموضع سمعوا كلام الملائكة .

﴿الجواب عن السؤال الثامن﴾ لعنه تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين .

﴿الجواب عن السؤال التاسع﴾ أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فهذا ما يتعلق بهذا الباب على سبيل الاختصار والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الكواكب وذكر أن من جملة المنافع أنها رجوم للشياطين ، قال بعد ذلك (وأعدنا لهم عذاب السعير) أي أعدنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عذاب السعير في الآخرة . قال المبرد : سعرت النار فهي مسعورة ، وسعير كقولك مقبولة وقيل ، واحتج أصحابنا على أن النار مخلوقة الآن بهذه الآية لأن قوله (وأعدنا) أخبار عن الماضي .

قوله تعالى : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ .

اعلم أنه تعالى بين في أول السورة أنه قادر على جميع الممكنات ، ثم ذكر بعده أنه وإن كان قادراً على الكل إلا أنه إنما خلق ما خلق لا للعبت والباطل بل لأجل الابتلاء والامتحان ، وبين

﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيْقًا وَهِيَ تَفُوْرٌ ﴾ ﴿٧﴾ تَكَادُ تُمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ

أن المقصود من ذلك الابتلاء أن يكون عزيزاً في حق المصرين على الإساءة غفوراً في حق التائبين ومن ذلك كان كونه عزيزاً وغفوراً لا يثبتان إلا إذا ثبت كونه تعالى كاملاً في القدرة والعلم بين ذلك بالدلائل المذكورة ، وحينئذ ثبت كونه قادراً على تعذيب العصاة فقال (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم) أى ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم ، ليس الشياطين المرجومون مخصصين بذلك ، وقرئ . (عذاب جهنم) بالنصب عطف بيان على قوله (عذاب السعير) ثم إنه تعالى وصف ذلك العذاب بصفات كثيرة :

﴿ (الصفة الأولى) قوله تعالى ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ .

(ألقوا) طرحوا كما يطرح الخطب في النار العظيمة ويرى به فيها ، ومثله قوله (حسب جهنم) وفي قوله (سمعوا لها شهيقاً) وجوه (أحدها) قال مقاتل سمعوا لجهنم شهيقاً ، ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق ، قال الزجاج : سمع الكفار للنار شهيقاً ، وهو أفتح الأصوات ، وهو كصوت الحمار ، وقال المبرد : هو والله أعلم تنفس كتنفس المنغيظ (وثانيها) قال عطاء : سمعوا لأهلها من تقدم طرحهم فيها شهيقاً (وثالثها) سمعوا من أنفسهم شهيقاً ، كقوله تعالى (لهم فيها زفير وشهيق) والقول هو الأول .

﴿ (الصفة الثانية) قوله ﴿ وهي تفور ﴾ قال الليث : كل شيء جاش فقد فار ، وهو فور القدر والدخان والغضب والماء من العين ، قال ابن عباس : تغلي بهم كغلي الرجل ، وقال مجاهد تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحلب القليل ، ويجوز أن يكون هذا من فور الغضب ، قال المبرد : يقال تركت فلاناً يفور غضباً ، ويتأكد هذا القول بالآية الآتية .

﴿ (الصفة الثالثة) قوله ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ يقال فلان يميز غيظاً ، ويتعصف غيظاً وغضب فطارت منه شمعة في الأرض وشعلة في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه . وأقول لعل السبب في هذا المجاز أن الغضب حالة تحصل عند غليان دم القلب . والدم عند الغليان يصير أعظم حجماً ومقداراً فتتمدد تلك الأوعية عند ازدياد مقادير الرطوبات في البدن ، فكلمها كان الغضب أشد كان الغليان أشد ، فكان الازدياد أكثر ، وكان تمدد الأوعية وانشاقها وتميزها أكثر ، فجعل ذكر هذه الملازمة كناية عن شدة الغضب ، فإن قيل النار ليست من الأحياء ، فكيف يمكن وصفها بالغيظ . (قلنا الجواب) من وجوه (أحدها) أن البنية عندنا ليست شرطاً للحياة . فلعل الله يخلق فيها وهي نار حياة (وثانيها) أنه شبه صوت لهبها وسرعة تبادلها بصوت الغضببان وحركته (وثالثها) يجوز أن يكون المراد غيظ الزبانية .

كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهُآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ آلَهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾

(الصفة الرابعة) قوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ . الفوج الجماعة من الناس والأفواج الجماعات في تعرفه ، ومنه قوله (فتأتون أفواجا) وخزنتها مالك وأعرانه من الزبانية (ألم يأتكم نذير) وهو سؤال توبيخ ، قال الزجاج : وهذا التوبيخ زيادة لهم في العذاب ، وفي الآية مسالتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتجت المرجئة على أنه لا يدخل النار أحد إلا الكفار بهذه الآية ، قالوا لأنه تعالى حكى عن كل من ألقى في النار أنهم قالوا كذبنا النذير ، وهذا يقتضى أن من لم يكذب الله ورسوله لا يدخل النار ، واعلم أن ظاهر هذه الآية يقتضى القطع بأن الفارق المصير لا يدخل النار ، وأجاب القاضى عنه بأن النذير ، قد يطاق على ما فى العقول من الأدلة المحذرة المخوفة ، ولا أحد يدخل النار إلا وهو مخالف للدليل غير متمسك به وجبه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج القائلون بأن معرفة الله وشكره لا يجبان إلا بعد ورود السمع بهذه الآية . وقالوا هذه الآية دلت على أنه تعالى إنما عندهم لأنه أتاهم النذير ، وهذا يدل على أنه لو لم يأتهم النذير لما عندهم .

ثم إنه تعالى حكى عن الكفار جوابهم عن ذلك السؤال من وجهين :

(الأول) قوله تعالى ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ . واعلم أن قوله (بلى قد جاءنا نذير فكذبنا) اعتراف منهم بعبدل الله ، وإقرار بأن الله أزاح عليهم ببعثة الرسل ، وليكنهم كذبوا الرسل وقالوا (ما نزل الله من شيء) . أما قوله تعالى ﴿ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ففيه مسالتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الآية وجهان (الوجه الأول) وهو الأظهر أنه من جملة قول الكفار وخطابهم للنذيرين (الوجه الثانى) يجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار ، والتقدير أن الكفار لما قالوا ذلك الكلام قالت الخزنة لهم (إن أنتم إلا فى ضلال كبير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يحتمل أن يكون المراد من الضلال الكبير ما كانوا عليه من ضلالهم فى الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الهلاك ، ويحتمل أن يكون سمي عقاب الضلال باسمه . قوله تعالى : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ هذا هو الكلام .

فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

(الثاني) ، ما يحكاه الله تعالى عن الكفار جواباً للخزنة حين قالوا (ألم يأتكم نذير) والمعنى لو كنا نسمع الإنذار سماع من كان طالباً للحق أو تعقله عقل من كان متأملاً متفكراً لما كنا من أصحاب السعير ، وقيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة الهدى والإضلال ، بأن قالوا لفظة لو تفيد امتناع الشيء لا امتناع غيره . فدلت الآية على أنه ما كان لهم سمع ولا عقل ، لكن لاشك أنهم كانوا ذوى أسماع وعقول صحيحة ، وإنهم ما كانوا صم الإسماع ولا مجانين ، فوجب أن يكون المراد أنه ما كان لهم سمع الهداية ولا عقل الهداية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج بهذه الآية من قال الدين لا يتم إلا بالتعليم . فقال إنه قدم السمع على العقل تنبيهاً على أنه لا بد أولاً من إرشاد المرشد وهداية الهادي ، ثم إنه يترتب عليه فهم المستجيب وتأمله فيما يلقىه المعلم (والجواب) أنه إنما قدم السمع لأن المدعوا إذا نطق الرسول فأول المراتب أنه يسمع كلامه ثم إنه يتفكر فيه ، فلما كان السمع مقدماً بهذا السبب على التعقل والتفهم لا جرم قدم عليه في الذكر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف : ومن بدع التفسير أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي ، ثم قال كأن هذه الآية نزلت بمد ظهور هذين المذهبين ، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من فضل السمع على البصر بهذه الآية ، وقالوا دلت الآية على أن السمع مدخلا في الخلاص عن النار والفوز بالجنة ، والبصر ليس كذلك ، فوجب أن يكون السمع أفضل . واعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار هذا القول قال ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ قال مقاتل : يعني يتكذبهم الرسول وهو قولهم : (فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء) وقوله (بذنبهم) فيه قولان : (أحدهما) أن الذنب ههنا في معنى الجمع ، لأن فيه معنى الفعل ، كما يقال : خرج عطاء الناس ، أى عطياتهم هذا قول الفراء (والثاني) يجوز أن يراد بالواحد المضاف الشائع ، كقوله (وإن تعدوا نعمة الله) ثم قال ﴿ فسحقا لأصحاب السعير ﴾ قال المفسرون : فبعداً لهم اعترفوا أو جحدوا ، فإن ذلك لا ينفعهم ، والسحق البعد ، وفيه لغتان : التخفيف والثقل ، كما تقول في العنق والطنب ، قال الزجاج : سحقاً منصوب على المصدر ، والمعنى أسحقهم الله سحقاً ، أى باعدهم الله من رحمته مباعدة ، وقال أبو علي الفارسي . كان القياس سحقاً ، فجاء المصدر على الحذف كقولهم : عمرك الله .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢٢﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ
أَجْهَرُوا بِهِ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

﴿١٢٤﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعده المؤمنين فقال ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ وفيه وجهان (الوجه الأول) أن المراد : إن الذين يخشون ربهم وهم في دار التكليف والمعارف النظرية وبهم حاجة إلى مجاهدة الشيطان ودفع الشبه بطريق الاستدلال (الوجه الثاني) أن هذا إشارة إلى كونه متقياً من جميع المعاصي لأن من يتقى معاصي الله في الخلوة اتقاهم حيث يراه الناس لا محالة ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على انقطاع وعيد الفساق ، فقالوا ذات الآية على أن من كان موصوفاً بهذه الخشية فله الأجر العظيم ، فإذا جاء يوم القيامة مع الفسق ومع هذه الخشية ، فقد حصل الأمران فيما أن يثاب ثم يعاقب وهو بالإجماع باطل أو يعاقب ثم ينقل إلى دار الثواب وهو المطلوب .

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار ووعده المؤمنين على سبيل المغايبه رجع بعد ذلك إلى خطاب الكفار فقال :

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ وفيه وجهان : (الوجه الأول) قال ابن عباس كانوا يناولون من رسول الله فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض (أسروا قولكم) لئلا يسمع إله محمد فأنزل الله هذه الآية (القول الثاني) أنه خطاب عام لجميع الخلق في جميع الاعمال ، والمراد أن قولكم وعملكم على أي سبيل وجد ، فالحال واحد في علمه تعالى بهذا فاحذروا من المعاصي سرّاً كما تحترزون عنها جهراً فإنه لا يتفاوت ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى ، وكما بين أنه تعالى عالم بالجهري وبالسر بين أنه عالم بخواطر القلوب .

ثم إنه تعالى لما ذكر كونه عالماً بالجهري وبالسر وبما في الصدور ذكر الدليل على كونه عالماً بهذه الأشياء . فقال : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن معنى الآية أن من خلق شيئاً لا بد وأن يكون عالماً بمخلوقه ، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهي أيضاً مقررة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن الخلق عبارة عن الإيجاد والتكويرين على سبيل القصد ، والقاصد إلى الشيء لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك الشيء فإن الغافل عن الشيء يستحيل أن يكون قاصداً إليه ، وكما أنه ثبت أن الخالق لا بد وأن يكون عالماً بماهية المخلوق لا بد وأن يكون عالماً بكميته ، لأن وقوعه على ذلك المقدار دون ما هو أزيد منه أو

أنقص لا بد وأن يكون بقصد الفاعل واختياره ، والقصد مسبوق بالعلم فلا بد وأن يكون قد علم ذلك المقدار وأراد إيجاد ذلك المقدار حتى يكون وقوع ذلك المقدار أولى من وقوع ما هو أزيد منه أو أنقص منه ، وإلا يلزم أن يكون اختصاص ذلك المقدار بالوقوع دون الأزيد أو الأنقص ترجيحاً لأحد طرفي الممكن على الآخر لا مرجح وهو محال ، ثبت أن من خلق شيئاً فإنه لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك المخلوق وبكميته وكيفيةه ، وإذا ثبتت هذه المقدمة فنقول : تمسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أن العبد غير موجود لأفعاله من وجهين (الوجه الأول) قالوا لو كان العبد موجوداً لأفعال نفسه لكان عالماً بتفاصيلها ، لكنه غير عالم بتفاصيلها فهو غير موجود لها ، بيان الملازمة من وجهين (الأول) التمسك بهذه الآية (الثاني) أن وقوع عشرة أجزاء من الحركة مثلاً ممكن ووقوع الأزيد منه والأنقص منه أيضاً ممكن ، فاختصاص العشرة بالوقوع دون الأزيد ودون الأنقص ، لا بد وأن يكون لأجل أن القادر المختار خصه بالإيقاع ، وإلا لكان وقوعه دون الأزيد والأنقص وقوعاً للممكن المحدث من غير مرجح ، لأن القادر المختار إذا خص تلك العشرة بالإيقاع فلا بد وأن يكون عالماً بأن الواقع عشرة لا أزيد ولا أنقص ، ثبت أن العبد لو كان موجوداً لأفعال نفسه لكان عالماً بتفاصيلها . وأما أنه غير عالم بتفاصيلها فلوجه (أحدها) أن المتكلمين انفقوا على أن التفاوت بين الحركة السريعة والبطيئة لأجل تحلل السكنات ، فالفاعل للحركة البطيئة قد فعل في بعض الأحيان حركة وفي بعضها سكوتاً مع أنه لم يخطر بباله أنه فعل ههنا حركة وههنا سكوتاً (وثانيها) أن فاعل حركة لا يعرف عدد أجزاء تلك الحركات إلا إذا عرف عدد الأحيان التي بين مبدأ المسكنة ومنتهاها وذلك يتوقف على علمه بأن الجواهر الفردية التي تتسع لها تلك المسافة من أولها إلى آخرها كم هي ؟ ومعلوم أن ذلك غير معلوم (وثالثها) أن النائم والمغمى عليه قد يتحرك من جنب إلى جنب مع أنه لا يعلم ماهية تلك الحركة ولا كميتها (ورابعها) أن عند أبي علي ، وأبي هاشم ، الفاعل إنما يفعل معنى يقتضى الحصول في الحيز ، ثم إن ذلك المعنى الموجب بما لا يخطر ببال أكثر الخلق ، فظهر بهذه الدلالة أن العبد غير موجود لأفعاله (الوجه الثاني) في التمسك بهذه الآية على أن العبد غير موجود أن نقول إنه تعالى لما ذكر أنه عالم بالسر والجره وبكل ما في الصدور قال بعده (ألا يعلم من خلق) وهذا الكلام إنما يتصل بما قبله لو كان تعالى خالقاً لكل ما يفعلونه في السر والجره ، وفي الصدور والقلوب ، فإنه لو لم يكن خالقاً لها لم يكن قوله (ألا يعلم من خلق) مقتضياً كونه تعالى عالماً بتلك الأشياء ، وإذا كان كذلك ثبت أنه تعالى هو الخالق لجميع ما يفعلونه في السر والجره من أفعال الجوارح ومن أفعال القلوب ، فان قيل لم لا يجوز أن يكون المراد : ألا يعلم من خلق الأجسام والعالم الذي خلق الأجسام هو العالم بهذه الأشياء ؟ قلنا إنه لا يلزم من كونه خالقاً لغيره هذه الأشياء كونه عالماً بها ، لأن من يكون فاعلاً لشيء لا يجب أن يكون عالماً بشيء آخر ، نعم يلزم من كونه خالقاً لها كونه عالماً بها لأن خالق الشيء يجب أن يكون عالماً به .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ الآية تحتمل ثلاثة أوجه : (أحدها) أن يكون من خلق في محل الرفع والمنسوب يكون مضمراً والتقدير (ألا يعلم من خلق) مخلوقه (وثانيها) أن يكون من خلق في محل النصب ويكون المرفوع مضمراً ، والتقدير ألا يعلم الله من خلق (والاحتمال الأول) أولى لأن (الاحتمال الثاني) يفيد كونه تعالى عالماً بذات من هو مخلوقه ، ولا يقتضى كونه عالماً بأحوال من هو مخلوقه والمقصود من الآية هذا لا الأول (وثالثها) أن تكون من في تقدير ما كما تكون ما في تقدير من في قوله (والسماء وما بناها) وعلى هذا التقدير تكون ما إشارة إلى ما يسره الخلق وما يجهرونه ويضمرونه في صدورهم وهذا يقتضى أن تكون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى . أما قوله (وهو اللطيف الخبير) فاعلم أنهم اختلفوا في (اللطيف) فقال بعضهم المراد العالم وقال آخرون بل المراد من يكون فاعلاً للأشياء اللطيفة التي تخفى كيفية عملها على أكثر الفاعلين ، ولهذا يقال إن لطف الله بعباده عجيب ويراد به دقائق تدبيره لهم وفيهم ، وهذا الوجه أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعده تكراراً .

قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى بين بالدلائل كونه عالماً بما يسرون وما يعلنون ، ثم ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد ، ونظيره من قال لعبده الذي أساء إلى مولاه في السر يا فلان أنا أعرف سرك وعلائيتك فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك ، كل هذا الخير الذي هيأته لك ولا تأمن تأديبي ، فإنني إن شئت جعلت هذه الدار التي هي منزل أمنك ومركز سلامتك منشأ الآفات التي تتحير فيها ومنبعاً للدخن التي تهلك بسببها ، فكذلك ههنا ، كأنه تعالى قال . أيها الكفار اعلّموا أني عالم بسركم وجهركم . فكونوا خائفين مني محتزين من عقابي ، فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها ، وتعتقدون أنها أبعد الأشياء عن الإضرار بكم ، أنا الذي ذللها إليكم وجعلتها سبيلاً لنفوسكم ، فامشوا في مناكبها ، فإنني إن شئت خسفت بكم هذه الأرض ، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن ، فهذا هو الوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الذلول من كل شيء : المنقاد الذي يذل لك ، ومصدره الذل ، وهو الانقياد واللين ، ومنه يقال : دابة ذلول ، وفي وصف الأرض بالذلول أقوال (أحدها) أنه تعالى ما جعلها صخرية خشنة بحيث يمتنع المشي عليها ، كما يمتنع المشي على وجوه الصخرة الخشنة (وثانيها) أنه

﴿أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (١٦)

تعالى جعلها لينة بحيث يمكن حفرها ، وبناء الأبنية منها كما يراد ، ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك (وثالثها) أنها لو كانت حجرية ، أو كانت مثل الذهب أو الحديد ، لكانت تسخن جداً في الصيف ، وكانت تبرد جداً في الشتاء ، ولكانت الزراعة فيها ممتعة ، والغراسة فيها متعذرة ، ولما كانت كفاتاً للأموات والاحياء (ورابعها) أنه تعالى سخرها لنا بأن أمسكها في جو الهواء ، ولو كانت متحركة على الاستقامة ، أو على الاستدارة لم تكن منقادة لنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فامشوا في مناكبها) أمر بإباحة ، وكذا القول في قوله (وكلوا من رزقه) .
 ﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكروا في مناكب الأرض وجوهاً (أحدها) قال صاحب الكشاف : المشى في مناكبها مثل لفرط التذليل ، لأن المنسكين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير ، وأبده من إمكان المشى عليه ، فإذا صار البعير بحيث يمكن المشى على منكمبه ، فقد صار نهاية في الانقياد والطاعة ، فثبت أن قوله (فامشوا في مناكبها) كناية عن كونها نهاية في الذلولة (وثانيها) قول قتادة والضحاك وابن عباس : إن مناكب الأرض جبالها وآكامها ، وسميت الجبال مناكب ، لأن مناكب الإنسان شاخصة . والجبال أيضاً شاخصة ، والمعنى أني سهلت عليكم المشى في مناكبها ، وهي أبعد أجزائها عن التذليل ، فكيف الحال في سائر أجزائها (وثالثها) أن مناكبها هي الطرق ، والفجاج والأطراف والجوانب . وهو قول الحسن ومجاهد والكلبي ومقاتل ، ورواية عطاء عن ابن عباس ، واختيار الفراء ، وابن قتيبة قال : مناكبها جوانبها ، ومنكبها الرجل جانباه . وهو كقوله تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) أما قوله (وكلوا من رزقه) أى بما خلقه الله رزقاً لكم في الأرض (وإليه النشور) يعنى ينبغي أن يكون مكشكماً في الأرض ، وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله ، وأكل من يتيقن أن مصيره إلى الله ، والمراد تحذيرهم عن الكفر والمعاصي في السر والجهر ، ثم إنه تعالى بين أن بقاءهم مع هذه السلامة في الأرض إنما كان بفضل الله ورحمته ، وأنه لو شاء لقلب الأمر عليهم ، ولأمطر عليهم من سحب القهر مطر الآفات .

فقال تقريراً لهذا المعنى ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ .
 واعلم أن هذه الآيات نظيرها قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) وقال (نخسفنا به وبداره الأرض) .

واعلم أن المشبهة احتجوا على إثبات المكان لله تعالى بقوله (أأمنتم من في السماء) ، (والجواب) عنه أن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين ، لأن كونه في السماء يقتضى كون السماء محيطاً به من جميع الجوانب ، فيكون أصغر من السماء ، والسماء أصغر من العرش

أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

بكثير ، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش ، وذلك باتفاق أهل الإسلام محال ، ولأنه تعالى قال (قل لمن مافي السموات والأرض قل الله) فلو كان الله في السماء لوجب أن يكون مالكا لنفسه وهذا محال ، فقلنا أن هذه الآية يجب صرفها عن ظاهرها إلى التأويل ، ثم فيه وجوه : (أحدها) لم لا يجوز أن يكون تقدير الآية : أممنتم من في السماء عذابه ، وذلك لأن عادة الله تعالى جارية ، بأنه إنما ينزل البلاء على من يكفر بالله ويخصيه من السماء فالسما موضع عذابه تعالى ، كما أنه موضع نزول رحمته ونعمته (وثانيها) قال أبو مسلم : كانت العرب مقرين بوجود الإله ، لكنهم كانوا يعتقدون أنه في السماء على وفق قول المشبهة ، فكأنه تعالى قال لهم : أتأمنون من قد أفرتمم بأنه في السماء ، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء أن يخسف بكم الأرض (وثالثها) تقدير الآية : من في السماء سلطانه وملكوته وقدرته ، والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته ، كما قال (وهو الله في السموات وفي الأرض) فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين ، فوجب أن يكون المراد من كونه في السموات وفي الأرض نفاذ أمره وقدرته ، وجريان مشيئته في السموات وفي الأرض ، فكذا ههنا (ورابعها) لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله (من في السماء) الملك الموكل بالعذاب ، وهو جبريل عليه السلام ، والمعنى أن يخسف بهم الأرض بأمر الله وإذنه . وقوله (فإذا هي تمور) قالوا معنا : إن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك ، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها ، فيذهبون والأرض فوقهم تمور ، فتلقيهم إلى أسفل السافلين ، وقد ذكرنا تفسير المور فيها تقدم .

ثم زاد في التخریف فقال ﴿ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ .
قال ابن عباس : كما أرسل على قوم لوط ، فقال (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) والحاصب ريح فيها حجارة وحصاب ، كأنها تفلح الحصاب لشدها ، وقيل هو سحاب فيها حجارة .
ثم هدد وأوعد فقال ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ .

قيل في النذير ههنا إنه المنذر ، يعني محمداً عليه الصلاة والسلام وهو قول عطاء عن ابن عباس والضجك ، والمعنى فستعلمون رسولي وصدقه ، لكن حين لا ينفعكم ذلك ، وقيل إنه بمعنى الإنذار ، والمعنى فستعلمون عاقبة إنذارى إياكم بالكتاب والرسول ، وكيف في قوله (كيف نذير) ينبيه عما ذكرنا من صدق الرسول ، وعقوبة الإنذار .

وأعلم أنه تعالى لما خرف الكفار بهذه التخریفات أكد ذلك التخریف بالمثال والبرهان أما المثال فهو أن الكفار الذين كانوا قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم فقال :

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ
فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْبِضُنَّ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ يعني عاداً وثمود وكفار الأمم ، وفيه وجهان (أحدهما) قال الواحدى (فكيف كان نكير) أى إنكارى وتغييرى ، أليس وجدوا العذاب حقاً (والثانى) قال أبو مسلم : النكير عقاب المنكر ، ثم قال : وإنما سقط الياء من نذيرى ، ومن نكيرى حتى تكون مشابهة لرؤوس الآى المتقدمة عليها ، والمتأخرة عنها . وأما البرهان فهو أنه تعالى ذكر ما يدل على كمال قدرته ، ومتى ثبت ذلك ثبت كونه تعالى قادراً على إيصال جميع أنواع العذاب إليهم ؛ وذلك البرهان من وجوه :

(البرهان الأول) هو قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فوقهم صافات ويقبضن ﴾ . (صافات) أى باسطات أجنحتهم فى الجو عند طيرانها (ويقبضن) ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، فإن قيل لم قال (ويقبضن) ولم يقل وقابضات ، قلنا لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجاء بما هو طارىء غير أصلى بلفظ الفعل على معنى أنهم صافات ، ويكون منهم القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح .

ثم قال تعالى ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها فى جو الهواء إلا بامساك الله وحفظه ، وههنا سؤالان :

(السؤال الأول) هل تدل هذه الآية على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله ، قلنا نعم ، وذلك لأن استمسك الطير فى الهواء فعل اختياري للطير ،

ثم إنه تعالى قال ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ فدل هذا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى . (السؤال الثانى) أنه تعالى قال فى النحل (ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله) وقال ههنا (ما يمسكهن إلا الرحمن) فما الفرق ؟ قلنا ذكر فى النحل (أن الطير مسخرات فى جو السماء) فلا جرم كان إمساكها هناك محض الإلهية ، وذكر ههنا أنها صافات وقابضات ، فكان إلهامها إلى كيفية البسط ، والقبض على الوجه المطابق للدفعة من رحمة الرحمن . ثم قال تعالى ﴿ إنه بكل شىء بصير ﴾ وفيه وجهان (الوجه الأول) المراد من البصير ، كونه عالماً بالأشياء الدقيقة ، كما يقال : فلان بصر فى هذا الأمر ، أى حذق (والوجه الثانى) أن نجري اللفظ على ظاهره ، فنقول إنه تعالى شىء ، والله بكل شىء بصير ، فيكون رانياً لنفسه ولجميع الموجودات ، وهذا هو الذى يقوله أصحابنا من أنه تعالى يصح أن يكون مرئياً وأن كل

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا

فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

الموجودات كذلك ، فإن قيل البصير إذا عدى بالياء يكون بمعنى العالم ، يقال فلان بصير بسكذا إن كان عالماً به ، قلنا لانسلم ، فإنه يقال : إن الله سميع بالمسموعات ، بصير بالمبصرات .
قوله تعالى : ﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور ﴾ .

اعلم أن الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان ، ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان تعويلهم على شيتين (أحدهما) القوة التي كانت حاصلة لهم بسبب ما لهم وجندهم (والثاني) أنهم كانوا يقولون هذه الأوثان ، توصل إلينا جميع الخيرات ، وتدفع عنا كل الآفات وقد أبطل الله عليهم كل واحد من هذين الوجهين . أما الأول فبقوله (أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) وهذا نسق على قوله (أم أمتم من في السماء) والمعنى أم من يشار إليه من المجموع ، ويقال هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الله إن أرسل عذابه عليكم ، ثم قال (إن الكافرون إلا في غرور) أي من الشيطان يغرم بأن العذاب لا ينزل بهم .

أما الثاني فهو قوله ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ .
والمعنى : من الذي يرزقكم من آلهتكم إن أمسك الله الرزق عنكم ، وهذا أيضاً مما لا يذكره ذو عقل ، وهذا أنه تعالى لو أمسك أسباب الرزق كالطر والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الأمر .

قال تعالى ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ والمراد أصروا وتشددوا مع وضوح الحق ، في عتو أي في تمرد وتكبر ونفور ، أي تباعد عن الحق وإعراض عنه . فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا وهو إشارة إلى فساد القوة العملية ، والنفور بسبب جهلهم ، وهذا إشارة إلى فساد القوة النظرية ، واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالعتو والنفور ، نبه على ما يدل على قبح هذين الوصفين ، قوله تعالى : ﴿ أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى من يمشى سويًّا على صراط مستقيم ﴾ وفيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدى : أكب مطاوع كبه ، يقال كبته ، فأكب ونظيره شعثت

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ

(٢٣)

الريح السحاب فأفشع ، قال صاحب الكشاف : ليس الأمر كذلك ، وجاء شيء من بناء أفعل مطاوعاً ، بل قولك أكب معناه دخل في الكب وصار ذاكب ، وكذلك أفشع السحاب دخل في القشع ، وأنفض ، أى دخل في التقض ، وهو نفض الوعاء ، فصار عبارة عن الفقر والام دخل في اللرم ، وأما مطاوع كب وقشع فهو انكب وانقشع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في تفسير قوله (يشئ مكباً على وجهه) وجوهاً : (أحدها) معناه أن الذى يشئ فى مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض . فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكباً فخاله نقيض حال من يشئ سويماً أى قائماً بهالماً من العثور والخرور (وثانها) أن المتعسف الذى يشئ هكذا وهكذا على الجهالة والخيرة لا يكون كمن يشئ إلى جهة معلومة مع العلم واليقين (وثانها) أن الأعمى الذى لا يهتدى إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوى الصحيح البصر الماشى فى الطريق المعلوم ، ثم اختلفوا فهم من قال هذا حكاية حال الكافر فى الآخرة ، قال قتادة الكافر أكب على معاصى الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه ، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله تعالى على الطريق السوى يوم القيامة ، وقال آخرون بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل فى الدنيا ، واختلفوا أيضاً فهم من قال هذا عام فى حق جميع المؤمنين والكفار ، ومنهم من قال بل المراد منه شخص معين ، فقال مقاتل المراد أبو جهل والنبي عليه الصلاة والسلام ، وقال عطاء عن ابن عباس المراد أبو جهل وحزرة بن عبدالمطلب وقال عكرمة هو أبو جهل وعمار بن ياسر .

﴿ البرهان الثانى ﴾ على كمال قدرته قوله تعالى ﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أورد البرهان (أولاً) من حال سائر الحيوانات ، وهو وقوف الطير فى الهواء ، أورد البرهان بعده من أحوال الناس وهو هذه الآية ، وذكر من عجائب ما فيه حال السمع والبصر والفؤاد ، ولقد تقدم شرح أحوال هذه الأمور الثلاثة فى هذا الكتاب مراراً فلا فائدة فى الإعادة ، واعلم أن فى ذكرها هنا تذكيراً على دقيقة لطيفة ، كأنه تعالى قال أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة ، لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما ستمتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتوه ، ولا تأملتم فى عاقبة ما عقلتموه ، فكانتكم ضيعتم هذه النعم وأفسدتم هذه المرآة ، فلماذا قال (قليلاً ما تشكرون) وذلك لأن شكر نعمة الله تعالى هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجهه رضاه ،

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

ولتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلى طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته البتة .
(البرهان الثالث) قوله تعالى ﴿ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى استدل بأحوال الحيوانات (أولاً) ثم بصفات الإنسان (ثانياً) وهي السمع والبصر والعقل ، ثم بحدوث ذاته (ثالثاً) وهو قوله (هو الذي ذرأكم في الأرض) واحتج المتكلمون بهذه الآية على أن الإنسان ليس هو الجوهر المجرد عن التحيز والكمية على ما يقوله الفلاسفة وجماعة من المسلمين لأنه قال (قل هو الذي ذرأكم في الأرض) فبين أنه ذرأ الإنسان في الأرض ، وهذا يقتضى كون الإنسان متحيزاً جسماً ، واعلم أن الشروع في هذه الدلائل إنما كان لبيان صحة الحشر والنشر ليثبت ما ادعاه من الابتلاء في قوله (ليلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) ثم لأجل إثبات هذا المطلوب ، ذكر وجوهاً من الدلائل على قدرته ، ثم ختمها بقوله (قل هل الذي ذرأكم في الأرض) ولما كانت القدرة على الخلق ، ابتداءً توجب القدرة على الإعادة لا جرم قال بعده (وإليه تحشرون) فبين بهذا أن جميع ما تقدم ذكره من الدلائل إنما كان لإثبات هذا المطلوب .

واعلم أنه تعالى لما أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يخوفهم بعذاب الله حتى عن الكفار شيئين (أحدهما) أنهم طالبوه بتعيين الوقت .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أبو مسلم إنه تعالى قال : يقول بلفظ المستقبل فهذا يحتمل ما يوجد من الكفار من هذا القول في المستقبل ، ويحتمل الماضي ، والتقدير : فكانوا يقولون هذا الوعد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلمهم كانوا يقولون ذلك على سبيل السخرية ، ولعلمهم كانوا يقولونها إيهاماً للاضعفة أنه لما لم يتعجل فلا أصل له .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الوعد المسؤول عنه ما هو ؟ فيه وجهان (أحدهما) أنه القيامة (والثاني) أنه ، طلق العذاب ، وفائدة هذا الاختلاف تظهر بعد ذلك إن شاء الله .

ثم أجب الله عن هذا السؤال بقوله تعالى ﴿ قل إنما أعلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ والمراد أن العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع ، فالعلم الأول حاصل عندي ، وهو كاف في الإنذار والتحذير ، أما العلم الثاني فليس إلا الله ، ولا حاجة في كوني نذيراً مبيناً إليه .

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ

٢٧

ثم إنه تعالى بين حالهم عند نزول ذلك الوعد فقال تعالى ﴿ فلما رأوه زلفه سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله فلما رأوه الضمير للوعد ، والزلفة القرب والتقدير ، فلما رأوه قرباً ويحتمل أنه لما اشتد قرب ، جعل كأنه في نفس القرب . وقال الحسن معاينة . وهذا معنى وليس بتفسير ، وذلك لأن ما قرب من الإنسان رآه معاينة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (سيئت وجوه الذين كفروا) قال ابن عباس أسودت وعلتها الكتابة والقترة ، وقال الزجاج تبين فيها السوء ، وأصل السوء القبح ، والسيئة ضد الحسنه ، يقال ساء الشيء يسوء ، فهو سيء إذا قبح ، وسيء يساء إذا قبح ، وهو فعل لازم ومتعد فعنى سيئت وجوههم قبحت بأن علنها الكتابة وغشها الكسوف والقترة وكلحوا ، وصارت وجوههم كوجه من يقاد إلى القتل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن قوله (فلما رأوه زلفه) إخبار عن الماضي ، فمن حمل الوعد في قوله (ويقولون متى هذا الوعد) على مطلق العذاب سهل تفسير الآية على قوله فلماذا قال أبو مسلم في قوله (فلما رأوه زلفه) يعني أنه لما أتاهم عذاب الله المهلك لهم كالذي نزل بعاد وثمود سيئت وجوههم عند قربهم منهم ، وأما من فسر ذلك الوعد بالقيامة كان قوله (فلما رأوه زلفه) معناه فمتى ما رأوه زلفه ، وذلك لأن قوله (فلما رأوه زلفه) إخبار عن الماضي وأحوال القيامة مستقبلة لا ماضية فوجب تفسير اللفظ بما قلناه ، قال مقاتل (فلما رأوه زلفه) أى لما رأوا العذاب في الآخر قريباً .

قوله تعالى : ﴿ وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم القائلون هم الزبانية ، وقال آخرون بل يقول بعضهم لبعض ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (تدعون) وجوه : (أحدها) قال الفراء يريد (تدعون) من الدعاء أى تطلبون وتستعجلون به ، وتدعون وتدعون واحد في اللغة مثل تذكرون وتذكرون وتدخرون وتدخرون (وثانيها) أنه من الدعوى معناه : هذا الذي كنتم تبطونونه أى (تدعون) أنه باطل لا يأتيكم أو هذا الذي كنتم يسيبه (وتدعون) أنكم لا تبعثون (وثالثها) أن يكون هذا استفهاماً على سبيل الإنكار ، والمعنى أهذا الذي تدعون ، لا بل كنتم تدعون عدمه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ يعقوب الحضرمي (تدعون) خفيفة من الدعاء ، وقرأ السبعة (تدعون) مثقلة من الادعاء .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ یُجِیرُ الْکَافِرِینَ مِنْ عَذَابِ
 ٢٨ ۞ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِی ضَلَالٍ مُّبِینٍ
 ٢٩ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ یَأْتِیْكُمْ بِمَاءٍ مَّعِینٍ ۞

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أورشنا فمن يجير الكافرين من عذاب اليم ﴾
 اعلم أن هذا الجواب هو من النوع الثاني مما قاله الكفار لمحمد ﷺ حين خوفهم بعذاب الله ،
 يروى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنون بالهلاك ، كما قال تعالى (أم يقولون
 شاعر نتربص به رب المنون) وقال (بل ظننم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً) ثم
 إنه تعالى أجاب عن ذلك من وجهين (الوجه الأول) هو هذه الآية ، والمعنى قل لهم إن الله تعالى
 سواء أهلكني بالإماتة أورشني بتأخير الأجل ، فأى راحة لكم في ذلك ، وأى منفعة لكم فيه ، ومن
 الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ، أنظنون أن الأصنام تجيركم أو غيرها ، فإذا علمتم أن
 لا يجير لكم فهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث .
 (الوجه الثاني) في الجواب قوله تعالى ﴿ قل هو الرحمن آمننا به وعليه توكلنا فستعلمون من
 هو في ضلال مبين ﴾ .

والمعنى أنه الرحمن آمننا به وعليه توكلنا فيعلم أنه لا يقبل دعاءكم وأنتم أهل الكفر والعناد في حقنا ، مع
 أنا آمننا به ولم نكفر به كما كفرتم ، ثم قال (وعليه توكلنا) لا على غيره كما فعلتم أنتم حيث توكلتم على رجالكم
 وأموالكم ، وقرىء فستعلمون على المخاطبة ، وقرىء بالياء ليكون على وفق قوله (فمن يجير الكافرين) .
 واعلم أنه لما ذكر أنه يجب أن يتوكل عليه لا على غيره ، ذكر الدليل عليه ، فقال تعالى ﴿ قل
 أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ .

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر ، أى أخبروني إن
 صار ماؤكم ذاهباً في الأرض فمن يأتيكم بماء معين ، فلا بد وأن يقولوا هو الله ، فيقال لهم حينئذ
 فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في العبودية ؟ وهو كقوله (أفأرأيتم الماء الذي
 تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) وقوله (غوراً) أى غاراً ذاهباً في الأرض
 يقال غار الماء يغور غوراً ، إذا نضب وذهب في الأرض ، والغور ههنا بمعنى الغار سمي بالمصدر
 كما يقال رجل عدل ورضا ، والمعين الظاهر الذي تراه العيون فهو من مفعول العين كسبيح ، وقيل
 المعين الجاري من العيون من الإمعان في الجرى كأنه قيل بمن في الجرى ، والله سبحانه وتعالى
 أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٦٨) سُورَةُ الْقَلَمِ كَبِيرًا وَأَيُّهَا ثَنَانٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ن ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الأقوال المذكورة في هذا الجنس قد شرحتها في أول سورة البقرة والوجه الزائدة التي يختص بها هذا الموضع (أولها) أن النون هو السمكة ، ومنه في ذكر يونس (وذا النون) وهذا القول مروى عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل والسدي ثم القائلون بهذا منهم من قال إنه قسم بالحوت الذي على ظهره الأرض وهو في بحر تحت الأرض السفلى ، ومنهم من قال إنه قسم بالحوت الذي احتبس يونس عليه السلام في بطنه ، ومنهم من قال : إنه قسم بالحوت الذي لطح سهم نمرود بدمه (والقول الثاني) وهو أيضاً مروى عن ابن عباس واختيار الضحك والحسن وقناعة أن النون هو الدواة ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما الشرق يرجع بي إليهم ألقى النون بالدمع السجوم

فيكون هذا قسماً بالدواة والقلم ، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة ، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق و [تارة] يتجرى بالكتابة (والقول الثالث) أن النون لوح تكتب الملائكة ما يأمرهم الله به فيه رواه معاوية بن قرة مرفوعاً (والقول الرابع) أن النون هو المداد الذي تكتب به الملائكة واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأنها إذا جعلناه مقسماً به وجب إن كان جنساً أن يجره وتنونه ، فإن القسم على هذا التقدير يكون بدواة منكورة أو بسمكة منكورة ، كأنه قيل وسمكة والقلم ، أو قيل ودواة والقلم ، وإن كان علماً أن نصرفه ونجره أولاً نصرفه ونفتحه إن جعلناه غير منصرف . (والقول الخامس) أن نون ههنا آخر حروف الرحمن فإنه يجتمع من الرحمن ن اسم الرحمن فذكر الله هذا الحرف الأخير من هذا الإسم ، والمقصود القسم بتام هذا الإسم ، وهذا أيضاً ضعيف لأن تجويزه يفتح باب ترهات الباطنية ، بل الحق أنه إما أن يكون اسماً للسورة أو يكون الغرض منه التحدي أو سائر الوجوه المذكورة في أول سورة البقرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القراء مختلفون في إظهار النون وإخفائه من قوله (ن والقلم) فن أظهرها فلأنه

وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

ينوى بها الوقف بدلالة اجتماع الساكنين فيها ، وإذا كانت موقوفة كانت في تقدير الانفصال مما بعدها ، وإذا انفصلت مما بعدها وجب التبيين ، لأنها إنما تخفى في حروف الفهم عند الاتصال ، ووجه الإخفاء أن همزة الوصل لم تقطع مع هذه الحروف في نحو (ألم الله) وقرطم في العدد واحد اثنان فمن حيث لم تقطع الهمزة معها علمنا أنها في تقدير الوصل وإذا وصلها أخفيت النون وقد ذكرنا هذا في طس ويس ، قال الفراء وإظهارها أعجب إلى لأنها هجاء والهجاء كالموقوف عليه وإن اتصل ، وقوله تعالى ﴿ والقلم ﴾ فيه قولان (أحدهما) أن القسم به هو الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به من في السماء ومن في الأرض ، قال تعالى (وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) فمن بتيسير الكتابة بالقلم كما من بالنطق فقال (خلق الإنسان ، علمه البيان) ووجه الانتفاع به أن ينزل الغائب منزلة المخاطب فيتمكن المرء من تعريف البعيد به ما يتمكن باللسان من تعريف القريب (والثاني) أن المقسم به هو القلم المهورد الذي جاء في الخبر أن أول ما خلق الله القلم ، قال ابن عباس أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فجرى بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة من الآجال والأعمال ، قال وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض ، وروى مجاهد عنه قال : أول ما خلق الله القلم فقال اكتب القدر فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة وإنما يجرى الناس على أمر قد فرغ منه . قال القاضي هذا الخبر يجب حمله على المجاز ، لأن القلم الذي هو آلة مخصوصة في الكتابة لا يجوز أن يكون حياً عاقلاً فيؤمر وينهى . فإن الجمع بين كونه حياً وكونه آلة للكتابة محال ، بل المراد منه أنه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو كقوله (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) فإنه ليس هناك أمر ولا تكليف ، بل هو مجرد نفاذ القدرة في المقدور من غير منازعة ولا مدافعة ، ومن الناس من زعم أن القلم المذكور ههنا هو العقل ، وأنه شيء هو كالأصل لجميع المخلوقات ، قالوا والدليل عايبه أنه روى في الأخبار أن أول ما خلق الله القلم ، وفي خبر آخر : أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت وتسخت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الأرض ، قالوا فهذه الأخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التي هي أصل المخلوقات شيء واحد وإلا حصل التناقض .

قوله تعالى ﴿ وما يسطرون ﴾ .

اعلم أن ما مع ما بعدها في تقدير المصدر ، فيحتمل أن يكون المراد وسطهم ، فيكون القسم واقفاً بنفس الكتابة ، ويحتمل أن يكون المراد المسطور والمكتوب ، وعلى التقديرين فإن حملنا القلم على كل قلم في مخلوقات الله كان المعنى ظاهراً ، وكأنه تعالى أقسم بكل قلم ، وبكل ما يكتب

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ

لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

بكل قلم ، وقيل بل المراد ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون ، ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه ، فيكون الضمير في (يسطرون) لهم ، كأنه قيل : وأصحاب القلم وسطروهم ، أى ومسطروا بهم . وأما إن حملنا القلم على ذلك القلم المعين ، فيحتمل أن يكون المراد بقوله (وما يسطرون) أى وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ ، ولفظ الجمع في قوله (يسطرون) ليس المراد منه الجمع ، بل التعظيم ، أو يكون المراد تلك الأشياء التي سطرت فيه من الأعمال والأعمار ، وجميع الأمور السائلة إلى يوم القيامة .

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه فقال : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .
اعلم أن قوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ روى عن ابن عباس : أنه عليه السلام غاب عن خديجة إلى حراء ، فطلبته فلم يجده ، فإذا به وجهه متغير بلا غبار ، فقالت له مالك ؟ فذكر نزول جبريل عليه السلام ، وأنه قال له (اقرأ باسم ربك) فهو أول ما نزل من القرآن ، قال : ثم نزل بي إلى قرار الأرض فتوضأ ، وتوضأت ، ثم صلى ، وصليت معه ركعتين ، وقال هكذا الصلاة يا محمد ، فذكر عايناه الصلاة والسلام ذلك لخديجة ، فذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمها ، وكان قد خالف دين قومه ، ودخل في النصرانية ، فسألته فقال : ارسلني إلى محمداً ، فأرسلته فاتاه ، فقال له : هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو إلى الله أحداً ؟ فقال لا ، فقال والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرك نصرأ عزيزاً ، ثم مات قبل دعاء الرسول ، ووقعت تلك الواقعة في السنة كفار قريش ، فقالوا إنه لمجنون ، فأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون ، وهو خمس آيات من أول هذه السورة ، ثم قال ابن عباس : وأول ما نزل قوله (سبح اسم ربك) وهذه الآية هي الثانية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج (أنت) هو اسم (ما) و (بمجنون) الخبر ، وقوله (بنعمة ربك) كلام وقع في الدين والمعنى اتقي عنك الجنون (بنعمة ربك) كما يقال أنت بحمد الله عاقل ، وأنت بحمد الله لست بمجنون ، وأنت بنعمة الله فهم ، وأنت بنعمة الله لست بفقير ، ومعناه أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله وإطافه وإكرامه ، وقال عطاء وابن عباس يريد (بنعمة ربك) عليك بالإيمان والنبوة ، وهو جواب لقولهم (يا أيها الذي نزل عليه الذكرك إنك لمجنون) واعلم أنه تعالى وصفه ههنا بثلاثة أنواع من الصفات .

(الصفة الأولى) نفى الجنون عنه ثم إنه تعالى ، قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها وذلك لأن قوله (بنعمة ربك) يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيره المرضية ، والبراهة من كل عيب ، والاتصاف بكل مكرمة وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها يتنافى حصول الجنون ، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له أنه مجنون .

(الصفة الثانية) قوله (وإن لك لأجرأ غير ممنون) وفي الممنون قولان (أحدهما) وهو قول الأكثرين ، أن المعنى غير منقوص ولا مقطوع يقال منه السير أى أضعفه ، والمئين الضعيف ومن الشئ إذا قطعه ، ومنه قول لبيد :
غيش كواسب ما يمن طعامها
يصف كلاباً ضاربة ، ونظيره قوله تعالى (عطاء غير مجذوذ) .

(والقول الثاني) وهو قول مجاهد ومقاتل والكلبي ، إنه غير مقدر عليك بسبب المنة ، قالت المعتزلة في تقرير هذا الوجه (إنه غير ممنون) عليك لأنه ثواب تسترجه على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ، والقول الأول أشبه لأن وصفه بأنه أجر يفيد أنه لا منة فيه فالجمل على هذا الوجه يكون كالتركيب ، ثم اختلفوا في أن هذا الأجر على أى شئ حصل ؟ قال قوم معناه ، إن لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجراً عظيماً دائماً ، وقال آخرون المراد إن لك في إظهار النبوة والمعجزات ، في دعاء الخلق إلى الله ، وفي بيان الشرع لهم هذا الأجر الخالص الدائم ، فلا تمنع نسبتها إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم ، فإن لك بسببه المنزلة العالية عند الله .

(الصفة الثالثة) قوله تعالى ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله (بنعمة ربك) وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب ، وخطأ وذلك لأن الأخلاق والأفعال الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه ، ومن كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه لأن أخلاق المجانين سيئة ، ولما كانت أخلاقه الحميدة كالمية لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة ولهذا قال (نل لأسألكم عليه أجراً وما أنا من المتكلفين) أى لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاقى لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إلى الطبع ، وقال آخرون إنما وصف خلقه بأنه عظيم وذلك لأنه تعالى قال له (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وهذا الهدى الذى أمر الله تعالى محمداً بالاعتداء به ليس هو معرفة الله لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول ، وليس هو الشرائع لأن شريعته مخالفة لشرائعهم فتعين أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدى بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما أختص به من الخلق الكريم ، فكأن كل واحد منهم كان مختصاً بنوع واحد ، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدى بالكل فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقاً فيهم ، ولما كان ذلك درجة عالية لم تيسر لأحد من الأنبياء قبله ، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم ، وفيه دقيقة

أخرى ، وهي قوله (لعلى خلق عظيم) وكلمة على للاستعلاء ، فدل اللفظ على أنه مستعمل على هذه الأخلاق ومستول عليها ، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة . واعلم أن الإتيان بالأفعال الجميلة غير وسهولة الإتيان بها غير ، فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق ويدخل في حسن الخلق التحرر من الشح والبخل والغضب ، والتشديد في المعاملات والتعجب إلى الناس بالقول والفعل ، وترك التقاطع والهجران والتساهل في العقود كالباع وغيره والتسامح بما يلزم من حرق من له نسب أو كان صهراً له ، وحصل له حق آخر . وروى عن ابن عباس أنه قال معناه : وإنك لعلى دين عظيم ، وروى أن الله تعالى قال له « لم أخلق ديناً أحب إلى ولا أرضى عندي من هذا الدين الذي اصطفتيه لك ولأمتك » يعني الإسلام ، واعلم أن هذا القول ضعيف ، وذلك لأن الإنسان له قوتان ، قوة نظرية وقوة عملية ، والدين يرجع إلى كمال القوة النظرية ، والخلق يرجع إلى كمال القوة العملية ، فلا يمكن حمل أحدهما على الآخر ، ويمكن أيضاً أن يجاب عن هذا السؤال من وجهين : (الوجه الأول) أن الخلق في اللغة هو العادة سواء كان ذلك في إدراك أو في فعل (الوجه الثاني) أننا نبينا أن الخلق هو الأمر الذي باعتباره يكون الإتيان بالأفعال الجميلة سهلاً ، فلما كانت الروح القدسية التي له شديدة الاستعداد للمعارف الإلهية الحقة وعدم الاستعداد لقبول العقائد الباطلة ، كانت تلك السهولة حاصلة في قبول المعارف الحقة ، فلا يبعد تسمية تلك السهولة بالخلق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال سعيد بن هشام : قلت لعائشة « أخبريني عن خلق رسول الله ، قالت ألسنت تقرأ القرآن ؟ قلت بلى قالت فإنه كان خالق النبي عليه الصلاة والسلام » وسئلت مرة أخرى فقالت : كان خلقه القرآن ، ثم قرأت (قد أفاح المؤمنون) إلى عشرة آيات ، وهذا إشارة إلى أن نفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيب ، وإلى كل ما يتعلق بها ، وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادة الدنيوية بالطبع ، ومقتضى الفطرة ، اللهم ارزقنا شيئاً من هذا . الحالة . وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت « ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من أصحابه . ولا من أهل بيته إلا قال لييك » فلماذا قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) ، وقال أنس « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي في شيء فقلت له لم فعلت ، ولا في شيء لم أفعله فلا فعلت » وأقول إن الله تعالى وصف ما يرجع إلى قوته النظرية بأنه عظيم ، فقال (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم فقال (وإنك لعلى خلق عظيم) فلم يبق للإنسان بعد هاتين القوتين شيء ، فدل

فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ

سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

بمجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة ، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة .

واعلم أنه تعالى لما وصفه بأنه على خلق عظيم قال :

﴿ فستبصرو ويصرون ﴾ أى فسترى يا محمد ويرون يعنى المشركين ، وفيه قولان : منهم من حمل ذلك على أحوال الدنيا ، يعنى (فستبصر ويصرون) فى الدنيا أنه كيف يكون عاقبة أمرك ، وعاقبة أمرهم ، فإنك تصير معظما فى القلوب ، ويصيرون دليلين ملعونين ، وتستولى عليهم بالقتل والنهب ، قال مقاتل هذا وعيد بالعذاب بيدر ، ومنهم من حمله على أحوال الآخرة وهو كقولهم (سيعلمون غد أمن الكذاب الأشر) .

وأما قوله تعالى ﴿ يا أيكم المفتون ﴾ ففيه وجوه : (أحدها) وهو قول الأخفش وأبى عبيدة وابن قتبية أن الباء صلة زائدة والمعنى (أيكم المفتون) وهو الذى فتن بالجنون كقوله (تذبذب بالدهن) أى تذبذب الدهن وأنشد أبو عبيدة :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

والفراء طعن فى هذا الجواب ، وقال إذا أمكن فيه بيان المعنى الصحيح من دون طرح الباء كان ذلك أولى ، وأما البيت فمعناه نرجو كشف ما نحن فيه بالفرج أو نرجو النصر بالفرج (وثانيها) وهو اختيار الفراء والمبرد أن (المفتون) ههنا بمعنى الفتن وهو الجنون ، والمصادر تجيء على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العتد واليسر ، يقال ليس له معقود رأى أى عقد رأى ، وهذا قول الحسن والضحاك ورواية عطية عن ابن عباس (وثالثها) أن الباء بمعنى فى ومعنى الآية (فستبصر ويصرون) فى أى الفريقين الجنون ، أى فرقة الإسلام أم فى فرقة الكفار (ورابعها) (المفتون) هو الشيطان إذ لا شك أنه مفتون فى دينه وهم لما قالوا (إنه مجنون) فقد قالوا إن به شيطانا فقال تعالى (سيعلمون غدا) بأيمهم شيطان الذى يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل .

ثم قال تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وفيه وجهان : (الأول) هو أن يكون المعنى إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة ، وهم الذين ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعتلاء وهم المهتدون (الثانى) أن يكون المعنى لهم رهوك بالجنون ووصفوا أنفسهم بالعقل . وهم كذبوا فى ذلك ، ولكنهم موصوفون بالضللال ، وأنت موصوف بالهداية والامتياز الحاصل بالهداية والضللال أولى بالرعاية من الامتياز الحاصل بسبب العقل والجنون ، لأن ذاك

فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُوا لَوْ تَدَهَّنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ
 حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ
 بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾

ثمرته السعادة الأبدية [أ] والشقاوة ، وهذا ثمرته السعادة [أ] والشقاوة في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق ، أتبعه بما يدعو إلى التشدد مع قومه وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار ، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال (فلا تطع المكذبين) يعني رؤساء أهل مكة ، وذلك أنهم دعوه إلى دين آباؤه فهاه الله أن يطيعهم . وهذا من الله إلهاب وتبييح التشدد في مخالفتهم .

ثم قال ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الليث الإدهان اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام ، قال المبرد داهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما يضمن ، والمعنى ترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى فتلين لهم ويلينون لك ، وروى عطاء عن ابن عباس : لو تكفر فيكفرون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما رفع (فيدهنون) ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمني لأنه قد عدل به إلى طريق آخر . وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أى فهم يدهنون كقوله (فن يؤمن بربه فلا يخاف) على معنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ ، قال سيديويه ، وزعم هارون وكان من القراء أنها في بعض المصاحف (ودوا لو تدهن فيدهنوا) واعلم أنه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين ، وهذا يتناول النهى عن طاعة جميع الكفار إلا أنه أعاد النهى عن طاعة من كان من الكفار موصفاً بصفات مذمومة وراه الكفر ، وتلك الصفات هي هذه :

(الصفة الأولى) كونه حلاقاً ، والحلاف من كان كثير الحلف في الحق والباطل ، وكفى به

مزجرة لمن اعتاد الحلف ومثله قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم) .

(الصفة الثانية) كونه مهيناً ، قال الزجاج هو فاعيل من المهانة ، ثم فيه وجهان (أحدهما)

أن المهانة هي القلة والحقارة في الرأي والتميز (والثاني) أنه إنما كان مهيناً لأن المراد الحلاف

في الكذب ، والكذاب حقير عند الناس . وأقول كونه حلالاً يدل على أنه لا يعرف عظمة الله تعالى وجلاله ، إذ لو عرف ذلك لما أقدم في كل حين وأوان بسبب كل باطل على الاستشهاد باسمه وصفته . ومن لم يكن عالماً بعظمة الله وكان متعلق القلب بطالب الدنيا كان مهيناً ، فهذا يدل على أن عزة النفس لا تحصل إلا لمن عرف نفسه بالعبودية ، وأن مهانتها لا تحصل إلا لمن غفل عن سر العبودية .

(الصفة الثالثة) كونه هماً وهو العيب الطعان ، قال المبرد هو الذي يهمن الناس أى يذكرهم بالمكروه وأثر ذلك يظهر العيب ، وعن الحسن يلوى شذقيه في أفضية الناس وقد استقصينا [القول] فيه في قوله (ويل لكل همزة) .

(الصفة الرابعة) كونه مشاء بنميم أى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال نم نم ونم ونمما ونميمة .

(الصفة الخامسة) كونه مناعاً للخير وفيه قولان (أحدهما) أن المراد أنه بخيل والخير المال (والثاني) كان يمنع أهله من الخير وهو الإسلام ، وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم وما قاربهم لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبداً . فننعمهم الإسلام فهو الخير الذى منعهم ، وعن ابن عباس أنه أبو جهل عن مجاهد : الأسود بن عبد يغوث ، وعن السدى : الأحنس بن شريق .

(الصفة السادسة) كونه معتدياً ، قال مقاتل معناه أنه ظلم يتعدى الحق ويتجاوزته فيأتى بالظلم ويمكن حمله على جميع الأخلاق الذميمة يعنى أنه نهاية في جميع القبائح والفضائح .

(الصفة السابعة) كونه أثمياً ، وهو مبالغة في الإثم .

(الصفة الثامنة) العتل وأقوال المفسرين فيه كثيرة ، وهى محصورة في أمرين (أحدهما) أنه ذم في الخلق (والثاني) أنه ذم في الخلق ، وهو مأخوذ من قولك : عتله إذا قاده بعنف وغلظة ، ومته قوله تعالى (فاعتلوه) أما الذين حملوه على ذم الخلق . فقال ابن عباس في رواية عطاء : يريد قوى ضخم . وقال مقاتل : واسع البطن ، وثيق الخلق . وقال الحسن : الفاحش الخلق ، اللثيم النفس . وقال عبيدة بن عمير : هو الأكل الشراب ، القوى الشديد . وقال الزجاج : هو العايظ الجافى . أما الذين حملوه على ذم الأخلاق ، فقالوا أنه الشديد الخصومة ، الفظ العنيف .

(الصفة التاسعة) قوله (الزنيم) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الزنيم أقوال (الأولى) قال الفراء : الزنيم هو الدعى المالمق بالقوم وليس منهم ، قال حسان :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الركب القدح الفرد

والزئمة من كل شيء الزيادة ، وزئمت الشاة أيضاً إذا شقت أذنفا فاسترخت وبيست وبقيت

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

كاشي المعلق ، فالحاصل أن الزنيم هو ولد الزنا الملحق بالقوم في النسب وليس منهم ، وكان الوليد دعياً في قريش وليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة [ليلة] من مولده . وقيل بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية (والقول الثاني) قال الشعبي هو الرجل يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزئمتها (والقول الثالث) روى عن عكرمة عن ابن عباس قال معنى كونه زنيماً أنه كانت له زئمة في عنقه يعرف بها ، وقال مقاتل كان في أصل أذنه مثل زئمة الشاة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله بعد ذلك معناه أنه بعد ما عدله من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم وهذا يدل على أن هذين الوصفين وهو كونه عتلاً زنيماً أشد معاييه لأنه إذا كان جافياً غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد ، ولهذا قال عليه الصلاة السلام « لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده » وقيل ههنا بعد ذلك نظير ثم في قوله (ثم كان من الذين آمنوا) وقرأ الحسن عتل رفعاً على الذم .

ثم إنه تعالى بعد تعديد هذه الصفات قال ﴿ أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن قوله (أن كان) يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله وأن يكون متعلقاً بما بعده (أما الأول) فتقديره : ولا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين ، أي لا تطعه مع هذه المثالب ليساره وأولاده وكثرته ، وأما (الثاني) فتقديره لأجل أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، والمعنى لأجل أن كان ذا مال وبنين جعل مجازاة هذه النعم التي خولها الله له الكفر بآياته قال أبو علي الفارسي العامل في قوله (أن كان) إما أن يكون هو قوله (تتلى) أو قوله قال أو شيئاً ثالثاً ، والأول باطل لأن تتلى قد أضيفت إذا إليه والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله ألا ترى أنك لا تقول القتال زيداً حين يأتي تريباً حين يأتي زيداً . ولا يجوز أن يعمل فيه أيضاً قال لأن قال جواب إذا ، وحكم الجواب أن يكون بعدما هو جواب له ولا يتقدم عليه ، ولما بطل هذان القسمان علمنا أن العامل فيه شيء ثالث دل مافي الكلام عليه وذلك هو يمجده أو يكفر أو يمسك عن قبول الحق أو نحو ذلك ، وإنما جاز أن يعمل المعنى فيه ، وإن كان متقدماً عليه لشبهه بالظرف ، والظرف قد تعمل فيه المعاني وإن تقدم عليها ، ويدل على مشابهته للظرف تقدير اللام معه ، فإن تقدير الآية : لأن كان ذا مال ، وإذا صار كالظرف لم يمتنع المعنى من أن يعمل فيه ، كما لم يمتنع من أن يعمل في نحو قوله (ينبتكم إذا مزقتم كل ممزق ، إنكم لفي خلق جديد) لما كان ظرفاً ، والعامل فيه القسم الدال عليه قوله (إنكم لفي خلق جديد) فكذلك قوله (أن كان ذا مال وبنين) تقديره : إنه جحد آياتنا ، لأن كان ذا مال وبنين أو كفر بآياتنا ، لأن كان ذا مال وبنين .

سَنَسْمُهُ عَلَى الْخَرْطُومِ ﴿١٦﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرى. (أن كان) على الاستفهام ، والتقدير : الآن كان ذال مال كذب ، أو التقدير : أنطيمه لأن كان ذال مال . وروى الزهري عن نافع : إن كان بالكسر ، والشرط للمخاطب ، أى لا تطع كل حلاف شارطاً يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه . فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونظير صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجيح إليه في قوله (لعله يتذكر) . واعلم أنه تعالى لما حكى عنه قبائح أفعاله وأقواله ، قال متوعداً له :

﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ وفيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ الوسم أثر السكية وما يشبهها ، يقال وسمته ، فهو موسوم بسمه يعرف بها إما كية ، وإما قطع في أذن ، علامة له .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المبرد : الخرطوم ههنا الأنف ، وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به ، لأن التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعية ، لأشياء تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافاً ، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر ، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحية ، واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : الأنف في الأنف وحى أنفه ، وفلان شاحخ العرنين ، وقالوا في الذليل : جدد أنفه ، ورغم أنفه ، فببر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين ، فكيف على أكرم موضع من الوجه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ منهم من قال : هذا الوسم يحصل في الآخرة ، ومنهم من قال : يحصل في الدنيا ، أما على (القول الأول) فقيه وجوه (أولها) وهو قول مقاتل ، وأبى العالية ، واختيار الفراء أن المراد أنه يسود وجهه قبل دخول النار ، والخرطوم وإن كان قد خص بالسمه فإن المراد هو الوجه لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض (وثانيها) أن الله تعالى سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل القيامة ، إنه كان غالباً في عداوة الرسول ، وفي إنكار الدين الحق (وثالثها) أن في الآية احتمالاً آخر عندي ، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحية ، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحية ، فببر عن هذا الاختصاص بقوله (سنسمه على الخرطوم) ، وأما على (القول الثاني) وهو أن هذا الوسم إنما يحصل في الدنيا فقيه وجوه : (أحدها) قال ابن عباس سنخطمه بالسيف فجدل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش . وروى أنه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا

يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾

(وثانيها) أن معنى هذا الوسم أنه يصير مشهوراً بالذکر الرديء والوصف القبيح في العالم ، والمعنى سنلحق به شيئاً لا يفارقه ونبين أمره بياناً واضحاً حتى لا يخفى كما لا يخفى السمة على الخراطيم . تقول العرب للرجل الذي تسبه في سببه قبيحة باقية فاحشة : قد وسمه ويسم سوء ، والمراد أنه ألصق به عاراً لا يفارقه كما أن السمة لا تنمحى ولا تزول البتة ، قال جرير :

لما وضعت على الفرزدق ويسمى وعلى البعيث جدعت أنف الأخطم

يريد أنه وسم الفرزدق [والبعيث] وجدع أنف الأخطم بالهجاء أى ألقي عليه عاراً لا يزول ، ولا شك أن هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر فكان ذلك كالوسم على الخراطيم ، وعما يشهد لهذا الوجه قول من قال في زعيم إنه يعرف بالشركا تعرف الشاة بزئمتها (وثالثها) يروى عن النضر بن شميل أن الخراطيم هو الخمر وأنشد :

نظل يومك في لهو وفي طرب وأنت بالليل شراب الخراطيم

فعل هذا معنى الآية : سنحدده على شرب الخمر وهو تعسف ، وقيل للخمر الخراطيم كما يقال لها السلافة ، وهى ما سلف من عصير العنب ، أو لأنها تطير في الخياشيم .

قوله تعالى : ﴿ إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستنتون ﴾ . اعلم أنه تعالى لما قال لأجل أن كان ذا مال وبنين ، جحد وكفر وعصى وتمرد ، وكان هذا استفهاماً على سبيل الإنكار . بين في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان ، وليصرفه إلى طاعة الله ، وليواطب على شكر نعم الله ، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم ، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات ، فقال (إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة) أى كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم ، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار ، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم ، روى أن واحداً من ثقيف وكان مسلماً ، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء ، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيباً وافراً للفقراء ، فلما مات ورثها منه بنوه ، ثم قولوا عيالنا كثير ، والمال قليل ، ولا يمكننا أن نعطي المساكين ، مثل ما كان يفعل أبونا ، فأحرق الله جنتهم ، وقيل كانوا من بني إسرائيل ، وقوله (إذ أقسموا) إذ حلفوا (ليصرمنها) ليقطعن ثمر نخيلهم مصبحين ، أى في وقت الصباح ، قال مقاتل معناه اغدوا سراً إلى جنتكم ، فاصرموها ، ولا تخبروا المساكين ، وكان أبوهم يخبر المساكين ، فيجتمعون عند صرام جنتهم ، يقال قد صرم العذق عن النخلة ، وأصرم النخل إذا حان وقت صرامه ، وقوله (ولا يستنتون) يعنى ولم يقولوا إن شاء

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾
فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾

الله ، هذا قول جماعة المفسرين ، يقال حلف فلان يمينا ليس فيها ثنيا ولا ثنوى ، ولا ثنية ولا مثنوية ولا استثناء ، وكلاء واحد ، وأصل هذا كله من الثنى وهو الكف والرد ، وذلك أن الحالف إذا قال والله لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله غيره ، فقد رد انعقاد ذلك اليمين ، واختلفوا في قوله (ولا يستنون) فالأكثرون أنهم إنما يستنونوا بمشيئة الله تعالى لأنهم كانوا أكلوا اثنين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة ، وقال آخرون ، بل المراد أنهم يصرمون كل ذلك ولا يستنونون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوم إلى المساكين .

ثم قال تعالى ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ﴾ طائف من ربك أى عذاب من ربك ، والطائف لا يكون إلا ليلأى طرفها طارق من عذاب الله ، قال الكلبى أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون ، فأصبحت الجنة كالصريم ، واعلم أن الصريم فعيل ، فيحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، وأن يكون بمعنى الفاعل وههنا احتمالات (أحدها) أنها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة فى هلاك الثمر وإن حصل الاختلاف فى أمور آخر ، فإن الأشجار إذا احترقت فإنها لا تشبه الأشجار التى قطعت ثمارها ، إلا أن هذا الاختلاف وإن حصل من هذا الوجه ، لكن المشابهة فى هلاك الثمر حاصلة (وثانيها) قال الحسن أى صرم عنها الخير فليس فيها شيء ، وعلى هذين الوجهين الصريم بمعنى المصروم (وثالثها) الصريم من الرمل قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمال وجمعه الصرائم ، وعلى هذا شبهت الجنة وهى محترقة لا ثمر فيها ولا خير بالرمل المنقطعة عن الرمال ، وهى لا تبت شيئاً ينتفع به (ورابعها) الصبح يسمى صريماً لأنه انصرم من الليل ، والمعنى أن تلك الجنة يبست وذهبت خضرتها ولم يبق فيها شيء ، من قولهم يبض الإناء إذا فرغه (وخامسها) أنها لما احترقت صارت سوداء كالليل المظلم ، والليل يسمى صريماً وكذا النهار يسمى أيضاً صريماً ، لأن كل واحد منهما ينصرم بالآخر ، وعلى هذا الصريم بمعنى الصارم ، وقال قوم سمي الليل صريماً ، لأنه يقطع بظلمته عن التصرف . وعلى هذا هو فعيل بمعنى فاعل ، وقال آخرون سميت الليلة بالصريم ، لأنها انصرم نور البصر وتقطعه .

ثم قال تعالى ﴿ فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض (اغدوا على حرثكم) ويعنى بالحرث الثمار والزروع والأعقاب ، ولذلك قال صارمين لأنهم أرادوا قطع الثمار من هذه الأشجار . فإن قيل لم لم

فَانْطَلِقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾

وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ

مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾

يقول اغدوا إلى حرثكم ، وما معنى على ؟ قلنا لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه كما تقول غدا عليهم العدو ، ويجوز أن تضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليهم بالجفنة ويراح ، أى فأقبلوا على حرثكم باكرين .

قوله تعالى ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أى يتدأرون فيما بينهم ، وخفي وخفت وخفد ثلاثها فى معنى كتم ومنه الخفدود للخماش ، قال ابن عباس : غدوا إليها بـدقة يسر بعضهم إلى بعض الكلام لئلا يعلم أحد من الفقراء والمساكين .

ثم قال تعالى ﴿ أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين ﴾ (أن) مفسرة ، وقرأ ابن مسعود بطرحها باضمار القول أى يتخافتون يقولون (لا يدخلها) والنهى للمسكين عن الدخول نهى لهم عن تمسكته منه ، أى لا تمسكوه من الدخول ، كقولك لا أرينك ههنا .

ثم قال ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ وفيه أفعال (الأول) الحرد المنع يقال حاردت السنة إذا قل رطرها ، ومنعت ريدها ، وحاردت الناقة إذا منعت لبنها ، فقل اللبن ، والحرد الغضب ، وهما لغتان الحرد والحرد والتحريك أكثر ، وإنما سمي الغضب بالحرد لأنه كالمانع من أن يدخل المغضوب منه فى الوجود ، والمعنى وغدوا وكانوا عند أنفسهم وفى ظهم قادرين على منع المساكين (الثانى) قيل الحرد القصد والسرعة ، يقال حردت حردك قال الشاعر :

أقبل سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الحية المغلغله

وقطأ حراد أى سراع ، يعنى وغدوا قاصدين إلى جنهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون نحن نقدر على صرامها ، ومنع منفعتها عن المساكين (والثالث) قيل حرد علم لتلك الجنة أى غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم ، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان .

قوله تعالى : ﴿ فلما رأوها قالوا إنا ضالون ، بل نحن محرومون ﴾ فيه وجوه (أحدها) أنهم لما رأوا جنهم محترقة ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق ، فقالوا (إنا ضالون) ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هى قالوا (بل نحن محرومون) حرماناً خيراً ما بشؤم عزمنا على البخل ومنع الفقراء (وثانيها) يحتمل

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوُمُونَ ﴿٣٠﴾

أنهم لما رأوا جنتهم محترقة قالوا (إنا لمانون) حيث كنا عازمين على منع الفقراء ، وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع بها ، بل الأمر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين .

قوله تعالى ﴿ قال أوسطهم ﴾ يعنى أعدلهم وأفضلهم وبيننا وجهه في تفسير قوله أمة وسطاً . ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ يعنى هلا تسبحون وفيه وجوه (الأول) قال، إلا كثرون معناه هلا تستثنون فتقولون إن شاء الله ، لأن الله تعالى إنما عابهم بأنهم لا يستثنون ، وإنما جاز تسمية قول إن شاء الله بالتسبيح لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل سوء ، فلو دخل شيء في الوجود على خلاف إرادة الله ، لكان ذلك يوجب عودة نقص إلى قدرة الله ، فقولك إن شاء الله ، يزيل هذا النقص ، فكان ذلك تسبيحاً .

واعلم أن لفظ القرآن يدل على أن القوم كانوا يملفون ويتركون الاستثناء وكان أوسطهم ينههم عن ترك الاستثناء ويخوفهم من عذاب الله ، فلهذا حكى عن ذلك الأوسط أنه قال بعد وقوع الواقعة (ألم أقل لكم لولا تسبحون) ، (الثاني) أن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغثروا بهم وقوتهم ، قال الأوسط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب ، فلما رأوا العذاب ذكرهم ذلك الكلام الأول وقال (لولا تسبحون) فلا جرم اشتغل القوم في الحال بالتوبة .

﴿ وقالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به لكن بعد خراب البصرة (الثالث) قال الحسن هذا التسبيح هو الصلاة كأنهم كانوا يتكاسلون في الصلاة وإلا لكانت ناهية لهم عن الفحشاء والمنكر وكانت داعية لهم إلى أن يواظبوا على ذكر الله وعلى قول إن شاء الله ، ثم إنه تعالى لما حكى عن ذلك الأوسط أنه أمرهم بالتوبة والتسبيح حكى عنهم أشياء (أولها) أنهم اشتغلوا بالتسبيح وقالوا في الحال (سبحان ربنا) عن أن يجرى في ملكه شيء إلا بإرادته ومشئته ، ولما وصفوا الله تعالى بالتنزيه والتقديس اعترفوا بسوء أفعالهم (وقالوا إنا كنا ظالمين) .

(وثانيها) ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلأومون ﴾ أى يلوم بعضهم بعضاً يقول هذا لهذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي ، ويقول ذاك لهذا أنت خرفتنا بالفقر ، ويقول الثالث لغيره أنت الذى رغبتى في جمع المال فهذا هو التلاوم .

قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا

رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ ۗ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ

لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾

ثم نادوا على أنفسهم بالويل ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ والمراد أنهم استعظموا جرمهم ثم قالوا عند ذلك ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها﴾ قرىء يبدلنا بالتخفيف والتشديد ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه ، واختلف العلماء ههنا ، فمنهم من قال إن ذلك كان توبة منهم ، وتوقف بعضهم في ذلك ، قالوا لأن هذا الكلام يحتمل أنهم إنما قالوه رغبة منهم في الدنيا .

ثم قال تعالى ﴿كذلك العذاب﴾ يعني كما ذكرنا من إحراقها بالنار . وههنا تم الكلام في قصة أصحاب الجنة .

واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة أمران (أحدهما) أنه تعالى قال (أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) والمعنى : لأجل أن أعطاه المال والبنين كفر بالله كلا : بل الله تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء ، فإذا صرفه إلى الكفر دمر الله عليه بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدير اليسير من المعصية دمر الله على جنهم فكيف يكون الحال في حق من عابد الرسول وأصر على الكفر والمعصية (والثاني) أن أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة ويمنعوا الفقراء عنها فقلب الله عليهم القضية فكذا أهل مكة لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمداً وأصحابه ، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمر ، فأخلف الله ظنهم فقتلوا وأسروا كأهل هذه الجنة .

ثم إنه لما خوف الكفار بعذاب الدنيا قال ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ وهو ظاهر لا حاجة به إلى التفسير .

ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال السعداء ، فقال ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ . (عند ربهم) أي في الآخرة (جنات النعيم) أي جنات ليس لهم فيه إلا التمتع الخالص . لا يشوبه ما ينتقصه ، كما يشوب جنات الدنيا ، قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للدسليين : إن الله تعالى فضلنا عليكم في الدنيا ، فلا بد وأن يفضلنا عليكم في الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل ، فلا أقل من المساواة .

أَفَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾

ثم إن الله تعالى أجاب عن هذا الكلام بقوله ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ﴾ ومعنى الكلام أن التسوية بين المطيع والعاصي غير جائزة ، وفي الآية مسائل .
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ قال القاضي : فيه دليل واضح على أن وصف الإنسان بأنه مسلم ومجرم كالمتنافي ، فالفاسق لما كان مجرماً وجب أن لا يكون مسلماً (والجواب) أنه تعالى أنكر جعل المسلم مثلاً للمجرم ، ولا شك أنه ليس المراد إنكار المماثلة في جميع الأمور ، فإنهما يتماثلان في الجهرية والجسمية والحدوث والحيوانية ، وغيرها من الأمور الكثيرة ، بل المراد إنكار استوائهما في الإسلام والجرم ، أو في آثار هذين الأمرين ، أو المراد إنكار أن يكون أثر إسلام المسلم مساوياً لأثر جرم المجرم عند الله ، وهذا مسلم لا نزاع فيه ، فمن أين يدل على أن الشخص الواحد يتمتع أن يجتمع فيه كونه مسلماً ومجرماً ؟

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائي : دلت الآية على أن المجرم لا يكون البتة في الجنة ، لأنه تعالى أنكر حصول التسوية بينهما ، ولو حصل في الجنة ، لحصلت التسوية بينهما في الثواب ، بل لعله يكون ثواب المجرم أزيد من ثواب المسلم إذا كان المجرم أطول عمراً من المسلم ، وكانت طاعته غير محبطة (الجواب) هذا ضعيف لأننا بينا أن الآية لا تمنع من حصول التسوية في شيء أصلاً بل تمنع من حصول التسوية في درجة الثواب ، ولعلمها يستويان فيه بل يكون ثواب المسلم الذي لم يعص أكثر من ثواب من عصي ، على أننا نقول لم لا يجوز أن يكون المراد من المجرمين هم الكفار الذين حكى الله عنهم هذه الواقعة وذلك لأن حمل الجمع المحلى بالألف واللام على المعهود السابق مشهور في اللغة والعرف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن الله تعالى استنكر التسوية بين المسلمين والمجرمين في الثواب ، فدل هذا على أنه يقبح عقلاً ما يحكي عن أهل السنة أنه يجوز أن يدخل الكفار في الجنة والمطيعين في النار (والجواب) أنه تعالى استنكر ذلك بحكم الفضل والإحسان ، لا أن ذلك بسبب أن أحداً يستحق عليه شيئاً .

واعلم أنه تعالى لما قال على سبيل الاستبعاد (أفجعل المسلمين كالمجرمين) قرر هذا الاستبعاد بأن قال على طريقة الالتفات (ما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم المعوج .

ثم قال ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ وهو كقوله تعالى (أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم) والأصل تدرسون أن لكم ما تتخيرون بفتح أن لأنه مدرس ، فلما

أَمْ لَكُمْ إِيمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا
 بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ
 ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ

جاءت اللام كسرت ، وتخير الشيء واختاره ، أى أخذ خيريه ونحوه تنخلة وانتخله إذا أخذ منخوله .
 قوله تعالى : ﴿ أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ وفيه مسألتان :
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال لفلان على يمين بكذا إذا ضمنته منه وخلقت له على الوفاء به يعنى
 أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغالطة متناهية في التوكيد . فان قيل إلى في قوله (إلى يوم القيامة)
 بم يتعلق ؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أنها متعلقة بقوله (بالغة) أى هذه الأيمان في قوتها وكالها
 بحيث تبلغ إلى يوم القيامة (والثانى) أن يكون التقدير . إيمان ثابتة إلى يوم القيامة . ويكون
 معنى بالغة هو كدة كما تقول جيدة بالغة ، وكل شيء مشتهر في الصحة والجودة فهو بالغ ، وأما قوله
 (إن لكم لما تحكمون) فهو جواب القسم لأن معنى (أم لكم إيمان علينا) أم أقسمنا لكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن بالغة بالنصب وهو نصب على الحال من الضمير في الظرف .
 ثم قال للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ سلّموا بهم بذلك زعيم ﴾ والمعنى أيهم بذلك الحكم
 زعيم ، أى قائم به وبالأستدلال على صحته ، كما يقوم زعيم القوم بإصلاح أمورهم .
 ثم قال ﴿ أم لهم شركاء فليأتوا بشركاتهم إن كانوا صادقين ﴾ وفي تفسيره وجهان (الأول)
 المعنى أم لهم أشياء يعتقدون أنها شركاء الله فيعتقدون أن أولئك الشركاء يجعلونهم في الآخرة مثل
 المؤمنين في الثواب والخلاص من العقاب ، وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوها شركاء الله
 وهذا كقوله (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) ، (الوجه الثانى) فى المعنى أم لهم
 ناس يشاركونهم فى هذا المذهب وهو التسوية بين المسلمين والمجربين ، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين
 فى دعواهم ، والمراد بيان أنه كما ليس لهم دليل عقلى فى إثبات هذا المذهب ، ولا دليل نقلى
 وهو كتاب يدرسونه ، فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول ، وذلك يدل على أنه
 باطل من كل الوجوه .

واعلم أنه تعالى لما أبطل قولهم ، وأفسد مقالهم شرح ببد ذلك عظمة يوم القيامة .

فقال ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يوم منصوب بماذا ؟ فيه ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه منصوب ، بقوله :
 (فليأتوا) فى قوله : (فليأتوا بشركاتهم) وذلك أن ذلك اليوم يوم شديد ، فكانه تعالى قال :

(إن كانوا صادقين) في أنها شركاء فليأتوا بها يوم القيامة ، لتنفعهم وتشفع لهم (وثانيها) أنه منصوب بإضمار اذ كر (وثالثها) أن يكون التقدير يوم يكشف عن ساق ، كان كيت وكيت فحذف للنهويل البليغ ، وأن ثم من الكوائن مالا يوصف لعظمته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذا اليوم الذى يكشف فيه عن ساق ، أهو يوم القيامة أو في الدنيا ؟ فيه قولان : (الأول) وهو الذى عليه الجمهور ، أنه يوم القيامة ، ثم في تفسير الساق وجوه : (الأول) أنه الشدة ، وروى أنه سئل ابن عباس عن هذه الآية ، فقال : إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر ، فإنه ذيوان العرب ، أما سمعتم قول الشاعر .

سن لنا قومك ضرب الاعناق وقامت الحرب بنا على ساق

ثم قال : وهو كرب وشدة ، وروى مجاهد عنه قال : هو أشد ساعة في القيامة ، وأنشد أهل اللغة أبياتاً كثيرة [منها] :

فإن شمرت لك عن ساقها فذنها ربيع ولا تسأم
ومنها : كشفت لكم عن ساقها وبدا من الشر الصراح
وقال جرير : الأرب سام الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا
وقال آخر : في سنة قد شمرت عن ساقها حمراء تبرى اللحم عن عراقها
وقال آخر : قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدا

ثم قال ابن قتيبة أصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجهد فيه ، يشمر عن ساقه ، فلا جرم يقال في موضع الشدة كشف عن ساقه ، وأعلم أن هذا اعتراف من أهل اللغة بأن استعمال الساق في الشدة مجاز ، وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الكلام إلى المجاز إلا بعد تعذر حمله على الحقيقة ، فإذا أقننا الدلائل القاطعة على أنه تعالى ، يستحيل أن يكون جسماً ، فحينئذ يجب صرف اللفظ إلى المجاز ، وأعلم أن صاحب الكشاف أورد هذا التأويل في معرض آخر ، فقال الكشف عن الساق مثل في شدة الأمر ، فعنى قوله (يوم يكشف عن ساق) يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا يكشف ثم ، ولا ساق ، كما تقول للأفطع الشحيح يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل . وإنما هو مثل في البخل ، ثم أخذ يعظم علم البيان ويقول لولاه لما وقفنا على هذه الأسرار (وأقول) إما أن يدعى أنه صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل ، أو يقول إنه لا يجوز ذلك إلا بعد امتناع حمله على الحقيقة ، والأول باطل بإجماع المسلمين ، ولأننا إن جوزنا ذلك انفتحت أبواب تأويلات الفلاسفة في أمر المعاد فإنهم يقولون في قوله (جنات تجري من تحتها الأنهار) ليس هناك لأنهار ولا أشجار ، وإنما هو مثل للذة والسعادة ، ويقولون في قوله : (اركعوا واسجدوا) ليس هناك لا سجود ولا ركوع . وإنما هو مثل للتعظيم ، ومعلوم أن ذلك يفضى إلى رفع الشرائع وفساد الدين ، وأما إن قال . بأنه لا يصر إلى هذا التأويل إلا بعد قيام الدلالة ، على أنه لا يجوز حمله على

ظاهرة ، فهذا هو الذى لم يزل كل أحد من المتكلمين [إلا] قال به وعول عليه ، فأين هذه الدقائق ، التى استبدت بمعرفة والاطلاع عليها بواسطة علم البيان ، فرحم الله أمراً عرف قدره ، وما تجاوز طوره (القول الثانى) وهو قول أبى سعيد الضرير : يوم يكشف عن ساق ، أى عن أصل الأمر ، وساق الشيء أصله الذى به قوامه كساق الشجر ، وساق الإنسان ، أى يظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها (القول الثالث) يوم يكشف عن ساق جهنم ، أو عن ساق العرش ، أو عن ساق ملك مهيب عظيم ، واللفظ لا يدل إلا على ساق ، فأما أن ذلك الساق ساق أى شيء هو فليس فى اللفظ ما يدل عليه (والقول الرابع) وهو اختيار المشبهة ، أنه ساق الله ، تعالى الله عنه روى عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسلام « أنه تعالى يتمثل للخلق يوم القيامة حين يمر المسلمون ، فيقول من تعبدون ؟ فيقولون نعبد الله فيشهدهم مرتين أو ثلاثاً ثم يقول ، هل تعرفون ربكم ، فيقولون سبحانه إذا عرفنا نفسه عرفناه ، فعند ذلك يكشف عن ساق ، فلا يبقى مؤمن إلا خر ساجداً ، ويبقى المنافقون ظهورهم كالطبق الواحد كما إنما فيها السفايد ، واعلم أن هذا القول باطل لوجوه (أحدها) أن الدلائل دلت على أن كل جسم محدث ، لأن كل جسم متناه ، وكل متناه محدث ولأن كل جسم فإنه لا ينفك عن الحركة والسكون ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، ولأن كل جسم يمكن ، وكل يمكن محدث (وثانيها) أنه لو كان المراد ذلك لكان من حق الساق أن يعرف ، لأنها ساق مخصوصة معهودة عند ، وهى ساق الرحمن ، أما لو حملناه على الشدة ، ففائدة التكرير الدلالة على التعظيم ، كأنه قيل يوم يكشف عن شدة ، وأى شدة ، أى شدة لا يمكن وصفها (وثالثها) أن التعريف لا يحصل بالكشف عن الساق ، وإنما يحصل بكشف الوجه (القول الثانى) أن قوله (يوم يكشف عن ساق) ليس المراد منه يوم القيامة ، بل هو فى الدنيا ، وهذا قول أبى مسلم قال أنه لا يمكن حمله على يوم القيامة لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم (ويدعون إلى السجود) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه ، إما آخر أيام الرجل فى دنياه كقوله تعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى) ثم أنه يرى الناس يدعون إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لا يستطيع الصلاة لأنه الوقت الذى لا ينفع نفساً إيمانها ، وإما حال الهرم والمره والعمى وقد كانوا قبل ذلك اليوم يدعون إلى السجود وهم سالمون بما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت أو من العجز والهرم ، ونظير هذه الآية قوله (فلولا إذا بلغت الحلقوم) واعلم أنه لا نزاع فى أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم ، فأما قوله إنه لا يمكن حمله على القيامة بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ههنا ، والتكاليف زائلة يوم القيامة . لجوابه أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقرير والتنجيل ، فلم قلتم إن ذلك غير جائز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرئ (يوم تكشف) بالنون (وتكشف) بالياء المنقوطة من فوق على البناء للفاعل والمفعول جميعاً والفعل للساعة أو للحال ، أى يوم يشتد الحال أو الساعة ، كما تقول

وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشَعَةً أَبْصَرَهُمْ تَرَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ
كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرَّنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾

كشف الحرب عن ساقها على الحجاز وقرى. تكشف بالباء المضمومة وكسر الشين من أكشف
إذا دخل في المكشف، ومنه أكشف الرجل فهو مكشف إذا انقلبت شفته العليا.
قوله تعالى : ﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا
يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

اعلم أنا بينما أنهم لا يدعون إلى السجود تعبدًا وتكليفًا ، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم
السجود في الدنيا ، ثم إنه تعالى حال ما يدعوهم إلى السجود يسلب عنهم القدرة على السجود ، ويحول
بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه ، حين دعوا إلى السجود
وهم سالموا الاطراف والمفاصل . قال الجبائي لما خصص عدم الاستطاعة بالآخرة دل ذلك على
أنهم في الدنيا كانوا يستطيعون ، فبطل بهذا قول من قال الكافر لا قدرة له على الإيمان ، وإن
القدرة على الإيمان لا تحصل إلا حال وجود الإيمان (والجواب) عنه أن علم الله بأنه لا يؤمن
مناف لوجود الإيمان والجمع بين المتنافيين محال ، فالاستطاعة في الدنيا أيضا غير حاصلة على قول الجبائي .
أما قوله ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ فهو حال من قوله (لا يستطيعون ... ترهقهم ذلة) يعني ياحقهم ذل
بسبب أنهم ما كانوا مواظبين على خدمة مولاهم مثل العبد الذي أعرض عنه مولاه ، فإنه يكون
ذليلا فيما بين الناس ، وقوله (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) يعني حين كانوا يدعون
إلى الصلوات بالأذان والإقامة وكانوا سالمين قادرين على الصلاة ، وفي هذا وعيد لمن قعد عن
الجماعة ولم يجب المؤذن إلى إقامة الصلاة في الجماعة .

قوله تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ .
اعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف لوفهم بما عنده ، وفي
قدرته من القهر ، فقال ذرني وإياه ، يريد كله إلى ، فإني أكفيك ، كأنه يقول : يا محمد حسبك انتقاماً
منه أن تكل أمره إلى ، وتخلي بيني بينه ، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك ، ثم قال
(سنستدرجهم) يقال استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه . وقوله
(من حيث لا يعلمون) قال أبو روق (سنستدرجهم) أي كلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة وأنسيناهم
الاستغفار ، فالاستدرج إنما حصل في الاغتناء الذي لا يشعرون أنه استدرج ، وهو الإنعام

وَأَمْلى لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾

عليهم لأنهم بحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم .
ثم قال ﴿ وأملى لهم إن كيدي متين ﴾ أي أمهاتهم كقوله (إنما نملى لهم ليزدادوا إنمًا) وأطيل لهم المدة والملاوة الممدة من الدهر، يقال أملى الله له، أي أطال الله له الملاوة والملوان الليل والنهار، والملا مقصوراً الأرض الواسعة سميت به لامتدادها . وقيل (وأملى لهم) أي بالموت فلا أعاجلهم به، ثم إنه إنما سمي إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد، ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في النسب للهلاك، واعلم أن الأصحاب تمسكوا بهذه الآية في مسألة إرادة الكائنات، فقالوا هذا الذي سماه بالاستدراج وذلك الكيد، إما أن يكون له أثر في ترجيح جانب الفعل على جانب الترك، أو يكون له فيه أثر، والأول باطل، وإلا لسكان هو سائر الأشياء الأجنبية بثابة واحدة، فلا يكون استدراجاً البتة ولا كيداً، وأما الثاني فهو يقتضي كونه تعالى مريداً لذلك الفعل الذي ينساق إليه ذلك الاستدراج وذلك الكيد، لأنه إذا كان تعالى لا يزال يؤكد هذا الجانب، ويفتر ذلك الجانب الآخر، واعلم أن تأكيد هذا الجانب لا بد وأن ينساق بالآخرة إلى فعله ودخوله في الوجود، فلا بد وأن يكون مريداً لدخول ذلك الفعل في الوجود وهو المطلوب، أجاب الكعبي عنه، فقال المراد سنستدرجهم إلى الموت من حيث لا يعلمون، وهذا هو الذي تقتضيه الحكمة بأنهم لو عرفوا الوقت الذي يموتون فيه لصاروا آمنين إلى ذلك الوقت ولا قدموا على المعاصي . وفي ذلك إغراء بالمعاصي، وأجاب الجانب عنه، فقال (سنستدرجهم) إلى العذاب من حيث لا يعلمون في الآخرة، (وأملى لهم) في الدنيا تو كيداً للحجة عليهم (إن كيدي متين) فأمهله وأزجح الأعذار عنه (لهلك من ذلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) فهذا هو المراد من الكيد المتين، ثم قال : والذي يدل على أن المراد ما ذكرنا أنه تعالى قال قبل هذه الآية (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) ولا شك أن هذا التهديد إنما وقع بمقاب الآخرة، فوجب أن يكون المراد من الاستدراج والكيد المذكورين عقبيه هو عذاب الآخرة . أو العذاب الحاصل عند الموت، واعلم أن أصحابنا قالوا الحرف الذي ذكرناه وهو أن هذا الإمهال إذا كان متأدياً إلى الطغيان كان الراضى بالإمهال العالم بتأديه إلى الطغيان لا بد وأن يكون راضياً بذلك الطغيان، واعلم أن قولهم (سنستدرجهم - إلى قوله - إن كيدي متين) مفسر في سورة الأعراف .

ثم قال تعالى ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ﴾ وهذه الآية مع ما بعدها مفسرة في سورة الطور، وأقول إنه أعاد الكلام إلى ما تقدم من قوله (أم لهم شركاء) والمغرم الغرامة أي لم يطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ
كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ
رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾

ثم قال تعالى ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ وفيه وجهان (الأول) أن عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ثواب ما هم عليه من الكفر والشرك ، فلذلك أصرروا عليه ، وهذا استفهام على سبيل الإنكار (الثاني) أن الأشياء الغائبة كأنها حضرت في عقولهم حتى أنهم يكتبون على الله أي يحكمون عليه بما شاءوا وأرادوا .

ثم إنه تعالى لما بالغ في تزييف طريقة الكفار وفي زجرهم عما هم عليه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ وفيه وجهان (الأول) فاصبر لحكم ربك في إمامهم وتأخير نصرتك عليهم (والثاني) فاصبر لحكم ربك في أن أوجب عليك التبليغ والوحي وأداء الرسالة ، وتحمل ما يحصل بسبب ذلك من الأذى والخنة .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العامل في (إذ) معنى قوله (كصاحب الحوت) يريد لا تكن كصاحب الحوت حال ندائه وذلك لأنه في ذلك الوقت كان مكظوماً فكأنه قيل لا تكن مكظوماً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ صاحب الحوت يونس عليه السلام ، إذ نادى في بطن الحوت بقوله : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ، (وهو مكظوم) مملوء غيظاً من كظم السقاء إذا ملأه ، والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة ، فتبلى ببلائه .

ثم قال تعالى ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ وقرئ . رحمة من ربه ، وههنا سوالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يقل لولا أن تداركته نعمة من ربه ؟ (الجواب) إنما حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود تداركته ، وقرأ الحسن : تداركه ، أي تداركه على حكاية الحال الماضية ، بمعنى لولا أن كان ، يقال فيه تداركه ، كما يقال كان زيد سيقوم فنعمه فلان ، أي كان يقال فيه سيقوم ، والمعنى كان متوقفاً منه القيام .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما المراد من قوله (نعمة من ربه) ؟ (الجواب) المراد من تلك النعمة ، هو أنه تعالى أنعم عليه بالتوفيق للتوبة ، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الصالحات والطاعات إلا بتوفيقه وهدايته .

فَاجْتَبَهُ رَبُّهُ وَفَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٩﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ

بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ

(السؤال الثالث) أين جواب لولا ؟ (الجواب) من وجهين (الأول) تقدير الآية : لولا هذه النعمة لنبت بالعراء مع وصف المذمومية ، فلما حصلت هذه النعمة لا جرم لم يوجد النبت بالعراء مع هذا الوصف ، لأنه لما فقد هذا الوصف : فقد فقد ذلك المجموع (الثاني) لولا هذه النعمة لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ثم نبت بعراء القيامة مذموماً ، ويدل على هذا قوله (فلولا أنه كان من المسبحين ، لبث في بطنه إلى يوم يبعثون) وهذا كما يقال : عرصة القيامة ؛ وعراء القيامة .

(السؤال الرابع) هل يدل قوله (وهو مذموم) على كونه فاعلاً للذنب ؟ (الجواب) من ثلاثة أوجه (الأول) أن كلمة (لولا) دلت على أن هذه المذمومية لم تحصل (الثاني) لعل المراد من المذمومية ترك الأفضل ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين (الثالث) لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله (فاجتبه ربه) والفاء للتعقيب .

(السؤال الخامس) ما سبب نزول هذه الآيات ؟ (الجواب) يروى أنها نزلت بأحد حين حل برسول الله ما حل ، فأراد أن يدعوا على الذين انهزموا ، وقيل حين أراد أن يدعو على ثقيف . قوله تعالى : ﴿ فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية وجهان (أحدهما) قال ابن عباس رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه (والثاني) قال قوم ولعله ما كان رسولا صاحب وحي قبل هذه الواقعة ثم بعد هذه الواقعة جعله الله رسولا ، وهو المراد من قوله (فاجتبه ربه) والذين أنكروا الكرامات والإرهاص لا بد وأن يختاروا القول الأول . لأن احتباسه في بطن الحوت وعدم موته هناك لما لم يكن إرهاباً ولا كرامة فلا بد وأن يكون معجزة وذلك يقتضى أنه كان رسولا في تلك الحالة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب على أن فعل العبد خلق الله تعالى بقوله (فجعله من الصالحين) فالآية تدل على أن ذلك الصلاح إنما حصل بجعل الله وخلقه ، قال الجبائي يحتمل أن يكون معنى جعله أنه أخبر بذلك ، ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح إذ جعل يستعمل في اللغة في هذه المعاني (والجواب) أن هذين الوجهين اللذين ذكرتم مجاز ، والأصل في الكلام الحقيقة . قوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام عليها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ (ليزلقونك) بضم الياء وفتحها ، وزلقه وأزلقه بمعنى ويقال زلق

الرأس وأزلقه حلقة ، وقرىء ليزهقهونك من زهقت نفسه وأزهقها ، ثم فيه وجوه (أحدها) أنهم من أشدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بميون العداوة والبغضاء يكادون يزولون قدمك من قولهم : نظر إلى نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني . أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله ، قال الشاعر :

يتقارضون إذا التقوا في موطن نظراً يزل مواطئ الأقدام
وأنشد ابن عباس لما مر بأقوام حددوا النظر إليه :

نظروا إلى بأعين حمرة نظر التيوس إلى شفار الجازر

وبين الله تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي صلى الله عليه وسلم القرآن وهو قوله (لما سمعوا الذكر) (الثاني) منهم من حملة على الإصابة بالعين ، وههنا مقامان (أحدهما) الإصابة بالعين ، هل لها في الجملة حقيقة أم لا ؟ (الثاني) أن بتقدير كونها صحيحة ، فهل الآية ههنا مفسرة بها أم لا ؟

(المقام الأول) من الناس من أنكر ذلك ، وقال تأثير الجسم في الجسم لا يعقل إلا بواسطة المماس ، وههنا لاماسة ، فامتنع حصول التأثير .

واعلم أن المقدمة الأولى ضعيفة ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن ، فإن كان الأول لم يمتنع اختلاف النفوس في جواهرها وماهياتها ، وإذا كان كذلك لم يمتنع أيضاً اختلافها في لوازمها وآثارها ، فلا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير ، وإن كان الثاني لم يمتنع أيضاً أن يكون مزاج إنسان واقماً على وجه مخصوص يكون له أثر خاص ، وبالجملة فالاحتمال العقلي قائم ، وليس في بطلانه شبهة فضلاً عن حجة ، والدلائل السمعية ناطقة بذلك ، كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال « العين حق » وقال « العين تدخل الرجل القبر والجل القدر » .

(والمقام الثاني) من الناس من فسر الآية بهذا المعنى قالوا : كانت العين في بني أسد ، وكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء ، فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله ، إلا عانه ، فالتمس الكفار من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول في رسول الله ﷺ ذلك ، فعصمه الله تعالى ، وطعن الجبائي في هذا التأويل وقال : الإصابة بالعين تنشأ عن استحسان الشيء ، والقوم ما كانوا ينظرون إلى الرسول عليه السلام على هذا الوجه ، بل كانوا يمتقونه ويغضونه ، والنظر على هذا الوجه لا يقتضى الإصابة بالعين .

واعلم أن هذا السؤال ضعيف ، لأنهم وإن كانوا يغضونه من حيث الدين لعلهم كانوا يستحسنون فصاحته ، وإيراده للدلائل . وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين قراءة هذه الآية .

وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

ثم قال تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ وهو على ما افتتح به السورة ﴿ وما هو ﴾ أى وما هذا القرآن الذى يزعمون أنه دلالة جنونه ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ فإنه تذكير لهم ، وبيان لهم ، وأدلة لهم ، وتنبيه لهم على ما فى عقولهم من أدلة التوحيد ، وفيه من الآداب والحكم ، وسائر العلوم ما لا حصر ، ولا حصر ، فكيف يدعى من يتلوه مجنوناً ، ونظيره مما يذكرون ، مع أنه من أدلة الأمور على كمال الفضل والعقل . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٦٩) سُورَةُ الْحَاقَّةِ الْمَكِّيَّةِ
وَأَيَّانَهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أُدْرِكُ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أجمعوا على أن (الحاقة) هي القيامة واختلفوا في معنى الحاقة على وجوه :
(أحدها) أن الحق هو الثابت السكأن ، فالحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المحيىء التي هي آية لا ريب فيها (وثانيتها) أنها التي تحقق فيها الأمور أى تعرف على الحقيقة من قولك لا أحق هذا أى لا أعرف حقيقته جعل الفعل لها وهو لأهلها (وثالثتها) أنها ذوات الحواق من الأمور وهي الصادقة الواجبة الصدق ، والثواب والعقاب وغيرهما من أحوال القيامة أمور واجبة الوقوع والوجود فهي كلها حواق (ورابعها) أن (الحاقة) بمعنى الحقيقة والحقة أخص من الحق وأوجب تقول هذه حقنى أى حقى ، وعلى هذا (الحاقة) بمعنى الحق ، وهذا الوجه قريب من الوجه الأول (وخامسها) قال الليث (الحاقة) النازلة التي حقت بالجارية فلا كاذبة لها وهذا معنى قوله تعالى (ليس لوقعتها كاذبة) ، (وسادسها) (الحاقة) الساعة التي يحق فيها الجزاء على كل ضلال وهدى وهي القيامة (وسابعها) (الحاقة) هو الوقت الذي يحق على القوم أن يقع بهم (وثامنها) أنها الحق بأن يكزن فيها جميع آثار أعمال المكلفين فإن في ذلك اليوم يحصل الثواب والعقاب ويخرج عن حد الانتظار وهو قول الزجاج (وتاسعها) قال الأزهري : والذي عندي في (الحاقة) أنها سميت بذلك لأنها تحقق كل محاق في دين الله بالباطل أى تخاصم كل مخاصم وتغلبه ، من قولك حاقفته فحقفته أى غالبته فغلبته وفلجت عليه (وعاشرها) قال أبو مسلم (الحاقة) الفاعلة من حقت كلمة ربك .
﴿ المسألة الثانية ﴾ (الحاقة) مرفوعة بالابتداء وخبرها (ما الحاقة) والأصل (الحاقة) ما هي أى شىء هي ؟ تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لها فوضع الظاهر موضع المضمرة لأنه أهول لها ومثله قوله ﴿ القارعة ما القارعة ﴾ وقوله (وما أدراك) أى أى شىء أعلمك (ما الحاقة) يعنى إنك لا أعلم لك بكنهها ومدى عظمها ، يعنى أنه في العظم والشدة بحيث لا يبلغه دهاية أحد ولا وهما وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك (وما) في موضع الرفع على الاتداء و (أدراك) معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿١٠١﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿١٠٢﴾ وَأَمَّا عَادٌ

فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ (القارعة) هي التي تفرع الناس بالإفزع والاهوال ، والسما بالانشقاق والانفطار ، والارض والجبال بالدك والانسف ، والنجوم بالطمس والانيكدار ، وإنما قال (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) ولم يقل بها ، ليدل على أن معنى القرع حاصل في الحاقة ، فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها . ولما ذكرها ونخمها أتبع ذلك بذكر من كذب بها ، وما حل بهم بسبب التكذيب تذكرياً لأهل مكة ، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذبيهم .

قوله تعالى ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ .

اعلم أن في الطاغية أقرالا (الأول) أن الطاغية هي الواقعة المجاوزة للحد في الشدة والقوة ، قال تعالى (إنا لما طغى الماء) أى جاوز الحد ، وقال (ما زاغ البصر وما طغى) فعلى هذا القول الطاغية نعت محذوف ، واختلفوا في ذلك المحذوف ، فقال بعضهم : إنها الصيحة المجاوزة في القوة والشدة للصيحات ، قال تعالى (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) وقال بعضهم ، إنها الرجفة ، وقال آخرون : إنها الصاعقة (والقول الثاني) أن الطاغية ههنا الطغيان ، فهى مصدر كالكاذبة والباقية والعاقبة والعافية ، أى أهلكوا بطغيانهم على الله إذ كذبوا رسله وكفروا به ، وهو منقول عن ابن عباس ، والمتأخرون طعنوا فيه من وجهين (الأول) وهو الذى قاله الزجاج : أنه لما ذكر في الجملة الثانية نوع الشيء الذى وقع به العذاب ، وهو قوله تعالى (بريح صرصر) وجب أن يكون الحال في الجملة الأولى كذلك حتى تكون المناسبة حاصلة (والثاني) وهو الذى قاله القاضى : وهو أنه لو كان المراد ما قالوه ، لكان من حق الكلام أن يقال : أهلكوا لها ولاجلها (والقول الثالث) (بالطاغية) أى بالفرقة التي طغت من جملة ثمود ، فتأمروا بقر الناقة ففقروها ، أى أهلكوا بشؤم فرقتهم الطاغية ، ويجوز أن يكون المراد بالطاغية ذلك الرجل الواحد الذى أقدم على عمر الناقة وأهلك الجميع ، لأنهم رضوا بفعله وقيل له طاغية ، كما يقول : فلان راوية الشعر ، وداهية وعلامة ونسابة .

قوله تعالى ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ الصرصر ، الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل الباردة من الصركانها التي كرر فيها البرد . وكثر فهى تحرق بشدة بردها ، وأما العاتية ففيها أقوال (الأول) قال الكلبي ، عنت على خزنتها يومئذ ، فلم يحفظوا كم خرج منها ، ولم يخرج قبل ذلك ، ولا بعده منها شيء إلا بقدر معلوم ، قال عليه الصلاة والسلام ، طغى الماء على خزانه يوماً

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُجِجُوا

نوخ ، وعتت الريح على خزانها يوم عاد ، فلم يكن لها عليها سبيل ، فعلى هذا القول هي عانية على الخزان (الثاني) قال عطاء عن ابن عباس يريد الريح عتت على عاد . فما قدروا على ردها بحيلة من استنار ببناء أو استناد إلى جبل ، فإنها كانت تنزعهم من مكائهم وتهلكهم (القول الثالث) أن هذا ليس من العتو الذي هو عصيان ، إنما هو بلوغ الشيء وانهاؤه . ومنه ، قولهم عتا النبات أى بلغ منتهاه وجف ، قال تعالى (وقد بلغت من الكبر عتيا) فعاتية أى بالغة منتهاها فى القوة والشدة .

قوله تعالى ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ قال مقاتل سلطها عليهم . وقال الزجاج ، أظلمها عليهم ، وقال آخرون أرسلها عليهم ، هذه هي الألفاظ المنقولة عن المفسرين ، وعندى أن فيه لطيفة ، وذلك لأن من الناس من قال ، إن تلك الرياح إنما اشتدت ، لأن اتصالها فلكياً نجومياً اقتضى ذلك ، فقوله (سخرها) فيه إشارة إلى نفي ذلك المذهب ، ويبان أن ذلك إنما حصل بتقدير الله وقدرته ، فإنه لولا هذه الدقيقة لما حصل منه التخويف والتحذير عن العقاب . وقوله (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) الفائدة فيه أنه تعالى لولم يذكر ذلك لما كان مقدار زمان هذا العذاب معلوما ، فلما قال (سبع ليال وثمانية أيام) صار مقدار هذا الزمان معلوما ، ثم لما كان يمكن أن يظن ظان ، أن ذلك العذاب كان متفرقاً فى هذه المدة ، أزال هذا الظن ، بقوله حسوما أى متتابعة متوالية ، واختلفوا فى الحسوم على وجوه (أحدها) وهو قول الأكثرين حسوما ، أى متتابعة ، أى هذه الأيام تتابعت عليهم بالريح المهلكة ، فلم يكن فيها فتور ولا انقطاع ، وعلى هذا القول : حسوم ، جمع حاسم . كشهود وقعود ، ومعنى هذا الحسم فى اللغة القطع بالاستئصال ، وسمى السيف حساماً ، لأنه يحسم العدو عما يريد ، من بلوغ عداوته فلما كانت تلك الرياح متتابعة ما سكنت ساعة حتى أنت عليهم أشبهت تتابعها عليهم تتابع فعل الحاسم فى إعادة السكى ، على الداء كرة بعد أخرى ، حتى ينحسم (وثانها) أن الرياح حسمت كل خير ، واستأصلت كل بركة ، فكانت حسوماً أو حسمتهم ، فلم يبق منهم أحد ، فالحسوم على هذين القولين جمع حاسم (وثالثها) أن يكون الحسوم مصدرأ كالشكر والشكر ، وعلى هذا التقدير فإما أن ينتصب بفعله مضمرأ ، والتقدير : يحسم حسوماً ، يعنى استأصل استئصالاً ، أو يكون صفة ، كقولك ذات حسوم ، أو يكون مفعولاً له ، أى سخرها عليهم للاستئصال ، وقرأ السدى : (حسوماً) بالفتح حالا من الريح ، أى سخرها عليهم مستأصلة ، وقيل هي أيام العجوز ، وإنما سميت بأيام العجوز ، لأن عجوزاً من عاد توارت فى سرب ، فاتزعتها الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها ، وقيل هي أيام العجوز وهي آخر الشتاء .

قوله تعالى ﴿ فتري القوم فيها صرعى ﴾ أى فى مهاها ، وقال آخرون : أى فى تلك الليالى

نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ
مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ
وَالْمُؤْتَفِكَةُ ﴿٩﴾

والأيام (صرعى) جمع صريع . قال مقاتل : يعنى موتى يريد أنهم صرعوا بموتهم ، فهم صرعون صرع الموت .

ثم قال ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أى كأنهم أصول نخل خالية الأجواف لا شىء فيها ، والنخل يؤث ويذكر ، قال الله تعالى فى موضع آخر (كأنهم أعجاز نخل منقعر) وقرئ : أعجاز نخيل ، ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التى قلعتم من أصلها ، وهو لإخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع ، أى أن الريح قد قطعتم حتى صاروا قطعاً ضخاماً كأصول النخل . وأما وصف النخل بالخواء ، فيحتمل أن يكون وصفاً للقوم ، فإن الريح كانت تدخل أجوافهم فنصرعهم كالنخل الخارية الجوف ، ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية لأنها إذا بليت خلت أجوافها ، فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية .

ثم قال ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الباقية ثلاثة أوجه (أحدها) إنها البقية (وثانيها) المراد من نفس

باقية (وثالثها) المراد بالباقية البقاء ، كالطاغية بمعنى الطغيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذهب قوم إلى أن المراد أنه لم يبق من نسل أولئك القوم أحد ، واستدل

بهذه الآية على قوله . قال ابن جرير : كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء فى عقاب الله من الريح ،

فلما أمسوا فى اليوم الثامن ماتوا ، فاحتملهم الريح فألقتهم فى البحر ، فذاك هو قوله (فهل ترى لهم

من باقية) وقوله (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) .

﴿ القصة الثانية قصة فرعون ﴾

قوله تعالى : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخطئة ﴾ أى ومن كان قبله من الأمم

التي كفرت كما كفر هو ، ومن لفظ عام ومعناه خاص فى الكفار دون المؤمنين ، قرأ أبو عمرو

وعاصم والكسائى ، ومن قبله بكسر القاف وفتح الباء ، قال سيبويه قبيل ، لما ولى الشىء تقول

ذهب قبل السوق ، ولى قبلك حق ، أى فيما يليك ، واتسع فيه حتى صار بمنزلة لى عليك ، فعنى

(من قبله) أى من عنده من أتباعه وجنوده . والذى يؤكده هذه القراءة ما روى أن ابن مسعود

وأبياً وأبا موسى قرؤا (ومن تلقاه) روى عن أنى وحده أنه قرأ (ومن معه) أما قوله (والمؤتفكات)

فقد تقدم تفسيرها ، وهم الذين أهلكوا من قوم لوط ، على معنى والجماعات المؤتفكات ، وقوله

(بالخطئة) فيه وجهان (الأول) أن الخطئة مصدر بالخطأ (والثانى) أن يكون المراد بالفعل

فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّايِبَةً ﴿١٧﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ

فِي الْجَارِيَةِ ﴿١٨﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَعِيَةٌ ﴿١٩﴾

أو الأفعال ذات الخطأ العظيم .

قوله تعالى : ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رايبة ﴾ الضمير إن كان عائداً إلى فرعون ومن قبله ، فرسول ربهم هو موسى عليه السلام ، وإن كان عائداً إلى أهل المؤتفكات فرسول ربهم هو لوط ، قال الواحدي : والوجه أن يقال المراد بالرسول كلاهما للخبر عن الآيتين بعد ذكرهما بقوله ، (فعصوا) فيكون كقوله (إنا رسول رب العالمين) وقوله (فأخذهم أخذة رايبة) يقال ربا الشيء يربو إذا زاد ثم فيه وجهان (الأول) أنها كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار كما أن أفعالهم كانت زائدة في الفجح على أفعال سائر الكفار (الثاني) أن عقوبة آل فرعون في الدنيا كانت متصلة بعذاب الآخرة ، لقوله (أغرقوا فأدخلوا ناراً) وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا ، فتلك العقوبة كأنها كانت تنمو وتربو .

﴿ القصة الثالثة قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ طغى الماء على خزانه فلم يدروا كم خرج وليس ينزل من السماء قطرة قبل تلك الواقعة ولا بعدها إلا بكيل معلوم ، وسائر المفسرين ، قالوا (طغى الماء) أى تجاوز حده حتى علا كل شيء وارتفع فوقه ، و (حملناكم) أى حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ، ولا يشك أن الذين خوطبوا بهذا ، هم أولاد الذين كانوا في السفينة ، وقوله في (الجارية) يعنى في السفينة التى تجرى فى الماء ، وهى سفينة نوح عليه السلام ، والجارية من أسماء السفينة ، ومنه قوله (وله الجوارى) .

قوله تعالى ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ الضمير فى قوله (لنجعلها) إلى ماذا يرجع ؟ فيه وجهان : (الأول) قال الزجاج إنه عائداً إلى الواقعة التى هى معلومة ، وإن كانت ههنا غير مذكورة ، والتقدير لنجعل نجات المؤمنين وإغراق الكفرة عظة وعبرة (الثاني) قال الفراء لنجعل السفينة ، وهذا ضعيف والأول هو الصواب ، ويبدل على صحته قوله (وتعيها أذن واعية) فالضمير فى قوله (وتعيها) عائداً إلى ما عاد إليه الضمير الأول ، لكن الضمير فى قوله (وتعيها) لا يمكن عوده إلى السفينة . فكذا الضمير الأول .

قوله تعالى : ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال لكل شيء حفظته فى نفسك وعيته : ووعيت العلم ، ووعيت ما قلت . ويقال لكل ما حفظته فى غير نفسك : أوعيته ، يقال : أوعيت المتاع فى الوعاء ، ومنه قول الشاعر :

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً

وَاحِدَةً ﴿١٤﴾

والشر أخبت ما أوعيت من زاد

واعلم أن وجه التذكير في هذا أن نجاه قوم من الغرق بالسفينة وتغريق من سواهم يدل على قدرة مدبر العالم ونفاذ مشيئته ، ونهاية حكمته ورحمته وشدة قهره وخطوته ، وعن النبي ﷺ عند نزول هذه الآية « سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي ، قال علي : فما نسيت شيئاً بعد ذلك ، وما كان لي أن أنسى ، فإن قيل لم قال أذن واعية على التوحيد والتنكير ؟ قلنا للايدان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوييح الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله ، وأن ما سواه لا يلتفت إليهم ، وإن امتلأ العالم منهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قراءة العامة : وتعيها بكسر العين ، وروى عن ابن كثير وتعيها ساكنة العين كأنه جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة نخذ ، فأسكن كما أسكن الحرف المتوسط من نخذ وكبد وكتف ، وإنما فعل ذلك لأن حرف المضارعة لا ينفصل من الفعل ، فأشبه ما هو من نفس الكلمة ، وصار كقول من قال وهو وهى ومثل ذلك قوله ويتقه في قراءة من سكن القاف . واعلم أنه تعالى لما حكى هذه القصص الثلاث ونبه بها عن ثبوت القدرة والحكمة للصانع . حينئذ ثبت بثبوت القدرة إمكان القيامة ، وثبت بثبوت الحكمة إمكان وقوع القيامة .

ولما ثبت ذلك شرع سبحانه في تفاصيل أحوال القيامة فذكر أولاً مقدماتها .

فقال ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء نفخة بالرفع والنصب ، وجه الرفع أسند الفعل إليها ، وإنما حسن تذكير الفعل للفعل ، ووجه النصب أن الفعل مستند إلى الجار والمجرور . ثم نصب نفخة على المصدر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد من هذه النفخة الواحدة ، هي النفخة الأولى لأن عندها يحصل خراب العالم ، فإن قيل لم قال بعد ذلك يومئذ تعرضون ، والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية ؟ قلنا جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان ، والصعقة والنشور ، والوقوف الحساب ، فلذلك قال (يومئذ تعرضون) كما تقول جثته عام كذا ، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته .

قوله تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ رفعت الأرض والجبال ، إما بالزلزلة التي تكون في القيامة ، وإما بريح نت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال ، أو بملك من الملائكة أو بقدرة الله من غير

فِيَوْمِئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾
وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ كَمُنِيَّةٌ ﴿١٧﴾

سبب فدكتا ، أى فدكت الجبلتان جملة الأرض وجملة الجبال ، فضرب بعضها ببعض ، حتى تندق وتصير (كثيباً مهيباً) و (هباء منبثاً) والدك أبلغ من الدق ، وقيل فبسطاً بسطة واحدة فصارتا أرضاً (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) من قولك اندك السنام إذا انفرش ، وبغير أدك وناقة دكاه ومنه الدكان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء : لا يجوز فى دكة ههنا إلا النصب لارتفاع الضمير فى دكتنا ، ولم يقل فدكن لأنه جعل الجبال كالواحدة والأرض كالواحدة ، كما قال (إن السموات والأرض كانتا رتقاً) ولم يقل كن .

ثم قال تعالى ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾ أى فيومئذ قامت القيامة الكبرى ، وانشقت السماء لنزول الملائكة (فهى يومئذ واهية) أى مسترخية سافطة القوة (كالعهن المنفوش) بعد ما كانت محكمة شديدة .

قوله تعالى : ﴿ والملاك على أرجائها ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (والملاك) لم يرد به ملكاً واحداً ، بل أراد الجنس والجمع .
﴿ المسألة الثانية ﴾ الأرجاء فى اللغة النواجى يقال رجاور رجوان والجمع الأرجاء ، ويقال ذلك لحرف البر وحرف القبر وما أشبه ذلك ، والمعنى أن السماء إذا انشقت عدلت الملائكة عن مواضع الشق إلى جوانب السماء ، فإن قيل الملائكة يموتون فى الصعقة الأولى ، لقوله (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) فكيف يقال إنهم يقفون على أرجاء السماء ؟ قلنا الجواب من وجهين : (الأول) أنهم يقفون لحظة على أرجاء السماء ثم يموتون (الثانى) أن المراد الذين استثناهم الله فى قوله (إلا من شاء الله) .

قوله تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا العرش هو الذى أراده الله بقوله الذين يحملون العرش ، وقوله (وترى الملائكة حافين من حول العرش) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله (فوقهم) إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان (الأول) وهو الأقرب أن المراد فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء والمقصود التمييز بينهم وبين الملائكة الذين هم حملة العرش (الثانى) قال مقاتل يعنى أن الحملة يحملون العرش فوق رؤوسهم ، و [بحىء] الضمير قبل الذكر جازئ كقوله : فى بيته يؤتى الحكم .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ

﴿ المسألة الثالثة ﴾ نقل عن الحسن رحمه الله أنه قال لا أدرى ثمانية أشخاص أو ثمانية آلاف أو ثمانية صفوف أو ثمانية آلاف صف . واعلم أن جملة على ثمانية أشخاص أولى لوجوه : (أحدها) ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية » وروى « ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤوسهم وهم مطرقون مسبحون » وقيل بعضهم على صورة الأسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر ، وروى ثمانية أملاك في صورة الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً ، وعن شهر بن حوشب أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حملك بعد علمك (الوجه الثاني) في بيان أن الحمل على ثمانية أشخاص أولى من الحمل على ثمانية آلاف وذلك لأن الثمانية أشخاص لا بد منهم في صدق اللفظ ، ولا حاجة في صدق اللفظ إلى ثمانية آلاف ، فحينئذ يكون اللفظ دالاً على ثمانية أشخاص ، ولا دلالة فيه على ثمانية آلاف فوجب حمله على الأول (الوجه الثالث) وهو أن الموضع موضع التعظيم والتهويل فلو كان المراد ثمانية آلاف ، أو ثمانية صفوف لوجب ذكره ليزداد التعظيم والتهويل ، فحيث لم يذكر ذلك علمنا أنه ليس المراد إلا ثمانية أشخاص .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المشبهة : لو لم يكن الله في العرش لكان حمل العرش عبثاً عديم الفائدة ، ولا سبياً وقد تأكد ذلك بقوله تعالى (يومئذ تعرضون) والعرض إنما يكون لو كان الإله حاصلًا في العرش ، أجاب أهل التوحيد عنه بأنه لا يمكن أن يكون المراد منه أن الله جالس في العرش وذلك لأن كل من كان حاملاً للعرش كان حاملاً لكل ما كان في العرش ، فلو كان الإله في العرش للزم الملائكة أن يكونوا حاملين لله تعالى وذلك محال ، لأنه يقتضى احتياج الله إليهم ، وأن يكونوا أعظم قدرة من الله تعالى وكل ذلك كفر صريح ، فعلينا أنه لا بد فيه من التأويل فنقول : السبب في هذا الكلام هو أنه تعالى خاطبهم بما يتعارفونه ، فخلق لنفسه بيتاً يزورونه ، وليس أنه يسكنه ؛ تعالى الله عنه وجعل في ركن البيت حجراً هو يمينه في الأرض ، إذ كان من شأنهم أن يعظموا رؤسائهم بتقبيل أيمنهم ، وجعل على العباد حفظة ليس لأن النسيان يجوز عليه سبحانه ، لكن هذا هو المتعارف فكذلك لما كان من شأن الملك إذا أراد بحاسبة عماله جلس إليهم على سرير ووقف الأعوان حوله أحضر الله يوم القيامة عرشاً وحضرت الملائكة وحفت به ، لا لأنه يقعد عليه أو يحتاج إليه بل لمثل ما قلناه في البيت والطواف .

قوله تعالى ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ العرض عبارة عن المحاسبة والمسائلة ، شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله ، ونظيره قوله (وعرضوا على ربك صفواً) وروى « أن في القيامة

لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَؤُومٌ أَقْرَأُوا

كِتَابِي ﴿١٩﴾

ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنثر الكتب فياخذ السعيد كتابه بيمينه والهاك كتابه بشماله ،

ثم قال ﴿ لا تخفى منكم خافية ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية وجهان (الأول) تقرير الآية : تعرضون لا يخفى أمركم فإنه عالم بكل شيء ، ولا يخفى عليه منكم خافية ، ونظيره قوله (لا يخفى على الله منهم شيء) فيكون الغرض منه المبالغة في التهديد ، يعنى تعرضون على من لا يخفى عليه شيء أصلاً (الوجه الثاني) المراد لا يخفى يوم القيامة ما كان مخفياً منكم في الدنيا ، فإنه تظهر أحوال المؤمنين فيستكمل بذلك سرورهم ، وتظهر أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك حزنهم وفضيحتهم ، وهو المراد من قوله (يوم تبلى السرائر ، فالله من قوة ولا ناصر) وفي هذا أعظم الزجر والوعيد وهو خوف الفضيحة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قراءة العامة (لا تخفى) بالناء المنقطة من فوقها ، واختار أبو عبيدة الياء وهى قراءة حمزة ، والكسائى قال لأن الياء تجوز للذكر والأنثى والتاء لا تجوز إلا للأنثى ، وههنا يجوز إسناد الفعل إلى المذكر وهو أن يكون المراد بالخافية شيء ذو خفاء . وأيضاً فقد وقع الفصل ههنا بين الاسم والفعل بقوله منكم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما ينتهى هذا العرض إليه قال ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هؤوم اقرأوا كتابي ﴾ وفيه مسألتان .

﴿ المسألة الأولى ﴾ هاء صوت يصوت به ، فيفهم منه معنى خذ كآف وحس ، وقال أبو القاسم الزجاجى وفيه لغات وأجودها ما حكاه سيبويه عن العرب فقال : وهماؤمر به من المبنيات قولهم هاء ياقى ، ومعناه تناول ويفتحون الهمزة ويجعلون فتحها علم المذكر كما قالوا هاك ياقى ، فتجعل فتحة الكاف علامة المذكر ويقال للاثنين هؤوما ، وللجمع هؤوموا وهؤوم والميم فى هذا المرضع كالميم فى أنتما وأنتم وهذه الضمة التى تولدت فى همزة هؤوم إنما هى ضمة ميم الجمع لأن الأصل فيه هؤوموا وأتمروا فاشبعوا الضمة وحكموا للاثنين بحكم الجمع لأن الاثنين عندهم فى حكم الجمع فى كثير من الأحكام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا اجتمع عاملان على معمول واحد ، فإعمال الأقرب جائز بالاتفاق وإعمال الأبعد هل يجوز أم لا ؟ ذهب الكوفيون إلى جوازه والبصريون منعهوه ، واحتج البصريون على قولهم بهذه الآية ، لأن قوله (هؤوم) ناصب ، وقوله (اقرأوا) ناصب أيضاً ، فلو كان

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مَلَقْتُ حِسَابِيَهٗ ﴿٢٠﴾

الناسب هو الأبعد لكان التقدير : هاؤم كتابيه ، فكان يجب أن يقول اقرأوه ، ونظيره (آتوني أفرغ عليه قطراً) (واعلم) أن هذه الحجة ضعيفة لأن هذه الآية دلت على أن الواقع ههنا أعمال الأقرب وذلك لانزاع فيه إنما النزاع في أنه هل يجوز أعمال الأبعد أم لا ، وليس في الآية تعرض لذلك ، وأيضاً قد يحذف الضمير لأن ظهوره يغني عن التصريح به كما في قوله (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) فلم لا يجوز أن يكون ههنا كذلك ، ثم احتج الكوفيون بأن العامل الأول متقدم في الوجود على العامل الثاني ، والعامل الأول حين وجد اقتضى معمولاً لا متناع حصول العلة دون المعمول ، فصيرورة المعمول معمولاً للعامل الأول متقدم على وجود العامل الثاني ، والعامل الثاني إنما وجد بعد أن صار معمولاً للعامل الأول فيستحيل أن يصير أيضاً معمولاً للعامل الثاني ، لا متناع تعليل الحكم الواحد بعلمتين ، ولا متناع تعليل ما وجد قبل بما يوجد بعد ، وهذه المسألة من لطائف النحو .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الهاء للسكت (في كتابيه) وكذا في (حسابيه ، وماليه ، وسلطانيه) وحق هذه الهاءات أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل ، ولما كانت هذه الهاءات مثبتة في المصحف والمثبتة في المصحف لا بد وأن تكون مثبتة في اللفظ ، ولم يحسن إثباتها في اللفظ إلا عند الوقف ، لاجرم استحوا الوقف لهذا السبب . وتجاسر بعضهم فأسقط هذه الهاءات عند الوصل ، وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغيرها . وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعاً لاتباع المصحف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أنه لما أوتى كتابيه يمينه ، ثم إنه يقول (هاؤم اقرأوا كتابيه) دل ذلك على أنه بلغ الغاية في السرور لأنه لما أعطى كتابيه يمينه علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم ، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله . وقيل : يقول ذلك لأهل بيته وقرابته . ثم إنه تعالى حكى عنه أنه يقول ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ وفيه وجوه (الأول) المراد منه اليقين الاستدلالي وكل ما ثبت بالاستدلال فإنه لا ينفك من الخواطر المختلفة ، فكان ذلك شبيهاً بالظن (الثاني) التقدير : إني كنت أظن أني ألاق حسابي فيؤاخذني الله بسيئاتي ، فقد تفضل على بالعفو ولم يؤاخذني بها فهاؤم اقرأوا كتابيه (وثالثها) روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال : « إن الرجل يؤتى به يوم القيامة ويؤتى كتابه فتظهر حسناته في ظهر كفه وتكتب سيئاته في بطن كفه فينظر إلى سيئاته فيحزن ، فيقال له اقلب كفك فينظر فيه فيرى حسناته فيفرح ، ثم يقول (هاؤم اقرأوا كتابيه) ، إني ظننت - عند النظرة الأولى - أني ملاق حسابيه » على سبيل البشدة ، وأما الآن فقد فرج الله عن ذلك الغم ، وأما في حق الأشقياء فيكون ذلك على الضد عما ذكرنا (ورابعها) ظننت : أي علمت ، وإنما أجرى مجرى العلم . لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُّوا

وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

العادات والاحكام ، يقال أظن ظناً كاليقين أن الامر كيت وكيت (وخافسها) المراد إني ظننت في الدنيا أن بسبب الاعمال التي كنت أعملها في الدنيا سأصل في القيامة إلى هذه الدرجات وقد حصلت الآن على اليقين فيكون الظن على ظاهره ، لأن أهل الدنيا لا يقطعون بذلك .

ثم بين تعالى عاقبة أمره فقال ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وصف العيشة بأنها راضية فيه وجهان (الأول) المعنى أنها منسوبة إلى الرضا كالدارع والتابع ، والنسبة نسبتان نسبة بالحروف ونسبة بالصيغة (والثاني) أنه جعل الرضا للعيشة مجازاً مع أنه صاحب العيشة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في حد الثواب أنه لا بد وأن يكون منفعة ، ولا بد وأن تكون خالصة عن الشوائب ، ولا بد وأن تتكون دائمة ولا بد وأن تكون مقرونة بالتعظيم ، فالعنى إنما يكون مرضياً به من جميع الجهات لو كان مشتملاً على هذه الصفات فقوله (عيشة راضية) كلمة حاوية لمجموع هذه الشرائط التي ذكرناها .

ثم قال ﴿ في جنة عالية ﴾ وهو أن من صار في (عيشة راضية) أى يعيش عيشاً مرضياً في جنة عالية ، والعلو إن أريد به العلو في المكان فهو حاصل ، لأن الجنة فوق السموات ، فإن قيل : أليس أن منازل البعض فوق منازل الآخرين ، فهؤلاء السافلون لا يكونون في الجنة العالية ، قلنا إن كرون بعضها دون بعض لا يقدح في كونها عالية وفوق السموات ، وإن أريد العلو في الدرجة والشرف فالامر كذلك ، وإن أريد به كون تلك الأبنية عالية مشرفة فالامر أيضاً كذلك .

ثم قال ﴿ قطوفها دانية ﴾ أى ثمارها قريبة التناول يأخذها الرجل كما يريد إن أحب أن يأخذها بيده انقادت له ، قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً . وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت ، والقطوف جمع خطف وهو المقطوف .

قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ والمعنى يقال لهم ذلك وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ منهم من قال قوله (كلوا) ليس بأمر إيجاب ولا نداء ، لأن الآخرة ليست دار تكليف ، ومنهم من قال لا يبعد أن يكون ندباً ، إذا كان الغرض منه تعظيم ذلك الإنسان وإدخال السرور في قلبه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما جمع الخطاب في قوله : كلوا بعد قوله فهو في عيشة ، لقوله (فأما من)

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٣٥) وَلَمْ أَدْرِ

مَا حِسَابِيهِ (٣٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٣٧)

أوتى) ومن مضمن معنى الجمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ما أسلفتم) أى قدمتم من أعمالكم الصالحة ، ومعنى الإسلاف فى اللغة تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير فهو كالإقراض . ومنه يقال أسلف فى كذا إذا قدم فيه ماله ، والمعنى بما عملتم من الأعمال الصالحة : والأيام الخالية ، المراد منها أيام الدنيا والخالية الماضية ، ومنه قوله (وقد خلت القرون من قبلى) و (تلك أمة قد خلت) وقابل الكلبى (بما أسلفتم) يعنى الصوم ، وذلك أنهم لما أمروا بالأكل والشرب ، دل ذلك على أنه لمن امتنع فى الدنيا عنه بالصوم ، طاعة لله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (بما أسلفتم) يدل على أنهم إنما استحقوا ذلك الثواب بسبب عملهم ، وذلك يدل على أن العمل موجب للثواب ، وأيضاً لو كانت الطاعات فعلاً لله تعالى لكان قد أعطى الإنسان ثوباً لا على فعل فعله الإنسان ، وذلك محال وجوابه معلوم .

قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ﴾ واعلم أنه تعالى بين أنه لما نظر فى كتابه وتذكر قبائح أفعاله خجل منها وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار ، فقال ليتم عذبونى بالنار ، وما عرضوا هذا الكتاب الذى ذكرنى قبائح أفعالى حتى لا أقع فى هذه الخجالة ، وهذا ينبهك على أن العذاب الروحانى أشد من العذاب الجسمانى ، وقوله (ولم أدر ما حسابيه) أى ولم أدر أى شىء حسابيه ، لأنه حاصل ولا ظائل له فى ذلك الحساب ، وإنما كله عليه .

ثم قال ﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾ الضمير فى (ياليتها) إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان (الأول) إلى الموتة الأولى ، وهى وإن لم تكن مذكورة إلا أنها لظهورها كانت كالمذكورة (القاضية) القاطعة عن الحياة . وفيها إشارة إلى الإتهام والفراغ ، قال تعالى (فإذا قضيت) ويقال قضى على فلان ، أى مات فالمعنى ياليت الموتة التى منها كانت القاطعة لأمرى ، فلم أبعث بعدها ، ولم ألق ما وصلت إليه ، قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن فى الدنيا عنده شىء . أكره من الموت ، وشر من الموت ما يطلب له الموت ، قال الشاعر :

وشر من الموت الذى إن لقيته تمنيت منه الموت والموت أعظم

(والثانى) أنه عائد إلى الحالة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى : ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت على لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر بما ذاقه من مرارة الموت وشدته فتمناه عندها

مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾

ثم قال ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوله ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴿ما أغنى﴾ نفي أو استفهام على وجه الإنكار أى أى شىء أغنى عني ما كان لى من اليسار ، ونظيره قوله (وبأيتنا فرداً) وقوله (هلك عني سلطانيه) فى المراد بسلطانيه وجهان : (أحدهما) قال ابن عباس : ضلت عني حجتي التى كنت أحتج بها على محمد فى الدنيا ، وقال مقاتل ضلت عني حجتي يعنى حين شهدت عليه الجوارح بالشرك (والثانى) ذهب ملكى وتسلمتى على الناس وبقيت فقيراً ذليلاً ، وقيل معناه : لئى إنما كنت أنزع المحقين بسبب الملك والسلطان ، فالآن ذهب ذلك الملك وبقي الوبال .

واعلم أنه تعالى ذكر سرور السعداء أولاً ، ثم ذكر أحوالهم فى العيش الطيب وفى الأكل والشرب ، كذا ههنا ذكر غم الأشقياء وحزنهم ، ثم ذكر أحوالهم فى الغل والقيد وطعام الغسلين ، فأولها أن تقول خزنة جهنم خذوه فيبتدر إليه مائة ألف ملك ، وتجمع يده إلى عنقه ، فذاك قوله (فغلوله) وقوله (ثم الجحيم صلوه) قال المبرد أصلية النار إذا أوردته إياها وصلية أيضاً كما يقال أكرمه وكرمه ، وقوله (ثم الجحيم صلوه) معناه لا نصلوه إلا الجحيم ، وهى النار العظمى لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس ، ثم فى سلسلة وهى حلق منتظمة كل حلقة منها فى حلقة وكل شىء مستمر بعد شىء على الولاء والنظام فهو مسلسل ، وقوله (ذرعها) معنى الذرع فى اللغة التقدير بالذراع من اليد ، يقال ذرع الثوب يذرعه ذراعاً إذا قدره بذراعه ، وقوله (سبعون ذراعاً) فيه قولان : (أحدهما) أنه ليس الغرض التقدير بهذا المقدار بل الوصف بالطول ، كما قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة (والثانى) أنه مقدر بهذا المقدار ثم قالوا كل ذراع سبعون باعاً وكل باع أبعد مما بين مكة والكوفة ، وقال الحسن الله أعلم بأى ذراع هو ، وقوله (فاسلكوه) قال المبرد يقال سلكه فى الطريق ، وفى القيد وغير ذلك وأسلكته معناه أدخلته ولغة القرآن سلكته قال الله تعالى (ماسلككم فى صقر) وقال (سلكناها فى قلوب المجرمين) قال ابن عباس تدخل السلسلة من دبره وتخرج من حلقه ، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه ، وقال الكلبي كما يسلك الخيط فى اللؤلؤ ثم يجعل فى عنقه سائرهما ، وههنا سؤالات :

(السؤال الأول) ما الفائدة فى تطويل هذه السلسلة ؟ (الجواب) قال سويد بن أبى نجیح : بلغنى أن جميع أهل النار فى تلك السلسلة ، وإذا كان الجمع من الناس مقيدين بالسلسلة الواحدة كان العذاب على كل واحد منهم بذلك السبب أشد .

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾

(السؤال الثاني) سلك السلسلة فيهم معقول ، أما سلكهم في السلسلة فما معناه ؟ (الجواب) سلكه في السلسلة أن تلوى على جسده حتى تنفذ عليه أجزاءها وهو فيما بينها مزهق مضيق عليه لا يقدر على حركة ، وقالوا الفراء : المعنى ثم اسلكوا فيه السلسلة كما يقال أدخلت رأسي في القلنسوة وأدخلتها في رأسي ، ويقال الخاتم لا يدخل في إصبعي ، والإصبع هو الذي يدخل في الخاتم .
(السؤال الثالث) لم قال في سلسلة فاسلكوه ، ولم يقل فاسلكوه في سلسلة ؟ (الجواب) المعنى في تقديم السلسلة على السلك هو الذي ذكرناه في تقديم الجحيم على التصلية ، أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة لأنها أفزع من سائر السلاسل (السؤال الرابع) ذكر الأغلال والتصلية بالفاء وذكر السلك في هذه السلسلة بلفظ ثم ، فما الفرق ؟ (الجواب) ليس المراد من كلمة ثم تراخي المادة بل التفاوت في مراتب العذاب .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذا العذاب الشديد ذكر سببه فقال ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ﴾ فالأول إشارة إلى فساد حال القوة العاقلة . والثاني إشارة إلى فساد حال القوة العملية ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (ولا يحض على طعام المسكين) فيه قولان (أحدهما) ولا يحض على بذل طعام المسكين (والثاني) أن الطعام ههنا اسم أقيم مقام الإطعام كما وضع العطاء مقام الإعطاء في قوله : وبعد عطائك المائة الرتاعا

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قوله (ولا يحض على طعام المسكين) فيه دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المساكين (أحدهما) عطفه على الكفر وجعله قرينة له (والثاني) ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة ، فكيف بمن يترك الفعل ! .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن الكفار يعاقبون على ترك الصلاة والزكاة ، وهو المراد من قولنا إنهم مخاطبون بفروع الشرائع ، وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الباقي ! وقيل المراد منه منع التكفار وقولهم (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) .

ثم قال ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ﴾ أي ليس له في الآخرة حميم أي قريب يدفع عنه ويمحون عليه ، لأنهم يتحامون ويفرون منه كقوله (ولا يسأل حميم حميما) وكقوله (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) .

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يروى أن ابن عباس سئل عن الغسلين ، فقال لا أدري ما الغسلين . وقال الكاظمي وهو ماء يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا فهو (غسلين) فغسلين من الغسل .
﴿ المسألة الثانية ﴾ الطعام ما هيء للأكل ، فلما هيء الصديد ليأكله أهل النار كان طعاماً لهم ، ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم لهم مقام الطعام فسمى طعاماً ، كما قال :

تحية بينهم ضرب وجيع

والتحية لا تكون ضرباً إلا أنه لما أقيم مقامه جاز أن يسمى به .

ثم إنه تعالى ذكر أن الغسلين أكل من هو ؟ فقال : ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ الآثمون أصحاب الخطايا وخطيئ الرجل إذا نعمد الذنب وهم المشركون ، وقرئ الخاطيون بابدال الهمزة ياء والخطاؤون بفتحها ، وعن ابن عباس أنه طعن في هذه القراءة ، وقال ما الخاطيون كلنا نخطو وإنما هو الخاطئون ، ما الصابون ، إنما هو الصابئون ، ويجوز أن يجاب عنه بأن المراد الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله .

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على إمكان القيامة ، ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال :

﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ منهم من قال المراد أقسم ولا صلة ، أو يكون رد الكلام سبق ، ومنهم من قال لا ههنا نافية للقسم ، كأنه قال لا أقسم ، على أن هذا القرآن (قول رسول كريم) يعني أنه لوضوحه يستغنى عن القسم ، والاستقصاء في هذه المسألة سنذكره في أول سورة (لا أقسم بيوم القيامة) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بما تبصرون وما لا تبصرون) يعم جميع الأشياء على الشمول ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشمل الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجن ، والنعم الظاهرة والباطنة .

ثم قال تعالى ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ .

واعلم أنه تعالى ذكر في سورة (إذا الشمس كورت) مثل هذا الكلام ، والآكثرون هناك على أن المراد منه جبريل عليه السلام ، والآكثرون ههنا على أن المراد منه محمد ﷺ ، واحتجوا

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ

﴿٤١﴾

على الفرق بأن ههنا لما قال (إنه لقول رسول كريم) ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ، ولا كاهن ، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة ، بل كانوا يصفون محمداً بهذين الوصفين . وأما في سورة (إذا الشمس كورت) لما قال (إنه لقول رسول كريم) ثم قال بعده (وما هو بقول شيطان رجيم) كان المعنى : إنه قول ملك كريم ، لا قول شيطان رجيم ، فصح أن المراد من الرسول الكريم ههنا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي تلك السورة هو جبريل عليه السلام ، وعند هذا يتوجه السؤال : أن الأمة بحجة على أن القرآن كلام الله تعالى ، وحينئذ يلزم أن يكون الكلام الواحد كلاماً لله تعالى ، ولجبريل ولمحمد ، وهذا غير معقول (والجواب) أنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب ، فهو كلام الله تعالى ، بمعنى أنه تعالى هو الذي أظهره في اللوح المحفوظ ، وهو الذي رتبته ونظمه ، وهو كلام جبريل عليه السلام ، بمعنى أنه هو الذي أنزله من السموات إلى الأرض ، وهو كلام محمد ، بمعنى أنه هو الذي أظهره للخلق ، ودعا الناس إلى الإيمان به ، وجعله حجة لنبوته .

قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾ وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ الجمهور : تؤمنون وتذكرون بالتاء المنقوطة من فوق على الخطاب إلا ابن كثير ، فإنه قرأهما بالياء على المغايبة ، فمن قرأ على الخطاب ، فهو عطف على قوله (بما تبصرون وما لا تبصرون) ومن قرأ على المغايبة سلك فيه مسلك الالتفات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالوا لفظة ما في قوله (قليلا ما تؤمنون ، قليلا ما تذكرون) لغزوهي مؤكدة ، وفي قوله (قليلا) وجهان (الأول) قال مقاتل : يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله ، والمعنى لا يؤمنون أصلاً ، والعرب يقولون : قلنا يأتينا يريدون لا يأتينا (الثاني) أنهم قد يؤمنون في قلوبهم ، إلا أنهم يرجعون عنه سريعاً ولا يتمون الاستدلال ، ألا ترى إلى قوله (إنه فيكروا وقدر) إلا أنه في آخر الأمر قال (إن هذا إلا سحر يؤثر) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر في نفي الشعارية (قليلا ما تؤمنون) وفي نفي الكهانية (ما تذكرون) والسبب فيه كأنه تعالى قال : ليس هذا القرآن قولاً من رجل شاعر ، لأن هذا الوصف مبين لصنوف الشعر كلها إلا أنكم لا تؤمنون ، أي لا تقصدون الإيمان ، فلذلك تعرضون عن التدبر ، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم إنه شاعر ، لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر ، ولا

تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ
بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾

أيضاً بقول كاهن ، لأنه وارد بسبب الشياطين وشتهم ، فلا يمكن أن يكون ذلك يالهام الشياطين ،
إلا أنكم لا تتذكرون كيفية نظم القرآن ، واشتماله على شتم الشياطين ، فلهذا السبب تقولون إنه
من باب الكهانة .

قوله تعالى ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ .

اعلم أن نظير هذه الآية قوله في الشعراء (إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على
قلبك لتكون من المنذرين) فهو كلام رب العالمين لأنه تنزيله ، وهو قول جبريل لأنه نزل به ،
وهو قول محمد لأنه أنذر الخلق به ، فههنا أيضاً لما قال فيما تقدم (إنه لقول رسول كريم) أتبعه
بقوله (تنزيل من رب العالمين) حتى يزول الإشكال ، وقرأ أبو السمال : تنزيلا ، أى نزل تنزيلا .
ثم قال تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾ قرى . (ولو تقول) على البناء للمفعول ،
التقول افتعال القول ، لأن فيه تكلفاً من المفتعل ، وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تحميراً لها ،
كقولك الاعاجيب والاضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول ، والمعنى ولو نسب إلينا قولاً
لم نقله .

قوله تعالى : ﴿ لاخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وفيه مسألتان .

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية وجوه (الأول) معناه لاخذنا بيده ، ثم لضربنا رقبته وهذا
ذكره على سبيل التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم ، فإنهم لا يملونه ، بل يضربون رقبته
في الحال ، وإنما خص اليمين بالذكر ، لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ،
وإذا أراد أن يوقعه في جبينه وأن يلحقه بالسيف ، وهو أشد على المعمول به ذلك العمل لنظره
إلى السيف أخذ بيمينه ، ومعناه : لاخذنا بيمينه ، كما أن قوله (لقطعنا منه الوتين) لقطعنا وتينه
وهذا تفسير بين وهو منقول عن الحسن البصرى (القول الثاني) أن اليمين بمعنى القوة والقدرة
وهو قول الفراء والمبرد والزجاج ، وأنشدوا قول الشماخ .

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عراة باليمين

والمعنى لاخذ منه اليمين ، أى سلبنا عنه القوة ، والباء على هذا التقدير صلة زائدة ، قال ابن قتيبة
وإنما قام اليمين مقام القوة ، لأن قوة كل شيء في ميامنه (والقول الثالث) قال مقاتل (لاخذنا
منه باليمين) يعنى انتقمنا منه بالحق ، واليمين على هذا القول بمعنى الحق ، كقوله تعالى (إنكم كنتم
تأتوننا عن اليمين) أى من قبل الحق .

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا

لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾

واعلم أن حاصل هذه الوجوه أنه لو نسب إلينا قولاً لم نقله لمنعه عن ذلك . إما بواسطة إقامة الحجة فإننا كنا نقيض له من يعارضه فيه ، وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه ، فيكون ذلك إبطالا لدعواه وهدماً لكلامه ، وإما بأن نسلب عنده القدرة على التكلم بذلك القول ، وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يشبه الصادق بالكاذب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الوتين هو العرق المتصل من القلب بالرأس الذي إذا قطع مات الحيوان قال أبو زيد وجمعه الوتن [يقال] ثلاثة أوتنة والموتون الذي قطع وتينه ، قال ابن قتيبة ، ولم يرد أنا نقطه بعينه بل المراد أنه لو كذب لا تمتناه ، فكان كمن قطع وتينه ، ونظيره قوله عليه السلام « ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أو انقطاع ابهرى » والأبهر عرق يتصل بالقلب ، فإذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال هذا أو أن يقتلى السم وحينئذ صرت كمن انقطع أبهره .

ثم قال ﴿ فما منكم من أحد عند حاجزين ﴾ .

قال مقاتل والكلبي معناه ليس منكم أحد يحجزنا عن ذلك الفعل ، قال الفراء والزجاج إنما قال حاجزين في صفة أحد لأن أحداً هنا في معنى الجمع ، لأنه اسم يقع في النفي العام مستويماً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ومنه قوله تعالى (لا تفرق بين أحد من رسله) وقوله (لستن كأحد من النساء) واعلم أن الخطاب في قوله (فما منكم) للناس .

واعلم أنه تعالى لما بين أن القرآن تنزيل من الله الحق بواسطة جبريل على محمد الذي من صفته أنه ليس بشاعر ولا كاهن ، بين بعد ذلك أن القرآن ما هو ؟ فقال :

﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ وقد بينا في أول سورة البقرة في قوله (هدى للمتقين) ما فيه

من البحث .

ثم قال ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ له بسبب حب الدنيا ، فكأنه تعالى قال : أما من اتقى حب الدنيا فهو يتذكر بهذا القرآن وينتفع . وأما من مال إليها فإنه يكذب بهذا القرآن ولا يقربه .

وأقول : للمعتزلة أن يتمسكوا بهذه الآية على أن الكفر ليس من الله ، وذلك لأنه وصف القرآن بأنه تذكرة للمتقين ، ولم يقل بأنه إضلال للمكذبين ، بل ذلك الضلال نسبة إليهم ، فقال وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، ونظيره قوله في سورة النحل (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز) واعلم أن الجواب عنه ما تقدم .

وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥٢﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ

رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٣﴾

ثم قال تعالى ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ الضمير في قوله (إنه) إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان : (الأول) أنه عائد إلى القرآن ، فكأنه قيل : وإن القرآن لحسرة على الكافرين . إما يوم القيامة إذا رأوا ثواب المصدقين به ، أو في دار الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين (والثاني) قال مقاتل : وإن تكذيبهم بالقرآن لحسرة عليهم ، ودل عليه قوله (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) .

ثم قال تعالى ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ معناه أنه حق يقين ، أى حق لا بطلان فيه ، ويقين لا ريب فيه ، ثم اضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد .

ثم قال ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ إما شكراً على ما جعلك أهلاً لإيجانه إليك ، وإما تنزيهاً له عن الرضا بأن ينسب إليه الكاذب من الوحي ما هو برى عنه . وأما تفسير قوله (فسبح باسم ربك) فذكر في أول سورة (سبح اسم ربك الأعلى) وفي تفسير قوله (بسم الله الرحمن الرحيم) والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي الأسمى وعلى آله وصحبه أجمعين .

(٧٠) سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّاتُهَا اَنْبِجُ وَانْبِجُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي

الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سأل سائل بعذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذى المعارج ﴾ .
اعلم أن قوله تعالى (سأل) فيه قراءتان منهم من قرأه بالهمزة ، ومنهم من قرأه بغير همزة ،
أما الأولون وهم الجمهور فهذه القراءة تحتمل وجوهاً من التفسير : (الأول) أن النضر بن الحرث
لما قال (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)
فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ومعنى قوله (سأل سائل) أى دعا داع (بعذاب واقع) من قولك
دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه . ومنه قوله تعالى (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) قال ابن الأنبارى
وعلى هذا القول تقدير الباء الإسقاط ، وتأويل الآية : سأل سائل عذاباً واقعاً ، فأكد بالباء
كقوله تعالى (وهزى إليك مجذع النخلة) وقال صاحب الكشاف لما كان (سأل) معناه ههنا
دعا لا جرم عدى تعديته كأنه قال دعا داع بعذاب من الله (الثانى) قال الحسن وقتادة لما بعث
الله محمدًا ﷺ وخوف المشركين بالعذاب قال المشركون بعضهم لبعض سلوا محمدًا لمن هذا العذاب
وبمن يقع ، فأخبره الله عنه بقوله (سأل سائل بعذاب واقع) قال ابن الأنبارى : والتأويل على
هذا القول (سأل سائل) عن عذاب والباء بمعنى عن ، كقوله :

فإن تسألونى بالنساء فإتى بصير بأدواء النساء طيب

وقال تعالى (فاسأل به خبيراً) وقال صاحب الكشاف (سأل) على هذا الوجه فى تقدير عنى
واهتم كأنه قيل اهتم مهمت بعذاب واقع (الثالث) قال بعضهم هذا السائل هو رسول الله استعجل
بعذاب الكافرين ، فبين الله أن هذا العذاب واقع بهم ، فلا دافع له قالوا والذى يدل على صحة
هذا التأويل قوله تعالى فى آخر الآية (فاصبر صبراً جميلاً) وهذا يدل على أن ذلك السائل هو
الذى أمره بالصبر الجميل ، أما القراءة الثانية ، وهى سال بغير همز فلها وجهان : (أحدهما) أنه
أراد (سأل) بالهمزة مخفف وقاب قال :

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿١٠﴾

سالت قريش رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سألت ولم تصب (والوجه الثاني) أن يكون ذلك من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس سال سيل والسيل مصدر في معنى السائل، كالغور بمعنى الغائر، والمعنى أندفع عليهم واد بعذاب، وهذا قول زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن زيد قالوا سال واد من أودية جهنم (بعذاب واقع) أما سائل، فقد اتفقوا على أنه لا يجوز فيه غير الهمز لأنه إن كان من سأل المهموز، فهو بالهمز، وإن لم يكن من المهموز كان بالهمز أيضاً نحو قائل وخائف إلا أنك إن شئت خففت الهمزة فجعلتها بين بين، وقوله تعالى (بعذاب واقع للكافرين) فيه وجهان، وذلك لأننا إن فسرنا قوله سأل بما ذكرنا من أن النضر طلب العذاب، كان المعنى أنه طلب طالب عذاباً هو واقع لا محالة سواء طلب أو لم يطلب، وذلك لأن ذلك العذاب نازل للكافرين في الآخرة واقع بهم لا يدفعه عنهم أحد، وقد وقع بالنضر في الدنيا لأنه قتل يوم بدر، وهو المراد من قوله ليس له دافع، وأما إذا فسرناه بالوجه الثاني وهو أنهم سألوا الرسول عليه السلام، أن هذا العذاب بمن ينزل فأجاب الله تعالى عنه بأنه واقع للكافرين، والقول الأول وهو السديد، وقوله من الله فيه وجهان (الأول) أن يكون تقدير الآية بعذاب واقع من الله للكافرين (الثاني) أن يكون التقدير ليس له دافع من الله، أي ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع من جهته، فإنه إذا أوجبت الحكمة وقوعه امتنع أن لا يفعله الله وقوله (ذى المعارج) المعارج، جمع معرج وهو المصعد، ومنه قوله تعالى (ومعارج عليها يظهرون) والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس في رواية الكلبي ذى المعارج، أي ذى السموات، وسماها معارج، لأن الملائكة يعرجون فيها (وثانيها) قال قتادة ذى الفواضل والنعم وذلك لأن لا يديه ووجوه إنعامه مراتب، وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة (وثالثها) أن المعارج هي الدرجات التي يعطيها أولياؤه في الجنة، وعندى فيه (وجه رابع) وهو أن هذه السموات كما أنها متفاوتة في الارتفاع والانخفاض والكبير والصغر، فكذا الأرواح الملائكية مختلفة في القوة والضعف والسكال والنقص. وكثرة المعارف الإلهية وقوتها وشدة القوة على تدبير هذا العالم ووضف تلك القوة، ولعل نور إنعام الله وأثر فيض رحمته لا يصل إلى هذا العالم إلا بواسطة تلك الأرواح، إما على سبيل العادة أو لا كذلك على ما قال (فالقسمات أمراً)، (فالمدبرات أمراً) فالمراد بقوله (من الله ذى المعارج) الإشارة إلى تلك الأرواح المختلفة التي هي كالمصاعد لارتفاع مراتب الحاجات من هذا العالم إليها وكالمنازل لنزول أثر الرحمة من ذلك العالم إلى ما ههنا.

قوله تعالى : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ وههنا مسائل :
 ﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن عادة الله تعالى في القرآن أنه متى ذكر الملائكة في معرض

التحويل والتخريف أفرد الروح بعدم بالذكر ، كما في هذه الآية ، وكما في قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) وهذا يقتضى أن الروح أعظم [من] الملائكة قدراً ، ثم ههنا دقيقة وهى أنه تعالى ذكر عند العروج الملائكة أولاً والروح ثانياً ، كما في هذه الآية ، وذكر عند القيام الروح أولاً والملائكة ثانياً ، كما في قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) وهذا يقتضى كون الروح أولاً فى درجة النزول وآخرأ فى درجة الصعود ، وعند هذا قال بعض المكشفين : إن الروح نور عظيم هو أقرب الأنوار إلى جلال الله ، ومنه تتشعب أرواح سائر الملائكة والبشر فى آخر درجات منازل الأرواح ، وبين الطرفين معارج مراتب الأرواح الملكية ومدارج منازل الأنوار القدسية ، ولا يعلم كميتها إلا الله ، وأما ظاهر قول المتكلمين وهو أن الروح هو جبريل عليه السلام فقد قررنا هذه المسألة فى تفسير قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج القائلون بأن الله فى مكان ، إما فى العرش أو فوقه بهذه الآية من وجهين : (الأول) أن الآية دلت على أن الله تعالى موصوف بأنه ذو المعارج وهو إنما يكون كذلك لو كان فى جهة فوق (والثانى) قوله (تعرج الملائكة والروح إليه) فبين أن عروج الملائكة وصعودهم إليه ، وذلك يقتضى كونه تعالى فى جهة فوق (والجواب) لما دلت الدلائل على امتناع كونه فى المكان والجهة ثبت أنه لا بد من التأويل ، فأما وصف الله بأنه (ذو المعارج) فقد ذكرنا الوجوه فيه ، وأما حرف إلى فى قوله (تعرج الملائكة والروح إليه) فليس المراد منه المكان بل المراد انتهاء الأمور إلى مراده كقوله (وإليه يرجع الأمر كله) المراد الانتهاء إلى موضع العز والكرامة كقوله (إني ذاهب إلى ربى) ويكون هذا الإشارة إلى أن دار الثواب أعلى الأمكنة وأرفعها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الأكثرون على أن قوله (فى يوم) من صلة قوله تعرج ، أى يحصل العروج فى مثل هذا اليوم ، وقال مقاتل بل هذا من صلة قوله (بعذاب واقع) وعلى هذا القول يكون فى الآية تقديم وتأخير والتقدير : سأل سائل بعذاب واقع ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . وعلى التقدير الأول ، فذلك اليوم ، إما أن يكون فى الآخرة أو فى الدنيا ، وعلى تقدير أن يكون فى الآخرة ، فذلك الطول إما أن يكون واقعاً ، وإما أن يكون مقدرأ فهذه هى الوجوه التى تجملها هذه الآية ، ونحن نذكر تفصيلها (القول الأول) هو أن معنى الآية أن ذلك العروج يقع فى يوم من أيام الآخرة طوله خمسون ألف سنة ، وهو يوم القيامة ، وهذا قول الحسن : قال وليس يعنى أن مقدار طوله هذا فقط ، إذ لو كان كذلك لحصلت له غاية ولفئنت الجنة والنار ، عند تلك الغاية وهذا غير جائز ، بل المراد أن موقفهم للحساب ، حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سنى الدنيا . ثم بعد ذلك يستقر أهل النار فى دركات التيران نعوذ بالله منها . واعلم أن هذا الطول إنما يكون فى حق الكافر ، أما فى حق المؤمن فلا ، والدليل عليه الآية والخبر ، أما الآية فقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) وانفقوا على أن ذلك المقيلاً والمستقراً هو

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿١٠١﴾

الجنة ، وأما الخبر فمأثور عن أبي سعيد الخدري أنه قال قيل لرسول الله ﷺ ما طول هذا اليوم ، فقال «والذي نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا» ومن الناس من قال ، إن ذلك الموقف وإن طال فهو يكون سبباً لمزيد السرور والراحة لأهل الجنة ، ويكون سبباً لمزيد الحزن والغم لأهل النار (الجواب) عنه أن الآخرة دار جزاء ، فلا بد من أن يعجل للمثابين ثوابهم ، ودار الثواب هي الجنة لا الموقف ، فإذا لا بد من تخصيص طول الموقف بالكفار (القول الثاني) هو أن هذه المدة واقعة في الآخرة ، لكن على سبيل التقدير لا على سبيل التحقق ، والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الخلق وأذكاهم لبقى فيه خمسين ألف سنة ثم إنه تعالى يتم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، وأيضاً الملائكة يرجون إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبقى في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ثم إنهم يصعدون إليها في ساعة قليلة ، وهذا قول وهب وجماعة من المفسرين (القول الثالث) وهو قول أبي مسلم إن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها من أول ما خلق الله إلى آخر الفناء ، فبين تعاني أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة ، ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوماً ، لانا لا ندرى كم مضى وكم بقى (القول الرابع) تقدير الآية : سألت سائل يعذب واقع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يحتمل أن يكون المراد منه استطالة ذلك اليوم لشدة على الكفار ، ويحتمل أن يكون المراد تقدير مدته ، وعلى هذا فليس المراد تقدير العذاب بهذا المقدار ، بل المراد التنبه على طول مدة العذاب ، ويحتمل أيضاً أن العذاب الذي سأله ذلك السائل يكون مقدراً بهذه المدة ، ثم إنه تعالى ينقله إلى نوع آخر من العذاب بعد ذلك ، فإن قيل روى ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن هذه الآية ، وعن قوله (في يوم كان مقداره ألف سنة) فقال أيام سماها الله تعالى هو أعلم بها كيف تكون ، وأكره أن أقول فيها ما لا أعلم ، فإن قيل : فما قولكم في التوفيق بين هاتين الآيتين ؟ قلنا قال وهب في الجواب عن هذا ما بين أسفل العالم إلى أعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة ومن أعلى السماء الدنيا إلى الأرض مسيرة ألف سنة ، لأن عرض كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة أخرى ، فقوله تعالى (في يوم) يريد من أيام الدنيا وهو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه إلى سماء الدنيا ، ومقدار ألف سنة لو صعدوا إلى أعالي العرش .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن هذا متعلق بسؤال سائل ، لأن استعجال النضر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله والتكذيب بالوحي ، وكان ذلك مما يضجر رسول الله صلى الله

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۗ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠

عليه وسلم فأمر بالصبر عليه ، وكذلك من يسأل عن العذاب لمن هو ، وإنما يسأل على طريق التعتن من كفار مكة ، ومن قرأ (سأل سائل) فعناه جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر فقد جاء وقت الإنتقام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الكلبي هذه الآية نزلت قبل أن يؤمر الرسول بالقتال .

قوله تعالى ﴿ إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ﴾ .

الضمير في (يرونه) إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان (الأول) أنه عائد إلى العذاب الواقع (والثاني) أنه عائد إلى (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) أي يستبعدونه على جهة الإحالة ونحن نراه قريباً هيناً في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر . فالمراد بالبعيد البعيد من الإمكان ، وبالقريب القريب منه . قوله تعالى : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميماً ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يوم تكون منصوب بماذا ؟ فيه وجوه (أحدها) بقريباً ، والتقدير : ونراه قريباً ، يوم تكون السماء كالمهل ، أي يمكن ولا يعتذر في ذلك اليوم (وثانيها) التقدير : سأل سائل بعذاب واقع ، يوم تكون السماء كالمهل (والثالث) التقدير يوم تكون السماء كالمهل كان كذا وكذا (والرابع) أن يكون بدلاً من يوم ، والتقدير سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة يوم تكون السماء كالمهل ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه ذكر لذلك اليوم صفات :

(الصفة الأولى) أن السماء تكون فيه كالمهل وذ كرنا تفسير المهل عند قوله (بماء كالمهل) قال ابن عباس : كدردي الزيت ، وروى عنه عطاء : كعكر القطران ، وقال الحسن : مثل الفضة إذا أذيت ، وهو قول ابن مسعود ،

(الصفة الثانية) أن تكون الجبال فيه كالعهن ، ومعنى العهن في اللغة : الصوف المصبوغ ألواناً ، وإنما وقع التشبيه به ، لأن الجبال جدد بيض وحر مختلف ألوانها وغرايب سود . فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

(الصفة الثالثة) قوله ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس الحميم القريب الذي يمصب له ، وعدم السؤال إنما كان لاشتغال كل أحد بنفسه ، وهو كقوله (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) وقوله (يوم يهر المرء من أخيه - إلى قوله - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ثم في الآية وجوه (أحدها) أن يكون

يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بئيه ﴿١١﴾ وصاحبته

وأخيه ﴿١٢﴾ وفصيلته التي تؤويه ﴿١٣﴾ ومن في الأرض جميعاً

التقدير : لا يسأل حميم عن حميمه فحذف الجار وأوصل الفعل (الثاني) لا يسأل حميم حميمه كيف حاله ولا يكلمه ، لأن لكل أحد ما يشغله عن هذا الكلام (الثالث) لا يسأل حميم حميماً شفاعته ، ولا يسأل حميم حميماً إحساناً إليه ولا رفقاً به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن كثير : ولا يسأل بضم الياء ، والمعنى لا يسأل حميم عن حميمه ليتعرف شأنه من جهته ، كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه ، وهذا أيضاً على حذف الجار . قال الفراء أى لا يقال الحميم ابن حميمك . ولست أحب هذه القراءة لأنها مخالفة لما أجمع عليه الفراء . قوله تعالى ﴿ يبصرونهم ﴾ يقال بصرت به أبصر ، قال تعالى (بصرت بما لم يبصروا به) ويقال بصرت زيد بكذا فإذا حذف الجار قلت بصرتي زيد كذا فإذا أثبت الفعل للمفعول به وقد حذف الجار قلت بصرتي زيدا ، فهذا هو معنى يبصرونهم ، وإنما جمع فقيل يبصرونهم ، لأن الحميم وإن كان مفرداً في اللفظ فالمراد به الكثرة والجمع والدليل عليه قوله تعالى (فما لنا من شافعين) ومعنى يبصرونهم يعرفونهم ، أى يعرف الحميم الحميم حتى يعرفه ، وهو مع ذلك لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه ، فإن قيل ما موضع يبصرونهم ؟ فلنا فيه وجهان (الأول) أنه متعلق بما قبله كأنه لما قال (ولا يسأل حميم حميماً) قيل لعله لا يبصره فقيل يبصرونهم ولكنهم لا يشتغلهم بأنفسهم لا يتمكنون من تساؤلهم (الثاني) أنه متعلق بما بعده ، والمعنى أن المجرمين يبصرون المؤمن حال ما يود أحدهم أن يفتدى نفسه لكل ما يملكه ، فإن الإنسان إذا كان في البلاد الشديد ثم رآه عدوه على تلك الحالة كان ذلك في نهاية الشدة عليه .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بئيه وصاحبته وأخيه ﴾

وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المجرم هو الكافر ، وقيل يتناول كل مذنب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (يومئذ) بالجر والفتح على البناء ، لسبب الإضافة إلى غير متمكن ، وقرىء أيضاً (من عذاب يومئذ) بتثوين عذاب ، ونصب يومئذ وانتصابه بعذاب ، لأنه في معنى تعذيب .

وقوله ﴿ وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ﴾ فصيالة الرجل ، أقاربه الأقربون الذين فصل عنهم ويذهب إليهم ، لأن المراد من الفصيالة المفصولة ، لأن الولد يكون منفصلاً من الأبوين . قال عليه السلام « فاطمة بضعة مني » فلما كان هو مفصولاً منهما ، كانا أيضاً مفصولين

ثُمَّ يُنَجِّيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَلظِّي ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ﴿١٦﴾

منه ، فسميا فصيلة لهذا السبب ، وكان يقال للعباس فصيلة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن العم قائم مقام الأب . وأما قوله (تؤوبه) فالمعنى تضمه انتهاء إليها في الذنب . أو تمسكا بها في النوائب . وقوله (ثم ينجيهِ) فيه وجهان (الأول) أنه معطوف على يفندى ، والمعنى : يود المجرم لو يفندى بهذه الأشياء ثم ينجيهِ (والثاني) أنه متعلق بقوله (ومن في الأرض) والتقدير : يود لو يفندى بمن في الأرض ثم ينجيهِ ، وثم ، لاستبعاد الإنجاء ، يعنى يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده ، وبذلهم في فداء نفسه ، ثم ينجيهِ ذلك ، وهيات أن ينجيهِ .

قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلظِّي﴾ ، نزاعة للشوى ﴿﴾ (كلا) ردع للمجرم عن كونه بحيث يود الافتداء بنيه ، وعلى أنه لا ينفعه ذلك الافتداء ، ولا ينجيهِ من العذاب ، ثم قال (إنها) وفيه وجهان (الأول) أن هذا الضمير للنار ، ولم يجز لها ذكر . إلا أن ذكر العذاب دل عليها (والثاني) يجوز أن يكون ضمير القصة ، ولظي من أسماء النار . قال الليث : اللظى ، اللهب الخالص ، يقال : لظت النار تلظى لظي ، وتلظت تلظياً ، ومنه قوله (ناراً تلظي) ولظي علم للنار منقول من اللظى ، وهو معرفة لا ينصرف ، فلذلك لم ينون ، وقوله (نزاعة) مرفوعة ، وفي سبب هذا الارتفاع وجوه (الأول) أن تجعل الهاء في أنها عماد ، أو تجعل لظي اسم إن ، ونزاعة خبر إن ، كأنه قيل إن لظي نزاعة (والثاني) أن تجعل الهاء ضمير القصة ، ولظي مبتدأ ، ونزاعة خبراً ، وتجعل الجملة خبراً عن ضمير القصة ، والتقدير : إن القصة لظي نزاعة للشوى (والثالث) أن ترتفع على الدم ، وإيتقدير : إنها لظي وهي نزاعة للشوى ، وهذا قول الأخفش والفراء والزجاج . وأما قراءة النصب ففيها ثلاثة أوجه (أحدها) قال الزجاج : إنها حال مؤكدة ، كما قال (هو الحق مصدقاً) وكما يقول : أنا زيد معروف ، اعترض أبو علي الفارسي على هذا وقال : حمله على الحال بعيد ، لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال ، فإن قلت في قوله (لظي) معنى التلظى والتلهب ، فهذا لا يستقيم ، لأن لظي اسم علم لماهية مخصوصة ، والماهية لا يمكن تقييدها بالأحوال ، إنما الذي يمكن تقييده بالأحوال هو الأفعال ، فلا يمكن أن يقال : رجلاً حال كونه عالماً ، ويمكن أن يقال رأيت رجلاً حال كونه عالماً (وثانيها) أن تكون لظي اسماً لنار تلظى تلظياً شديداً ، فيكون هذا الفعل ناصباً ، لقوله (نزاعة) (وثالثها) أن تكون منصوبة على الاختصاص ، والتقدير : إنها لظي أعنيها نزاعة للشوى ، ولم تمنع .

﴿المسألة الثالثة﴾ (الشوى) الأطراف ، وهي اليدان والرجلان ، ويقال للرامي : إذا لم يصب المقتل أشوى ، أى أصاب الشوى ، والشوى أيضاً جلد الرأس ، واحدها شواة . ومنه قول الأعشى :

تَدْعُوا مِنْ أَدْبَرٍ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾

قالت قتيبة ماله قد جللت شيئاً شواته

هذا قول أهل اللغة ، قال مقاتل تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك الحمولاً جليداً إلا أحرقت ، وقال سعيد بن جبير : العصب والعقب ولحم الساقين واليدين ، وقال ثابت البناني : لمكارم وجه بني آدم . واعلم أن النار إذا أفتت هذه الأعضاء ، فالله تعالى يعيدها مرة أخرى ، كما قال (كما فضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) .

قوله تعالى : ﴿ تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا في أن لظى كيف تدعو الكافر ، فذكروا وجوهاً (أحدها) أنها تدعوم بلسان الحال كما قيل : سل الأرض من أشق أهارك ، وغرس أشجارك ؟ فإن لم تجبك جواراً ، أجاتك اعتباراً . فهنا لما كان مرجع كل واحد من الكفار إلى زاوية من زوايا جهنم ، كان تلك المواضع تدعوم وتحضرم (وثانيتها) أن الله تعالى يخلق الكلام في جرم النار حتى تقول صريحاً : إلى يا كافر ، إلى يامناف ، ثم تلتطمم التقاط الحب (وثانيتها) المراد أن زبانية النار ، يدعون فأضيف ذلك الدعاء إلى النار بحذف المضاف (ورابعها) تدعو تهلك من قول العرب دعاك الله أى أهلكك ، وقوله (من أدبر وتولى) يعنى من أدبر عن الطاعة وتولى عن الإيمان (وجمع) المال (فأوعى) أى جعله في وعاء وكنزه ، ولم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيها فقوله (أدبر وتولى) إشارة إلى الإعراض عن معرفة الله وطاعته ، وقوله (وجمع فأوعى) إشارة إلى حب الدنيا ، فجمع إشارة إلى الحرص ، وأوعى إشارة إلى الأمل ، ولا شك أن مجامع آفات الدين ليست إلا هذه .

قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم المراد بالإنسان ههنا الكافر ، وقال آخرون بل هو على عمومه ، بدليل أنه استثنى منه إلا المصلين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يقال هلع الرجل يهلع هلعاً وهلاطاً فهو هالع وهلوع ، وهو شدة الحرص وقلة الصبر ، يقال جاع فهلع ، وقال الفراء : الهلوع الضجور ، وقال المبرد : الهلع الضجر ، يقال نعوذ بالله من الهلع عند منازلة الأقران ، وعن أحمد بن يحيى ، قال لى محمد بن عبدالله بن طاهر ، ما الهلع ؟ فقلت قد فسره الله ، ولا تفسير أبين من تفسيره ، هو الذى إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل ومنعه الناس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القاضى قوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعاً) نظير لقوله (خلق الإنسان من عجل) وليس المراد أنه مخلوق على هذا الوصف ، والدليل عليه أن الله تعالى ذمه عليه والله تعالى لا يذم فعلة ، ولأنه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم في ترك هذه الخصلة

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمَصَلِينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾

المذمومة ، ولو كانت هذه الحصلة ضرورية حاصلة بخلق الله تعالى لما قدروا على تركها . واعلم أن اللمع لفظ واقع على أمرين : (أحدهما) الحالة النفسانية التي لأجلها يقدم الإنسان على إظهار الجزع والتضرع (والثاني) تلك الأفعال الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالة النفسانية ، أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنها تحدث بخلق الله تعالى ، لأن من خلقت نفسه على تلك الحالة لا يمكنه إزالة تلك الحالة من نفسه ، ومن خلق شجاعا بطلا لا يمكنه إزالة تلك الحالة عن نفسه بل الأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام عليها فهي أمور اختيارية ، أما الحالة النفسانية التي هي اللمع في الحقيقة فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار .

قوله تعالى : ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ المراد من الشر والخير الفقر والغنى أو المرض والصحة ، فالمعنى أنه إذا صار فقيراً أو مريضاً أخذ في الجزع والشكاية ، وإذا صار غنياً أو صحيحاً أخذ في منع المعروف وشج بماله ولم يلتفت إلى الناس ، فإن قيل حاصل هذا الكلام أنه نفور عن المضار طالب للراحة ، وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه الله عليه ؟ قلنا إنما ذمه عليه لأنه قاصر النظر على الأحوال الجسمانية العاجلة ، وكان من الواجب عليه أن يكون مشغولاً بأحوال الآخرة ، فإذا وقع في مرض أو فقر وعلم أنه فعل الله تعالى كان راضياً به ، لعلمه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وإذا وجد المال والصحة صرفهما إلى طلب السعادات الآخروية ، واعلم أنه استثنى من هذه الحالة المذكورة المذمومة من كان موصوفاً بثمانية أشياء :

أولها - قوله ﴿ إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ فإن قيل قال (على صلاتهم دائمون) ثم (على صلاتهم يحافظون) قلنا معنى دوامهم عليها أن لا يتركوها في شيء من الأوقات ويحافظون عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه ، وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة وتارة بأمور لاحقة بها ، وتارة بأمور متراخية عنها ، أما الأمور السابقة فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلق القلب بدخول أوقاتها ، ومتعلق بالوضوء ، وستر العورة وطلب القبلة ، ووجدان الثوب والمكان الطاهرين ، والإتيان بالصلاة في الجماعة ، وفي المساجد المباركة ، وأن يجتهد قبل الدخول في الصلاة في تفرغ القلب عن الوسوس والإلتفات إلى ماسوي الله تعالى ، وأن يبالي في الاحتراز عن الرياء والسمعة ، وأما الأمور المقارنة فهو أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة ، فاهماً للأذكار ، مطلعاً على حكم الصلاة ، وأما الأمور المتراخية فهي أن لا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللغو واللعب ، وأن يحترز كل

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ
 الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ
 ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
 فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾

الاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي .

وثانيها: قوله تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ﴾ اختلفوا في الحق
 المعلوم : فقال ابن عباس والحسن وابن سيرين ، إنه الزكاة المفروضة ، قال ابن عباس ، من أدى
 زكاة ماله فلا جناح عليه أن لا يتصدق ، قالوا والدليل على أن المراد به الزكاة المفروضة وجهان :
 (الأول) أن الحق المعلوم المقدر هو الزكاة ، أما الصدقة فهي غير مقدرة (الثاني) وهو أنه تعالى
 ذكر هذا على سبيل الاستثناء من ذمه ، فدل على أن الذي لا يعطى هذا الحق يكون مذموماً ، ولا
 حق على هذه الصفة إلا الزكاة ، وقال آخرون ، هذا الحق سوى الزكاة ، وهو يكون على طريق
 الندب والاستحباب ، وهذا قول مجاهد وعطاء والنخعي . وقوله (السائل) يعني الذي يسأل (المحروم)
 الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم .

وثالثها - قوله ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي يؤمنون بالبعث والحشر .

ورابعها - قوله ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ والإشفاق يكون من أمرين ، إما
 الخوف من ترك الواجبات أو الخوف من الإقدام على المحظورات ، وهذا كقوله (والذين يؤتون
 ما آتوا وقلوبهم وجلة) وكقوله سبحانه (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ومن يدوم به
 الخوف والإشفاق فيما كلف يكون حذراً من التقصير حريصاً على القيام بما كلف به من علم وعمل .
 ثم إنه تعالى أكد ذلك الخوف فقال ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ والمراد أن الإنسان
 لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي ، وانهرز عن المحظورات بالكلية ، بل يجوز أن يكون
 قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك ، فلا جرم يكون خائفاً أبداً .

وخامسها - قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت
 أيمنهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ .

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ

﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٨﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٩﴾

فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مَهْطِعِينَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٤١﴾

وقد مر تفسيره في سورة المؤمنين .

وسادسها — قوله ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ وقد تقدم تفسيره أيضاً .
وسابعها — قوله ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ قرئء بشهادتهم وبشهاداتهم ، قال الواحدى والإفراد أولى لأنه مصدر فيفرد كما تفرد المصادر وإن أضيف لجمع كقوله لصوت الحمير . ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات ، وكثرت ضرورها فحسن الجمع من جهة الاختلاف ، وأكثر المفسرين قالوا يعنى الشهادات عند الحكام يقومون بها بالحق ، ولا يكتمونها وهذه الشهادات من جملة الأمانات إلا أنه تعالى خصها من بينها إبانة لفضلها لأن في إقامتها إحياء الحقوق وفي تركها إبطاها وتضييعها ، وروى عطاء عن ابن عباس قال يريد الشهادة بأن الله واحد لا شريك له .

وثامنها — قوله ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ وقد تقدم تفسيره ،

ثم وعد هؤلاء وقال ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ .

ثم ذكر بعده ما يتعلق بالكفار ، فقال ﴿ فما للذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ المهطع المسرع

وقيل المساد عنقه ، وأنشدوا فيه :

بمكة أهلها ولقد أرام بمكة مهطعين إلى السماع

والوجهان متقاربان ، روى أن المشركين كانوا يحتفون حول النبي صلى الله عليه وسلم حلقاً حلقاً وفاقاً فرقاً يستمعون ويستهنئون بكلامه ، ويقولون : إذا دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم ، فنزلت هذه الآية فقوله (مهطعين) أى مسرعين نحوك ما دين أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ، وقال أبو مسلم ظاهر الآية يدل على أنهم هم المنافقون ، فهم الذين كانوا عنده وإسراعهم المذكور هو الإسراع في الكفر كقوله (لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) .

ثم قال ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ وذلك لأنهم كانوا عن يمينه وعن شماله مجتمعين ، ومعنى (عزين) جماعات في تفرقة واحدا عزة ، وهى العصبية من الناس ، قال الأزهري وأصلها من قولهم عزا فلان نفسه إلى بنى فلان يعزوها عزواً إذا انتهى إليهم ، والإسم العزوه وكان العزة

أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ
 ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ
 وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ

﴿٤٢﴾

كل جماعة اعتزوها إلى أمر واحد ، واعلم أن هذا من المقوص الذي جاز جمعه بالواو والنون عوضاً من المحذوف وأصلها عزوة ، والكلام في هذه كالكلام في عضين وقد تقدم ، وقيل كان المستهزئون خمسة أرهط .

ثم قال ﴿ أيطع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾ والنعيم ضد البؤس ، والمعنى أيطع كل رجل منهم أن يدخل جنتي كما يدخلها المسلمون .

ثم قال ﴿ كلا ﴾ وهو ردع لهم عن ذلك الطمع الفاسد .

ثم قال ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ وفيه مسألتان .

﴿ المسألة الأولى ﴾ الغرض من هذا الاستدلال على صحة البعث ، كأنه قال لما قدرت على أن أخلقكم من النطفة ، وجب أن أكون قادراً على بعثكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً (أحدها) أنه لما احتج على صحة البعث دل على أنهم كانوا منكرين للبعث ، فكأنه قيل لهم كلا إنكم منكرون للبعث ، فمن أين تطعمون في دخول الجنة (وثانيها) أن المستهزئين كانوا يستحقرون المؤمنين ، فقال تعالى هؤلاء المستهزئون مخلوقون مما خلقوا ، فكيف يليق بهم هذا الاحتقار (وثالثها) أنهم مخلوقون من هذه الأشياء المتغيرة ، فلم يتصفوا بالإيمان والمعرفة ، فكيف يليق بالحكيم إدخالهم الجنة .

ثم قال ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغرب ، إنا لقادرون ، على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ .

يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو المراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبي وبالمغرب موته أو المراد أنواع الهدايا والخذلان (إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين) وهو مفسر في قوله (وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم) وقوله ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ مفسر في آخر سورة والطور ، واختلفوا في أن ما وصف الله نفسه بالقدرة عليه من ذلك هل خرج إلى الفعل أم لا ؟ فقال بعضهم بدل الله بهم الانصار والمهاجرين

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً

أَبْصَارِهِمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

فان حالتهم في نصرة الرسول مشهورة ، وقال آخرون بل بدل الله كفر بعضهم بالإيمان ، وقال بعضهم لم يقع هذا التبديل ، فانهم أو أكثرهم بقوا على جملة كفرهم إلى أن ماتوا ، وإنما كان يصح وقوع التبديل بهم لو أهلكوا ، لأن مراده تعالى بقوله (إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) بطريق الإهلاك ، فإذا لم يحصل ذلك فكيف يحكم بأن ذلك قد وقع ، وإنما هدّد تعالى القوم بذلك لكي يؤمنوا .

ثم ذكر تعالى ذلك اليوم الذي تقدم ذكره فقال ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا ﴾ وهو كقوله (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) .

قوله تعالى : ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ .

اعلم أن في (نصب) ثلاث قراءات (أحداها) وهي قراءة الجمهور نصب بفتح النون والنصب كل شيء نصب والمعنى كأنهم إلى علم لهم يستبقون (والقراءة الثانية) نصب بضم النون وسكون الصاد وفيه وجهان (أحدهما) النصب والنصب لعتان مثل الضعف والضعف (وثانيهما) أن يكون جمع نصب كشقف جمع شقف (والقراءة الثالثة) (نصب) بضم النون والصاد ، وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون النصب والنصب كلاهما يكونان جمع نصب كأسد وأسد جمع أسد (وثانيهما) أن يكون المراد من النصب الأنصاب وهي الأشياء التي تنصب فتعبد من دون الله كقوله (وما ذبح على النصب) وقوله (يوفضون) يسرعون ، ومعنى الآية على هذا الوجه أنهم يوم يخرجون من الأجداث يسرعون إلى الداعي مستبقيين كما كانوا يستبقون إلى أنصارهم ، وبقيّة السورة معلومة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(٧١) سُورَةُ نُوحٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا مَكَانٌ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾
 قَالَ يَنْقُومِ إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٣﴾
 يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴿٤﴾
 لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك﴾ في قوله أن وجهان (أحدهما) أصله بأن أنذر فحذف الجار وأوصل الفعل ، والمعنى أرسلناه بأن قلنا له أنذر أي أرسلناه بالإنذار الثاني قال الزجاج ، يجوز أن تكون مفسرة ، والتقدير : إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أي أنذر قومك وقرأ ابن مسعود ، أنذر بغير أن على إرادة القول .

ثم قال ﴿من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾ قال مقاتل يعني الفرق بالطوفان .
 واعلم أن الله تعالى لما أمره بذلك امثل ذلك الأمر ، و (قال يا قوم إني لكم نذير مبين) .
 ثم قال ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوا أمره﴾ (أطيعوا أمره) يتناول جميع الواجبات والمتدوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح ، والأمر بتقواه يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات ، وقوله (وأطيعوا أمره) يتناول جميع المأمورات والمنهيات ، وهذا وإن كان داخلا في الأمر بعبادة الله وتقواه ، إلا أنه خصه بالذكر تأكيدا في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره ، ثم إنه تعالى لما كلفهم هذه الأشياء الثلاثة وعدم عليها بشيئين (أحدهما) أن يزيل مزار الآخرة عنهم ، وهو قوله (يغفر لكم من ذنوبكم) . (الثاني) يزيل عنهم مزار الدنيا بقدر الإمكان ، وذلك بأن يؤخر أجلهم إلى أقصى الإمكان . وهنا سؤلات :

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٦٠﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦١﴾

(السؤال الأول) ما فائدة من في قوله (يغفر لكم من ذنوبكم)؟ (والجواب) من وجوه (أحدها) أنها صلة زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم (والثاني) أن غفران الذنب هو أن لا يؤخذ به ، فلو قال : يغفر لكم ذنوبكم ، لكان معناه أن لا يؤخذكم بمجموع ذنوبكم ، وعدم المأخذة بالمجموع لا يوجب عدم المأخذة بكل واحد من آحاد المجموع ، فله أن يقول لا أطلبك بمجموع ذنوبك ، ولكني أطلبك بهذا الذنب الواحد فقط ، أما لما قال (يغفر لكم من ذنوبكم) كان تقديره يغفر كل ما كان من ذنوبكم ، وهذا يقتضى عدم المأخذة على مجموع الذنوب وعدم المأخذة أيضاً على كل فرد من أفراد المجموع (الثالث) أن قوله (يغفر لكم من ذنوبكم) هب أنه يقتضى التبعيض لكنه حتى لأن من آمن فإنه يصير ما تقدم من ذنوبه على إيمانه مغفوراً ، أما ما تأخر عنه فإنه لا يصير بذلك السبب مغفوراً ، ثبت أنه لا بد ههنا من حرف التبعيض .

(السؤال الثاني) كيف قال ويؤخركم مع إخباره بامتناع تأخير الأجل ، وهل هذا إلتناقض؟ (الجواب) قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم الله ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة ، فقيل لهم آمنوا (يؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى وقت سماه الله وجعله غاية الطول في العمر ، وهو تمام الألف ، ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول ، لا بد من الموت .

(السؤال الثالث) ما الفائدة في قوله لو كنتم تعلمون؟ (الجواب) الغرض الزجر عن حب الدنيا ، وعن التهاكك عليها والإعراض عن الدين بسبب حبها ، يعنى أن غلوم في حب الدنيا وطلب لذاتها بلغ إلى حيث يدل على أنهم شاكون في الموت .

قوله تعالى : ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلًا ونهاراً فلم يزدني دعائى إلا فراراً ﴾
 أعلم أن هذا من الآيات الدالة على أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره ، وذلك لأننا نرى إنسانين يسمعان دعوة الرسول في مجلس واحد بلفظ واحد ، فيصير ذلك الكلام في حق أحدهما سبباً لحصول الهداية ، والميل والرغبة ، وفي حق الثاني سبباً لمزيد العتو والتكبر ، ونهاية النفرة ، وليس لأحد أن يقول إن تلك النفرة والرغبة حصلتا باختيار المكلف ، فإن هذا مكابرة في المحسوس ، فإن صاحب النفرة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك النفرة وصاحب الرغبة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك الرغبة ، ومتى حصلت تلك النفرة وجب أن يحصل عقبيه التمرد والإعراض ، وإن حصلت الرغبة وجب أن يحصل عقبيه الانقياد والطاعة ، فدلنا أن إفناء سماع تلك الدعوة في حق أحدهما إلى الرغبة المستلزمة لحصول الطاعة والانقياد . وفي حق الثاني إلى النفرة المستلزمة لحصول التمرد والعصيان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره ، فإن قيل هب أن حصول النفرة والرغبة ليس باختياره ، لكن حصول

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ
وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ
وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾

العصيان عند النفرة يكون باختياره ، فإن العبد متمكن مع تلك النفرة أن ينقاد ويطيع ، قلنا إنه لو حصلت النفرة غير معارضة بوجه من وجوه الرغبة بل خالصة عن جميع شوائب الرغبة امتنع أن يحصل معه الفعل ، وذلك لأنه عند ما تحصل النفرة والرغبة لم يحصل الفعل البتة ، فعند حصول النفرة انضم إلى عديم المقضى وجود المانع ، فبأن يصير الفعل ممتنعاً أولى ، ثبت أن هذه الآية من أقوى الدلائل على القضاء والقدر .

ثم قال تعالى ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ﴾ .

اعلم أن نوحاً عليه السلام إنما دعاهم إلى العبادة والتقوى والطاعة ، لاجل أن يغفر لهم ، فإن المقصود الأول هو حصول المغفرة ، وأما الطاعة فهي إنما طلبت ليتوسل بها إلى تحصيل المغفرة ، ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال (يغفر لكم من ذنوبكم) فلما كان المطلوب الأول من الدعوة حصول المغفرة ، لا جرم قال (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم) واعلم أنه عليه السلام لما دعاهم عاملوه بأشياء :

- (أولها) قوله ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ والمعنى أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم ثلاثاً يسمعون الحجج والبينة .

(وثانيها) قوله ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أي تغطوا بها ، إما لاجل أن لا يبصروا وجهه ، كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه ، ولا أن يروا وجهه . وإما لاجل المبالغة في أن لا يسمعوا ، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم ، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك ، صار المانع من السماع أقوى .

(وثالثها) قوله ﴿ وأصروا ﴾ والمعنى أنهم أصروا على مذهبهم ، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق .

(ورابعها) قوله ﴿ واستكبروا استكباراً ﴾ أي عظيمًا بانغاً إلى النهاية القصوى .

ثم قال تعالى ﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ﴾ .

واعلم أن هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة ، فبدأ بالمناجحة في السر ، فعاملوه بالأمور الأربعة ، ثم نهي بالمجاهرة ، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار ، وكلمة (ثم) دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان ، أو بحسب الرتبة ، لأن الجهار أغلظ

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

من الإسرار ، والجمع بين الإسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده ، فإن قيل بم انتصب جهاراً ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) أنه منصوب بدعوتهم نصب المصدر ، لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار ، فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود (وثانيها) أنه أريد بدعوتهم جاهرتهم (وثالثها) أن يكون صفة لمصدر دعا ، بمعنى دعاء جهاراً ، أى مجاهراً به (ورابعها) أن يكون مصدراً في موضع الحال ، أى مجاهراً .

قوله تعالى : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً ﴾ قال مقاتل : إن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسايتهم أربعين سنة ، فرجعوا فيه إلى نوح ، فقال نوح : استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه .

واعلم أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات ، ويدل عليه وجوه (أحدها) أن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى (تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأ ، أن دعوا للرحمن ولداً) فلما كان الكفر سبباً لخراب العالم ، وجب أن يكون الإيمان سبباً لعماره العالم (وثانيها) الآيات منها هذه الآية ، ومنها قوله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ، وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدفاً ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) (وثالثها) أنه تعالى قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية (ورابعها) أن عمر خرج يستسقى فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : مارأيتك استسقيت ، فقال : لقد استسقيت بمجادح السماء . المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة ، ونوره يكون عزيزاً شبه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطيء ، وعن بكر بن عبد الله : أن أكثر الناس ذنوباً أولهم استغفاراً ، وأكثرهم استغفاراً أولهم ذنوباً ، وعن الحسن : أن رجلاً شكاً إليه الجذب ، فقال استغفر الله ، وشكاً إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له بعض القوم : أتاك رجال يشكون إنك أنواعاً من الحاجة ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فتلا له الآية . وههنا سؤالات :

(الأول) أن نوحاً عليه السلام ، أمر الكفار قبل هذه الآية ، بالعبادة والتقوى والطاعة ، فأى فائدة في أن أمرهم بعد ذلك بالاستغفار ؟ (الجواب) أنه لما أمرهم بالعبادة قالوا له : إن كان الدين القديم الذى كنا عليه حقاً فلم تأمرنا بتركه ، وإن كان باطلاً فكيف يقبلنا بعد أن

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾

عصيانه ، فقال نوح عليه السلام : إنكم وإن كنتم عصيتموه ولكن استغفروه من تلك الذنوب ، فإنه سبحانه كان غفاراً .

(السؤال الثاني) لم قال إنه كان غفاراً ، ولم يقل إنه غفار ؟ قلنا المراد : إنه كان غفاراً في حق كل من استغفروه كأنه يقول لا نظنوا أن غفاريته إنما حدثت الآن ، بل هو أبدأ هكذا كان ، فكان هذا هو حرفته وصنعتة .

قوله تعالى : ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ .

واعلم أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة ، ولذلك قال تعالى (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) فلا جرم أعلمهم الله تعالى ههنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا .

والأشياء التي وعدهم من منافع الدنيا في هذه الآية خمسة (أولها) قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) وفي السماء وجوه : (أحدها) أن المطر منها ينزل إلى السحاب (وثانيها) أن يراد بالسماء السحاب (وثالثها) أن يراد بالسماء المطر من قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم [رعيناه وإن كانوا غضابا]

والمدرار الكثير الدرور ، ومفعال نما يستري فيه المذكر والمؤنث ، كقولهم رجل أو امرأة معطار ومثقال (وثانيها) قوله (ويمدكم بأموال) وهذا لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكل (وثالثها) قوله (وبنين) ولا شك أن ذلك مما يميل الطبع إليه (ورابعها) قوله (ويجعل لكم جنات) أي بساتين (وخامسها) قوله (ويجعل لكم) أنهاراً .

ثم قال ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ وفيه قولان : (الأول) أن الرجاء ههنا بمعنى الخوف ، ومنه قول الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

والوقار العظمة والترقير التعظيم ، ومنه قوله تعالى (وتوقروه) بمعنى ما بالكم لا تخافون لله عظمة . وهذا القول عندي غير جائز ، لأن الرجاء ضد الخوف في اللغة المتواترة الظاهرة ، فلو قلنا إن لفظة الرجاء في اللغة موضوعة بمعنى الخوف لكان ذلك ترجيحاً للرواية الثابتة بالأحاديث على الرواية

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا

﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾

المنقولة بالتواتر وهذا يفضى إلى القدح في القرآن ، فإنه لا لفظ فيه إلا ويمكن جعل نفيه إثباتاً وإثباته نفيًا بهذا الطريق (الوجه الثاني) ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن المعنى (مالكم) لا تأملون لله توقيراً أى تعظيماً ، والمعنى (مالكم) لا تكونوا على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم و (لله) بيان للموقر ، ولو تأخر لكان صلة للوقار .

قوله تعالى ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ في موضع الحال كأنه قال مالكم لا تؤمنون بالله ، والحال هذه وهى حال موجهة للإيمان به (وقد خلقكم أطواراً) أى تارات خلقكم أولاً تراباً ، ثم خلقكم نطفاً ، ثم خلقكم علقاً ، ثم خلقكم مضغاً ، ثم خلقكم عظاماً ولحماً ، ثم أنشأكم خلقاً آخر ، وعندى فيه (وجه ثالث) وهو أن القوم كانوا يبالغون فى الاستخفاف بنوح عليه السلام فأمرهم الله تعالى بتوقيره وترك الاستخفاف به ، فكانه قال لهم إنكم إذا قرتم نوحاً وتركتم الاستخفاف به كان ذلك لأجل الله ، فالكم لاترجون وقارا وتأتون به لأجل الله ولأجل أمره وطاعته ، فإن كل ما يأتى به الإنسان لأجل الله ، فإنه لا بد وأن يرجوا منه خيراً (ووجه رابع) وهو أن الوقار وهو الثبات من وقر إذا ثبت واستقر ، فكانه قال (مالكم) وعند هذا تم الكلام ، ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار (لا ترجون لله وقاراً) أى لا ترجون لله ثباتاً وبقاء ، فإنكم لو رجوتهم ثباته وبقائه لحفتموه ، ولما أقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره ، والمراد من قوله (ترجون) أى تعتقدون لأن الراجى للشيء معتقد له .

واعلم أنه لما أمر فى هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل :
 ﴿ الأول ﴾ قوله (وقد خلقكم أطواراً) وفيه وجهان : (الأول) قال الليث الطورة التارة يعنى حالاً بعد حال كما ذكرنا أنه كان نطفة ، ثم علقه إلى آخر التارات (الثانى) قال ابن الأنبارى الطور الحال ، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضهم بعضاً ، ولما ذكر هذا الدليل من الأنفس على التوحيد ، أتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهودة فى كل القرآن .
 (الدليل الثانى) على التوحيد قوله تعالى ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ .

واعلم أنه تعالى تارة يبدأ بدلائل الأنفس ، وبعدها بدلائل الآفاق كما فى هذه الآية ، وذلك لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه ، فلا جرم بدأ بالأقرب ، وتارة يبدأ بدلائل الآفاق ، ثم بدلائل الأنفس إما لأن دلائل الآفاق أهر وأعظم ، فوعدت البداية لها لهذا السبب ، أو لأجل

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا

(١٨)

أن دلائل الأنفس حاضرة ، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها ، إنما الذي يحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق ، لأن الشبه فيها أكثر ، فلا جرم تقع البداية بها ، وههنا سوالات :

(السؤال الأول) قوله (سبع سموات طباقاً) يقتضى كون بعضها منطبقاً على البعض ، وهذا يقتضى أن لا يكون بينها فرج ، فالملائكة كيف يسكنون فيها ؟ (الجواب) الملائكة أرواح فعمل المراد من كونها طباقاً كونها متوازية لا أنها متماسة .

(السؤال الثاني) كيف قال (وجعل القمر فيهن نوراً) والقمر ليس فيها بأسرها بل في السماء الدنيا ؟ (والجواب) هذا كما يقال السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع أحياء العراق بل إن ذاته في حيز من جملة أحياء العراق فكذا ههنا .

(السؤال الثالث) السراج ضوءه عرضى وضوء القمر عرضى متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولى من تشبيه الشمس به (الجواب) الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس لما كانت سبباً لزوال ظل الأرض كانت شبيهة بالسراج ، وأيضاً فالسراج له ضوء والضوء أقوى من النور فجعل الأضعف للقمر والأقوى للشمس ، ومنه قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) .

(الدليل الثالث) على التوحيد قوله تعالى ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ .

واعلم أنه تعالى رجع ههنا إلى دلائل الأنفس وهو كالتفسير لقوله (خلقكم أطواراً) فإنه بين أنه تعالى خلقهم من الأرض ثم يردم إليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى ، أما قوله (أنبتكم من الأرض نباتاً) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في هذه الآية وجهان (أحدهما) معنى قوله (أنبتكم من الأرض) أى أنبت أباكم من الأرض كما قال (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) . (والثاني) أنه تعالى أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كان ينبغي أن يقال ، أنبتكم إنباتاً إلا أنه لم يقل ذلك بل قال أنبتكم نباتاً ، والتقدير أنبتكم فنبتم نباتاً ، وفيه دققة (لطيفة) وهى أنه لو قال أنبتكم إنباتاً كان المعنى أنبتكم إنباتاً عجيباً غريباً ، ولما قال أنبتكم نباتاً كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً ، وهذا الثانى أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى وصفة الله غير محسوسة لنا ، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ

نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾

بواسطة إخبار الله تعالى ، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلا يمكن إثباته بالسمع ، أما لما قال (أنبتكم نباتاً) على معنى أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً كاملاً كان ذلك وصفاً للنبات بكونه عجيباً كاملاً ، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس ، فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى ، فكان هذا موافقاً لهذا المقام . فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف ، أما قوله (ثم يعيدكم فيها) فهو إشارة إلى الطريقة المعهودة في القرآن من أنه تعالى لما كان قادراً على الابتداء كان قادراً على الإعادة ، وقوله (ويخرجكم إخراجاً) أكده بالمصدر كأنه قال يخرجكم حقاً لا محالة .

(الدليل الرابع) قوله تعالى ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أى طرقاً واسعة واحدها فج وهو مفسر فيما تقدم .

واعلم أن نوحاً عليه السلام لما دعاهم إلى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة حكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم .

فالأول قوله ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني ﴾ وذلك لأنه قال في أول السورة أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، فكانه قال قلت لهم أطيعون فهم عصوني .

الثاني قوله ﴿ واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ﴾ وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر في الآية الأولى أنهم عصوه وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر ، وقوله (من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً) يعنى هذان وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما لما صارا سبباً للخسار في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار والأمر كذلك في الحقيقة لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم فإذا صارت المنافع الدنيوية أسباباً للخسار في الآخرة صار ذلك جاريماً مجرى اللقمة الواحدة من الحلوى إذا كانت مسمومة سم الوقت ، واستدل بهذه الآية من قال إنه ليس لله على الكافر نعمة لأن هذه النعم استدرجات ووسائل إلى العذاب الأبدي فكانت كالعدم ، ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية ﴿ لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ . وولده بضم الواو واعلم أن الولد بالضم لغة في الولد ، ويجوز أن يكون جمعاً إما جمع ولد كالفلك ، وههنا يجوز أن يكون واحداً وجمعاً .

وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آهَاتِكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوعًا

وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا

﴿٢٤﴾

(النوع الثالث) من قبائح أفعالهم قوله تعالى ﴿ ومكروا مكراً كبيراً ، وقالوا لا تذرنا آهاتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ولا نسراً ، وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ومكروا ، معطوف على من لم يزد ، لأن المتبوعين هم الذين مكروا ، وقالوا للأتباع لا تذرنا ، وجمع الضمير وهو راجع إلى من ، لأنه في معنى الجمع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرى . كبيراً وكبيراً بالتخفيف والثقل ، وهو مبالغة في الكبير ، فأول المراتب الكبير ، والأوسط الكبير بالتخفيف ، والنهاية الكبار بالثقل ، ونظيره : جميل وجمال وعظيم وعظام وعظام ، وطويل وطوال وطوال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المكر الكبير ، هو أنهم قالوا لأتباعهم (لا تذرنا وداً) فهم منعوا القوم عن التوحيد ، وأمرهم بالشرك ، ولما كان التوحيد أعظم المراتب ، لاجرم كان المنع منه أعظم التكبير . فلماذا وصفه الله تعالى بأنه كبير ، واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم ، فقال الأمر بالشرك كبير في القبح والحزى ، فالأمر بالتوحيد والإرشاد وجب أن يكون كبيراً في الخير والدين ،

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنه تعالى إنما سماه (مكراً) لوجهين (الأول) لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها ، كأنهم قالوا هذه الأصنام آلهة لكم ، وكانت آلهة لأبائكم ، فلو قبلتم قول نوح لاعتزتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين ، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك ، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه ، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقاً شديداً ، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آهاتكم صارفاً لهم عن الدين ، فلأجل اشتغال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم (مكراً) (الثاني) أنه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد ، فلعلمهم قالوا لأتباعهم : إن آهاتكم خير من إله نوح ، لأن آهاتكم يعطونكم المال والولد ، وإله نوح لا يعطي شيئاً لأنه فقير ، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح ، وهذا مثل مكر فرعون إذ قال (أليس لي ملك مصر) وقال (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ، ولا يكاد يبين ، فلولا أتى عليه أسورة من ذهب) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ذكر أبو زيد البلخي في كتابه في الرد على عبدة الأصنام : أن العلم بأن هذه الخشبة المنحوتة في هذه الساعة ليست خالقة للسموات والأرض ، والنبات والحيوان علم ضروري ، والعلوم الضرورية لا يجوز وقوع الاختلاف فيها بين العقلاء ، وعبادة الأوثان دين كان موجوداً قبل مجيء نوح عليه السلام بدلالة هذه الآية ، وقد استمر ذلك الدين إلى هذا الزمان ، وأكثر سكان أطراف المعمورة على هذا الدين ، فوجب حمل هذا الدين على وجه لا يعرف فساداً بضرورة العقل ، وإلا لما بقي هذه المدة المتطاولة في أكثر أطراف العالم ، فإذا لا بد وأن يكون للذاهبين إلى ذلك المذهب تأويلات (أحدها) قال أبو مشر جعفر بن محمد المنجم : هذه المقالة إنما تولدت من مذهب القائلين بأن الله جسم ، وفي مكان ، وذلك لأنهم قالوا إن الله نور هو أعظم الأنوار ، والملائكة للذين هم حافون حول العرش الذي هو مكانه ، هم أنوار صغيرة بالنسبة إلى ذلك النور الأعظم ، فالذين اعتقدوا هذا المذهب اتخذوا صنماً هو أعظم الأصنام على صورة إلههم الذي اعتقدوه ، واتخذوا أصناماً متفاوتة ، بالكبر والصغر والشرف والخسة على صورة الملائكة المقربين ، واشتغلوا بعبادة تلك الأصنام على اعتقاد أنهم يعبدون الإله والملائكة ، فدين عبادة الأوثان إنما ظهر من اعتقاد التجسيم (الوجه الثاني) وهو أن جماعة الصابئة كانوا يعتقدون أن الإله الأعظم خلق هذه الكواكب الثابتة والسيارة ، وفوض تدبير هذا العالم السفلي إليها ، فالبشر عبيد هذه الكواكب ، والكواكب عبيد الإله الأعظم ، فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب ، ثم إن هذه الكواكب كانت تطلع مرة وتغيب أخرى ، فاتخذوا أصناماً على صورها واشتغلوا بعبادتها ، وغرضهم عبادة الكواكب (الوجه الثالث) أن القوم الذين كانوا في قديم الدهر ، كانوا منجمين على مذهب أصحاب الأحكام ، في إضافات سفادات هذا العالم ، ونحو سائر الكواكب ، فإذا انفق في الفلك شكل عجيب صالح لطلسم عجيب ، فكانوا يتخذون ذلك الطلسم ، وكان يظهر منه أحوال عجيبة وآثار عظيمة ، وكانوا يمظمون ذلك الطلسم ويكرمونه ويشتهلون بعبادته ، وكانوا يتخذون كل طلسم على شكل موافق لكوكب خاص ولبرج خاص ، فليل كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويعوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر (الوجه الرابع) أنه كان يموت أقوام صالحون فكانوا يتخذون تماثيل على صورهم ويشتهلون بتعظيمها ، وغرضهم تعظيم أولئك الأقوام الذين ماتوا حتى يكونوا شافعين لهم عند الله وهو المراد من قولهم (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (الوجه الخامس) أنه ربما مات ملك عظيم ، أو شخص عظيم ، فكانوا يتخذون تماثلاً على صورته وينظرون إليه ، فالذين جاؤا بعد ذلك ظنوا أن آباءهم كانوا يعبدونها فاشتغلوا بعبادتها لتقليد الآباء ، أولعل هذه الأسماء الخمسة وهي : ود ، وسواع ، ويعوث ، ويعوق ، ونسر ، أسماء خمسة من أولاد آدم ، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم ، لو صورتم صورهم ، فكنتم تنظرون إليهم ، ففعلوا ، فلما مات أولئك

قال لمن بعدم إنهم كانوا يعيدونهم فبعدهم ، ولهذا السبب نهى الرسول عليه السلام ، عن زيارة القبور أولاً ، ثم أذن فيها على ما يروى أنه عليه السلام . قال : كنت نهيتكم عن زيارة القبور إلا فزوروها فإن في زيارتها تذكرة (السادس) الذين يقولون إنه تعالى جسم ، وإنه يجوز عليه الانتقال والحلول ، لا يستبعدون أن يحل تعالى في شخص إنسان ، أو في شخص صنم ، فإذا أحسوا من ذلك الصنم المتخذ على وجه الطلسم حالة عجيبة ، خطر ببالهم أن الإله حصل في ذلك الصنم : ولذلك فإن جمعاً من قدماء الروافض ، لما رأوا أن علياً عليه السلام ، قلع باب خيبر ، وكان ذلك على خلاف المعتاد ، قالوا إن الإله حل في بدنه ، وإنه هو الإله (الوجه السابع) لعلمهم اتخذوا تلك الأصنام كالحرب ومقصودهم بالعبادة هو الله ، فهذا جملة ما في هذا الباب ، وبعضها باطلة بدليل العقل ، فإنه لما ثبت أنه تعالى ليس بجسم بطل اتخاذ الصنم على صورة الإله ، وبطل القول أيضاً بالحلول والنزول ، ولما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدرات ، بطل القول بالوسائط والطلسمات ، ولما جاد الشرع بالمنع من اتخاذ الصنم ، بطل القول باتخاذها محارِب وشفعا .

﴿ المسألة السادسة ﴾ هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم ، ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب ، فكان ود لكعب ، وسواع لهمدان ، ويعقوب لمذحج ، ويعرق لمراد ، ونسر لمخير . ولذلك سمى العرب بعبد ود ، وعبد يعقوب ، وهكذا قيل في الكعب ، وفيه إشكال . لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب ، ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام ، وضعها في السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام ، إنما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها في السفينة سعيماً منه في حفظها .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قرئ (لا تذرن ودا) بفتح الواو وبضم الواو ، قال الليث ود بفتح الواو صنم كان لقوم نوح ، ود بالضم صنم لقريش ، وبه سمى عمرو بن عبد ود ، وأقول على قول الليث وجب أن لا يجوز ههنا قراءة ود بالضم لأن هذه الآيات في قصة نوح لا في أحوال قريش وقرأ الأعمش (ولا يعوثا ويعوقا) بالتحريك . وهذه قراءة مشككة لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سبباً منع الصرف ، إما التعريف ووزن الفعل ، وإما التعريف والعجمة ، فلعله صرفهما لأجل أنه وجد أخواتهما منصرفة ودأ وسواعاً ونسراً .

واعلم أن نوحاً لما حكى عنهم أنهم قالوا لا تبايعهم (لا تذرنا أصنامكم) قال (وقد أضلوا كثيراً) فيه وجهان : (الأول) أولئك الرؤساء (قد أضلوا كثيراً) قبل هؤلاء الموصين بعبادة الأصنام وليس هذا أول مرة اشتغلوا بالإضلال (الثاني) يجوز أن يكون الضمير عائداً إلى الأصنام ، كقوله (إنهم أضلنا كثيراً من الناس) وأجرى الأصنام على هذا القول مجرى الأدميين كقوله (ألم أرى أنكم أضلوا كثيراً من الناس) (ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً) ففيه سؤالان :

﴿ الأول ﴾ كيف موقع قوله (ولا تزد الظالمين) ؟ (الجواب) كأن نوحاً عليه السلام لما

مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا

أطلب في تعديد أفعالهم المنكرة وأقوالهم القبيحة امتلاء قلبه غيظاً وغيضاً عليهم فحتم كلامه بأن دعا عليهم .
 ﴿ السؤال الثاني ﴾ إنما بعث ليصرفهم عن الضلال فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم ؟ (الجواب) من وجهين : (الأول) لعله ليس المراد الضلال في أمر الدين ، بل الضلال في أمر دنياهم ، وفي ترويج مكرهم وحيلهم (الثاني) الضلال العذاب لقوله (إن المجرمين في ضلال وسع) ثم إنه تعالى لما حكى كلام نوح عليه السلام قال بعده ﴿ مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما صلة كقوله (فبما نقضهم ، فبما رحمة) ؟ والمعنى من خطاياهم أي من أجلها وبسببها ، وقرأ ابن مسعود (من خطيئاتهم ما أغرقوا) فأخر كلمة ما ، وعلى هذه القراءة لا تكون ما صلة زائدة لأن ما مع ما بعده في تقرير المصدر .

وأعلم أن تقديم قوله (مما خطاياهم) لبيان أنه لم يكن إغراقهم بالطوفان إلا من أجل خطيئاتهم ، فمن قال من المنجمين إن ذلك إنما كان بسبب أنه انقضى في ذلك الوقت نصف الدور الأعظم ، وما يجري مجرى هذه الكلمات كان مكذبا لصريح هذه الآية فيجب تكفيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ خطيئاتهم بالهمزة وخطيئاتهم بفتحها ياء وإدغامها وخطيئاتهم بالتوحيد على إرادة الجنس ، ويجوز أن يراد به الكفر . وأعلم أن الخطايا والخطيئات كلاهما جمع خطيئة ، إلا أن الأول جمع تكسير والثاني جمع سلامة ، وقد تقدم الكلام فيها في البقرة عند قوله : (نغفر لكم خطاياكم) وفي الأعراف عند قوله (خطيئاتكم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تمسك أصحابنا في إثبات عذاب القبر بقوله (أغرقوا فأدخلوا ناراً) وذلك من وجهين (الأول) أن الفاء في قوله (فأدخلوا ناراً) تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة ، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء (الثاني) أنه قال فأدخلوا على سبيل الإخبار عن الماضي . وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك ، قال مقاتل والكلبي معناه أنهم سيدخلون في الآخرة ناراً ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله (ونادى أصحاب النار) (ونادى أصحاب الجنة) وأعلم أن الذي قالوه ترك للظاهر من غير دليل . فإن قيل إنما تركنا هذا الظاهر لدليل ، وهو أن من مات في الماء . فإننا نشاهده هناك ، فكيف يمكن أن يقال لهم في تلك الساعة أدخلوا ناراً ؟ (والجواب) هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل ، وهذا خطأ لما بينا أن هذا الإنسان هو الذي كان موجوداً من أول عمره ، مع أنه كان صغير الجنة في أول عمره ، ثم إن أجزاءه دائماً في التحلل والذوبان ، ومعلوم أن الباقي غير

فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ
مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ

المتبدل ، فهذا الإنسان عبارة عن ذلك الشيء الذي هو باق من أول عمره إلى الآن ، فلم لا يجوز أن يقال إنه وإن بقيت هذه الجثة في الماء إلا أن الله تعالى نقل تلك الأجزاء الأصلية الباقية التي كان الإنسان الممين عبارة عنها إلى النار والعذاب .

ثم قال تعالى ﴿ فلم يجذبوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ وهذا تعريض بأنهم إنما واطبوا على عبادة تلك الأصنام لتكون دافعة الآفات عنهم جالبة للنافع إليهم ، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام ، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب الله عنهم ، وهو كقولهم (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) واعلم أن هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ وقال نوح رب لا تذرني على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ قال المبرد (دياراً) لا تستعمل إلا في النفي العام ، يقال ما باندار دياراً . ولا تستعمل في جانب الإثبات ، قال أهل العربية هو فيعال من الدور ، وأصله ديوار فقلت الواو ياء . وأدغمت إحداهما في الأخرى ، قال الفراء والزجاج ، وقال ابن قتيبة ما بها ديار أي نازل دار .

ثم قال تعالى ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ فإن قيل كيف عرف نوح عليه السلام ذلك ؟ قلنا للنص والاستقراء ، أما النص فقوله تعالى (إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) وأما الاستقراء ، فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف طباعهم وجريهم ، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ، ويقول احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أتى أوصافى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ، وقوله (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فيه وجهان : (أحدهما) أنهم يكونون في علمك كذلك (والثاني) أنهم سيصيرون كذلك . واعلم أنه عليه السلام لما دعا على الكفار قال بعده ﴿ رب اغفر لي ﴾ أي فيما صدر عني من ترك الأفضل ، ويحتمل أنه حين دعا على الكفار إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم ، فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام فاستغفر عن ذلك ، لما فيه من طلب حفظ النفس .

ثم قال ﴿ ولوالدي ﴾ أبوه ملك بن متوشلخ وأمه شمناء بنت أنوش ، وكانا مؤمنين ، وقال عطاء لم يكن بين نوح وآدم عليهما السلام من آبائه كافر ، وكان بينه وبين آدم عشرة آباء : وقرأ الحسن بن علي ولولدي يريد ساما وحاماً .

وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا

٢٨

ثم قال تعالى ﴿ ولمن دخل بيته مؤمناً ﴾ قيل مسجدي ، وقيل سفيتي ، وقيل لمن دخل في ديني ، فإن قيل فعلى هذا التفسير يصير قوله (مؤمناً) مكرراً ، قلنا إن من دخل في دينه ظاهراً ، قد يكون مؤمناً بقلبه ، وقد لا يكون ، والمعنى ولمن دخل في ديني دخولا مع تصديق القلب .
ثم قال تعالى ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ إنما تنص نفسه (أولا) بالدعاء ثم المتصلين به لأنهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات .

ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين ، فقال : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ أى هلاكاً ودماراً وكل شيء أهلك فقد تبر ، ومنه قوله (إن هؤلاء متبر ما هم فيه) وقوله (وليتبروا ما علوا تديرا) فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالكلية ، فإن قيل ما جرم الصبيان حين أغرقوا ؟ والجواب من وجوه (الأول) أن الله تعالى أبيض أصلاب آبائهم وأعقم أرحام نساءهم قبل الطوفان بأربعين سنة أو تسعين فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا ، ويدل عليه قوله (استغفروا ربكم - إلى قوله - ويمددكم بأموال وبنين) وهذا يدل بحسب المفهوم على أنهم إذا لم يستغفروا فانه تعالى لا يمددكم بالبنين (الثاني) قال الحسن علم الله براءة الصبيان فأهلكهم بغير عذاب (الثالث) غرقوا معهم لاعلى وجه العقاب بل كما يموتون بالفرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والآلهة إذا أبصروا أطفالهم يفرقون . والله سبحانه وتعالى أعلم . والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين .

(٧٢) سُوْرَةُ الْجِنِّ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا مَكَّانٌ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت الجن ونفيه ، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكاره ، وذلك لأن أبا علي بن سينا قال في رسالته في حدود الأشياء . الجن حيوان هوأى متشكل بأشكال مختلفة ، ثم قال وهذا شرح للاسم . فقوله وهذا شرح للاسم يدل على أن هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج ، وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجن ، واعترفوا به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ويسمونهم بالأرواح السفلية ، وزعموا أن الأرواح السفلية أسرع إجابة إلا أنها أضعف ، وأما الأرواح الفلكية فهي أبطأ إجابة إلا أنها أقوى . واختلف المثبتون على قولين فمنهم من زعم أنها ليست أجساماً ولا حالة في الأجسام بل هي جواهر قائمة بأنفسها ، قالوا ولا يلزم من هذا أن يقال أنها تكون مساوية لذات الله لأن كونها ليست أجساماً ولا جسمانية سلوب والمشاركة في السلوب لا تقتضى المساواة في الماهية ، قالوا ثم إن هذه الذوات بعد اشتراكها في هذا السلب أنواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحل فبعضها خيرة ، وبعضها شريرة ، وبعضها كريمة محبة للخيرات ، وبعضها دنيئة خسيصة محبة للشرور والآفات ، ولا يعرف عدد أنواعهم وأصنافهم إلا الله ، قالوا وكونها موجودات مجردة لا يمنع من كونها عالمة بالخبرات قادرة على الأفعال ، فهذه الأرواح يمكنها أن تسمع وتبصر وتعلم الأحوال الخبرية وتفعل الأفعال المخصوصة ، ولما ذكرنا أن ماهياتها مختلفة لا جرم لم يبعد أن يكون في أنواعها ما يقدر على أعمال شاقة عظيمة تعجز عنها قدر البشر ، ولا يبعد أيضاً أن يكون لكل نوع منها تعلق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم ، وكما أنه دلت الدلائل الطبية على أن المتعلق الأول للنفس الناطقة التي ليس الإنسان إلا هي ، هي الأرواح وهي أجسام بخارية لطيفة

تولد من الطف أجزاء الدم وتتكون في الجانب الأيسر من القلب ثم بواسطة تعلق النفس بهذه الأرواح تصير متعلقة بالأعضاء التي تسرى فيها هذه الأرواح لم يبعد أيضاً أن يكون لكل واحد من هؤلاء الجن تعلق بجزء من أجزاء الهواء فيكون ذلك الجزء من الهواء هو المتعلق الأول لذلك الروح ثم بواسطة سيران ذلك الهواء في جسم آخر كثيف يحصل لتلك الأرواح تعلق وتصرف في تلك الأجسام الكثيفة ، ومن الناس من ذكر في الجن طريقة أخرى فقال هذه الأرواح البشرية والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادت قوة وكالا بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانية فإذا اتفق أن يحدث بدن آخر مشابه لما كان لتلك النفس المفارقة من البدن ، فسبب تلك المشاكاة يحصل لتلك النفس المفارقة تعلق ما لهذا البدن ، وتصير تلك النفس المفارقة كالمعاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتديرها لذلك البدن . فان الجنسية علة الضم ، فان اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيرة سمي ذلك المعين ملكاً وتلك الإعانة إلهاماً ، وإن اتفقت في النفوس الشريرة سمي ذلك المعين شيطاناً وتلك الإعانة وسوسة .

(القول الثاني) في الجن أنهم أجسام ثم القائلون بهذا المذهب اختلفوا على قولين ، منهم من زعم أن الأجسام مختلفة في ماهياتها ، إنما المشترك بينها صفة واحدة ، وهي كونها بأسرها حاصلة في الحيز والمكان والجهة وكونها موصوفة بالطول والعرض والعمق ، وهذه كلها إشارة إلى الصفات ، والاشترار في الصفات لا يقتضى الإشتراك في تمام الماهية لما ثبت أن الأشياء المختلفة في تمام الماهية لا يمتنع اشتراكها في لازم واحد . قالوا وليس لاحد أن يحتج على تماثل الأجسام بأن يقال الجسم من حيث إنه جسم له حد واحد ، وحقيقة واحدة ، فيلزم أن لا يحصل التفاوت في ماهية الجسم من حيث هو جسم ، بل إن حصل التفاوت حصل في مفهوم زائد على ذلك ، وأيضاً فلأنه يمكننا تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف ، والعلوي والسفلي ، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام ، فالأقسام كلها مشتركة في الجسمية والتفاوت ، إنما يحصل بهذه الصفات ، وهي اللطافة . والكثافة ، وكونها علوية وسفلية قالوا وهاتان الحجتان ضعيفتان .

(أما الحجة الأولى) فلأننا نقول ، كما أن الجسم من حيث إنه جسم له حد واحد ، وحقيقة واحدة ، فكذا العرض من حيث إنه عرض له حد واحد ، وحقيقة واحدة فيلزم منه أن تكون الأعراض كلها متساوية في تمام الماهية ، وهذا بما لا يقوله عاقل ، بل الحق عند الفلاسفة أنه ليس للأعراض البتة قدر مشترك بينها من الذاتيات ، إذ لو حصل بينها قدر مشترك ، لكان ذلك المشترك جنساً لها ، ولو كان كذلك لما كانت التسعة أجناساً عالية بل كانت أنواع جنس واحد ، إذا ثبت هذا فنقول : الأعراض من حيث أنها أعراض لها حقيقة واحدة ، ولم يلزم من ذلك أن يكون بينها ذاتي مشترك أصلاً ، فضلاً عن أن تكون متساوية في تمام الماهية ، فلم لا يجوز أن يكون الحال في الجسم كذلك ، فإنه كما أن الأعراض مختلفة في تمام الماهية ، ثم إن تلك المختلفات متساوية في

وصف عارض وهو كونها عارضة لموضوعاتها ، فكذا من الجائز أن تكون ماهيات الأجسام مختلفة في تمام ماهياتها ثم إنها تكون متساوية في وصف عارض ، وهو كونها مشاراً إليها بالحس وحاصلة في الحيز والمكان ، وموصوفة بالأبعاد الثلاثة ، فهذا الاحتمال لا دافع له أصلاً .

(وأما الحجة الثانية) وهي قولهم إنه يمكن تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف فهي أيضاً منقوضة بالعرض فانه يمكن تقسيم العرض إلى الكيف والسكم ولم يلزم أن يكون هناك قدر مشترك من الذاتى فضلاً عن التساوي في كل الذاتيات فلم لا يجوز أن يكون الأمر هنا أيضاً كذلك إذا ثبت أنه لا امتناع في كون الأجسام مختلفة ولم يدل دليل على بطلان هذا الاحتمال ، فحينئذ قالوا لا يمتنع في بعض الأجسام اللطيفة الهوائية أن تكون مخالفة لسائر أنواع الهواء في الماهية ثم تكون تلك الماهية تقتضى لذاتها علماً مخصوصاً وقدرة مخصوصة على أفعال عجيبة ، وعلى هذا التقدير يكون القول بالجن ظاهر الاحتمال وتكون قدرتها على التشكل بالأشكال المختلفة ظاهرة الاحتمال .

(القول الثانى) قول من قال الأجسام متساوية في تمام الماهية ، والقائلون بهذا المذهب أيضاً فرقتان .

(الفرقة الأولى) الذين زعموا أن البنية ليست شرطاً للحياة وهذا قول الأشعري وجمهور أتباعه وأدلتهم في هذا الباب ظاهرة قوية ، قالوا ولو كانت البنية شرطاً للحياة لكان إما أن يقال إن الحياة الواحدة قامت بمجموع الأجزاء أو يقال قام بكل واحد من الأجزاء حياة على حدة ، والأول محال لأن حلول العرض الواحد في المحال الكثيرة دفعة واحدة غير معقول ، والثانى أيضاً باطل لأن الأجزاء التي منها تألف الجسم متساوية والحياة القائمة بكل واحد منها متساوية للحياة القائمة بالجزء الآخر وحكم الشيء حكم مثله ، فلو افتقر قيام الحياة بهذا الجزء إلى قيام تلك الحياة بذلك الجزء لحصل هذا الافتقار من الجانب الآخر فيلزم وقوع الدور وهو محال ، وإن لم يحصل هذا الافتقار فحينئذ ثبت أن قيام الحياة بهذا الجزء لا يتوقف على قيام الحياة الثانية بذلك الجزء الثانى ، وإذا بطل هذا التوقف ثبت أنه يصح كون الجزء الواحد موصوفاً بالحياة والعلم والقدرة والإرادة وبطل القول بأن البنية شرط ، قالوا وأما دليل المعتزلة وهو أنه لا بد من البنية فليس إلا الاستقراء وهو أننا رأينا أنه متى فسدت البنية بطلت الحياة ومتى لم تفسد بقيت الحياة فوجب توقف الحياة على حصول البنية ، إلا أن هذا ركيبك ، فإن الاستقراء لا يفيد القطع بالوجوب ، فما الدليل على أن حال من لم يشاهد كحال ما شوهد ، وأيضاً فلأن هذا الكلام إنما يستقيم على قول من ينكر خرق العادات ، أما من يجوزها فهذا لا يتمشى على مذهبه والفرق بينهما في جعل بعضها على سبيل العادة وجعل بعضها على سبيل الوجوب تحكم محض لا سبيل إليه ، فثبت أن البنية ليست شرطاً في الحياة ، وإذا ثبت هذا لم يبعد أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علماً بأمر كثيرة وقدرة

على أشياء شاقة شديدة ، وعند هذا ظهر القول بإمكان وجود الجن ، سواء كانت أجسامهم لطيفة أو كثيفة ، وسواء كانت أجزاءهم كبيرة أو صغيرة .

(القول الثاني) أن البنية شرط الحياة وأنه لا بد من صلابة في البنية حتى يكون قادراً على الأفعال الشاقة فهنا مسألة أخرى ، وهي أنه هل يمكن أن يكون المرئي حاضراً والموانع مرتفعة والشرائط من القرب والبعد حاصلة ، وتكون الحاسة سليمة ، ثم مع هذا لا يحصل الإدراك أو يكون هذا ممتعاً عقلاً ؟ أما الأشعري وأتباعه فقد جوزوه ، وأما المعتزلة فقد حكموا بامتناعه عقلاً ، والأشعري احتج على قوله بوجوده عقلية وقلبية ، أما العقلية فأمران : (الأول) أنا نرى الكبير من البعد صغيراً وما ذاك إلا أنا نرى بعض أجزاء ذلك البعيد دون البعض مع أن نسبة الحاسة وجميع الشرائط إلى تلك الأجزاء المرئية كهي بالنسبة إلى الأجزاء التي هي غير مرئية فعلينا أن مع حصول سلامة الحاسة وحضور المرئي وحصول الشرائط وانتفاء الموانع لا يكون الإدراك واجباً (الثاني) أن الجسم الكبير لا معنى له إلا بجمع تلك الأجزاء المتألفة ، فإذا رأينا ذلك الجسم الكبير على مقدار من البعد فقد رأينا تلك الأجزاء ، فإما أن تكون رؤية هذا الجزء مشروطة برؤية ذلك الجزء الآخر أو لا تكون ، فإن كان الأول يلزم الدور لأن الأجزاء متساوية فلوافتقرت رؤية هذا الجزء إلى رؤية ذلك الجزء لافتقرت أيضاً رؤية ذلك الجزء إلى رؤية هذا الجزء فيقع الدور ، وإن لم يحصل هذا الافتقار فحينئذ رؤية الجوهر الفرد على ذلك القدر من المسافة تكون ممكنة ، ثم من المعلوم أن ذلك الجوهر الفرد لو حصل وحده من غير أن ينضم إليه سائر الجواهر فإنه لا يرى ، فعلينا أن حصول الرؤية عند اجتماع الشرائط لا يكون واجباً بل جائزاً ، وأما المعتزلة فقد عولوا على أنا لو جوزنا ذلك لجوزنا أن يكون بحضرتنا طلبات وبوقات ولا تراها ولا نسمعها فإذا عارضناهم بسائر الأمور العادية وقتلناهم فجوزوا أن يقال : انقلبت مياه البحار ذهب وفضة ، والجبال ياقوتاً وزبرجداً ، أو حصلت في السماء حال ما غمضت العين ألف شمس وقر ، ثم كافتحت العين أعدمها الله معجزاً عن الفرق ، والسبب في هذا التشوش أن هؤلاء المعتزلة نظروا إلى هذه الأمور المطردة في مناهج العادات ، فوهموا أن بعضها واجبة ، وبعضها غير واجبة ، ولم يجدوا قانوناً مستقيماً ، وما أخذوا سلبياً في الفرق بين البابين ، فتشوش الأمر عليهم ، بل الواجب أن يسوى بين الكل ، فيحكم على الكل بالوجوب ، كما هو قول الفلاسفة ، أو على الكل بعدم الوجوب . كما هو قول الأشعري . فأما التحكم في الفرق فهو بعيد ، إذا ثبت هذا ظهر جواز القول بالجن ، فإن أجسامهم وإن كانت كثيفة قوية إلا أنه لا يمتنع أن لا تراها ، وإن كانوا حاضرين هذا على قول الأشعري . فهذا هو تفصيل هذه الوجوه ، وأنا متعجب من هؤلاء المعتزلة أنهم كيف يصدقون ما جاء في القرآن من إثبات الملك والجن مع استمرارهم على مذاهبهم ، وذلك لأن القرآن دل على أن للبلائكة قوة عظيمة على الأفعال الشاقة ، والجن أيضاً كذلك ، وهذه القوة لا تثبت إلا في الأعضاء الكثيفة الصلبة ،

فاذا يجب في الملك والجن أن يكون كذلك ، ثم إن هؤلاء الملائكة حاضرون عندنا أبداً ، وهم الكرام السكاتبون والحفظة ، ويحضرون أيضاً عند قبض الأرواح ، وقد كانوا يحضرون عند الرسول ﷺ ، وأن أحداً من القوم ما كان يراه ، وكذلك الناس الجالسون عند من يكون في النزاع لا يرون أحداً ، فإن وجبت رؤية الكشيف عند الحضور فلم لا تراها وإن لم تجب الرؤية فقد بطل مذهبهم ، وإن كانوا موصفون بالقوة والشدة مع عدم الكشافة والصلابة فقد بطل قولهم : إن البنية شرط الحياة ، وإن قالوا إنها أجسام لطيفة وحية ، ولكنها لطفاتها لا تقدر على الأعمال الشاقة ، فهذا إنكار لصريح القرآن ، وباجملة فخالم في الإقرار بالملك والجن مع هذه المذاهب عجيب ، وليتهم ذكروا على صحة مذاهبهم شبهة مخيلة فضلاً عن حجة مبينة ، فهذا هو التنبيه على ما في هذا الباب من الدقائق والمشكلات ، وبالله التوفيق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفت الروايات في أنه عليه الصلاة والسلام ، هل رأى الجن أم لا ؟

(فالقول الأول) وهو مذهب ابن عباس أنه عليه السلام ما رآهم ، قال إن الجن كانوا يقصدون السماء في الفترة بين عيسى ومحمد فيستمعون أخبار السماء ويلقونها إلى الكهنة فلما بعث الله محمداً عليه السلام حرست السماء ، وحيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت الشهب عليهم فرجعوا إلى إبليس وأخبروه بالقصة فقال لا بد لهذا من سبب فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها واطلبوا السبب فوصل جمع من أولئك الطالبين إلى تهامة فرأوا رسول الله ﷺ في سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهناك رجعوا إلى قومهم وقالوا يا قومنا (إنا سمعنا قرآناً عجيباً) فأخبر الله تعالى محمداً عليه السلام عن ذلك الغيب وقال (قل أوحى إلي) كذا وكذا ، قال وفي هذا دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن إذ لو رآهم لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحي فإن ما عرف وجوده بالمشاهدة لا يسند إنباته إلى الوحي ، فإن قيل الذين رموا بالشهب هم الشياطين والذين سمعوا القرآن هم الجن فكيف وجه الجمع ؟ قلنا فيه وجهان : (الأول) أن الجن كانوا مع الشياطين فلما رمى الشياطين أخذوا الجن الذين كانوا معهم في تجسس الخبر (الثاني) أن الذين رموا بالشهب كانوا من الجن إلا أنه قيل لهم شياطين كما قيل شياطين الجن والإنس فإن الشيطان كل متعبد بعيد عن طاعة الله ، واختلفوا في أن أولئك الجن الذين سمعوا القرآن من هم ؟ فروى عاصم عن ذر قال قدم رهط زوبعة وأصحابه مكة على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرفوا فذلك قوله (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن) وقيل كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً وعامة جنود إبليس منهم .

(القول الثاني) وهو مذهب ابن مسعود أنه أمر النبي ﷺ بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم ويدعوهم إلى الإسلام ، قال ابن مسعود ، قال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أتلو القرآن على الجن

فمن يذهب معي ؟ فسكتوا ، ثم قال الثانية فسكتوا ، ثم قال الثالثة ، فقال عبدالله قلت أنا أذهب معك يا رسول الله قال فانطلق حتى إذا جاء الحجون عند شعب ابن أبي دُب ، خط على خطأ فقال لا تجاوزه ، ثم مضى إلى الحجون فاندحروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزط (١) يقرعون في دفوفهم كما تفرع الذسوة في دفوفها حتى غشوه ، فغاب عن بصرى فقامت ، فأوما إلى يديه أن اجلس ، ثم تلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى صرت أسمع صوتهم ولا أراهم . وفي رواية أخرى ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنت ؟ قال أنا نبي الله ، قالوا فمن يشهدك على ذلك ؟ قال هذه الشجرة ، تعالى يا شجرة ، فجاءت نجر عروقها لها فعاقدت حتى انصبت بين يديه ، فقال على ماذا تشهدين لي ؟ قالت أشهد أنك رسول الله ، قال اذهبي ، فرجعت كما جاءت حتى صارت كما كانت . قال ابن مسعود : فلما عاد إلى ، قال أردت أن تأتيني ؟ قلت نعم يا رسول الله . قال ما كان ذلك لك ، هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، فسألوني الزاد . فزودتهم العظم والبعر ، فلا يستطيعين أحد بعظم ولا بعمر .

واعلم أنه لا سبيل إلى تكذيب الروايات ، وطريق التوفيق بين مذهب ابن عباس ، ومذهب ابن مسعود من وجوه (أحدها) لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولاً ، فأوحى الله تعالى إليه بهذه السورة ، ثم أمر بالخروج إليهم بعد ذلك ، كما زوى ابن مسعود (وثانيها) أن بتقدير أن تكون وافية الجن مرة واحدة ، إلا أنه عليه السلام أمر بالذهاب إليهم ، وقرأة القرآن عليهم ، إلا أنه عليه السلام ما عرف أنهم ماذا قالوا ، وأى شيء فعلوا ، فأنه تعالى أوحى إليه أنه كان كذا وقالوا كذا (وثالثها) أن الواقعة كانت مرة واحدة ، وهو عليه السلام رأيهم وسمع كلامهم ، وهم آمنوا به ، ثم لما رجعوا إلى قومهم قالوا لقومهم على سبيل الحكاية (إننا سمعنا قرآناً عجيباً) وكان كذا وكذا ، فأوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما قالوه لأقوامهم ، وإذا كانت هذه الوجوه محتملة فلا سبيل إلى التكذيب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن قوله تعالى (قل) أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن ، وفيه فوائد (إحداها) أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن (وثانيها) أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فأمنوا بالرسول (وثالثها) أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس (ورابعها) أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا (وخامسها) أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان ، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الإيحاء . إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء كالإلهام وإنزال الملك ويكون ذلك في سرعة من قولهم : الوحي الوحي والقراءة المشهورة ، أوحى بالآلف ، وفي رواية يونس

(١) يروي الحديث هكذا : أجسامهم كأجسام الزط ورؤسهم كرموس المكاكي . يعني عظام الأجسام صفار الزمرس والمكاكي جمع مكا . وهو طائر صغير .

فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الْرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا

أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾

وهرون ، عن أبي عمرو وحى بضم الواو بغير ألف وهما لغتان ، يقال وحى إليه وأوحى إليه وقرى. أحى بالهمز من غير واو ، وأصله وحى ، فقلبت الواو همزة كما يقال أعد وأذن (وإذا الرسل أقت) وقوله تعالى ﴿ أنه استمع نفر من الجن ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أجمعوا على أن قوله (أنه استمع) بالفتح وذلك لأنه نائب فاعل أوحى فهو كقوله (وأوحى إلى هذا القرآن) وأجمعوا على كسر إنا في قوله (إنا سمعنا) لأنه مبتدأ محكى بعد القول ، ثم ههنا قراءتان (إحداهما) أن نحمل البواري على الموضوعين اللذين بينا أنهم أجمعوا عليهما فاكان من الوحي فتح ، وما كان من قول الجن كسر ، وكلها من قول الجن إلا الآخرين . وهما قوله (وأن المساجد لله ، وأنه لما قام) ، (وثانيتها) فتح السكل والتقدير (فآمننا به) وآمنا بأنه تعالى (جد ربنا) وبأنه كان يقول سفهنا وكذا البواري ، فإن قيل ههنا إشكال من وجهين (أحدهما) أنه يقبح إضافة الإيمان إلى بعض هذه السورة فإنه يقبح أن يقال وآمنا بأنه كان يقول سفهنا على الله شططاً (والثاني) وهو أنه لا يعطف على الهاء المنخفضة إلا بإظهار الخافض لا يقال آمنا به وزيد ، بل يقال آمنا به وزيد (والجواب) عن الإشكاليين أنا إذا حملنا قوله آمنا على معنى صدقنا وشهدنا زال الإشكالان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نفر من الجن جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة روى أن ذلك النفر كانوا يهوداً ، وذكر الحسن أن فيهم يهوداً ونصارى ومجوساً ومشركين ، ثم اعلم أن الجن حكوا أشياء : (النوع الأول) مما حكوه قوله تعالى ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ أي قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم كقوله (فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين) ، (قرآناً عجياً) أي خارجاً عن حد أشكاله ونظائره ، (وعجياً) مصدر يوضع موضع العجيب ولاشك أنه أبلغ من العجيب ، (يهدي إلى الرشد) أي إلى الصواب ، وقيل إلى التوحيد (فآمننا به أي بالقرآن) ويمكن أن يكون المراد فآمنا بالرشد الذي في القرآن ، وهو التوحيد (ولن نشرك بربنا أحداً أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراف به وهذا يدل على أن أولئك الجن كانوا من المشركين . (النوع الثاني) مما ذكره الجن ، أنهم كما نفوا عن أنفسهم الشرك ، نزهوا ربهم عن الصاحبة والولد .

فَقَالُوا ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الجد قولان (الأول) الجد في اللغة العظمة يقال جد فلان أي عظم

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

ومنه الحديث « كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد فينا » أى جد قدره وعظم ، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها والولد للتكثير به والاستئناس ، وهذه من سمات الحدوث وهو سبحانه منزه عن كل نقص .

(القول الثانى) الجد الغنى ومنه الحديث « لا ينفع ذا الجد منك الجد » قال أبو عبيدة أى لا ينفع ذا الغنى منك غناه ، وكذلك الحديث الآخر « قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء وإذا أصحاب الجد محبسون » يعنى أصحاب الغنى فى الدنيا ، فيكون المعنى وأنه تعالى غنى عن الاحتياج إلى الصاحبة والاستئناس بالولد .

وعندى فيه (قول ثالث) وهو أن جد الإنسان أصله الذى منه وجوده فجعل الجد مجازاً عن الأصل ، فقوله تعالى (جد ربنا) معناه تعالى أصل ربنا وأصله حقيقة المخصوصة التى لنفس تلك الحقيقة من حيث إنها هى تكون واجبة الوجود فيصير المعنى أن حقيقة المخصوصة متعالية عن جميع جهات التعلق بالغير لأن الواجب لذاته يجب أن يكون واجب الوجود من جميع جهاته ، وما كان كذلك استحال أن يكون له صاحبة وولد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء جدا ربنا بالنصب على التمييز وجد ربنا بالكسر أى صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد ، وكان هؤلاء الجن لما سمعوا القرآن تذهبوا لفساد ما عليه كفره الجن فرجعوا أولاً عن الشرك وثانياً عن دين النصارى .

(النوع الثالث) بما ذكره الجن قوله تعالى : ﴿ أنه كان يقول سفيها على الله شططاً ﴾ السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد فى الظلم وغيره ومنه أشط فى الصوم إذا أبعده فيه أى يقول قولاً هو فى نفسه شطط لفرط ما أشط فيه :

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد ، وليس فى اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد فى جانب النقي أو فى جانب الإثبات ، فيشذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم فجاوزة الحد فى النقي تفضى إلى التعطيل ومجاوزة الحد فى الإثبات تفضى إلى التشبيه ، وإثبات الشرك والصاحبة والولد . وكلا الأمرين شطط ومذموم .

(النوع الرابع) قوله تعالى ﴿ وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ وفيه مسألتان : ﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى الآية أنا إنما أخذنا قول الغير ، لانا ظننا أنه لا يقال الكذب على الله ، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد يكذبون ، وهذا منهم إقرار بأنهم إنما وقعوا فى تلك الجهالات

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾
وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

بسبب التقليد ، وأنهم إنما تخلصوا عن تلك الظلمات ببركة الاستدلال والاحتجاج .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله كذباً بم نصب ؟ فيه وجوه (أحدها) أنه وصف مصدر محذوف والتقدير أن لن تقول الإنس والجن على الله قولاً كذباً (وثانيها) أنه نصب نصب المصدر لأن الكذب نوع من القول (وثالثها) أن من قرأ (أن لن تقول) وضع كذباً موضع تقولا ، ولم يجعله صفة ، لأن القول لا يكون إلا كذباً .

(النوع الخامس) - قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ فيه قولان (الأول) وهو قول جمهور المفسرين أن الرجل في الجاهلية إذا سافر فأسى في قفر من الأرض ، قال أعوذ بسيد هذا الوادى أو بعزير هذا المكان من شر سفهاء قومه ، فبييت في جوار منهم حتى يصبح ، وقال آخرون ، كان أهل الجاهلية ، إذا قحطوا بمشوا رائد هم ، فإذا وجد مكاناً فيه كلاً وماء رجع إلى أهله فيناديهم ، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادوا نعوذ برب هذا الوادى من أن يصيبنا آفة يعنون الجن ، فإن لم يفزعهم أحد نزلوا ، وربما تفزعهم الجن فيهربون (القول الثاني) المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل ، أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى ، وأصحاب هذا التأويل إنما ذهبوا إليه ، لأن الرجل اسم الإنس لا اسم الجن ، وهذا ضعيف ، فإنه لم يبق دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً ، أما قوله ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ قال المفسرون معناه زادوهم إثمًا وجرأة وطغياناً وخطيئة وغياً وشرأ ، كل هذا من ألقاظهم ، قال الواحدى الرهق غشيان الشيء ، ومنه قوله تعالى (ولا يرهق وجوههم قتر) وقوله (ترهقها قتر) ورجل مرهق أى يغشاه السائلون . ويقال رهقتنا الشمس إذا قربت ، والمعنى أن رجال الإنس إنما استعاذوا بالجن خوفاً من أن يغشاهم الجن ، ثم إنهم زادوا في ذلك الغشيان ، فإنهم لما تعوذوا بهم ، ولم يتعوذوا بالله استدلوا واجترأوا عليهم فزاد وهم ظلماً ، وهذا معنى قول عطاء خبطوهم وخنقوهم ، وعلى هذا القول زادوا من فعل الجن وفي الآية قول آخر وهو أن زادوا من فعل الإنس وذلك لأن الإنس لما استعاذوا بالجن فالجن يزدادون بسبب ذلك التعوذ طغياناً فيقولون سدنا الجن والإنس ، والقول الأول هو اللائق بمساق الآية والموافق لنظمها .

(النوع السادس) قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ .
اعلم أن هذه الآية والتي قبلها يحتمل أن يكونا من كلام الجن ، ويحتمل أن يكونا من جملة الوحي فإن

وَأَنَا لَمَنَّا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مَلِكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا
لِلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾

كانا من كلام الجن وهو الذى قاله بعضهم مع بعض ، كان التقدير وأن الإنس ظنوا كما ظنتم أيها الجن ، وإن كانا من الوحي كان التقدير : وأن الجن ظنوا كما ظنتم يا كفار قريش . وعلى التقديرين فالآية دلت على أن الجن كما أنهم كان فيهم مشرك ويهودى وانصرانى فقيمهم من ينكر البعث ، ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يبعث أحداً للرسالة على ما هو مذهب البراهمة ، واعلم أن حمله على كلام الجن أولى لأن ما قبله وما بعده كلام الجن فالقاء كلام أجنبي عن كلام الجن فى البين غير لائق .

(النوع السابع) قوله تعالى ﴿ وإنا لمننا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً ﴾ اللس المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف يقال : لسه والتمسه ، ومثله الجس يقال : جسوه بأعينهم وتجسسوه ، والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها ، والحرس اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقليل شداداً .

(النوع الثامن) قوله تعالى ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أى كنا نستمع فالآن متى حاولنا الاستماع رمينا بالشهب ، وفى قوله (شهاباً رصداً) وجوه (أحدها) قال مقاتل يعنى رمياً من الشهب ورصداً من الملائكة ، وعلى هذا يجب أن يكون التقدير شهاباً ورصداً لأن الرصد غير الشهاب وهو جمع راصد (وثانيها) قال الفراء أى شهاباً قد أرصد له ليرجم به ، وعلى هذا الرصد نعت للشهاب ، وهو فعل بمعنى مفعول (وثالثها) يجوز أن يكون رصداً أى راصداً ، وذلك لأن الشهاب لما كان معداً له ، فكأن الشهاب راصد له ومترصد له واعلم أنا قد استقصينا فى هذه المسألة فى تفسير ، قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) فإن قيل هذه الشهب ، كانت موجودة قبل المبعث ، ويدل عليه أمور (أحدها) أن جميع الفلاسفة المتقدمين ، تكلموا فى أسباب انقضاض هذه الشهب ، وذلك يدل على أنها كانت موجودة قبل المبعث (وثانيها) قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) ذكر فى خلق الكواكب فائدتين ، التزيين ورجم الشياطين (وثالثها) أن وصف هذا الانقضاض جاء فى شعر أهل الجاهلية ، قال أوس بن حجر :

فانقض كالدرى يتبعه نفع يشور نخاله طنباً

وقال عوف بن الحرع : يرد علينا العير من دون إلفه أو الثور كالدرى يتبعه الدم

وروى الزهرى ، عن على ، بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما « بينا رسول الله ﷺ

وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرًا يُرِيدُ بِي مِنَ الْأَرْضِ أَمْ أُرَادَ بِهِمْ رَبِّهِمْ رَشْدًا ﴿١٠﴾

جالس في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ فقالوا كنا نقول : يموت عظيم ، أو يولد عظيم ، الحديث إلى آخره ذكرناه في تفسير قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) قالوا : فثبت بهذه الوجوه ، أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث ، فما معنى تخصيصها بمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ (الجواب) مبنى على مقامين :

(المقام الأول) أن هذه الشهب ما كانت موجودة قبل المبعث وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبي بن كعب ، روى عن ابن عباس قال : كان الجن يصعدون إلى السماء فيستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسمأ ، أما الكلمة فإنها تكون حقة ، وأما الزيادات فتكون باطلة فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ، ولم تكن النجوم يرى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس ما هذا إلا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي ، الحديث إلى آخره ، وقال أبي بن كعب : لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتى بعث رسول الله فرمى بها ، فرأت قريش أمراً ما رأوه قبل ذلك فجعلوا يسبون أنعامهم ويعتقون رقابهم ، يظنون أنه الفناء . فبلغ ذلك بعض أكابرهم ، فقال لم فعلتم ما أرى ؟ قالوا ؟ رمى بالنجوم فرأيناها تنهات من السماء ، فقال اصبروا فإن تكن نجوماً معروفة فهو وقت فناء الناس ، وإن كانت نجوماً لا تعرف فهو أمر قد حدث فنظروا ، فإذا هي لا تعرف ، فأخبروه فقال في الأمر مهلة ، وهذا عند ظهور نبي فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم أبو سفيان على أمواله وأخبر أرائك الأقوام بأنه ظهر محمد بن عبد الله ويدعى أنه نبي مرسل ، وهؤلاء زعموا أن كتب الأوائل قد توالت عليها التحريفات فلعل المتأخرين ألحقوا هذه المسألة بها طعناً منهم في هذه المعجزة ، وكذا الأشعار المنسوبة إلى أهل الجاهلية لعلها مختلفة عليهم ومنحرفة .

(المقام الثاني) وهو الأقرب إلى الصواب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث إلا أنها زيدت بعد المبعث وجعلت أكل وأقوى ، وهذا هو الذي يدل عليه لفظ القرآن ، لأنه قال : (فوجدناها ملئت) وهذا يدل على أن الحادث هو الملاء والكثرة وكذلك قوله (نقعد منها مقاعد) أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب والآن ملئت المقاعد كلها ، فعلى هذا الذي حمل الجن على الضرب في البلاد وطلب السبب ، إنما هو كثرة الرجم ومنع الاستراق بالكلية .

(النوع التاسع) قوله تعالى ﴿ وانا لا ندرى أشرا يريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ وفيه قولان : (أحدهما) أنا لا ندرى أن المقصود من المنع من الاستراق هو أشرا يريد بأهل الأرض أم صلاح وخير (والثاني) لا ندرى أن المقصود من إرسال محمد الذي عنده منع من الاستراق هو أن يكذبه فيه لكونه هلك من كذب من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا فيهدوا .

وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَّنَا
 أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدْيَءَ آمَنَّا بِهِ
 فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

(النوع العاشر) قوله تعالى ﴿ وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدا ﴾ .
 أى منا الصالحون المتقون أى ومنا قوم دون ذلك لحذف الموصوف كقوله (وما منا إلا له مقام
 معلوم) ثم المراد بالذين هم دون الصالحين من ؟ فيه قولان (الأول) أنهم المقتصدون الذين يكونون
 في الصلاح غير كاملين (والثاني) أن المراد من لا يكون كاملاً في الصلاح ، فدخل فيه المقتصدون
 والكافرون ، والقدة من قدد ، كالقطعة من قطع . ووصفت الطرائق بالقدد لدالتها على معنى التقطع
 والتفرق ، وفي تفسير الآية وجوه (أحدها) المراد كنا ذوى (طرائق قدا) أى ذوى مذاهب
 مختلفة . قال السدى : الجن أمثالكم ، فهم مرجئة وقدرية وروافض وخوارج (وثانيها) كنا فى
 اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة (وثالثها) كانت طرائقنا طرائق قدا على حذف المضاف
 الذى هو الطرائق ، وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه .

(النوع الحادى عشر) قوله تعالى ﴿ وانا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾
 الظن ، بمعنى اليقين ، وفى الأرض وهرباً ، فيه وجهان (الأول) أنهما حالان ، أى لن نعجزه
 كائنين فى الأرض أينما كنا فيها ، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء (والثاني) لن نعجزه فى
 الأرض إن أراد بنا أمراً ، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا .

(النوع الثانى عشر) قوله تعالى ﴿ وانا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف
 بخصاً ولا رهقاً ﴾ (لما سمعنا الهدى) أى القرآن ، قال تعالى (هدى للمتقين آمنا به) أى آمنا
 بالقرآن (فلا يخاف) فهو لا يخاف ، أى فهو غير خائف ، وعلى هذا يكون الكلام فى تقدير جملة
 من المبتدأ والخبر ، أدخل الفاء عليها لتصير جزاء للشرط الذى تقدمها ، ولولا ذلك لقليل لا يخف ،
 فإن قيل أى فائدة فى رفع الفعل ، وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء ،
 وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال لا يخف ، قلنا الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك ، فكأنه قيل فهو
 لا يخاف ، فكان دالا على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة ، وأنه هو المختص لذلك دون غيره ،
 لأن قوله فهو لا يخاف معناه أن غيره يكون خائفاً ، وقرأ الأعمش : فلا يخف ، وقوله تعالى
 (بحساً ولا رهقاً) البخس النقص ، والرهق الظلم ، ثم فيه وجهان (الأول) لا يخاف جزاء بخس
 ولا رهق ، لأنه لم يبخر أحداً حقاً ، ولا ظلم أحداً ، فلا يخاف جزاءهما (الثانى) لا يناف أن

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾
 وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَى الطَّرِيقَةِ ۚ لَأَسْقَيْنَهُنَّ
 مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَنَنْفِثَنَّهُمْ فِيهِ ۖ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

يبخس ، بل يقطع بأنه يجزى الجزاء الاوفى ، ولا يخاف أن ترهقه ذلة من قوله (ترهقهم ذلة) .
 ﴿ النوع الثالث عشر ﴾ قوله تعالى ﴿ وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ القاسط الجائر ، والمقسط العادل ، وذكرنا معنى قسط وأقسط في أول سورة النساء ، فالقاسطون ، الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، وعن سعيد بن جبير : أن الحجاج قال له حين أراد قتله ما تقول في ؟ قال قاسط عادل ، فقال القوم ما أحسن ما قال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعادل ، فقال الحجاج : يا جهلة إنه سمانى ظالماً مشركاً ، وتلا لهم قوله (وأما القاسطون) وقوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ، (تحروا رشداً) أى قصدوا طريق الحق ، قال أبو عبيدة : تحروا توخوا ، قال المبرد : أصل التحرى من قولهم : ذلك أحرى ، أى أحق وأقرب ، وبالحرى أن تفعل كذا ، أى يجب عليك .

ثم إن الجن ذموا الكافرين فقالوا ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ وفيه سؤالان :
 ﴿ الأول ﴾ لم ذكر عقاب القاسطين ، ولم يذكر ثواب المسلمين ؟ (الجواب) بل ذكر ثواب المؤمنين وهو قوله تعالى (تحروا رشداً) أى توخوا رشداً عظيماً لا يبلغ كنهه إلا الله تعالى ، ومثل هذا لا يتحقق إلا في الثواب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ الجن مخلوقين من النار ، فكيف يكونون حطبا للنار ؟ (الجواب) أنهم وإن خلقوا من النار ، لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية وصاروا لحماً ودماً هكذا ، قيل وههنا آخر كلام الحسن ،

قوله تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ﴾ هذا من جملة المرعى إليه ، والتقدير (قل أوحى إلى أنه استمع نفر) ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ فيكون هذا هو النوع الثانى مما أوحى إليه ، وههنا مسائل :
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ أن مخففة من الثقيلة ، والمعنى وأوحى إلى أن الشأن ، والحديث لو استقاموا لكان كذا وكذا . قال الوددى : وفصل لو بينها وبين الفعل . كفصل لا والسين في

قوله (أن لا يرجع إليهم قولاً) و (علم أن سيكون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير في قوله (استقاموا) إلى من يرجع ؟ فيه قولان : قال بعضهم إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم ، أى هؤلاء القاسطون لو آمنوا لفعلنا بهم كذا وكذا . وقال آخرون : بل المراد الإنس ، واحججوا عليه بوجهين (الأول) أن الترغيب بالارتفاع بالماء الغدق إنما يليق بالإنس لا بالجن (والثاني) أن هذه الآية إنما نزلت بعد ما حبس الله المطر عن أهل مكة سنين ، أقصى ما في الباب أنه لم يتقدم ذكر الإنس ، ولكنه لما كان ذلك معلوماً جرى مجرى قوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقال القاضي الأقرب أن الكل يدخلون فيه . وأقول يمكن أن يحتاج لصحة قول القاضي بأنه تعالى لما أثبت حكماً معللاً بعلّة وهو الاستقامة ، وجب أن يعم الحكم بعموم العلة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الغدق بفتح الدال وكسرها : الماء الكثير ، وقرئ بهما يقال غدقت العين بالكسر فهي غدقة ، وروضة مغدقة أى كثيرة الماء ، ومطر مغدوق وغيداق وغيدق إذا كان كثير الماء ، وفي المراد بالماء الغدق في هذه الآية ثلاثة أقوال (أحدها) أنه الغيث والمطر ، (والثاني) وهو قول أبي مسلم أنه إشارة إلى الجنة كما قال (جنات تجري من تحتها الأنهار) (وثالثها) أنه المنافع والخيرات جعل الماء كناية عنها ، لأن الماء أصل الخيرات كلها في الدنيا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إن قلنا الضمير في قوله (استقاموا) راجع إلى الجن كان في الآية قولان (أحدهما) لو استقام الجن على الطريقة المثلى أى لو ثبت أبوهم الجن على ما كان عليه من عبادة الله ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ، ونظيره قوله تعالى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) وقوله (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لا كانوا) وقوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه) وقوله (فقلت استغفروا ربكم - إلى قوله - ويمددكم بأموال وبنين) وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة المنافع ، فإن اللائق بالجن هو هذا الماء المشروب (والثاني) أن يكون المعنى وأن لو استقام الجن الذين سمعوا القرآن على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لو سعنا عليهم الرزق ، ونظيره قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة) واختار الزجاج الوجه الأول قال لأنه تعالى ذكر الطريقة معرفة بالأنف واللام فتكون راجعة إلى الطريقة المعروفة المشهورة وهي طريقة الهدى والذاهبون إلى التأويل الثاني استدلوا عليه بقوله بعد هذه الآية (لتفتنهم فيه) فهو كقوله (إنما نملئ لهم ليزدادوا إثماً) ويمكن الجواب عنه أن من آمن فأنعم الله عليه كان ذلك الإنعام أيضاً ابتلاء واختباراً حتى يظهر أنه هل يشتغل بالشكر أم لا ، وهل ينفعه في طلب مرضى الله ، أوفى مرضى الشهوة والشيطان ، وأما الذين قالوا الضمير عائد إلى الإنس ، فالوجهان عائدان فيه بعينه

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

وهنا يكون إجراء قوله (لا سقينا من ماء غداً) على ظاهره أولى لأن انتفاع الإنس بذلك أتم وأكمل .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج أصحابنا بقوله لنفتنهم على أنه تعالى يضل عباده ، والمعتزلة أجابوا بأن الفتنة هي الاختبار كما يقال فتن الذهب بالنار لاختلاق الضلال ، واستدلكت المعتزلة باللام في قوله لنفتنهم على أنه تعالى إنما يفعل لغرض ، وأصحابنا أجابوا أن الفتنة بالاتفاق ليست مقصودة فدلكت هذه الآية ، على أن اللام ليست للغرض في حق الله ، وقوله تعالى (ومن يعرض عن ذكر ربه) أي عن عبادته أو عن موعظته ، أو عن وحيه يسلكه ، وقرئ بالنون مفتوحة ومضمومة أي ندخله عذاباً ، والأصل نسلكه في عذاب كقوله (ما سللكم في سقر) إلا أن هذه العبارة أيضاً مستقيمة لوجهين (الأول) أن يكون التقدير نسلكه في عذاب ، ثم حذف الجار وأوصل الفعل ، كقوله (واختار مرسى قومه) (والثاني) أن يكون معنى نسلكه أي ندخله ، يقال سللكه وأسلكه ، والصعد مصدر صعد ، يقال صعد صعداً وصعوداً ، فوصف به العذاب لأنه يصعد [فوق] طاقة المعذب أي يعلوه ، ويغلبه ، فلا يطيقه ، ومنه قول عمر ما تصعدني شيء ما تصعدني خطبة النكاح ، يريد ما شق على ، ولا غلبنى ، وفيه قول آخر ، وهو ما روى عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن صعداً جبل في جهنم ، وهو صخرة ملساء ، فيكلف الكافر صعودها ثم يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها في أربعين سنة ، فإذا بلغ أعلاها جذب إلى أسفلها ، ثم يكلف الصعود مرة أخرى ، فهذا دأبه أبداً ، ونظيره هذه الآية قوله تعالى (سأرهقه صعوداً) .

(النوع الثالث) من جملة الموحى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التقدير : قل أوحى إلى أن المساجد لله ، ومذهب الخليل ، أن التقدير ولأن المساجد لله فلا تدعوا ، فعلى هذا اللام متعاقبة ، فلا تدعوا أي فلا تدعوا مع الله أحداً في المساجد لأنها لله خاصة ، ونظيره قوله (وأن هذه أمتكم) على معنى ، ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، أي لأجل هذا المعنى فاعبدون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في المساجد على وجوه (أحدها) وهو قول الأكثرين أنها المواضع التي بنيت للصلاة وذكر الله ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين ، وذلك أن أهل الكتاب يشركون في صلاتهم في البيع والكنائس ، فأمر الله المسلمين بالإخلاص والتوحيد (وثانيها) قال الحسن أراد بالمساجد البقاع كلها قال عليه الصلاة والسلام « جعلت لي الأرض مسجداً » كأنه تعالى قال : الأرض كلها مخلوقة لله تعالى فلا تسجدوا عليها لغير خالقها (وثالثها) روى عن الحسن أيضاً أنه قال المساجد هي الصلوات . فالمساجد على هذا القول جمع مسجد بفتح

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٦﴾

الجيم والمسجد على هذا القول مصدر بمعنى السجود (ورابعها) قال سعيد بن جبير : المساجد الأعضاء التي يسجد العبد عليها وهي سبعة القدمان والركبتان واليدان والوجه ، وهذا القول اختيار ابن الأنباري ، قال لأن هذه الأعضاء هي التي يقع السجود عليها وهي مخلوقة لله تعالى ، فلا ينبغي أن يسجد العاقل عليها لغير الله تعالى ، وعلى هذا القول معنى المساجد مواضع السجود من الجسد واحدها مسجد بفتح الجيم (وخاها) قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما يريد بالمساجد مكة بجميع ما فيها من المساجد ، وذلك لأن مكة قبلة الدنيا وكل أحد يسجد إليها ، قال الواحدى وواحد المساجد على الأقوال كلها مسجد بفتح الجيم إلا على قول من يقول إنها المواضع التي بنيت للصلاة فإن واحدها بكسر الجيم لأن المواضع والمصادر كلها من هذا الباب بفتح العين إلا في أحرف معدودة وهي : المسجد والمطلع والمنسك والمسكن والمنبت والمفرق والمسقط والمجزر والمحشر والمشرق والمغرب ، وقد جاء في بعضها الفتح وهو المنسك والمسكن والمفرق والمطلع ، وهو جائز في كلها وإن لم يسمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الحسن : من السنة إذا دخل الرجل المسجد أن يقول لا إله إلا الله ، لأن قوله (لا تدعوا مع الله أحداً) في ضمنه أمر بذكر الله وبدعائه .

﴿ النوع الرابع ﴾ من جملة الموحى قوله تعالى ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ .

اعلم أن عبد الله هو النبي صلى الله عليه وسلم في قول الجميع ، ثم قال الواحدى إن هذا من كلام الجن لأن جملة الموحى ، لأن الرسول لا يليق أن يحكى عن نفسه بلفظ المغايبه وهذا غير بعيد ، كما في قوله (يوم يحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) والأكثر على أنه من جملة الموحى ، إذ لو كان من كلام الجن لكان ما ليس من كلام الجن . وفي حلال ما هو كلام الجن محتلاً بعيداً عن سلامة النظم وفائدة هذا الاختلاف أن من جعله من جملة الموحى فتح الهمزة في أن ، ومن جعله من كلام الجن كسرهما ، ونحن نفسر الآية على القولين ، أما على قول من قال إنه من جملة الموحى فالضمير في قوله كادوا إلى من يهود ؟ فيه ثلاثة أوجه (أحدها) إلى الجن ، ومعنى قام يدعوه أى قام يعبد يريد قيامه لصلاة الفجر حين أتاه الجن ، فاستعموا القراءة كادوا يكونون عليه لبداً ، أى يزدحمون عليه متراكبين تعجباً بما رأوا من عبادته ، واقتداء أصحابه به قائماً وراكعاً ، وساجداً . وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله (والثاني) لما قدم رسول الله يعبد الله وحده مخالفاً للشر كين في عبادتهم الأوثان ، كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه (والثالث) وهو قول قتادة ، لما قام عبد الله . تلبدت

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا

رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾

الإنس والجن ، وتظاهروا عليه ليبتلوا الحق الذي جاء به ويطفئوا نور الله ، فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من عاداه ، وأما على قول من قال إنه من كلام الجن ، فالوجهان أيضاً عائدان فيه ، وقوله (لبداً) فهو جمع لبدة وهو ما تلبد بعضه على بعض وارتكم بعضه على بعض ، وكل شيء ألصقته بشيء إلصاقاً شديداً فقدلبدته ، ومنه اشتقاق هذه اللبود التي تفرش . ويقال لبدة الأسد لما يتلبد من الشعر بين كتفيه ، ومنه قول زهير :

[لدى أسدشا كي السلاح مقذف] له لبداً أظفاره لم تقلم

وقرى . (لبداً) بضم اللام واللبدة في معنى اللبدة ، وقرى . لبداً جمع لا بد كما سجد في ساجد . وقرى . أيضاً (لبداً) بضم اللام والباء جمع لبود كصبر جمع صبور ، فإن قيل لم سمي محمداً بعبداً لله ، وما ذكره برسول الله أو نبي الله ؟ قلنا لأنه إن كان هذا الكلام من جملة الموحى ، فاللائق بتواضع الرسول أن يذكر نفسه بالعبودية ، وإن كان من كلام الجن كان المعنى أن عبد الله لما اشتغل بعبودية الله ، فهو لا الكفار لم اجتمعوا ولم حارلوا منعه منه ، مع أن ذلك هو الموافق لقانون العقل ؟ قوله تعالى : ﴿ قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحداً ﴾ قرأ العامة قال على الغيبة وقرأ عاصم وحمزة ، قل حتى يكون نظيراً لما بعده ، وهو قوله (قل إنى لا أملك ... قل إنى لن يجيرنى) قال مقاتل : إن كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم « إنك جئت بأمر عظيم وقد عادت الناس كلهم ، فارجع عن هذا » فأنزل الله (قل إنما أدعوا ربي) وهذا حجة لعاصم وحمزة ، ومن قرأ قال حمل ذلك على أن القوم لما قالوا ذلك ، أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « إنما أدعوا ربي » فكفى الله ذلك عنه بقوله قال : أو يكون ذلك من بقية حكاية الجن أحوال الرسول لقومهم .

قوله تعالى : ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ إما أن يفسر الرشداً بالنفع حتى يكون تقدير الكلام ، لا أملك لكم غياً ولا رشداً ، ويدل عليه قراءة أبى غياً ولا رشداً ، ومعنى الكلام أن النافع والضار ، والمرشد والمغوى هو الله ، وإن أحداً من الخلق لا قدرة له عليه .

قوله تعالى : ﴿ قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ﴾ قال مقاتل : إنهم قالوا : اترك ما تدعوا إليه ، ونحن نجبرك ، فقال الله له : (قل إنى لن يجيرنى من الله أحد) .

ثم قال تعالى ﴿ وإن أجده من دونه ملتحداً ﴾ أى ملجأ وحرزا ، قال المبرد : ملتحداً مثل قولك ، منعرجاً ، والاتحد ، معناه فى اللغة مال ، فالملتحد المدخل من الأرض مثل السرب الذاهب فى الأرض .

إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۙ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ ذكروا في هذا الاستثناء وجوهاً (أحدها) أنه استثناء من قوله (لا أملك) أى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً إلا بلاغاً من الله ، وقوله : (قل إن ابن بيجرى) جملة معترضة ، وقعت في البين لتأكيد نفي الاستطاعة عنه ، ويان يحزه على معنى : أنه تعالى إن أراد به سوء لم يقدر أحد أن يجيره منه ، وهذا قول الفراء (وثانيها) وهو قول الزجاج : أنه نصب على البدل من قوله (ملتجدا) والمعنى : ولن أجد من دونه ، ملجأ إلا بلاغاً ، أى لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به ، وأقول هذا الاستثناء منقطع ، لأنه تعالى لما لم يقل ، ولن أجد ملتجدا ، بل قال : ولن أجد من دونه ملتجدا ، والبلاغ من الله لا يكون داخلاً تحت قوله (من دونه ملتجدا) لأن البلاغ من الله لا يكون من دون الله ، بل يكون من الله ويأعانه وتوفيقه (ثالثاً) قال بعضهم : إلا معناه إن ، ومعناه : إن لا أبلغ بلاغاً كقولك : إلا قياماً فعوداً ، والمعنى : إن لا أبلغ ، لم أجد ملتجدا ، فإن قيل المشهور ، إنه يقال بلغ عنه ، قال عليه السلام « بلغوا عني ، بلغوا عني » فلم قال ههنا (بلاغاً من الله) ؟ قلنا من ليست بصفة للبلغ وإنما هي بمنزلة من في قوله (برأه من الله) بمعنى بلاغاً كما كنا من الله . أما قوله تعالى (ورسالاته) فهو عطف على بلاغاً كأنه قال : لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات ، والمعنى إلا أن أبلغ عن الله ، فأقول قال الله كذا ناسباً القول إليه وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان .

قوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم ﴾ قال الواحدى إن مكسورة الهزمة لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ولذلك حمل سيويبه قوله (ومن عاد فينتقم الله منه ، ومن كفر فأمته ، ومن يؤمن بربه فلا يخاف) على أن المبتدأ فيها مضمرة وقال صاحب الكشاف وقرىء (فإن له نار جهنم) على تقدير جزاؤه أن له نار جهنم ، كقولك (فإن لله خمسة) أى حكمه أن لله خمسة .

قوله تعالى : ﴿ خالدین فیہا أبداً ﴾ حملا على معنى الجمع في من وفي الآية مسالتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ استدل جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن فساق أهل الصلاة مخلدون في النار وأن هذا العموم يشملهم كشموله الكفار ، قالوا وهذا الوعيد مشروط بشرط أن لا يكون هناك توبة ولا طاعة أعظم منها ، قالوا وهذا العموم أقوى في الدلالة على هذا المطلوب من سائر العمومات لأن سائر العمومات ما جاء فيها قوله (أبداً) فالمخالف يحمل الخلود على المكث الطويل ، أما ههنا [فقد] جاء لفظ الأبد فيكون ذلك صريحاً في إسقاط الاحتمال الذي ذكره المخالف (والجواب) أننا في سورة البقرة وجوه الإجابة على التمسك بهذه العمومات ، ونزيد ههنا وجوهاً (أحدها) أن تخصيص

العموم بالواقعة التي لإجلها ورد ذلك العموم عرف مشهور ، فإن المرأة إذا أرادت أن تخرج من الدار ساعة ، فقال الزوج إن خرجت فأنت طالق يفيد ذلك آئين بتلك الساعة المعينة حتى أنها لو خرجت في يوم آخر لم تطلق ، فهنا أجرى الحديث في التبليغ عن الله تعالى ، ثم قال (ومن يعص الله ورسوله) يعني جبريل (فإن له نار جهنم) أي من يعص الله في تبليغ رسالاته وأداء وحيه فإن له نار جهنم ، وإذا كان ما ذكرنا محتملاً سقط وجه الاستدلال (الوجه الثاني) وهو أن هذا الوعيد لا بد وأن يتناول هذه الصورة لأن من القبيح أن يذكر عقوب هذه الواقعة حكماً لاتعلق لها بها ، فيكون هذا الوعيد وعيداً على ترك التبليغ من الله ، ولا شك أن ترك التبليغ من الله أعظم الذنوب ، والعقوبة المترتبة على أعظم الذنوب ، لا يجوز أن تكون مرتبة على جميع الذنوب ، لأن الذنوب المتفاوتة في الصغر والكبر لا يجوز أن تكون متساوية في العقوبة ، وإذا ثبت أن هذه العقوبة على هذا الذنب ، وثبت أن ما كان عقوبة على هذا الذنب لا يجوز أن يكون عقوبة على سائر الذنوب ، علماً أن هذا الحكم مختص بهذا الذنب وغير متعمد إلى سائر الذنوب (الوجه الثالث) وهو أنه تعالى ذكر عمومات الوعيد في سائر آيات القرآن غير مقيدة بقيد الأبد ، وذكرها هنا مقيدة بقيد الأبد ، فلا بد في هذا التخصيص من سبب ، ولا سبب إلا أن هذا الذنب أعظم الذنوب ، وإذا كان السبب في هذا التخصيص ، هذا المعنى ، علماً أن هذا الوعيد مختص بهذا الذنب وغير متعمد إلى جميع الذنوب ، وإذا ثبت أن هذا الوعيد مختص بفاعل هذا الذنب ، صارت الآية دالة على أن حال سائر المذنبين بخلاف ذلك ، لأن قوله (فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) معناه ، أن هذه الحالة لا تغيره ، وهذا كقوله (لكم دينكم) أي حكم لا تغيركم . وإذا ثبت أن لهم هذه الحالة لا تغيرهم ، وجب في سائر المذنبين أن لا يكون لهم نار جهنم على سبيل التأييد ، فظهر أن هذه الآية حجة لنا عليهم . وعلى تمسكهم بالآية سؤال آخر ، وهو أن قوله (ومن يعص الله ورسوله) إنما يتناول من عصى الله ورسوله بجميع أنواع المعاصي ، وذلك هو الكافر ونحن نقول بأن الكافر يبقى في النار مؤبداً ، وإنما قلنا إن قوله (ومن يعص الله ورسوله) إنما يتناول من عصى الله بجميع أنواع المعاصي لأن قوله (ومن يعص الله) يصح استثناء جميع أنواع المعاصي عنه ، مثل أن يقال ، ومن يعص الله إلا في الكفر وإلا في الزنا ، وإلا في شرب الخمر ، ومن مذهب القائلين بالوعيد ، أن حكم الاستثناء إخراج ما لولاه لكان داخل تحت اللفظ وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون قوله (ومن يعص الله) متناولاً لمن أتى بكل المعاصي ، والذي يكون كذلك هو الكافر ، فالآية مختصة بالكافر على هذا التقدير ، فسقط وجه الاستدلال بها . فإن قيل كون الإنسان الواحد آتياً بجميع أنواع المعاصي محال ، لأن من المحال أن يكون قاتلاً بالتجسم . وأن يكون مع ذلك قاتلاً بالتعطيل ، وإذا كان ذلك محالاً فحمل الآية عليه غير جائز قلنا تخصيص العام بدليل العقل جائز ، فقولنا (ومن يعص الله) يفيد كونه آتياً بجميع أنواع

حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ

أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾

المعاصي ، ترك العمل به في القدر الذي امتنع عقلا حصوله . فيبقى متناولا للآتي بجميع الأشياء التي يمكن الجمع بينها ، ومن المعلوم أن الجمع بين الكفر وغيره يمكن فتكون الآية مختصة به .
(المسألة الثانية) تمسك القائلون بأن الأمر للوجوب بهذه الآية ، فقالوا تارك المأمور به عاص لقوله تعالى (أفصيت أمرى ، لا يعصون الله ما أمرهم ، لا أعصى لك أمراً) والمعاصي مستحق للعقاب لقوله (ومن يعص الله ورسوله فإن نار جهنم خالدين فيها أبداً)

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلدون من أضعف ناصرًا وأقل عدداً ﴾ فإن قيل ما الشيء الذي جعل ما بعد حتى غاية له ؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أنه متعلق بقوله (يكونون عليه لبداً) والتقدير أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عدده (حتى إذا رأوا ما يوعدون) من يوم بدر وإظهار الله له عليهم أو من يوم القيامة ، فسيعلدون أيهم أضعف ناصرًا وأقل عدداً ، (الثاني) أنه متعلق بمحذوف دللت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده . كأنه قيل هؤلاء لا يزالون على ما هم عليه ، حتى إذا كان كذا كان كذا ، واعلم أن نظير هذه الآية قوله في مريم (حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة) واعلم أن الكافر لا ناصر له ولا شفيع يوم القيامة ، على ما قال (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ويفر كل أحد منهم من صاحبه ، على ما قال (يوم يفر المرء من أخيه) إلى آخره (ويوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) وأما المؤمنون فلهم العزة والكرامة والكثرة ، قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) والملك القدوس يسلم عليهم (سلام قولاً من رب رحيم) فهناك يظهر أن القوة والعدد في جانب المؤمنين أو في جانب الكفار .

قوله تعالى : ﴿ قل إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ﴾ قال مقاتل لما سمعوا قوله (حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلدون من أضعف ناصرًا وأقل عدداً) قال النضر بن الحرث متى يكون هذا الذي توعدنا به ؟ فأنزل الله تعالى (قل إن أدري أقرب ما توعدون) إلى آخره والمعنى أن وقوعه متيقن ، أما وقت وقوعه فغير معلوم ، وقوله (أم يجعل له ربي أمداً) أى غاية وبعداً وهذا كقوله (وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون) فإن قيل أليس أنه قال ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴾ فكان عالماً بقرب وقوع القيامة ، فكيف قال ههنا لا أدري أقرب أم بعيد ؟ قلنا المراد بقرب وقوعه هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى ، فهذا القدر من القرب معلوم ،

عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ

وأما معنى معرفة القرب القريب وعدم ذلك فغير معلوم .
ثم قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا ، إلا من ارتضى من رسول) لفظه من في قوله من رسول تبيين لمن ارتضى يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى يكون رسولا ، قال صاحب الكشاف ، وفي هذا إبطال الكرامات لأن الذين تضاف الكرامات إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسول ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وفيها أيضاً إبطال الكهانة والسحر والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الإرتضاء وأدخله فى السخط ، قال الواحدى ، وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت أو غير ذلك ، فقد كفر بما فى القرآن .

واعلم أن الواحدى يجوز الكرامات وأن يلهم الله أولياءه وقوع بعض الوقائع فى المستقبل . ونسبة الآية إلى الصورتين واحدة فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم فينبغى أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات على ما قاله صاحب الكشاف ، وإن زعم أنها لا تدل على المنع من الإلهامات الحاصلة للأولياء فينبغى أن لا يجعلها دالة على المنع من الدلائل النجومية ، فأما التحكم بدلائلها على المنع من الأحكام النجومية وعدم دلائلها على الإلهامات الحاصلة للأولياء فجرد التشمهى ، وعندى أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه والذى تدل عليه أن قوله (على غيبه) ليس فيه صيغة عموم فيكفى فى العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فتحمله على وقت وقوع القيامة فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى فى الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ، والذى يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله (إن أدرك أقرب ما نعدون أم يجعل له ربي أمداً) يعنى لا أدركى وقت وقوع القيامة ، ثم قال بعده (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لا يظهره الله لأحد ، وبالجملة فقوله (على غيبه) لفظ مفرد مضاف ، فيكفى فى العمل به حمله على غيب واحد ، فأما العموم فليس فى اللفظ دلالة عليه ، فإن قيل فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال (إلا من ارتضى من رسول) مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟ قلنا بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً) ولا شك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام القيامة ، وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً ، كأنه قال عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص وهو قيام القيامة أحداً ، ثم قال بعده لكن من ارتضى من رسول (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه) حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن ، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع

فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴿٢٧﴾ ليعلم أن قد أبلغوا رسالت

رَبِّهِمْ

القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقالته .

واعلم أنه لا بد من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية أن لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل ، والذي يدل عليه وجوه (أحدها) أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل زمان ظهوره ، وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم ، حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من الغيب (وثانيها) أن جميع أرباب الملل والأديان مطبقون على صحة علم النعير ، وأن المعبر قد يخبر عن وقوع الوقائع الآتية في المستقبل ، ويكون صادقاً فيه (وثالثها) أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان ، وسألها عن الأحوال الآتية في المستقبل فذكرت أشياء ، ثم إنهما وقعت على وفق كلامها .

(قال مصنف الكتاب) ختم الله له بالحسنى : وأنا قد رأيت أناساً محققين في علوم الكلام والحكمة ، حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة أخباراً على سبيل التفصيل ، وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها ، وبالغ أبو البركات في كتاب المعبر في تشرح حالها ، وقال لقد تفحصت عن حالها مدة ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً .

(ورابعها) أنا نشاهد [ذلك] في أصحاب الإلهامات الصادقة ، وليس هذا مختصاً بالأولياء بل قد يوجد في السحرة أيضاً من يكون كذلك نرى الإنسان الذي يكون سهم الغيب على درجة طالعه يكون كذلك في كثير من أخباره وإن كان قد يكذب أيضاً في أكثر تلك الأخبار ، ونرى الأحكام النجومية قد تكون مطابقة وموافقة للأمور ، وإن كانوا قد يكذبون في كثير منها ، وإذا كان ذلك مشاهداً محسوساً ، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه بما يجز الطعن إلى القرآن ، وذلك باطل فعلينا أن التأويل الصحيح ما ذكرناه ، والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ فالمعنى أنه يسلك من بين يدي من ارتضى للرسالة ، ومن خلفه رصداً ، أي حفظة من الملائكة يحفظونه من وساوس شياطين الجن وتخاليطهم ، حتى يبلغ ما أوحى به إليه ، ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونه ولا يضره وعن الضحاك ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يجرسونه من الشياطين الذين يتشبهون بصورة الملك . قوله تعالى : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ فيه مسائل :

وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ وحد الرسول في قوله (إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه) ثم جمع في قوله (أن قد أبلغوا رسالات ربهم) ونظيره ما تقدم من قوله (فإن له نار جهنم خالدين) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من قال بحدوث علم الله تعالى بهذه الآية ، لأن معنى الآية ليعلم الله أن قد أبلغوا الرسالة ، ونظيره قوله تعالى (حتى نعلم المجاهدين) (والجواب) من وجهين : (الأول) قال قتادة ومقاتل ليعلم محمد أن الرسل قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ، وعلى هذا اللام في قوله (ليعلم) متعلق بمحذوف يدل عليه الكلام ، كأنه قيل أخبرناه بحفظ الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ الحق ، ويجوز أن يكون المعنى ليعلم الرسول أن قد أبلغوا أى جبريل والملائكة الذين يبعثون إلى الرسل رسالات ربهم ، فلا يشك فيها ويعلم أنها حق من الله (الثاني) وهو اختيار أكثر المحققين أن المعنى ، ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم ، والعلم ههنا مثله في قوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) والمعنى ليلفوا رسالات ربهم ، فيعلم ذلك منهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرئ . ليعلم على البناء المفعول .

قوله تعالى : ﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ .

أما قوله (وأحاط بما لديهم) فهو يدل على كونه تعالى عالما بالجزئيات ، وأما قوله (وأحصى كل شيء عددا) فهو يدل على كونه عالماً بجميع الموجودات ، فإن قيل إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي ، وقوله (كل شيء) يدل على كونه غير متناه ، فلزم وقوع التناقض في الآية ، قلنا لا شك أن إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي ، فأما لفظه (كل شيء) فإنها لا تدل على كونه غير متناه ، لأن الشيء عندنا هو الموجودات ، والموجودات متناهية في العدد ، وهذه الآية أحد ما يحتاج به على أن المعدوم ليس بشيء ، وذلك لأن المعدوم لو كان شيئاً ، لكانت الأشياء غير متناهية ، وقوله (أحصى كل شيء عدداً) يقتضى كون تلك المحصيات متناهية ، فيلزم الجمع بين كونها متناهية وغير متناهية ، وذلك محال ، فوجب القطع بأن المعدوم ليس بشيء حتى يندفع هذا التناقض .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين .

(٧٣) سُورَةُ الْمِزْمَلِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا عَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها المزمل ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أجمعوا على أن المراد بالمزمل النبي عليه السلام ، وأصله المتزمل بالناء وهو الذي تزمل بثيابه ، أى تلفف بها ، فأدغم التاء في الزاى ، ونحوه المدثر في المتدثر ، واختلفوا لم تزمل بثوبه ؟ على وجوه (أحدها) قال ابن عباس : أول ما جاءه جبريل عليه السلام حافه وظن أن به مساً من الجن ، فرجع من الجبل مرثداً وقال زملونى ، فينا هو كذلك إذ جاء جبريل وناداه ، وقال يا أيها المزمل (وثانيها) قال الكاكي : إنما تزمل النبي عليه السلام بثيابه للنبي . للصلاة ، وهو اختيار الفراء (وثالثها) أنه عليه السلام كان نائماً بالليل متزماً في قطيفة فنودي بما يهجن تلك الحالة ، وقيل يا أيها النائم المتزمل بثوبه قم واشتغل بالعبودية (ورابعها) أنه كان متزماً في مرط الحديد مستأنساً بها فقيل له (يا أيها المزمل قم الليل) كأنه قيل اترك نصيب النفس واشتغل بالعبودية (وخامسها) قال عكرمة : يا أيها الذي زمل أمراً عظيماً أى حمله ، والزمل الحمل ، وازدمله احتمله ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ عكرمة المزمل والمدثر بتخفيف الزاى والبدال وتشديد الميم والثاء على أنه اسم فاعل أو مفعول ، فإن كان على اسم الفاعل كان المفعول محنوقاً والتقدير يا أيها المزمل نفسه والمدثر نفسه وحذف المفعول في مثل هذا المقام فصيح ، قال تعالى (وأوتيت من كل شيء) أى أوتيت من كل شيء شيئاً ، وإن كان على أنه اسم المفعول كان ذلك لأنه زمل نفسه أو زمله غيره ، وقرئ يا أيها المتزمل على الأصل .

قوله تعالى : ﴿ قم الليل ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ، لقوله (قم الليل) وظاهر الأمر للوجوب ثم نسخ ، واختلفوا في سبب النسخ على وجود (أولها) أنه كان فرضاً قبل أن تفرض الصلوات الخمس ثم نسخ بها (وثانيها) أنه تعالى لما قال (قم الليل إلا قليلاً نصفه

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ ۖ

أو انقص منه قليلاً أو زد عليه (فكان الرجل لا يدري كم صلى وكم قى من الليل فكان يقوم الليل كله مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب وشق عليهم ذلك حتى ورمت أقدامهم وسوتهم ، فنسخ الله تعالى ذلك بقوله في آخر هذه السورة (فاقروا ما تيسر منه) وذلك في صدر الإسلام ، ثم قال ابن عباس وكان بين أول هذا الإيجاب وبين نسخه سنة ، وقال في رواية أخرى إن إيجاب هذا كان بمكة ونسخه كان بالمدينة ، ثم نسخ هذا القدر أيضاً بالصلوات الخمس ، والفرق بين هذا القول وبين القول الأول أن في هذا القول نسخ وجوب التهجيد بقوله (فاقروا ما تيسر من القرآن) ثم نسخ هذا بإيجاب الصلوات ، وفي القول الأول نسخ إيجاب التهجيد بإيجاب الصلوات الخمس ابتداءً ، وقال بعض العلماء : التهجيد ما كان واجباً قط ، والدليل عليه وجوه (أولها) قوله (ومن الليل قمتهجده به نافلة لك) فبين أن التهجيد نافلة له لا فرض ، وأجاب ابن عباس عنه بأن المعنى زيادة وجوب عليك (وثانيها) أن التهجيد لو كان واجباً على الرسول لوجب على أمته ، لقوله (واتبعوه) وورود النسخ على خلاف الأصل (وثالثها) استدلال بعضهم على عدم الوجوب بأنه تعالى قال (نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه) فقوض ذلك إلى رأى المكلف وما كان كذلك لا يكون واجباً وهذا ضعيف لأنه لا يبعد في العقل أن يقول أوجبت عليك قيام الليل فأما تقديره بالقلّة والكثرة فذاك مفوض إلى رأيك ، ثم إن القائلين بعدم الوجوب أجابوا عن التمسك بقوله (قم الليل) وقالوا ظاهر الأمر يفيد الندب ، لانا رأينا أوامر الله تعالى تارة تفيد الندب وتارة تفيد الإيجاب ، فلا بد من جعلها مفيدة للقدر المشترك بين الصورتين دفعاً للاشتراك والمجاز ، وما ذاك إلا ترجيح جانب الفعل على جانب الترك ، وأما جواز الترك فإنه ثابت بمقتضى الأصل ، فلما حصل الرجحان بمقتضى الأمر وحصل جواز الترك بمقتضى الأصل كان ذلك هو المندوب والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ أبو السهمال قم الليل بفتح الميم وغيره بضم الميم ، قال أبو الفتح بن جنى الغرض من هذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين ، فأى الحركات تحرك فقد حصل الغرض وحكى قطرب عنهم : قم الليل ، وقل الحق برفع الميم واللام وبع الثوب ثم قال من كسر فعلى أصل الباب ومن ضم أتبع ومن فتح فقد مال إلى خفة الفتح .

قوله تعالى : ﴿ إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ﴾ .

اعلم أن الناس قد أكثروا في تفسير هذه الآية وعندى فيه وجهان ملخصان (الأول) أن المراد بقوله (إلا قليلاً) الثلث ، والدليل عليه قوله تعالى في آخر هذه السورة (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) فهذه الآية دات على أن أكثر المقادير الواجبة الثلثان ، فهذا يدل على أن نوم الثلث جائز ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد في قوله (قم الليل إلا

وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

قليلًا) هو الثلث ، فاذا قوله (قم الليل إلا قليلا) معناه قم ثلثي الليل ثم قال (نصفه) والمعنى أو قم نصفه ، كما تقول جالس الحسن أو ابن سيرين ، أى جالس ذا أو ذا أيهما شئت ، فتحذف واو العطف فتقدير الآية : قم الثلثين أو قم النصف أو انقص من النصف أو زد عليه ، فعلى هذا يكون الثلثان أقصى الزيادة ، ويكون الثلث أقصى النقصان ، فيكون الواجب هو الثلث ، والزائد عليه يكون مندوباً ، فإن قيل فعلى هذا التأويل يلزمكم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد ترك الواجب ، لأنه تعالى قال (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) فنقرأ نصفه وثلثه بالخفض كان المعنى أنك تقوم أقل من الثلثين ، وأقل من النصف ، وأقل من الثلث ، فإذا كان الثلث واجباً كان عليه السلام تاركاً للواجب ، قلنا إنهم كانوا يقدرون الثلث بالاجتهاد ، فربما أخطأوا في ذلك الاجتهاد ونقصوا منه شيئاً قليلاً ، فيكون ذلك أدنى من ثلث الليل المعلوم بتحديد الأجزاء عند الله ، ولذلك قال تعالى لهم (علم أن لن تحصوه) ، (الوجه الثاني) أن يكون قوله (نصفه) تفسيراً لقوله (قليلاً) وهذا التفسير جائز لوجهين (الأول) أن نصف الشيء قليل بالنسبة إلى كله (والثاني) أن الواجب إذا كان هو النصف لم يخرج صاحبه عن عهدة ذلك التكليف بيقين إلا بزيادة شيء قليل عليه فيصير في الحقيقة نصفاً و شيئاً ، فيكون الباقي بعد ذلك أقل منه ، وإذا ثبت هذا فنقول (قم الليل إلا قليلاً) معناه قم الليل إلا نصفه ، فيكون الحاصل : قم نصف الليل ، ثم قال (أو انقص منه قليلاً) يعنى أو انقص من هذا النصف نصفه حتى يبقى الربع ، ثم قال (أو زد عليه) يعنى أو زد على هذا النصف نصفه حتى يصير المجموع ثلاثة أرباعه ، وحينئذ يرجع حاصل الآية إلى أنه تعالى خيره بين أن يقوم تمام النصف ، وبين أن يقوم ربع الليل ، وبين أن يقوم ثلاثة أرباعه ، وعلى هذا التقدير يكون الواجب الذى لا بد منه هو قيام الربع ، والزائد عليه يكون من المندوبات والنوافل ، وعلى هذا التأويل يزول الإشكال الذى ذكرتم بالكلية . لأن قوله (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقم ثلثي الليل ، ولا نصفه ، ولا ثلثه ، لأن الواجب لما كان هو الربع فقط لم يلزم من ترك قيام الثلث ترك شيء من الواجبات ، فزال السؤال المذكور ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال الزجاج ، رتل القرآن ترتيلاً ، بينه تبييناً ، والتبيين لا يتم بأن يعجل في القرآن ، إنما يتم بأن يتبين جميع الحروف ، ويوفى حقها من الإشباع ، قال المبرد : أصله من قولهم نثر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير ، وقال الليث : الترتيل تنسيق الشيء ، ونثر رتل ، حسن التنضيد ، ورتلت الكلام ترتيلاً ، إذا تمهلت فيه وأحسنه تأليفه ، وقوله تعالى (ترتيلاً) تأكيد في إيجاب الأمر به ، وأنه بما لا بد منه للقارى .

إِنَّا سُنُّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿١٠﴾

واعلم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته ، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله ، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني ، لأن النفس تبهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية ، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره ، ومن أحب شيئاً لم يمر عليه بسرعة ، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب ، وكمال المعرفة .

قوله تعالى : ﴿ إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ﴾ ذكروا في تفسير الثقل وجوهاً (أحدها) وهو المختار عندى لأن المراد من كونه ثقيلاً عظم قدره وجلالة خطره ، وكل شيء نفس وعظم خطره ، فهو ثقل وثقيل وثاقل ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء (قولا ثقيلاً) يعنى كلاماً عظيماً ، ووجه النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل ، فكأنه قال : إنما أمرتك بصلاة الليل ، لانا سنلقى عليك قولاً عظيماً ، فلا بد وأن تسعى في صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم ، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل ، فإن الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره ، والشأن عليه ، والتضرع بين يديه ، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية ، والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها ، وتمهيات للتجرد التام ، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية . فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنى ، لاجرم قال : إني إنما أمرتك بصلاة الليل ، لانا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ، فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى ، وتام هذا المعنى ما قال عليه الصلاة والسلام « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألفتعرضوا لها » (وثانيتها) قالوا المراد بالقول الثقيل ، القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين عامة ، وعلى رسول الله خاصة ، لأنه يتحملها بنفسه ويبلغها إلى أمته ، وحاصله أن ثقله راجع إلى ثقل العمل به ، فإنه لا معنى للتكليف إلا لإلزام ما في فعله كلفة ومشقة (وثالثها) روى عن الحسن : أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة ، وهو إشارة إلى كثرة منافعه . وكثرة الثواب في العمل به (ورابعها) المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يتقبل عند نزول الوحي إليه ، روى أن الوحي نزل عليه وهو على ناقته فتقبل عليها ، حتى وضعت جرائها ، فلم تستطع أن تتحرك ، وعن ابن عباس : كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتردد وجهه ، وعن عائشة رضي الله عنها « رأيت ينزل عليه الوحي ، في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليرفض عرقاً » (وخامسها) قال الفراء : قولاً ثقيلاً ، أى ليس بالخفيف ولا بالسفساف ، لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى (وسادسها) قال الزجاج : معناه أنه قول متين في صحته وبيانه ونفعه ،

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ

كما تقول هذا كلام رزين ، وهذا قول له وزن إذا كنت تستجيده ، وتعلم أنه وقع موقع الحكمة والبيان (وسابها) قال أبو علي الفارسي ، إنه ثقيل على المنافقين ، من حيث إنه يهتك أسرارهم ، ومن حيث إنه يبطل أقدانهم وأقوالهم (وثانها) أن الثقل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول ، فجملة الثقل كناية عن بقاء القرآن ، على وجه الدهر ، كما قال (إننا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون) ، (وتاسعها) أنه ثقيل ، بمعنى أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه بالكلية ، فالتكلمون غاصوا في بحار مقولاته ، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه ، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني ، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه فوائد ما وصل إليها المتقدمون ، فعلينا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله ، فصار كالحمل الثقيل الذي يعجز أسبق عن حمله ، (وعاشرها) أنه ثقيل ، لسكونه مشتملا على المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، والفرق بين هذه الأقسام مما لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون ، المحيظون بجميع العلوم العقلية والحكومية ، فلما كان كذلك لا جرم كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ يقال نشأت تنشأ نشأ ، فهي : ناشئة ، والإنشاء الإحداث ، فكل ما حدث [فهو ناشئ] فإنه يقال للذكر ناشئ ، وللؤنث ناشئة ، إذ عرفت هذا فنقول في الناشئة قولان : (أحدهما) أنها عبارة عن ساعات الليل (والثاني) أنها عبارة عن الأمور التي تحدث في ساعات الليل ، أما القول الأول ، فقال أبو عبيدة ناشئة الليل ساعاته وأجزاؤه المتتالية المتعاقبة فإنها تحدث واحدة بعد أخرى ، فهي ناشئة بعد ناشئة ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا ، فمنهم من قال الليل كله ناشئة ، روى ابن أبي مليكة ، قال سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة الليل ، فقال الليل كله ناشئة . وقال زين العابدين رضي الله عنه : ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء ، وهو قول سعيد ابن جبير والضحاك والكسائي ، قالوا لأن ناشئة الليل هي الساعة التي منها يتبدى سواد الليل ، (القول الثاني) هو تفسير الناشئة بأمور تحدث في الليل ، وذكروا على هذا القول وجوهاً (أحدها) قالوا ناشئة الليل هي النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضعها إلى العبادة أي تمض وتترفع ، من نشأت السجادة إذا ارتفعت (وثانيها) ناشئة الليل ، عبارة عن قيام الليل بعد النوم ، قال ابن الأعرابي إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة ، ومنه ناشئة الليل ، وعندى فيه (وجه ثالث) وهو أن الإنسان إذا أقبل على العبادة والذكر في الليل المظلم في البيت المظلم في موضع لا تصير حواسه مشغولة بشيء من المحسوسات البتة ، فحينئذ يقبل القلب على الخواطر الروحانية والأفكار الإلهية ، وأما النهار فإن الحواس تكون مشغولة بالمحسوسات ، فتصير النفس مشغولة بالمحسوسات ، فلا تنفرغ للأحوال الروحانية ، فالمراد من ناشئة الليل تلك الواردات الروحانية

هي أشدُّ وطئاً وأقومُ قبلاً ﴿٦﴾

والخراطير النورانية ، التي تنكشف في ظلمة الليل بسبب فراغ الحواس ، وسمائها ناشئة الليل لأنها لا تحدث إلا في الليل بسبب أن الحواس الشاغلة للنفس معطلة في الليل و مشغولة في النهار ، ولم يذكر أن تلك الأشياء الناشئة منها تارة أفكار وتأملات ، وتارة أنوار ومكاشفات ، وتارة انفعالات نفسانية من الابتهاج بعالم القدس أو الخوف منه ، أو تخيلات أحوال عجيبة ، فلما كانت تلك الأمور الناشئة أجناساً كثيرة لا يجمعها جامع ، إلا أنها أمور ناشئة حادثة لاجرم لم يصفها إلا بأنها ناشئة الليل .

قوله تعالى : ﴿ هي أشدُّ وطئاً ﴾ أي مواطأة ، وملاحة وموافقة ، وهو مصدر يقال واطأت فلاناً على كذا ، مواطأة ووطأة ، ومنه (ليواطئوا عدة ما حرم الله) أي ليوافقوا ، فإن فسرنا الناشئة بالساعات كان المعنى أنها أشد موافقة لما يرد من الخشوع والإخلاص ، وإن فسرناها بالنفس الناشئة كان المعنى شدة المواطأة بين القلب واللسان ، وإن فسرناها بقيام الليل كان المعنى ما يرد من الخشوع والإخلاص ، وإن فسرناها بما ذكرت كان المعنى أن إفضاء تلك المجاهدات إلى حصول المكاشفات في الليل أشد منه في النهار ، وعن الحسن أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ترى . (أشدُّ وطئاً) بالفتح والكسر وفيه وجهان (الأول) قال الفراء أشد ثبات قدم ، لأن النهار يضطرب فيه الناس ويتقلبون فيه للعاش (والثاني) أنقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار ، وهو من قولك اشتدت على القرم وطأة سلطانهم إذا نزل عليهم معاملتهم معه ، وفي الحديث «اللهم أشدد وطأتك على مضر» فأعلم الله نبيه أن الثراب في قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها ، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «أفضل العبادات أحزها» أي أشقها . واختار أبو عبيدة القراءة الأولى ، قال لأنه تعالى لما أمره بقيام الليل ذكر هذه الآية ، فكانه قال إنما أمرتك بصلاة الليل لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل ، وأيضاً الخواطر الليلية إلى المكاشفات الروحانية أتم .

قوله تعالى : ﴿ وأقوم قبلاً ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (أقوم قبلاً) قال ابن عباس : أحسن لفظاً ، قال ابن قتيبة : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع فيه الحركات ويخلص القول ، ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ أنس . وأصوب قبلاً ، فقييل له يا أبا حمزة إنما هي : وأقوم قبلاً ، فقال أنس وأصوب وأهيا واحد ، قال ابن جنى ، وهذا يدل على أن القوم كانوا يعتبرون المعاني ، فإذا وجدوها لم ينتفتوا إلى الألفاظ ، ونظيره ما روى أن أبا سوار الغنوي : كان يقرأ (لخاسروا خلال الديار) بالحاء غير المعجمة ، فقييل له إنما هو جاسوا ، فقال : حاسوا وجاسوا واحد ، أنا

﴿٧﴾ وَإِذْ كَرَّمْنَا نَهَارًا طَوِيلًا ﴿٨﴾ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٩﴾

أقول يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك تفسيرا للفظ القرآن ، لا على أنه جعله نفس القرآن ، إذ لو ذهبنا إلى ما قاله ابن جنى لا رتفع الاعتماد عن ألفاظ القرآن ، ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقاً لذلك المعنى ، ثم ربما أصاب في ذلك الاعتقاد ، وربما أخطأ وهذا يجر إلى الطعن في القرآن ، فثبت أنه حمل ذلك على ما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿٧﴾ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴿٨﴾ وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المبرد سبحا أي تقليا فيما يجب ولهذا سمي السابحا لتقلبه بيديه ورجليه ، ثم في كيفية المعنى وجهان (الأول) إن لك في النهار تصرفا وتقلبا في مهماتك فلا تنفرغ لخدمة الله إلا بالليل ، فلهذا السبب أمرتك بالصلاة في الليل (الثاني) قال الزجاج أي إن فاتك من الليل شيء من النوم والراحة فلك في النهار فراغ فاصرفه إليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ سبخا بالخاء المنقطة من فرق ، وهو استعارة من سبخ الصرف . وهو نقشه ونشر أجزائه ، فإن القلب في النهار يتفرغ بسبب الشواغل ، وتختلف همومه بسبب الموجبات المختلفة ، واعلم أنه تعالى أمر رسوله أولا بقيام الليل ، ثم ذكر السبب في أنه لم خص الليل بذلك دون النهار ، ثم بين أن أشرف الأعمال المأمور بها عند قيام الليل ما هو .

قوله تعالى ﴿٧﴾ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴿٨﴾ وهذه الآية تدل على أنه تعالى أمر بشيئين ، أحدهما الذكر ، والثاني التبتل ، أما الذكر فاعلم أنه إنما قال (واذكر اسم ربك) ههنا وقال في آية أخرى (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية) لأنه لا بد في أول الأمر من ذكر الإسم باللسان مدة ثم يزول الإسم ويبقى المسمى ، فالدرجة الأولى هي المراد بقوله ههنا (واذكر اسم ربك) والمرتبة الثانية هي المراد بقوله في السورة الأخرى (واذكر ربك في نفسك) وإنما تكون مشتغلا بذكر الرب ، إذا كنت في مقام مطالعة ربوبيته ، وربوبيته عبارة عن أنواع تربيته لك وإحسانه إليك ، فما دمت في هذا المقام تكون مشغول القلب بمطالعة آلائه ونعمائه فلا تكون مستغرق القلب به ، وحينئذ يزداد الترقى فنصير مشتغلا بذكر إلهيته ، وإليه الإشارة بقوله (اذكروا الله كذاكم آباءكم) وفي هذا المقام يكون الإنسان في مقام الهيبة والخشية ، لأن الإلهية إشارة إلى القهارية والعزة والعلو والسمدية . ولا يزال العبد يرقى في هذا المقام مترددا في مقامات الجلال والتزوية والتقديس إلى أن ينتقل منها إلى مقام الهوية الإحدية ، التي كلت العبارات عن شرحها ، وتناصرت الإشارات عن الانتهاء إليها ، وهناك الانتهاء إلى الواحد الحق ، ثم يقف لأنه ليس هناك نظير في الصفات ، حتى يحصل الانتقال من صفة إلى صفة ، ولا أن تكون الهوية مركبة حتى

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

ينتقل نظر العقل من جزء إلى جزء ، ولأنها مناسبة لشيء من الأحوال المدركة عن النفس حتى تعرف على سبيل المقايسة ، فهي الظاهرة لأنها مبدأ ظهور كل ظاهر ، وهي الباطنة لأنها فوق عقول كل المخلوقات ، فسبحان من احتجب عن العقول لشدة ظهوره واختفى عنها بكامل نوره ، وأما قوله تعالى ﴿ وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن جميع المفسرين فسروا التبتل بالإخلاص ، وأصل التبتل في اللغة القطع ، وقيل لمريم البتول لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة ، وصدقة بتلة منقطة من مال صاحبها . وقال الليث التبتيل تمييز الشيء عن الشيء ، والبتول كل امرأة تنقبض من الرجال ، لارغبة لها بهم . إذا عرفت ذلك فاعلم أن للمفسرين عبارات ، قال الفراء يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أى انقطع عن كل شيء إلى أمر الله وطاعته ، وقال زيد بن أسلم التبتل رفض الدنيا مع كل ما فيها والتماس ما عند الله ، واعلم أن معنى الآية فوق ما قاله هؤلاء الظاهريون لأن قوله (وتبتل) أى انقطع عن كل ما سواه إليه فالمشغول بطلب الآخرة غير متبتل إلى الله تعالى ، بل التبتل إلى الآخرة والمشغول بعبادة الله متبتل إلى العبادة لا إلى الله ، والطالب لمعرفة الله متبتل إلى معرفة الله لا إلى الله . فمن أثر العبادة لنفس العبادة أو لطلب الثواب أو ليصير متعبداً كاملاً بتلك العبودية العبودية فهو متبتل إلى غير الله ، ومن أثر العرفان للعرفان فهو متبتل إلى العرفان ، ومن أثر العبودية للعبودية بل للعبود وآثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف ، فقد خاض لجة الوصول ، وهذا مقام لا يشرحه المقال ولا يعبر عنه الخيال ، ومن أراده فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر ولا يجحد الإنسان لهذا مثالا إلا عند العشق الشديد إذا مرض البدن بسببه وانحسبت القوى وعميت العينان وزالت الأغراض بالكلية وانقطعت النفس عما سوى المعشوق بالكلية ، فهناك يظهر الفرق بين التبتل إلى المعشوق وبين التبتل إلى رؤية المعشوق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الواجب أن يقال : وتبتل إليه تبتيلاً أو يقال بتل نفسك إليه تبتيلاً ، لكنه تعالى لم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهي أن المقصود بالذات إنما هو التبتل . فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إلى الله ، إلا أنه لا بد أولاً من التبتيل حتى يحصل التبتل كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فذكر التبتل أولاً لإشعاره بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانياً لإشعاره بأنه لا بد منه ولكنه مقصود بالعرض . واعلم أنه تعالى لما أمره بالذكر أولاً ثم بالتبتل ثانياً ذكر السبب فيه فقال تعالى ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن التبتل إليه لا يحصل إلا بعد حصول المحبة ، والمحبة لا تليق إلا بالله تعالى ، وذلك لأن سبب المحبة إما الكمال وإما التكميل ، أما الكمال فلأن الكمال محبوب لذاته إذ من المعلوم أنه يتمتع أن يكون كل شيء . إنما كان محبوباً لأجل شيء آخر ، وإلا لزم التسلسل ، فإذا لا بد من الانتهاء إلى ما يكون محبوباً لذاته ، والكمال محبوب لذاته ، فإن من اعتقد أن فلاناً الذي كان قبل هذا بألف سنة كان موصوفاً بعلم أزيد من علم سائر الناس مال طبعه إليه وأحبه شاء أم أبى ، ومن اعتقد في رستم أنه كان موصوفاً بشجاعة زائدة على شجاعة سائر الناس أحبه شاء أم أبى . فعلنا أن الكمال محبوب لذاته وكمال الكمال لله تعالى ، فإله تعالى محبوب لذاته ، فمن لم يحصل في قلبه محبته كان ذلك لعدم علمه بكماله ، وأما التكميل فهو أن الجواد محبوب والجواد المطلق هو الله تعالى فالمحبوب المطلق هو الله تعالى ، والتبتل المطلق لا يمكن أن يحصل إلا إلى الله تعالى ، لأن الكمال المطلق له والتكميل المطلق منه ، فوجب أن لا يكون التبتل المطلق إلا إليه ، واعلم أن التبتل الحاصل إليه بسبب كونه مبدأ للتكميل مقدم على التبتل الحاصل إليه بسبب كونه كاملاً في ذاته ، لأن الإنسان في مبدأ السير يكون طالباً للحصنة فيكون تبتله إلى الله تعالى بسبب كونه مبدأ للتكميل والإحسان ، ثم في آخر السير يترقى عن طلب الحصنة كما بينا من أنه يصير طالباً للمعروف لا للعرفان ، فيكون تبتله في هذه الحالة بسبب كونه كاملاً فقوله (رب المشرق والمغرب) إشارة إلى الحالة الأولى التي هي أول درجات التبتلين وقوله (لا إله إلا هو) إشارة إلى الحالة الثانية التي هي منتهى درجات التبتلين ومنتهى أقدام الصديقين ، فسبحان من له تحت كل كلمة سر مخفي ، ثم وراء هاتين الحالتين مقام آخر ، وهو مقام التفويض ، وهو أن يرفع الاختيار من البين ، ويفوض الأمر بالكلية إليه ، فإن أراد الحق به أن يجعله متبتلاً رضى بالتبتل لا من حيث إنه هو ، بل من حيث إنه مراد الحق ، وإن أراد به عدم التبتل رضى بعدم التبتل لا من حيث إنه عدم التبتل ، بل من حيث إنه مراد الحق ، وههنا آخر الدرجات ، وقوله (فاتخذة وكيلا) إشارة إلى هذه الحالة ، فهذا ما جرى به القلم في تفسير في هذه الآية ، وفي الزوايا خبايا ، ومن أسرار هذه الآية بقايا (ولو أن ما في الأرض من شجرة أفلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (رب) فيه قراءتان (إحداهما) الرفع ، وفيه وجهان : (أحدهما) على المدح ، والتقدير هو رب المشرق ، فيكون خبر مبتدأ محذوف ، كقوله (بشر من ذلكم النار) وقوله (متاع قليل) أي تقلبهم متاع قليل . (والثاني) أن ترفعه بالابتداء ، وخبره الجملة التي هي ، لا إله إلا هو ، والعائد إليه الضمير المنفصل ، و (القراءة الثانية) الخفض ، وفيها وجهان : (الأول) على البدء من ربك (والثاني) قال ابن عباس : على القسم بإضمار حرف القسم ، كقولك : الله لأفعلن (وجوابه) لا إله إلا هو كما تقول والله لا أحد في الدار إلا زيد ، وقرأ ابن عباس رب المشارق والمغارب .

أما قوله (فاتخذة وكيلا) فالمعنى أنه لما ثبت أنه لا إله إلا هو لزمك أن تتخذة وكيلا ،

وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَجْرُهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١١﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي

النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١٢﴾

وأن تفرض كل أمورك إليه ، وههنا مقام عظيم ، فانه لما كانت معرفة أنه لا إله إلا هو توجب تفويض كل الأمور إليه دل هذا على أن من لا يفرض كل الأمور إليه ، فانه غير عالم بحقيقة لا إله إلا هو ، وتقريره أن كل ما سواه يمكن ومحدث ، وكل يمكن ومحدث ، فانه مالم ينته إلى الواجب لذاته لم يجب ، ولما كان الواجب لذاته واحداً كان جميع الممكنات مستندة إليه ، منتبهة إليه وهذا هو المراد من قوله (فاتخذة وكيلا) وقال بعضهم (وكيلا) أى كفيلا بما وعدك من النصر والإظهار .

قوله تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واجرم هجراً جميلاً ﴾ المعنى أنك لما اتخذتني وكيلا (فاصبر على ما يقولون) وفوض أمرهم إلى فإنتى لما كنت وكيلا لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك ، واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين كيفية معاملتهم مع الله ، وكيفية معاملتهم مع الخلق . والأول أهم من الثانى ، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول أتبعه بما يتعلق بالقسم الثانى ، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطاً للناس أو مجانباً عنهم فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيدائهم وإيحاءهم ، فانه إن كان يطمع منهم فى الخير والراحة لم يجد فيقع فى الصوم والأحزان ، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير ، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل ، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين ، والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم فى الأفعال مع المدارة والإغضاء وترك المكافأة ، ونظيره (فأعرض عنهم وعظهم ، وأعرض عن الجاهلين ، فأعرض عن تولى عن ذكرنا) قال المفسرون هذه الآية إنما نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال ، وقال آخرون بل ذلك هو الأخذ بإذن الله فيما يكون أذى إلى القبول فلا يرد النسخ فى مثله وهذا أصح .

قوله تعالى : ﴿ وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ .

اعلم أنه إذا اهتم إنسان بهمم وكان غيره قادراً على كفاية ذلك المهم على سبيل التمام والكمال ، قال له ذرنى أنا وذاك أى لا حاجة مع اهتمامى بذاك إلى شىء آخر . وهو كقوله (ذرنى ومن يكذب) وقوله (أولى النعمة) بالفتح التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرة يقال أنعم بك ونعمك عينا أى أسرع منك وهم صنديد قريش وكانوا أهل تنعم وترفة (ومهلهم قليلاً) فيه وجهان (أحدهما) المراد من القليل الحياة الدنيا (والثانى) المراد من القليل تلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر ، فإن الله أهلهم فى ذلك اليوم .

إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ

الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾

ثم ذكر كيفية عذابهم عند الله فقال ﴿إن لدينا أنكالا وجحيماً ، وطعاماً ذاغصة وعذاباً أليماً﴾
 أى إن لدينا فى الآخرة ما يضاعف تنعمهم فى الدنيا ، وذكر أموراً أربعة (أولها) قوله (أنكالا)
 واحدها نكل ونكل ، قال الواحدى : النكل القيد ، وقال صاحب الكشاف : النكل القيد الثقيل
 (وثانيها) قوله (وجحيماً) ولا حاجة به إلى التفسير (وثالثها) قوله (وطعاماً ذاغصة) الغصة
 ما ينقص به الإنسان ، وذلك الطعام هو الزقوم والضريع كما قال تعالى (ليس لهم طعام إلا من
 ضريع) قالوا إنه شوك كالعوسج يأخذ بالخلق يدخل ولا يخرج (ورابعها) قوله (وعذاباً أليماً)
 والمراد منه سائر أنواع العذاب ، واعلم أنه يمكن حمل هذه المراتب الأربعة على العقوبة الروحانية ،
 أما الإنكال فهى عبارة عن بقاء النفس فى قيد التعلقات الجسمانية واللذات البدنية ، فإنها فى الدنيا
 لما اكتسبت ملكة تلك المحبة والرغبة ، فبعد البدن يشتد الحنين ، مع أن آلات الكسب قد بطلت
 فصارت تلك كالأنكال والقيود المانعة له من التخلص إلى عالم الروح والصفاء ، ثم يتولد من تلك
 القيود الروحانية ، نيران روحانية ، فإن شدة ميلها إلى الأحوال البدنية وعدم تمكنها من الوصول
 إليها ، يوجب حرقة شديدة روحانية كمن تشتد رغبته فى وجدان شئ ، ثم إنه لا يجده فإنه يحترق
 قلبه عليه ، فذاك هو الجحيم ، ثم إنه يتجرع غصة الحرمان وألم الفراق ، فذاك هو المراد من قوله
 (وطعاماً ذاغصة) ثم إنه بسبب هذه الأحوال بقى محروماً عن تجلى نور الله والانخراط فى سلك
 المقدسين ، وذلك هو المراد من قوله (وعذاباً أليماً) والتكثير فى قوله (وعذاباً) يدل على أن هذا
 العذاب أشد مما تقدم وأكمل ، واعلم أنى لا أقول المراد بهذه الآيات ، هو ما ذكرته فقط ، بل
 أقول إنها تفيد حصول المراتب الأربعة الجسمانية ، وحصول المراتب الأربعة الروحانية ، ولا يمتنع
 حملها عليهما ، وإن كان اللفظ بالنسبة إلى المراتب الجسمانية حقيقة ، وبالنسبة إلى المراتب الروحانية
 مجازاً متعارفاً مشهوراً .

ثم إنه تعالى لما وصف العذاب ، أخبر أنه متى يكون ذلك فقال تعالى ﴿يوم ترجف الأرض
 والجبال ، وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الزجاج : يوم منصوب بقول إن لدينا أنكالا وجحيماً ، أى تنكل
 بالكافرين وتعذبهم يوم ترجف الأرض .

﴿المسألة الثانية﴾ الرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة ، والكثيب القطعة العظيمة من الرمل
 تجتمع محدودبة وجمعه الكشبان ، وفى كيفية الاشتقاق قولان : (أحدهما) أنه من كشب الشئ

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِئْسَ

إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول (والثاني) قال الليث : الكثيب ثر التراب ، أو الشيء يرمى به ، والفعل اللازم انكشب ينكشب انكشاباً ، وسمى الكثيب كثيباً ، لأن ترابه دقاق ، كأنه مكشوب مشور بعضه على بعض لرخاوته ، وقوله (مهيلاً) أى سائلاً قد أسيل ، يقال تراب مهيل ومهيرول أى مصبوب ومسيل . إلا أكثر في اللغة مهيل ، وهو مثل قواك مكيل ومكيول ، ومدين ومديون ، وذلك أن الياء تحذف منه الضمة فتسكن ، والواو أيضاً ساكنة ، فتحذف الواو لالتقاء الساكنين ذكره الفراء والزجاج ، وإذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى . يفرق تركيب أجزاء الجبال وينسبها نفساً ويجعلها كالعين المنفوش ، فعند ذلك تصير كالكثيب ، ثم إنه تعالى يجر كما على ما قال (ويوم نسير الجبال) وقال (وهى تمر مر السحاب) وقال (وسيرت الجبال) فعند ذلك تصير مهيلاً ، فإن قبل لم يقل وكانت الجبال كشباناً مهيلة ؟ قلنا لأنها بأسرها تجتمع فتصير كثيباً واحداً مهيلاً .

واعلم أنه تعالى لما خوف المكذبين (أولى النعمة) بأهوال القيامة خوفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا : فقال تعالى ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فوعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ واعلم أن الخطاب لأهل مكة والمقصود تهديدهم بالأخذ الويل ، وههنا سؤالات :

(السؤال الأول) لم نكر الرسول ثم عرف ؟ (الجواب) التقدير أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه ، فأخذناه أخذاً وبيلاً ، فأرسلنا إليكم أيضاً رسولا فعصيتم ذلك الرسول ، فلا بد وأن نأخذكم أخذاً وبيلاً .

(السؤال الثاني) هل يمكن التمسك بهذه الآية في إثبات أن القياس حجة ؟ (والجواب) نعم لأن الكلام إنما ينتظم لو قسنا إحدى صورتين على الأخرى ، فإن قيل هب أن القياس في هذه الصورة حجة ، فلم قائم إنه في سائر الصور حجة ، وحينئذ يحتاج إلى قياس سائر القياسات على هذا القياس ، فيكون ذلك إثباتاً للقياس بالقياس ، وإنه غير جائز ؟ قلنا لا تثبت سائر القياسات بالقياس على هذه الصورة ، وإلا لزم المحذور الذى ذكرتم ، بل وجه التمسك هو أن نقول : لولا أنه تمهد عندهم أن الشيتين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظنا يجب اشتراكهما في الحكم ، وإلا لما أورد هذا الكلام في هذه الصورة ، وذلك لأن احتمال الفرق المرجوح قائم ههنا فإن لقائل أن يقول لعلمهم إنما استوجبوا الأخذ الويل بخصوصية حالة العصيان في تلك الصورة . وتلك الخصوصية غير موجودة ههنا ، فلا يلزم حصول الأخذ الويل ههنا ، ثم إنه تعالى مع قيام هذا الاحتمال جزم

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءَ مَنفَطِرُهُ بِهِ كَانَ

وَعَدَهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

بالتسوية في الحكم: فهذا الجزم لا بد وأن يقال إنه كان مسبوقاً بتقرير أنه متى وقع الاشتراك في المناط الظاهر وجب الجزم بالاشتراك في الحكم، وإن مجرد احتمال الفرق بالأشياء التي لا يعلم كونها مناسبة للحكم لا يكون قادحاً في تلك التسوية، فلا معنى لقولنا القياس حجة إلا هذا.

(السؤال الثالث) لم ذكر في هذا الموضوع قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والامم؟ (الجواب) لأن أهل مكة ازدروا محمداً عليه الصلاة والسلام، واستخفوا به لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدري موسى لأنه رباه وولد فيما بينهم، وهو قوله (أم نربك فينا وليداً).

(السؤال الرابع) ما معنى كون الرسول شاهداً عليهم؟ (الجواب) من وجهين (الأول) أنه شاهد عليهم يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم (الثاني) المراد كونه مبيناً للحق في الدنيا، ومبيناً لبطلان ما هم عليه من الكفر، لأن الشاهد بشهادته يبين الحق، ولذلك وصفت بأنها بيّنة، فلا يتمتع أن يوصف عليه الصلاة والسلام بذلك من حيث إنه بين الحق، وهذا ؛ لأن الله تعالى قال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) أي عدولاً خياراً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فبين أنه يكون شاهداً عليهم في المستقبل، ولأن حمله على الشهادة في الآخرة حقيقة، وحمله على البيان مجاز، والحقيقة أولى.

(السؤال الخامس) ما معنى الويل؟ (الجواب) فيه وجهان (الأول) الويل، النقيض، الغليظ، ومنه قولهم: صار هذا وبالاً عليه، أي أفضى به إلى غاية المكروه، ومن هذا قيل للبطر العظيم: وابل، والويل: العصا الضخمة (الثاني) قال أبو زيد: الويل الذي لا يستمرأ، وماه ويل وخيم إذا كان غير مريء وكلاً مستوبل، إذا أدت عاقبته إلى مكروه، إذا عرفت هذا فنقول قوله (أخذناه أخذاً ويلاً) يعنى الفرق، قاله السكبي ومقاتل وقتادة.

ثم إنه تعالى عاد إلى تخويفهم بالقيامة مرة أخرى، فقال تعالى ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً ﴾ وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدى: في الآية تقديم وتأخير، أي فكيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم.

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر صاحب الكشاف في قوله (يوماً) وجوهاً (الأول) أنه مفعول به، أي فكيف تتقون أنفسكم يوم القيامة وهو له إن بقيتم على الكفر (والثاني) أن يكون ظرفاً، أي

وكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا (والثالث) أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم ، أى فكيف تتقون الله ، تخشونه إن جحدتم يوم القيامة ، والجزاء لأن تقوى الله لامعنى لها إلا خوف عقابه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى ذكر من هول ذلك اليوم أمرين (الأول) قوله (يجعل الولدان شيباً) وفيه وجهان (الأول) أنه مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان ، إذا تفاقمت على الإنسان ، أسرع فيه الشيب ، لأن كثرة الهموم توجب انقصار الروح إلى داخل القلب ، وذلك الانقصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها ، يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج ، وذلك يوجب امتلاء البلغم على الأخلاط ، وذلك يوجب ايضاض الشعر ، فلما رأوا أن حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم ، جعلوا الشيب كناية عن الشدة والحمة ، وليس المراد أن هول ذلك اليوم (يجعل الولدان شيباً) حقيقة ، لأن إيصال الألم والخوف إلى الصبيان غير جائز يوم القيامة (الثاني) يجوز أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب ، ولقد سألت بعض الأدباء عن قول المعري :

وظلم يملأ الفودين شيباً

وقال كيف يفضل هذا التشبيه الذي في القرآن على بيت المعري ؟ فقلت من وجوه (الأول) أن امتلاء الفودين من الشيب ليس بعجيب ، أما صيرورة الولدان شيباً فهو عجيب كأن شدة ذلك اليوم تنقلهم من سن الطفولية إلى سن الشيخوخة ، من غير أن يمروا فيما بين الحالتين بسن الشباب ، وهذا هو المبالغة العظيمة في وصف اليوم بالشدة (وثانيها) أن امتلاء الفودين من الشيب معناه ايضاض الشعر ، وقد يبيض الشعر لعدة مع أن قوة الشباب تكون باقية فهذا ليس فيه مبالغة ، وأما الآية فإنها تدل على صيرورة الولدان شيوخاً في الضعف والنحافة وعدم طراوة الوجه ، وذلك نهاية في شدة ذلك اليوم (وثالثها) أن امتلاء الفودين من الشيب ، ليس فيه مبالغة لأن جانبي الرأس موضع للرطوبات الكثيرة البلغمية ، ولهذا السبب ، فإن الشيب إنما يحدث أولاً في الصدغين ، وبعده في سائر جوانب الرأس ، فحصول الشيب في الفودين ليس بمبالغة إنما المبالغة هو استيلاء الشيب على جميع أجزاء الرأس بل على جميع أجزاء البدن كما هو مذكور في الآية ، والله أعلم .

﴿ النوع الثاني ﴾ من أهوال يوم القيامة قوله (السماء منفطر به) وهذا وصف لليوم بالشدة أيضاً ، وأن السماء على عظمها وقوتها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ، ونظيره قوله (إذا السماء انفطرت) وفيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يقل منفطرة ؟ (الجواب) من وجوه . (أولها) روى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء ، إنما قال (السماء منفطر) ولم يقل منفطرة لأن مجازها مجاز السقف ، تقول هذا سماء البيت (وثانيها) قال الفراء السماء تؤنث وتذكر ، وهي ههنا في وجوه التذكير

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

وأشدد شعراً : فلورفع السماء إليه قرماً لحقنا بالنجوم مع السحاب
(وثالثها) أن تأنيث السماء ليس بحقيق ، وما كان كذلك جاز تذكيره .
قال الشاعر :
والعين بالإمد الخيري مكحول
وقال الأعشى :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

(ورابعها) أن يكون السماء ذات انفطار فيكون من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر ،
وإعجاز نخل منقعر ، وكقولهم امرأة مرضع ، أى ذات رضاع .
(السؤال الثاني) ما معنى (منفطر به) ؟ (الجواب) من وجوه : (أحدها) قال الفراء
المعنى منفطر فيه (وثانيها) أن الباء في به مثلها في قولك فطرت العود بالقدم فانفطر به ، يعنى أنها
تنفطر لشدة ذلك اليوم وهوله ، كما ينفطر الشيء بما ينفطر به (وثالثها) يجوز أن يراد السماء مثقلة
به إنقالا يؤدي إلى انفطارها لعظم تلك الواقعة عليها وخشيتها منها ، كقوله (نقلت في السموات
والأرض) .

أما قوله (كان وعده مفعولاً) فاعلم أن الضمير في قوله (وعده) يحتمل أن يكون عائداً إلى
المفعول وأن يكون عائداً إلى الفاعل ، أما (الأول) فإن يكون المعنى وعد ذلك اليوم مفعول
أى الوعد المضاف إلى ذلك اليوم واجب الوقوع ، لأن حكمة الله تعالى وعلمه يقتضيان
إيقاعه ، وأما (الثاني) فإن يكون المعنى وعد الله واقع لا محالة لأنه تعالى منزه عن الكذب .
وهنا وإن لم يجر ذكر الله تعالى ولكنه حسن عود الضمير إليه لكونه معلوماً ، واعلم أنه تعالى بدأ
في أول السورة بشرح أحوال السعداء ، ومعلوم أن أحوالهم قسمان (أحدهما) ما يتعلق بالدين
والطاعة للدولى فقدم ذلك (والثاني) ما يتعلق بالمعاملة مع الخلق وبين ذلك بقوله (واصبر على
ما يقولون واحجزهم حجراً جبيلاً) وأما الأشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الإجمال ، وهو قوله تعالى
(وذرنى والمكذبين) ثم ذكر بعده أنواع عذاب الآخرة ثم ذكر بعده عذاب الدنيا وهو الأخذ
الويل في الدنيا ، ثم وصف بعده شدة يوم القيامة ، فعند هذا تم البيان بالكتابة . فلا جرم ختم ذلك
الكلام بقوله :

﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أى هذه الآيات تذكرات مشتملة على أنواع
الهداية والإرشاد (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) واتخاذ السبيل عبارة عن الاشتغال بالطاعة
والاحتراز عن المعصية .

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ
مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ تُحِصُواهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا
تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

قوله تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين
معك ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من قوله (أدنى من ثلثي الليل) أقل منهما ، وإنما استعير الأدنى
وهو الأقرب للأقل ، لأن المسافة بين الشيتين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ، وإذا بعدت
كثر ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ نصفه وثلثه بالنصب ، والمعنى أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف
وقرئ ونصفه وثلثه بالجر أى تقوم أقل من الثلثين والنصف والثلث ، لكننا بينا في تفسير قوله
(قم الليل إلا قليلا) أنه لا يلزم من هذا أن يقال إنه عليه الصلاة والسلام كان تاركا للواجب
قوله تعالى : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ وهم أصحابك يقومون من الليل هذا المقدار المذكور .
قوله تعالى : ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ يعنى أن العالم بمقادير أجزاء الليل والنهار ليس إلا
الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الضمير في أن لن تحصوه عائد إلى مصدر مقدر أى علم أنه لا يمكنكم
إحصاء مقدار كل واحد من أجزاء الليل والنهار على الحقيقة ، ولا يمكنكم أيضاً تحصيل تلك المقادير
على سبيل الطعن والاحتياط إلا مع المشقة التامة ، قال مقاتل : كان الرجل يصلّى الليل كله مخافة
أن لا يصيب ما أمر به من قيام ما فرض عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج بعضهم على تكليف ما لا يطلق بأنه تعالى قال (لن تحصوه) أى
لن تطيقوه ، ثم إنه كان قد كلفهم به ، ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد صعوبته لا أنهم لا يقدر
عليه ، كقول القائل ما أطيق أن أنظر إلى فلان إذا استثقل النظر إليه .

قوله تعالى : ﴿ فتاب عليكم ﴾ هو عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر كقوله تعالى
(فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشرورهن) والمعنى أنه رفع التبعة عنكم في ترك هذا العمل كما رفع
التبعة عن التائب .

قوله تعالى : ﴿ فاقروا ما تيسر من القرآن ﴾ وفيه قولان : (الأول) أن المراد من هذه القراءة

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَعَآخِرُونَ^١ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ وَعَآخِرُونَ^٢ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^٣ فَأَقْرَرُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا^٤
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

الصلاة لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة ، فأطلق اسم الجزء على الكل ، أي فصلوا ما تيسر عليكم ، ثم
هنا قولان : (الأول) قال الحسن : يعنى في صلاة المغرب والعشاء ، وقال آخرون بل نسخ
وجوب ذلك التهجيد واكتفى بما تيسر منه ، ثم نسخ ذلك أيضاً بالصلوات الخمس (القول الثاني)
أن المراد من قوله (فاقروا ما تيسر من القرآن) قراءة القرآن بعينها والغرض منه دراسة القرآن
ليحصل الأمن من النسيان قيل يقرأ مائة آية ، وقيل من قرأ مائة آية كتب من القانتين ، وقيل
خمسين آية ومنهم من قال بل السورة القصيرة كافية ، لأن إسقاط التهجيد إنما كان دفعا للحر ، وفي
القراءة الكثيرة حرج فلا يمكن اعتبارها . وهنا بحث آخر وهو ماروى عن ابن عباس أنه قال
سقط عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل وصارت تلوعاً وبقي ذلك فرضاً على
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه تعالى ذكر الحكمة في هذا النسخ فقال تعالى ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون
يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه
وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾

واعلم أن تقدير هذه الآية كأنه قيل لم نسخ الله ذلك ؟ فقال لأنه علم كذا وكذا والمعنى لتعذر
القيام على المرضى والضعاف في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله ، أما المرضى فانهم
لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم ، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشغولون في النهار بالأعمال
الشاقة ، فلولا يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم ، وهذا السبب ما كان موجوداً في حق النبي
صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى (إن لك في النهار سبجاً طويلاً) فلا جرم ما صار وجوب التهجيد
منسوخاً في حقه . ومن لطائف هذه الآية أنه تعالى سوى بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحلال
عن ابن مسعود « أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر
يومه كان عند الله من الشهداء » ثم أعاد مرة أخرى قوله (فاقروا ما تيسر منه) وذلك للتأكيد ثم قال
(وأقيموا الصلاة) يعنى المفروضة (وآتوا الزكاة) أى الواجبة وقيل زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة
زكاة وإنما وجبت بعد ذلك ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنياً .
قوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ فيه ثلاثة أوجه (أحدها) أنه يريد سائر الصدقات

وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا
وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

(وثانيها) يريد أداء الزكاة على أحسن وجه ، وهو إخراجها من أطيب الأموال وأكثرها نفعاً للفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق (وثالثها) يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال .

ثم ذكر تعالى الحكمة في إعطاء المال فقال ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن غفور رحيم ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس : تجدوه عند الله خيراً وأعظم أجراً من الذي تؤخره إلى وصيتك عند الموت ، وقال الزجاج : وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً لكم من متاع الدنيا ، والقول ما قاله ابن عباس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ معنى الآية : وما تقدموا لأنفسكم من خير فإنكم تجدوه عند الله خيراً وأعظم أجراً ، إلا أنه قال هو خيراً للتأكيد والمبالغة ، وقرأ أبو السمال هو خير وأعظم أجراً بالرفع على الابتداء والخبر ، ثم قال (واستغفروا الله) لذنوبكم والتقصيرات الصادرة منكم خاصة في قيام الليل (إن الله غفور) لذنوب المؤمنين (رحيم) بهم ، وفي الغفور قولان (أحدهما) أنه غفور لجميع الذنوب ، وهو قول مقاتل (والثاني) أنه غفور لمن يصر على الذنب ، احتج مقاتل على قوله بوجهين (الأول) أن قوله (غفور رحيم) يتناول التائب والمصر ، بدليل أنه يصح استثناء كل واحد منهما وحده عنه وحكم الاستثناء إخراج مالولاه لدخل (والثاني) أن غفران التائب واجب عند الخصم ولا يحصل المدح بأداء الواجب ، والغرض من الآية تقرير المدح فوجب حمله على الكل تحقيقاً للمدح ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين .

(٧٤) سُورَةُ الْمُدَّثِرِ
وَأَيُّهَا سُنَّتِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِرُ ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المدثر ، أصله المتدثر ، وهو الذى يتدثر بثيابه لينام ، أو يستدفئ ، يقال تدثر بثوبه ، والدثار اسم لما يتدثر به ، ثم أدغمت التاء فى الدال لتقارب مخرجهما .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أجمعوا على أن المدثر هو رسول الله ﷺ ، واختلفوا فى أنه عليه الصلاة والسلام لم سمي مدثراً ، فهم من أجراه على ظاهره وهو أنه كان متدثراً بثوبه ، ومنهم من ترك هذا الظاهر ، أما على الوجه الأول فاختلفوا فى أنه لآى سبب تدثر بثوبه على وجوه (أحدها) أن هذا من أوائل ما نزل من القرآن ، روى جابر بن عبد الله أنه عليه الصلاة والسلام قال « كنت على جبل حراء ، فنوديت يا محمد إنك رسول الله ، فنظرت عن يميني ويساري ، فلم أر شيئاً ، فنظرت فوقى ، فرأيت الملك قاعداً على عرش بين السماء والأرض ، فخفت ورجعت إلى خديجة ، فقلت دثرونى دثرونى ، وصبوا على ماء بارداً ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله (يا أيها المدثر) » (وثانيها) أن النفر الذين آذوا رسول الله ، وهم أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل اجتمعوا وقالوا : إن وفود العرب يجتمعون فى أيام الحج ويسألوننا عن أمر محمد ، فكل واحد منا يجيب بجواب آخر ، فواحد يقول مجنون ، وآخر يقول كاهن ، وآخر يقول شاعر ، فالعرب يستدلون باختلاف الأجوبة على كون هذه الأجوبة باطلة ، فعمالوا يجتمع على تسمية محمد باسم واحد ، فقال واحد إنه شاعر ، فقال الوليد : سمعت كلام عبيد بن الأبرص ، وكلام أمية بن أبى الصلت ، وكلامه ما يشبه كلامهما ، وقال آخر كاهن ، قال الوليد ومن الكاهن ؟ قالوا الذى يصدق تارة ويكذب أخرى ، قال الوليد ما كذب محمد قط ، فقال آخر إنه مجنون فقال الوليد ومن يكون المجنون ؟ قالوا يخيف الناس ، فقال الوليد ما أخيف بمحمد أحد قط ، ثم قام الوليد وانصرف إلى بيته ، فقال الناس صبا الوليد بن المغيرة ،

قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾

فدخل عليه أبو جهل ، وقال مالك يا أبا عبد شمس ؟ هذه قریش تجمع لك شيئاً ، زعموا أنك احتججت وصبات ، فقال الوليد مالى إليه حاجة ، ولكنى فكرت فى محمد . فقلت إنه ساحر ، لأن الساحر هو الذى يفرق بين الأب وابنه ، وبين الأخوين ، وبين المرأة وزوجها ، ثم إنهم أجمعوا على تلقب محمد عليه الصلاة والسلام بهذا اللقب ، ثم إنهم خرجوا فصرخوا بمكته والناس مجتمعون ، فقالوا إن محمداً ساحر ، فوقعت الضجة فى الناس . أن محمداً ساحر ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اشتد عليه ، ورجع إلى بيته محزوناً فتدثر بثوبه ، فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر ، قم فأنذر) (وثالثها) أنه عليه الصلاة والسلام كان نائماً متدثراً بثيابه ، فجاءه جبريل عليه السلام وأيقظه ، وقال (يا أيها المدثر ، قم فأنذر) كأنه قال له اترك التدثر بالثياب والنوم ، واشتغل بهذا المنصب الذى نصبك الله له .

(القول الثانى) أنه ليس المراد من المدثر ، المتدثر بالثياب ، وعلى هذا الاحتمال فيه وجوه (أحدها) أن المراد كونه متدثراً بدثار النبوة والرسالة من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم ، ويقال تلبس فلان بأمر كذا ، فالمراد (يا أيها المدثر) بدثار النبوة (قم فأنذر) (وثانيها) أن المدثر بالثوب يكون كالخنثى فيه ، وأنه عليه الصلاة والسلام فى جبل حرام كان كالخنثى من الناس ، فكأنه قيل : يا أيها المدثر بدثار الخنول والاختفاء ، قم بهذا الأمر واخرج من زاوية الخنول ، واشتغل بإنذار الخلق ، والدعوة إلى معرفة الحق (وثالثها) أنه تعالى جعله رحمة للعالمين ، فكأنه قيل له : يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم ، والخلق الكريم ، والرحمة الكاملة قم فأنذر عذاب ربك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ عن عكرمة أنه قرئ على لفظ اسم المفعول من دثره ، كأنه قيل له : دثرت هذا الأمر وعصيت به ، وقد سبق نظيره فى المزمل .

قوله تعالى : ﴿ قم فأنذر ﴾ فى قوله (قم) وجهان (أحدهما) قم من مضجعتك (والثانى) قم قيام عزم وتصميم ، وفى قوله (فأنذر) وجهان (أحدهما) حذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا . وقال ابن عباس : قم نذيراً للبشر ، احتج القائلون بالقول الأول بقوله تعالى (وأنذر) واحتج القائلون بالقول الثانى بقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) وههنا قول ثالث ، وهو أن المراد فاشتغل بفعل الإنذار ، كأنه تعالى يقول له تهباً لهذه الحرفة ، فإنه فرق بين أن يقال تعلم صنعة المناظرة ، وبين أن يقال : ناظر زيدا .

قوله تعالى : ﴿ وربك فكبر ﴾ فيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تفسير التكبير وجوهاً (أحدها) قال الكلبى : عظم ربك

وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ ﴿٤﴾

نما يقوله عبدة الأوثان (وثانها) قال مقاتل : هو أن يقول الله أكبر ، روى أنه « لما نزلت هذه الآية قام النبي ﷺ وقال : الله أكبر كبيراً ، فكبرت خديجة وفرحت ، وعلت أنه أوحى إليه ، (وثالثها) المراد منه التكبير في الصلوات ، فإن قيل هذه السورة نزلت في أول البعث ، ما كانت الصلاة واجبة في ذلك الوقت ؟ قلنا لا يبعد أنه كانت له عليه السلام صلوات تطوعية ، فأمر أن يكبر ربه فيها (ورابعها) يحتمل عندي أن يكون المراد أنه لما قيل له (قم فأندِر) قيل بعد ذلك (وربك فكبر) عن اللغو والعبث .

واعلم أنه ما أمرك بهذا الإنذار إلا للحكمة بالغة ، ومهمات عظيمة ، لا يجوز لك الإخلال بها ، فقوله (وربك) كالتأكيد في تقرير قوله : (قم فأندِر) (وخامسها) عندي فيه وجه آخر وهو أنه لما أمره بالإنذار ، فكان سائلاً سأل وقال : بماذا يتندر ؟ فقال أن يكبر ربه عن الشركاء والأضداد والأنداد ومشابهة الممكنات والمحدثات ، ونظير قوله في سورة النحل (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وهذا تنبيه على أن الدعوة إلى معرفة الله ومعرفة تزيهه مقدمة على سائر أنواع الدعوات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفاء في قوله (فكبر) ذكرها فيه وجوهاً (أحدها) قال أبو الفتح الموصلي : يقال زيداً فاضرب ، وعمراً فاشكر ، وتقديره زيداً اضرب وعمراً اشكر ، فعنده أن الفاء زائدة (وثانها) قال الزجاج : دخلت الفاء لإفادة معنى الجزائية ، والمعنى : قم فكبر ربك وكذلك ما بعده على هذا التأويل (وثالثها) قال صاحب الكشاف : الفاء لإفادة معنى الشرط ، والتقدير : وأى شيء كان فلا تدع تكبيره .

قوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ .

اعلم أن تفسير هذه الآية يقع على أربعة أوجه (أحدها) أن يترك لفظ الثياب والتطهير على ظاهره (والثاني) أن يترك لفظ الثياب على حقيقته ، ويحمل لفظ التطهير على مجازه (الثالث) أن يحمل لفظ الثياب على مجازه ، ويترك لفظ التطهير على حقيقته (والرابع) أن يحمل اللفظان على المجاز (أما الاحتمال الأول) وهو أن يترك لفظ الثياب ، ولفظ التطهير على حقيقته ، فهو أن نقول المراد منه أنه عليه الصلاة والسلام ، أمر بتطهير ثيابه من الأنجاس والأقذار ، وعلى هذا التقدير يظهر في الآية ثلاث احتمالات (أحدها) قال الشافعي : المقصود منه الإعلام بأن الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس (وثانها) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان المشركون ما كانوا يصونون ثيابهم عن النجاسات ، فأمره الله تعالى بأن يصون ثيابه عن النجاسات (وثالثها) روى أنهم ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلى شاة ، فشق عليه ورجع إلى

بيته حزناً وتدثر بثيابه ، فقيل (يا أيها المدثر ، قم فأندر) ولا تمنمك تلك السفاهة عن الإنذار (وربك فكبر) عن أن لا ينتقم منهم (وثيابك فطهر) عن تلك النجاسات والقاذورات ، (الاحتمال الثاني) أن يبقى لفظ الثياب على حقيقته ، ويجعل لفظ التطهير على مجازه ، فهنا قولان (الأول) أن المراد من قوله (فطهر) أى فقصر ، وذلك لأن العرب كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم فكانت ثيابهم تتنجس ، ولأن تطويل الذيل إنما يفعل للخيل والكبير ، فهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك (القول الثانى) (وثيابك فطهر) أى ينبغى أن تكون الثياب التى تلبسها مطهرة عن أن تكون مغسوبة أو محرمة ، بل تكون مكتسبة من وجه حلال ، (الاحتمال الثالث) أن يبقى لفظ التطهير على حقيقته ، ويحمل لفظ الثياب على مجازه ، وذلك أن يحمل لفظ الثياب على الجسد وذلك لأن العرب ما كانوا يتنظفون وقت الاستنجاء ، فأمر عليه الصلاة والسلام بذلك التنظيف وقد يجعل لفظ الثياب كناية عن النفس .

قال عنتره : فشككت بالريح الأصم ثيابه (أى نفسه)
ولهذا قال : ليس الكريم على القنا بمحرم

(الاحتمال الرابع) وهو أن يحمل لفظ الثياب ، ولفظ التطهير على المجاز ، وذكروا على هذا الاحتمال وجوهاً (الأول) وهو قول أكثر المفسرين : وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة وعن الحسن (وثيابك فطهر) قال وخلقك فحسن ، قال القفال : وهذا يحتمل وجوهاً (أحدها) أن الكفار لما لقبوه بالساحر شق ذلك عليه جداً ، حتى رجع إلى بيته وتدثر بثيابه ، وكان ذلك إظهار جزع وقلّة صبر يقتضيه سوء الخلق ، فقيل له (قم فأندر) . ولا تحملك سفاهتهم على ترك إنذارهم بل حسن خلقك (والثانى) أنه زجر عن التحلق بأخلاقهم ، فقيل له (طهر ثيابك) أى قلبك عن أخلاقهم ، فى الافتراء والتقول والكذب وقطع الرحم (والثالث) فطهر نفسك وقلبك عن أن تعزم على الانتقام منهم والإساءة إليهم ، ثم إذا فسرنا الآية بهذا الوجه ، فى كيفية اتصالها بما قبلها وجهان (الأول) أن يقال إن الله تعالى لما ناداه فى أول السورة ، فقال (يا أيها المدثر) وكان التدثر لباساً ، والدثار من الثياب ، قيل طهر ثيابك التى أنت متدثر بها عن أن تلبسها على هذا التفكير والجزع والاضجر من افتراء المشركين (الوجه الثانى) أن يفسر المدثر بكونه متدثراً بالنبوة ، كأنه قيل : يا أيها المتدثر بالنبوة طهر ما تدثرت به عن الجزع وقلّة الصبر ، والغضب والحقد ، فإن ذلك لا يليق بهذا الدثار ، ثم أوضح ذلك بقوله (ولربك فاصبر) واعلم أن حمل المدثر على المنتصف ببعض الصفات جائز ، يقال فلان طاهر الجيب نقي الذيل ، إذا وصفوه بالنقاء من المعاييب ، ويقال فلان دنس الثياب إذا كان موصوفاً بالأخلاق الذميمة ، قال الشاعر :

فلا أب وابناً مثل مروان وابنه إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

والسبب فى حسن هذه الكناية وجهان (الأول) أن الثوب كالشئ الملازم للإنسان ، فهذا

وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٦﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٧﴾

السبب جعلوا الثواب كناية عن الإنسان ، يقال المجد في ثوبه والعفة في إزاره (والثاني) أن الغالب أن من ظهر باطنه ، فإنه يظهر ظاهره (الوجه الثاني) في تأويل الآية أن قوله (وثيابك فطهر) أمر له بالاحتراز عن الآثام والأوزار التي كان يقدم عليها قبل النبوة ، وهذا على تأويل من حمل قوله (ووضعتنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك) على أيام الجاهلية (الوجه الثالث) في تأويل الآية قال محمد بن عرفة النحوي معناه : نساءك طهرهن ، وقد يكنى عن النساء بالثياب ، قال تعالى (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وهذا التأويل بعيد ، لأن على هذا الوجه لا يحسن اتصال الآية بما قبلها .
قوله تعالى : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في الرجز وجوها (الأول) قال العتبي : الرجز العذاب قال الله تعالى (لئن كشفت عنا الرجز) أي العذاب ثم سمي كيد الشيطان رجزاً لأنه سبب للعذاب ، وسميت الأصنام رجزاً لهذا المعنى أيضاً ، فعلى هذا القول تكون الآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي ، ثم على هذا القول احتمالان (أحدهما) أن قوله (والرجز فاهجر) يعني كل ما يؤدي إلى الرجز فاهجر ، والتقدير وذا الزجر فاهجر أي ذا العذاب فيكون المضاف محذوفاً (والثاني) أنه سمي إلى ما يؤدي إلى العذاب عذاباً تسمية للشئ ، باسم ما يجاوره ويتصل به (القول الثاني) أن الرجز اسم للقيح المستقذر وهو معنى الرجس ، فقوله (والرجز فاهجر) كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل له اهجرج الفجاء والسفه وكل شئ قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز ، وهذا يشاكل تأويل من فسر قوله (وثيابك فطهر) على تحسين الخلق وتطهير النفس عن المعاصي والقبايح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من جوز المعاصي على الأنبياء بهذه الآية ، قال لولا أنه كان مشتغلاً بها وإلا لما زجر عنها بقوله (والرجز فاهجر) والجواب المراد منه الأمر بالمداومة على ذلك الهجران ، كما أن المسلم إذا قال اهدنا فليس معناه أنا لسنا على الهداية فاهدنا ، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية ، فكذا ههنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص والرجز بضم الراء في هذه السورة وفي سائر القرآن بكسر الراء ، وقرأ الباقون وعاصم في رواية أبي بكر بالكسر وقرأ يعقوب بالضم ، ثم قال الفراء هما لغتان والمعنى واحد ، وفي كتاب الخليل الرجز بضم الراء عبادة الأوثان وبكسر الراء العذاب ، ووسواس الشيطان أيضاً رجز ، وقال أبو عبيدة أفشى اللغتين وأكثرهما الكسر .

قوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القراءة المشهورة تستكثر برفع الراء وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن

يكون التقدير ولا تمنن لتستكثر فتتزع اللام فيرتفع (وثانيها) أن يكون التقدير لا تمنن أن تستكثر ثم تحذف أن الناصبة فتسلم الكلمة من الناصب والجازم فترتفع ويكون مجاز الكلام لا تعط لأن تستكثر (وثالثها) أنه حال متوقعة أي لا تمنن مقدراً أن تستكثر قال أبو علي الفارسي هو مثل قولك مررت برجل معه صقر صائداً به غداً أي مقدراً للصيد فكذا ههنا المعنى مقدراً الاستكثار ، قال ويجوز أن يحكى به حالا آتية ، إذا عرفت هذا فنقول ، ذكروا في تفسير الآية وجوهاً (أحدها) أنه تعالى أمره قبل هذه الآية ، بأربعة أشياء إنذار القوم ، وتكبير الرب ، وتطهير الثياب ، وهجر الرجز ، ثم قال (ولا تمنن تستكثر) أي لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة ، كالمستكثر لما تفعله ، بل اصبر على ذلك كله لوجه ربك متقرباً بذلك إليه غير ممن به عليه . قال الحسن ، لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها (وثانيها) لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين ، والوحي كالمستكثر لذلك الإناعام ، فإنك إنما فعلت ذلك بأمر الله ، فلا منه لك عليهم ، ولهذا قال (ولربك فاصبر) ، (وثالثها) لا تمنن عليهم بذنوبك فتستكثر ، أي لتأخذ منهم على ذلك أجراً تستكثر به مالك (ورابعها) لا تمنن أي لا تضعف من قولهم جبل منين أي ضعيف ، يقال منه السير أي أضعفة . والتقدير فلا تضعف أن تستكثر من هذه الطاعات الأربعة التي أمرت بها قبل هذه الآية ، ومن ذهب إلى هذا قال ، هو مثل قوله (أفغير الله تأمروني أعبد) أي أن أعبد فحذفت أن وذكر الفراء أن في قراءة عبد الله (ولا تمنن تستكثر) وهذا يشهد لهذا التأويل ، وهذا القول اختيار مجاهد (وخامسها) وهو قول أكثر المفسرين أن معنى قوله (ولا تمنن) أي لا تعط يقال منذ فلاناً كذا أي أعطيته ، قال (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك) أي فأعط ، أو أمسك وأصله أن من أعطى فقد من ، فسميت العطية بالمن على سبيل الاستعارة ، فالعنى ولا تعط مالك لأجل أن تأخذ أكثر منه ، وعلى هذا التأويل سؤالات :

(السؤال الأول) ما الحكمة في أن الله تعالى منعه من هذا العمل ؟ (الجواب) الحكمة فيه من وجوه (الأول) لأجل أن تكون عطائاه لأجل الله لا لأجل طلب الدنيا ، فإنه نهى عن طلب الدنيا في قوله (ولا تمنن عنيك) وذلك لأن طلب الدنيا لا بد وأن تكون الدنيا عنده عزيزة ، ومن كان كذلك لم يصلح لأداء الرسالة (الثاني) أن من أعطى غيره القليل من الدنيا ليأخذ الكثير لا بد وأن يتواضع لذلك الغير ويتضرع له ، وذلك لا يليق بمنصب النبوة ، لأنه يوجب دناءة الآخذ ، ولهذا السبب حرمت الصدقات عليه ، وتغيير المأخوذ منه ، ولهذا قال (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون) .

(السؤال الثاني) هذا النهي مختص بالرسول عليه الصلاة والسلام ، أم يتناول الأمة ؟ (الجواب) ظاهر اللفظ لا يفيد العموم وقريئة الحال لا تقتضي العموم لأنه عليه الصلاة والسلام إنما نهى عن ذلك تزيهاً لمنصب النبوة ، وهذا المعنى غير موجود في الأمة ، ومن الناس من قال

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

هذا المعنى في حق الأمة هو الرياء ، والله تعالى منع الكل من ذلك .
 ﴿ السؤال الثالث ﴾ بتقدير أن يكون هذا النهى مختصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو نهى تحريم أو نهى تنزيه ؟ (والجواب) ظاهر النهى للتحريم (الوجه السادس) في تأويل الآية قال القفال يحتمل أن يكون المقصد من الآية أن يحرم على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطى لأحد شيئاً لطلب عوض سواء كان ذلك العوض زائداً أو ناقصاً أو مساوياً ، ويكون معنى قوله (تستكثر) أى طالباً للكثرة كارهاً أن ينقص المال بسبب العطاء ، فيكون الاستكثار ههنا عبارة عن طلب العوض كيف كان ، وإنما حسنت هذه الاستعارة لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء ، فسمى طلب الثواب استكثاراً حملاً للشيء على أغلب أحواله ، وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تزوج ولها ولد للحاجة إلى من يرثي ولدها فسمى الولد ريبياً ، ثم اتسع الأمر فسمى ريبياً وإن كان حين تزوج أمه كبيراً ، ومن ذهب إلى هذا القول قال السيب فيه أن يصير عطاء النبي صلى الله عليه وسلم خالياً عن انتظار العوض والتفات الناس إليه ، فيكون ذلك خالصاً مخلصاً لوجه الله تعالى (الوجه السابع) أن يكون المعنى ولا تمن على الناس بما تنعم عليهم وتعطيهم استكثاراً منك لتلك العطية ، بل ينبغي أن تستقلها وتستحقرها أو تكون كالمتعذر من ذلك المنعم عليه في ذلك الإنعام ، فإن الدنيا بأسرها قليلة ، فكيف ذلك القدر الذي هو قليل في غاية القلة بالنسبة إلى الدنيا ، وهذه الوجوه الثلاثة الأخيرة كالمرتبة (فالوجه الأول) معناه كونه عليه الصلاة والسلام ممنوعاً من طلب الزيادة في العوض (والوجه الثاني) معناه كونه ممنوعاً عن طلب مطلق العوض زائداً كان أو مساوياً أو ناقصاً (والوجه الثالث) معناه أن يعطى وينسب نفسه إلى التقصير ويجعل نفسه تحت منة المنعم عليه حيث قبل منه ذلك الإنعام (الوجه الثامن) معناه إذا أعطيت شيئاً فلا ينبغي أن تمن عليه بسبب أنك تستكثر تلك العطية ، فإن المن محبط لثواب العمل ، قال تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن (تستكثر) بالجزم وأكثر المحققين أبوا هذه القراءة ، ومنهم من قبلها وذكروا في صحتها ثلاثة أوجه : (أحدها) كأنه قيل لا تمن لا تستكثر (وثانيها) أن يكون أراد تستكثر فأسكن الراء لثقل الضمة مع كثرة الحركات ، كما حكاه أبو زيد في قوله تعالى (بلى ورسلنا لديهم يكتبون) يأسكان اللام (وثالثها) أن يعتبر حال الوقف ، وقرأ الأعمش (تستكثر) بالنصب باضمار أن كقوله :

ألا أي هذا الزاجرى احضر الوغى [وأن أشهد للذات هل أنت مخلدى]

ويؤيده قراءة ابن مسعود : ولا تمن أن تستكثر .

قوله تعالى : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ فيه وجوه : (أحدها) إذا أعطيت المال فاصبر على ترك

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾

المن والاستكثار أى أترك هذا الأمر لأجل مرضاة ربك (وثانيها) إذا أعطيت المال فلا تطلب العوض ، وليكن هذا الترك لأجل ربك (وثالثها) أنا أمرناك فى أول هذه السورة بأشياء ونهيناك عن أشياء فاشتغل بتلك الأفعال والتروك لأجل أمر ربك ، فكان ما قبل هذه الآية تكاليف بالأفعال والتروك ، وفى هذه الآية بين ما لأجله يجب أن يوتى بتلك الأفعال والتروك وهو طلب رضا الرب (ورابعها) أنا ذكرنا أن الكفار لما اجتمعوا وبخثوا عن حال محمد ﷺ قام الوليد ودخل داره فقال القوم إن الوليد قد صبا فدخل عليه أبو جهل ، وقال إن قريشاً جمعوا لك مالا حتى لا تترك دين آبائك ، فهو لأجل ذلك المال بقى على كفره ، فقيل لمحمد إنه بقى على دينه الباطل لأجل المال ، وأما أنت فاصبر على دينك الحق لأجل رضا الحق لا لشيء غيره (وخامسها) أن هذا تمييز بالمشركين كأنه قيل له (وربك فكبير) لا الاوثان (وثياك فظهور) ولا تكن كالمشركين نجس البدن والثياب (والرجز فاهجر) ولا تقربه كما تقربه الكفار (ولا تمنن تستكثر) كما أراد الكفار أن يعطوا الوليد قدراً من المال وكانوا يستكثرون ذلك القليل (ولربك فاصبر) على هذه الطاعات لا للاغراض العاجلة من المال والجاه .

قوله تعالى : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ اعلم أنه تعالى لما تم ما يتعلق بإرشاد قدوة الأنبياء وهو محمد ﷺ ، عدل عنه إلى شرح وعيد الأشقياء وهو هذه الآية ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفاء فى قوله (فإذا نقر) للسبب كأنه قال (اصبر على أدام) فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أدام ، وتلقى أنت عاقبة صبرك عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن الوقت الذى ينقر فى الناقور ، أهو النفخة الأولى أم النفخة الثانية ؟ (فالقول الأول) أنه هو النفخة الأولى ، قال الحلیمی فى كتاب المنهاج أنه تعالى سمى الصور بأسمين أحدهما الصور والآحر الناقور ، وقول المفسرين إن الناقور هو الصور ، ثم لاشك أن الصور وإن كان هو الذى ينفخ فيه النفختان معاً ، فإن نفخة الإصعاق تخالف نفخة الإحياء ، وجاء فى الأخبار أن فى الصور ثقباً بعدد الأرواح كلها ، وأنها تجمع فى تلك الثقب فى النفخة الثانية ، فيخرج عند النفخ من كل ثقب روح إلى الجسد الذى نزع منه فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى ، فيحتمل أن يكون الصور محتويّاً على آلتين ينقر فى إحدهما وينفخ فى الأخرى فإذا نفخ فيه للإصعاق ، جمع بين النقر والنفخ ، لتكون الصيحة أهد وأعظم ، وإذا نفخ فيه للإحياء لم ينقر فيه ، واقتصر على النفخ ، لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها لاتقيرها من أجسادها ، والنفخة الأولى للتقير ، وهو نظير صوت الرعد ، فإنه إذا اشتد فربما مات سامعه ، والصيحة الشديدة التى يصيحها رجل بصبي فيفزع منه فيموت ، هذا آخر كلام الحلیمی رحمه الله .

فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

ولى فيه إشكال ، وهو أن هذا يقتضى أن يكون النقر إما يحصل عند صيحة الإصعاق ، وذلك اليوم غير شديد على الكافرين ، لأنهم يموتون فى تلك الساعة إنما اليوم الشديد على الكافرين عند صيحة الإحياء ، ولذلك يقرولون باليتها كانت القاضية ، أى باليتنا بقينا على الموتة الأولى (والقول الثانى) إنه التفحة الثانية ، وذلك لأن الناقر هو الذى ينقر فيه ، أى ينكت ، فيجوز أنه إذا أريد أن ينفخ فى المرة الثانية ، نقر أولاً ، فسمى ناقرأ لهذا المعنى ، وأقول فى هذا اللفظ بحث وهو أن الناقر فاعول من النقر ، كالمضوم ما يهضم به ، والحاطوم ما يحطم به ، فكان ينبغى أن يكون الناقر ما ينقر به لا ما ينقر فيه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ العامل فى قوله (فإذا نقر) هو المعنى الذى دل عليه قوله (يوم عسير) والتقدير (إذا نقر فى الناقر) عسر الأمر وصعب .

قوله تعالى : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله فذلك إشارة إلى اليوم الذى ينقر فيه فى الناقر ، والتقدير فذلك اليوم (يوم عسير) ، وأما (يومئذ) ففيه وجوه : (الأول) أن يكون تفسيراً لقوله (فذلك) لأن قوله (فذلك) يحتمل أن يكون إشارة إلى النقر ، وأن يكون إشارة إلى اليوم المضاف إلى النقر ، فكانه قال (فذلك) أعنى اليوم المضاف إلى النقر (يوم عسير) فيكون (يومئذ) فى محل نصب (والثانى) أن يكون (يومئذ) مرفوع المحل بدلا من ذلك (ويوم عسير) خبر كأنه قيل فيوم النقر (يوم عسير) فعلى هذا يومئذ فى محل الرفع لكونه بدلا من ذلك إلا أنه لما أضيف اليوم إلى إذ وهو غير متمكن بنى على الفتح (الثالث) أن تقدير الآية فذلك النقر يومئذ نقر (يوم عسير) على أن يكون العامل فى (يومئذ) هو النقر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ عسر ذلك اليوم على الكافرين لأنهم يناشون فى الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم ويحشرون زرقاً وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الأشهاد وأما المؤمنون فإنه عليهم يسير لأنهم لا يناشون فى الحساب ويحشرون بيض الوجوه تقال الموازين ، ويحتمل أن يكون إنما وصفه الله تعالى بالعسر لأنه فى نفسه كذلك للجميع من المؤمنين والكافرين على ما روى أن الأنبياء يومئذ يفرعون ، وأن الولدان يشيرون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد ، فعلى القول الأول لا يحسن الوقف على قوله (يوم عسير) فإن المعنى أنه (على الكافرين) عسير و (غير يسير) ، وعلى القول الثانى يحسن الوقف لأن المعنى أنه فى نفسه عسير على الكل ثم الكافر مخصوص فيه بزيادة خاصة وهو أنه عليه غير يسير ، فإن قيل فما فائدة قوله (غير يسير) وعسير مفعول عنه ؟ (الجواب) أما على (القول الأول) فالتكرير للتأكيد كما

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾

تقول أنا لك محب غير مبغض وولي غير عدو ، وأما علي (القول الثاني) فقوله (عسير) يفيد أصل العسر الشامل للمؤمنين والكافرين وقوله (غير يسير) يفيد الزيادة التي يختص بها الكافر لأن العسر قد يكون عسراً ، قليلاً يسيراً ، وقد يكون عسراً كثيراً فأثبت أصل العسر للكامل وأثبت العسر بصفة الكثرة والقوة للكافرين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ابن عباس لما قال إنه غير يسير على الكافرين ، كان يسيراً على المؤمنين فبعض من قال بدليل الخطاب قال لولا أن دليل الخطاب حجة وإلا لما فهم ابن عباس من كونه غير يسير على الكافر كونه يسيراً على المؤمن .

قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أجمعوا على أن المراد ههنا الوليد بن المغيرة ، وفي نصب قوله وحيداً وجوه (الأول) أنه نصب على الحال ، ثم يحتمل أن يكون حالاً من الخالق وأن يكون حالاً من المخلوق ، وكونه حالاً من الخالق على وجهين (الأول) ذرني وحدي معه فإني كاف في الانتقام منه (والثاني) خلقتني وحدي لم يشركني في خلقه أحد ، وأما كونه حالاً من المخلوق ، فمبني على معنى أني خلقتني حال ما كان وحيداً فريداً لا مال له ، ولا ولد كقوله (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أو مرة) ، (القول الثاني) أنه نصب على الذم ، وذلك لأن الآية نزلت في الوليد وكان يلقب بالوحيد ، وكان يقول أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لي في العرب نظير ، ولا لآبي نظير . فالمراد (ذرني ومن خلقت) أعني وحيداً . وطعن كثير من المتأخرين في هذا الوجه ، وقالوا لا يجوز أن يصدق الله في دعواه أنه وحيد لا نظير له ، وهذا السؤال ذكره الواحدى وصاحب الكشف ، وهو ضعيف من وجوه (الأول) أنا لما جعلنا الوحيد اسم علم فقد زال السؤال لأن اسم العلم لا يفيد في المسمى صفة بل هو قائم مقام الإشارة (الثاني) لم لا يجوز أن يحمل على كونه وحيداً في ظنه واعتقاده ؟ ونظيره قوله تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (الثالث) أن لفظ الوحيد ليس فيه أنه وحيد في العلو والشرف ، بل هو كان يدعى لنفسه أنه وحيد في هذه الأمور . فيمكن أن يقال أنت وحيد لكن في الكفر والخبث والدناءة (القول الثالث) أن وحيداً مفعول ثانٍ لخلق ، قال أبو سعيد الضير الوحيد الذي لا أب له ، وهو إشارة إلى الطعن في نسبه كما في قوله (عتل بعد ذلك زعيم) .

قوله تعالى : ﴿ وجعلت له مالا ممدوداً ﴾ في تفسير المال الممدود وجوه (الأول) المال الذي يكون له مدد يأتي من الجزء بعد الجزء على الدوام ، فلذلك فسره عمر بن الخطاب بغلة شهر شهر (وثانيها) أنه المال الذي يمد بالزيادة ، كالضرع والزرع وأنواع التجارات (وثالثها) أنه المال الذي امتد مكانه ، قال ابن عباس كان ماله ممدوداً ما بين مكة إلى الطائف [من] الإبل والحيل والغنم

وَبَيْنِنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتْ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ

لَا يَتَنَبَّأ عَنِينًا ﴿١٦﴾

والبساتين الكثيرة بالطائف والأشجار والأنهار والنقد الكثير ، وقال مقاتل كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفاً ، فالممدود هنا كما في قوله (وظل ممدود) أى لا ينقطع (ورابعها) أنه المال الكثير وذلك لأن المال الكثير إذا عدد فإنه يمتد تعديده ، ومن المفسرين من قدر المال الممدود فقال بعضهم ألف دينار ، وقال آخرون أربعة آلاف وقال آخرون ألف ألف ، وهذه التحكات ما لا يميل إليها الطبع السليم .

قوله تعالى : ﴿ وبينن شهوداً ﴾ فيه وجهان (الأول) بين حضوراً معه بمكة لا يفارقونه البتة لأنهم كانوا أغنياء فما كانوا محتاجين إلى مفارقتهم لطلب كسب ومعيشة وكان هو مستأنساً بهم طيب القلب بسبب حضورهم (والثاني) يجوز أن يكون المراد من كونهم شهوداً أنهم رجال يشهدون معه المجمع والمحافل وعن مجاهد كانوا عشرة ، وقيل سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالده وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام .

قوله تعالى : ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أى وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتممت عليه نعمتى المال والجاه ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ، ولهذا المعنى يدعى بهذا يقال أدام الله تمهيدته أى بسطته وتصرفه في الأمور ، ومن المفسرين من جعل هذا التمهيد البسطة في العيش وطول العمر ، وكان الوليد من أكبر قريش ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش .

قوله تعالى : ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ لفظ ثم ههنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك أنزلتك دازى وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمنى ، ونظيره قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) فعنى ثم ههنا للانكار والتعجب ثم تلك الزيادة التى كان يطمع فيها هل هى زيادة فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ فيه قولان (الأول) قال الكلبي ومقاتل ثم يرجو أن أزيد فى ماله وولده وقد كفر بي (الثانى) أن تلك الزيادة فى الآخرة قيل إنه كان يقول إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لى ، ونظيره قوله تعالى (أفأرأيت الذى كفر بآياتنا ، وقال لأوتين مالا وولداً) .

قوله تعالى : ﴿ كلاً ﴾ وهو ردع له عن ذلك الطمع الفاسد قال المفسرون ولم يزل الوليد فى نقصان بعد قوله (كلاً) حتى افتقر ومات فقيراً .

قوله تعالى : ﴿ إنه كان لا ياتنا عنيداً ﴾ إنه تعليل للردع على وجه الاستئناف كأن قائلاً قال لم لا يزداد ؟ فقيل لأنه كان لا ياتنا عنيداً والعنيد فى معنى المعاند كالجليس والأكيل والعشير ، وفى

سَأْرَهْقَهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ

قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾

هذه الآية إشارة إلى أمور كثيرة من صفاته (أحدها) أنه كان معاندا في جميع الدلائل الدالة على التوحيد والعدل والقدرة وصحة النور وصحة البعث ، وكان هو منازعا في الكل منكرا للكل (وثانيها) أن كفره كان كفر عناد كان يعرف هذه الأشياء بقلبه إلا أنه كان يشكرها بالسانه وكفر المعاند الخش أنواع الكفر (وثالثها) أن قوله (إنه كان لا ياتنا عنيدا) يدل على أنه من قديم الزمان كان على هذه الحرمة والصنعة (ورابعها) أن قوله (إنه كان لا ياتنا عنيدا) يفيد أن تلك المعاندة كانت منه مختصة بآيات الله تعالى وبيئاته ، فان تقديره : إنه كان لا ياتنا عنيدا لا لآيات غيرنا ، فتخصيصه هذا العناد بآيات الله مع كونه تاركا للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران . قوله تعالى : ﴿سأرهقه صعوداً﴾ أى سأكلفه صعوداً وفي الصعود قولان (الأول) أنه مثل لما ياتي من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق مثل قوله (يسلكه عذاباً صعداً) وصعود من قولهم عقبه صعود وكيدود شاقة المصعد (والثاني) أن صعوداً اسم لعقبة في النار كلما وضع يده عليها ذابت فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت ، وعنه عليه الصلاة والسلام «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوى كذلك فيه أبداً» .

ثم إنه تعالى حكى كيفية عناده فقال ﴿إنه فكر وقدر﴾ يقال فكر في الأمر وتفكر إذا نظر فيه وتدبر ، ثم لما تفكر رتب في قلبه كلاماً وهياً وهو المراد من قوله (فقدر) .

ثم قال تعالى ﴿فقتل كيف قدر﴾ وهذا إنما يذكر عند التعجب والاستعظام ، ومثله قولهم قتل الله ما أشجعه ، وأخزاه الله ما أشعره ، ومعناه . أنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك ، وإذا عرفت ذلك فنقول إنه يحتمل ههنا وجهين (أحدهما) أنه تعجيب من قوة خاطره ، يعنى أنه لا يمكن القدح في أمر محمد عليه السلام بشبهة أعظم ولا أقوى بما ذكره هذا القائل (والثاني) الثناء عليه على طريقة الاستهزاء ، يعنى أن هذا الذى ذكره في غاية الركاكة والسقوط .

ثم قال ﴿ثم قتل كيف قدر﴾ والمقصود من كلمة ، ثم ههنا الدلالة على أن الدعاء عليه في الكفرة الثانية أبلغ من الأولى .

ثم قال ﴿ثم نظر﴾ والمعنى أنه (أولاً) فكر (وثانياً) قدر (وثالثاً) نظر في ذلك المقدر ، فالنظر السابق للاستخراج ، والنظر اللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط . فهذه المراتب الثلاثة متعلقة بأحوال قلبه .

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ

(٢٤)

ثم إنه تعالى وصف بعد ذلك أحوال وجهه ، فقال : ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ وفيه مسألتان :
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن قوله (عبس وبسر) يدل على أنه كان عارفاً في قلبه صدق محمد ﷺ إلا أنه كان يكفر به عناداً ، ويدل عليه وجوه : (الأول) أنه بعد أن تفكر وتأمل قدر في نفسه كلاماً عزم على أنه يظهره ظهرت العبوسة في وجهه ولو كان مفتقداً صحة ذلك الكلام لفرح باستنباطه وإدراكه ، ولكنه لما لم يفرح به علمنا أنه كان يعلم ضعف تلك الشبهة ، إلا أنه لشدة عناده ما كان يجد شبهة أجرد من تلك الشبهة ، فلهذا السبب ظهرت العبوسة في وجهه (الثاني) ما روى أن الوليد مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة فلما وصل إلى قوله (فإن أعرضوا فقل أذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت ، وهذا يدل على أنه كان يعلم أنه مقبول الدعاء صادق الالهيته ، ولما رجع الوليد قال لهم : والله لقد سمعت من محمد آتفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ، فقالت قريش صبأ الوليد ولو صبأ لتصبأن قريش كما . فقال أبو جهل أنا أضيفكموه ، ثم دخل عليه محزوناً فقال مالك يا ابن الأخ ؟ فقال إنك قد صبوت لتصيب من طعام محمد وأصحابه وهذه قريش تجمع لك مالا ليكون ذلك عوضاً بما تقدر أن تأخذ من أصحاب محمد ، فقال والله ما يشبعون فكيف أقدر أن آخذ منهم مالا ، ولكني تفكرت في أمره كثيراً فلم أجد شيئاً يليق به إلا أنه ساحر ، فأقول استعظامه للقرآن واعترافه بأنه ليس من كلام الجن والإنس يدل على أنه كان في ادعاء السحر معانداً لأن السحر يتعلق بالجن (والثالث) أنه كان يعلم أن أمر السحر مبنى على الكفر بالله ، والأفعال المنسكرة ، وكان من الظاهر أن محمداً لا يدعو إلا إلى الله ، فكيف يليق به السحر ؟ فثبت بمجموع هذه الوجوه أنه إنما (عبس وبسر) لأنه كان يعلم أن الذي يقوله كذب وبهتان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الليث عبس يعبس فهو عابس إذا نطب ما بين عينيه ، فإن أبدى عن أسنانه في عدرسه قيل كبح ، فإن اهتم لذلك وفكر فيه قيل بسر ، فإن غضب مع ذلك قيل يسل . قوله تعالى : ﴿ ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أدبر عن أسائر الناس إلى أهله واستكبر أي تعظم عن الإيمان فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، وإنما ذكره بغاء التعقيب ليعلم أنه لما ولي واستكبر ذكر هذه الشبهة ، وفي قوله (يؤثر) وجهان (الأول) أنه من قولهم أثرت الحديث أثره أثراً إذا حدثت به عن قوم في آثارهم ، أي بعد ما ماتوا هذا هو الأصل ، ثم صار بمعنى

إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصَلِّهِ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾

لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

الرواية عن ابن عباس (والثاني) يؤثر على جميع السحر ، وعلى هذا يكون هو من الإيثار .
ثم قال ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ والمعنى أن هذا قول البشر ، ينسب ذلك إلى أنه ملنقط
من كلام غيره ، ولو كان الأمر كما قال لتمكنوا من معارضته إذ طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة .
واعلم أن هذا الكلام يدل على أن الوليد إنما كان يقول هذا الكلام عناداً منه ، لأنه روى
عنه أنه لما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم (حم السجدة) وخرج من عند الرسول عليه
السلام قال سمعت من محمد كلاماً ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له الحلاوة وإن
عليه لطلاوة وأنه يعلو ولا يعلى عليه ، فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله ههنا من أنه
قول البشر ، إنما ذكره على سبيل العناد والتمرد لا على سبيل الاعتقاد .

ثم قال ﴿ سأصليه سقر ﴾ قال ابن عباس (سقر) اسم للطبقة السادسة من جهنم ، ولذلك
لا ينصرف للتحريف والتأنيث .

ثم قال ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ والغرض التهويل .

ثم قال ﴿ لا تبقى ولا تذر ﴾ واختلفوا ففهم من قال هما لفظان مترادفان معناهما واحد ،
والغرض من التكرير التأكيد والمبالغة كما يقال صد عني وأعرض عني . ومنهم من قال لا بد من
الفرق ، ثم ذكروا وجوهاً (أحدها) أنها لا تبقى من الدم واللحم والعظم شيئاً فإذا أعيديا
خلقاً جديداً (فلا تذر) أن تعاود إحراقهم بأشد مما كانت ، وهكذا أبداً ، وهذا رواية عطاء
عن ابن عباس (وثانيها) لا تبقى من المستحقين للعذاب إلا عذبهم ، ثم لا تذر من أبدان أوائلك
المعذبين شيئاً إلا أحرقته (وثالثها) لا تبقى من أبدان المعذبين شيئاً ، ثم إن تلك النيران لا تذر
من قوتها وشدها شيئاً إلا وتستعمل تلك القوة والشدة في تعذيبهم .

ثم قال ﴿ لواحَةٌ للبشر ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في اللواحة قولان (الأول) قال الليث : لواح العطش ولوحه إذا غيره ،
فاللواحة هي المغيرة . قال الفراء : تسود البشرة بإحراقها (والقول الثاني) وهو قول الحسن
والأصم : أن معنى اللواحة أنها تلوح للبشر من مسنيرة خمسمائة عام ، وهو كقوله (وبرزت
الجحيم لمن يرى) ولواحة على هذا القول من لواح الشيء يلوح إذا لمع نحو البرق ، وطعن القائلون
بهذا الوجه في الوجه الأول ، وقالوا إنه لا يجوز أن يصفها بتسويد البشرة مع قوله إنها (لا تبقى
ولا تذر) .

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً

﴿المسألة الثانية﴾ قرى. ﴿لواحة﴾ نضباً على الاختصاص للتهويل .

ثم قال ﴿عليها تسعة عشر﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المعنى أنه يلي أمر تلك النار ، ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكاً ، وقيل تسعة عشر صنفاً ، وقيل تسعة عشر صفاً . وحكى الواحدى عن المفسرين : أن خزنة النار تسعة عشر مالك ، ومعه ثمانية عشر أعينهم كالبرق ، وأنيابهم كالصياحى ، وأشعارهم تمس أقدامهم ، يخرج لهب النار من أفواههم ، ما بين منكبى أحدهم مسيرة سنة ، يسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر ، نزعت منهم الرأفة والرحمة ، يأخذ أحدهم سبعين ألفاً فى كفه ويرميهم حيث أراد من جهنم

﴿المسألة الثانية﴾ ذكر أبواب المعانى فى تقدير هذا العدد وجوهاً (أحدها) وهو الوجه الذى تقوله أبواب الحكمة . أن سبب فساد النفس الإنسانية فى قوتها النظرية ، والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية .

أما القوى الحيوانية فهى : الخسة الظاهرة ، والخسة الباطنة ، والشهوة والغضب ، وبمجموعهما اثنتا عشرة .

وأما القوى الطبيعة فهى : الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ، وهذه سبعة ، فالمجموع تسعة عشر ، فلما كان منشأ الآفات هو هذه التسعة عشر ، لا جرم كان عدد الزبانية هكذا (وثانيها) أن أبواب جهنم سبعة ، فسته منها للكفار ، وواحد للفساق ، ثم إن الكفار يدخلون النار لإمور ثلاثة : ترك الاعتقاد وترك الإقرار وترك العمل ، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة والمجموع ثمانية عشر ، وأما باب الفساق فليس هناك زبانية بسبب ترك الاعتقاد ولا بسبب ترك القول ، بل ليس إلا بسبب ترك العمل ، فلا يكون على بابهم إلا زبانية واحدة فالمجموع تسعة عشر (وثالثها) أن الساعات أربعة وعشرون خمسة منها مشغولة بالصلوات الخمس فيبقى منها تسعة عشر مشغولة بغير العبادة ، فلا جرم صار عدد الزبانية تسعة عشر .

﴿المسألة الثالثة﴾ قراءة أبى جعفر ويزيد وطلحة بن سليمان (عليها تسعة عشر) على تقطيع فاعلان ، قال ابن جنى فى المحتسب ، والسبب أن الاسمين كاسم واحد ، فكثرت الحركات ، فأسكن أول الثانى للتخفيف ، وجعل ذلك أمانة القوة اتصال أحد الاسمين بصاحبه ، وقرأ أنس بن مالك (تسعة عشر) قال أبو حاتم هذه القراءة لا تعرف لها وجهاً ، إلا أن يعنى : تسعة عشر جمع عشير مثل يمين وأيمن ، وعلى هذا يكون المجموع تسعين .

قوله تعالى : ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ روى أنه لما نزل قوله تعالى (عليها تسعة عشر) قال أبو جهل لقريش ثكلنكم أمهاتكم ، قال ابن أبى كبشة ، إن خزنة النار تسعة عشر وأتم الجمع

وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

العظيم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ! فقال أبو الأشد بن أسيد بن كعدة الجمحي وكان شديد البطش ، أنا أ كفيكم سبعة عشر وا كفوف أنتم اثنين ! فلما قال أبو جهل وأبو الأشد ذلك ، قال المسلمون ويحكم لا تقاس الملائكة بالحدادين ! فجزى هذا مثلاً في كل شيتين لا يسوى بينهما ، والمعنى لا تقاس الملائكة بالسجانين والحداد ، السجان الذي يحبس النار ، فأنزل الله تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) واعلم أنه تعالى إنما جعلهم ملائكة لوجوه (أخذها) ليكونوا بخلاف جنس المعديين ، لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة ، ولذلك بعث الرسول المبعوث إلينا من جنسنا ليكون له رأفة ورحمة بنا (وثانيها) أهم أبعاد الخلق عن معصية الله تعالى وأقوام على الطاعات الشاقة (وثالثها) أن قوتهم أعظم من قوة الجن والإنس ، فإن قيل ثبت في الأخبار ، أن الملائكة مخلوقون من النور ، والمخلوق من النور كيف يطبق المكث في النار ؟ قلنا مدار القول في إثبات القيامة على كونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، فكما أنه لا استبعاد في أن يبقى الحي في مثل ذلك العذاب الشديد أبد الأباد ولا يموت ، فكذا لا استبعاد في بقاء الملائكة هناك من غير ألم .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة الذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكاكفرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا العدد إنما صار سبباً لفتنة الكفار من وجهين (الأول) أن الكفار يستهزئون ، يقولون لم لم يكونوا عشرين ، وما المقتضى لتخصيص هذا العدد بالوجود ؟ (الثاني) أن الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر خاق العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله إلى قيام القيامة ؟ وأما أهل الإيمان فلا يلتفتون إلى هذين السؤالين .
(أما السؤال الأول) فلأن جملة العالم متناهية . فلا بد وأن يكون للجواهر الفردة التي منها تألفت جملة هذا العالم عدد معين ، وعند ذلك يحجى ذلك السؤال ، وهو أنه لم خصص ذلك العدد بالإيجاد ، ولم يزد على ذلك العدد جوهر آخر ولم ينقص ، وكذا القول في إيجاد العالم ، فإنه لما كان العالم محدثاً وإله قديماً ، فقد تأخر العالم عن الصانع بتقدير مدة غير متناهية ، فلم لم يحدث

العالم قبل أن حدث بتقدير لحظة أو بعد أن وجد بتقدير لحظة ؟ وكذا القول في تقدير كل واحد من المحدثات بزمانه المعين ، وكل واحد من الأجسام بأجزائه المحدودة المعدودة ، ولا جواب عن شيء من ذلك إلا بأنه قادر مختار ، والمختار له أن يرجح الشيء على مثله من غير علة ، وإذا كان هذا الجواب هو المعتمد في خلق جملة العالم ، فكذا في تخصيص زبانية النار بهذا العدد .

(وأما السؤال الثاني) فضعيف أيضاً ، لأنه لا يبعد في قدرة الله تعالى أن يعطى هذا العدد من القدرة والقوة ما يصيرون به قادرين على تعذيب جملة الخلق ، و متمكنين من ذلك من غير خلل ، وبالجملة فمدار هذين السؤالين على القدرح في كمال قدرة الله ، فأما من اعترف بكونه تعالى قادراً على ما لا نهاية له من المقدرات ، وعلم أن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا زال عن قلبه هذه الاستعدادات بالكلية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من قال إنه تعالى قد يريد الإضلال بهذه الآية ، قال لأن قوله تعالى (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) يدل على أن المقصود الأصلي إنما هو فتنة الكافرين ، أجابت المعتزلة عنه من وجوه (أحدها) قال الجبائي المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوى هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائة ألف ملك أقرىاء (وثانيها) قال الكعبي المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعين إلى علم الخالق سبحانه ، وهذا من المتشابه الذي أمروا بالإيمان به (وثالثها) أن المراد من الفتنة ما وقعوا فيه من الكفر بسبب تكذيبهم بعدد الخزنة ، والمعنى إلا فتنة على الذين كفروا ليكذبوا به ، وليقولوا ما قالوا ، وذلك عقوبة لهم على كفرهم ، وحاصلة راجع إلى ترك الألفاظ (والجواب) أنه لا نزاع في شيء مما ذكرتم ، إلا أنا نقول هل لإنزال هذه المتشابهات أثر في تقوية داعية الكفر ، أم لا ؟ فإذا لم يكن له أثر في تقوية داعية الكفر ، كان إنزالها كسائر الأمور الأجنبية ، فلم يكن للقول بأن إنزال هذه المتشابهات فتنة للذين كفروا وجه البتة ، وإن كان له أثر في تقوية داعية الكفر ، فقد حصل المقصود ، لأنه إذ انرجحت داعية الفعل ، صارت داعية الترك مرجحة ، والمرجوح يمتنع أن يؤثر ، فالترك يكون ممتنع الوقوع ، فيصير الفعل واجب الوقوع والله أعلم ، واعلم أنه تعالى بين أن المقصود من إنزال هذا المتشابه أمور أربعة . (أولها) (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) (وثانيها) (ويزداد الذين آمنوا إيماناً) (وثالثها) (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) (ورابعها) (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) واعلم أن المقصود من تفسير هذه الآيات لا يتلخص إلا بسؤالات وجوابات :

(السؤال الأول) لفظ القرآن يدل على أنه تعالى جعل افتتان الكفار بعدد الزبانية سبباً لهذه الأمور الأربعة ، فما الوجه في ذلك ؟ (والجواب) أنه ما جعل افتتانهم بالعدد سبباً لهذه الأشياء وبيانه من وجهين (الأول) التقدير : وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، وإلا ليستيقن الذين

أوتوا الكتاب ، كما يقال فعلت كذا لتعظيمك ولتحقير عدوك ، قالوا والعاطفة قد تذكر في هذا الموضوع تارة . وقد تحذف أخرى (الثاني) أن المراد من قوله (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) هو أنه وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر إلا أنه وضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر كأنه عبر عن المؤثر باللفظ الدال على الأثر ، تنبيهاً على أن هذا الأثر من لوازم ذلك المؤثر .

(السؤال الثاني) ما وجه تأثير إنزال هذا المتشابه في استيقان أهل الكتاب ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن هذا العدد لما كان موجوداً في كتبهم ، ثم إنه عليه السلام أخبر على وفق ذلك من غير سابقة دراسة وتعلم ، فظهر أن ذلك إنما حصل بسبب الوحي من السماء فالذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب يزدادون به إيماناً (وثانيها) أن التوراة والإنجيل كانا محرفين ، فأهل الكتاب كانوا يقرأون فيهما أن عدد الزبانية هو هذا القدر ، ولكنهم ما كانوا يعولون على ذلك كل التعويل لعلمهم بتطرق التحريف إلى هذين الكتابين ، فلما سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوى إيمانهم بذلك واستيقنوا أن ذلك العدد هو الحق والصدق (وثالثها) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب ، فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه ، لأنهم كانوا يستهزئون به في إثبات التوحيد والقدرة والعلم ، مع أن تلك المسائل أوضح وأظهر فكيف في ذكر هذا العدد العجيب ؟ ثم إن استهزأهم برسول الله وشدة سخريتهم به ما منعه من إظهار هذا الحق ، فعند هذا يعلم كل أحد أنه لو كان غرض محمد صلى الله عليه وسلم طلب الدنيا والرياسة لاحترز عن ذكر هذا العدد العجيب ، فلما ذكره مع علمه بأنهم لا بد وأن يستهزئوا به علم كل عاقل أن مقصوده منه إنما هو تبليغ الوحي ، وأنه ما كان يبالي في ذلك لا بتصديق المصدقين ولا بتكذيب المكذبين .

(السؤال الثالث) ما تأثير هذه الواقعة في ازدياد إيمان المؤمنين ؟ (الجواب) أن المكلف ما لم يستحضر كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحوادث منزهاً عن الكذب والخلف لا يمكنه أن ينقاد لهذه العدة ويعترف بحقيقتها ، فإذا اشتغل باستحضار تلك الدلائل ثم جعل العلم الإجمالي بأنه صادق لا يكذب حكيم لا يجمل دافعاً للتعجب الحاصل في الطبع من هذا العدد العجيب حينئذ يمكنه أن يؤمن بحقيقة هذا العدد ، ولا شك أن المؤمن يصير عند اعتبار هذه المقامات أشد استحضاراً للدلائل وأكثر انقياداً للدين ، فالمراد بازدياد الإيمان هذا .

(السؤال الرابع) حقيقة الإيمان عندكم لا تقبل الزيادة والنقصان فما قولكم في هذه الآية ؟ (الجواب) نحمله على ثمرات الإيمان وعلى آثاره ولوازمه .

(السؤال الخامس) لما أثبت الاستيقان لأهل الكتاب وأثبت زيادة الإيمان للمؤمنين فما الفائدة في قوله بعد ذلك (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) ؟ (الجواب) أن المطلوب إذا كان غامضاً دقيق الحججة كثير الشبهة ، فإذا اجتهد الإنسان فيه وحصل له اليقين فرمما غفل عن

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق ، فيعود الشك والشبهة ، فأثبت اليقين في بعض الأحوال لا يتأني طرفان الارتباب بعد ذلك ، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم ، بحيث لا يحصل عقيبه البتة شك ولا ريب .

(السؤال السادس) جمهور المفسرين قالوا في تفسير قوله (الذين في قلوبهم مرض) لأنهم الكافرون وذكر الحسين بن الفضل البجلي أن هذه السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ، فالمرض في هذه الآية ليس بمعنى النفاق ، و (الجواب) قول المفسرين حق وذلك لأنه كان في معلوم الله تعالى أن النفاق سيحدث فأخبر عما سيكون ، وعلى هذا تصير هذه الآية معجزة ، لأنه إخبار عن غيب سيقع ، وقد وقع على وفق الخبر فيكون معجزاً ، ويجوز أيضاً أن يراد بالمرض الشك لأن أهل مكة كانوا كثيرهم شاكين وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب .

(السؤال السابع) هب أن الاستيقان وانتفاء الارتباب يصح أن يكونا مقصودين من إنزال هذا المتشابه ، فكيف صح أن يكون قول الكافرين والمنافقين مقصوداً ؟ (الجواب) أما على أصلنا فلا إشكال لأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وسيأتي مزيد تقرير لهذا في الآية الآتية ، وأما عند المعتزلة فإن هذه الحالة لما وقعت أشبهت الغرض في كونه واقعا ، فأدخل عليه حرف اللام وهو كقوله (ولقد ذرأنا لجهنم) .

(السؤال الثامن) لم سموه مثلاً ؟ (الجواب) أنه لما كان هذا العدد عدداً مجيباً ظن القوم أنه ربما لم يكن مراد الله منه ما أشعر به ظاهره بل جعله مثلاً لشيء آخر وتنبهاً على مقصود آخر ، لاجرم سموه مثلاً .

(السؤال التاسع) القوم كانوا ينكرون كون القرآن من عند الله ، فكيف قالوا ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ (الجواب) أما الذين في قلوبهم مرض ، وهم المنافقون فكانوا في الظاهر معترفين بأن القرآن من عند الله فلا جرم قالوا ذلك باللسان ، وأما الكفار فقالوه على سبيل النهم أو على سبيل الاستدلال بأن القرآن لو كان من عند الله لما قال مثل هذا الكلام .

قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وجه الاستدلال بالآية للأصحاب ظاهر لأنه تعالى ذكر في أول الآية قوله (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) ثم ذكر في آخر الآية (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) ثم قال (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أما المعتزلة فقد ذكروا الوجوه المشهورة التي لهم (أحدها) أن المراد من الإضلال منع الألفاظ (وثانيها) أنه لما اهتدى قوم باختيارهم عند نزول هذه الآيات وضل قوم باختيارهم عند نزولها أشبه ذلك أن المؤثر في ذلك الاهتداء وذلك الإضلال هو

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلَ

إِذَا دَبَّرَ ﴿٣٣﴾

هذه الآيات ، وهو كقوله (فزادتهم إيماناً) وكقوله (فزادتهم رجساً) (وثالثها) أن المراد من قوله (بضل) ومن قوله (يهدى) حكم الله بكونه ضالاً وبكونه مهتدياً (ورابعها) أنه تعالى بضلهم يوم القيامة عن دار الثواب ، وهذه الكلمات مع أجوبتها تقدمت في سورة البقرة في قوله (بضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) .

قوله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ فيه وجوه : (أحدها) وهو الأولى أن القوم استقبلوا ذلك العدد ، فقال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) فهب أن هؤلاء تسعة عشر إلا أن لكل واحد منهم من الأعران والجنود ما لا يعلم عددهم إلا الله (وثانيها) وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تميم الخزنة عشرين ولكن له في هذا العدد حكمة لا يعلمها الخلق وهو جل جلاله يعلمها (وثالثها) أنه لا حاجة بالله سبحانه في تعذيب الكفار والفساق إلى هؤلاء الخزنة ، فإنه هو الذي يعذبهم في الحقيقة ، وهو الذي يخلق الآلام فيهم ، ولو أنه تعالى قلب شمرة في عين ابن آدم أو ساطط الألم على عرق واحد من عروق بدنه لكفاه ذلك بلاء ومحنة ، فلا يلزم من تقليل عدد الخزنة قلة العذاب ، لجنود الله غير متناهية لأن مقدوراته غير متناهية .
قوله تعالى : ﴿ وما هي إلا ذكري للبشر ﴾ الضمير في قوله (وما هي) إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان (الأول) أنه عائد إلى سقر ، والمعنى وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر (والثاني) أنه عائد إلى هذه الآيات المشتملة على هذه التشابهات ، وهي ذكري لجميع العالمين ، وإن كان المتدفع بها ليس إلا أهل الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه إنكار بعد أن جعلها ذكري ، أن تكون لهم ذكري لأنهم لا يتذكرون (وثانيها) أنه ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيراً (وثالثها) أنه ردع لقول أبي جهل وأصحابه إنهم يقدرون على مقاومة خزنة النار (ورابعها) أنه ردع لهم عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة .

قوله تعالى : ﴿ والقمر ، والليل إذا دبر ﴾ وفيه قولان (الأول) قال الفراء والزجاج دبر وأدبر بمعنى واحد كقبل وأقبل ويبدل على هذا قراءة من قرأ إذا دبر ، وروى أن مجاهداً سأل ابن عباس عن قوله (دبر) فسكت حتى إذا أدبر الليل قال يا مجاهد هذا حين دبر الليل ، وروى أبو الضحى أن ابن عباس كان يعيب هذه القراءة ويقول : إنما يدبر ظهر البعير ، قال الواحدى والقراءتان عند أهل اللغة سواء على ما ذكرنا ، وأنشد أبو علي :

وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبِيرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ

مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

وأبى الذى ترك الملوك وجمعهم بصهاب هامة كأمس الدابر
(القول الثانى) قال أبو عبيدة وابن قتيبة دبر أى جاء بعد النهار ، يقال دبرنى أى جاء خلقي ودبر
الليل أى جاء بعد النهار ، قال قطرب فعلى هذا معنى إذا دبر إذا أقبل بعد مضى النهار .
قوله تعالى : ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أى أضاء ، وفى الحديث « أسفروا بالفجر » ومنه قوله
(وجره يومئذ مسفرة) أى مضيئة .

قوله تعالى : ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ وفيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا الكلام هو جواب القسم أو تعليل لكلام والقسم معترض للتوكيد .
﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدي ألف إحدى مقطوع ولا تذهب فى الوصل . وروى عن
ابن كثير أنه قرأ إنها لإحدى الكبر بحذف الهمزة كما يقال ويله ، وليس هذا الحذف بقياس
والقياس التخفيف وهو أن يجعل بين بين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف الكبر جمع الكبرى جعلت ألف التانيث كناء
التانيث فكما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظير ذلك السوائى جمع السافياء وهو التراب
الذى سفته الريح ، والقواصع فى جميع القاصعاء كأنهما جمع فاعلة .
﴿ المسألة الرابعة ﴾ (إنها لإحدى الكبر) يعنى أن سقر التى جرى ذكرها لإحدى الكبر
والمراد من الكبر دركات جهنم ، وهى سبعة جهنم ، ولظى ، والحطمة ، والسعير ، وسقر ، والجحيم
والجهاوية ، أعادنا الله منها .

قوله تعالى : ﴿ نذيراً للبشر ﴾ نذيراً تمييز من إحدى على معنى أنها لإحدى الدواهي إنذاراً كما
تقول هى إحدى النساء عفاً ، وقيل هو حال ، وفى قراءة أبى نذير بالرفع خبر أو بحذف المبتدأ .
قوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير الآية وجهان (الأول) أن (يتقدم) فى موضع الرفع بالابتداء
ولمن شاء خبر مقدم عليه كقولك لمن توفياً أن يه ، ومعناه التقدم والتأخر مطلقان لمن شاءهما
منكم ، والمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه ، وهو فى معنى قوله (فمن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر) (الثانى) لمن شاء بدل من قوله للبشر ، والتقدير : إنها نذير لمن شاء منكم أن
يتقدم أو يتأخر ، نظيره (والله على الناس حج البيت من استطاع) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المعترلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد متمكناً من الفعل غير مجبور

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٢٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ

عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾

عليه (وجوابه) أن هذه الآية دلت على أن فعل العبد معلق على مشيئته ، لكن مشيئة العبد معلقة على مشيئة الله تعالى لقوله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وحينئذ تصير هذه الآية حجة لنا عليهم ، وذكر الأصحاب عن وجه الاستدلال بهذه الآية جوابين آخرين (الأول) أن معنى إضافة المشيئة إلى المخاطبين التهديد ، كقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (الثاني) أن هذه المشيئة لله تعالى على معنى لمن شاء الله منكم أن يتقدم أو يتأخر .

قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ، إلا أصحاب اليمين ﴿ قال صاحب الكشاف رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله ﴾ (كل امرئ بما كسب رهين) لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصيغة لفيل رهين ، لأن فعلاً بمعنى مفعول يسترى فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كاشتيمة بمعنى الشتم ، كأنه قيل كل نفس بما كسبت رهن ، ومنه بيت الحماسة :

أبعد الذي بالنعف نصف كواكب رهينة رمس ذى تراب وجندل

كأنه قال رهن رمس ، والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك إلا أصحاب اليمين ، فإنهم فكوا عنه رقاب أنفسهم بسبب أعمالهم الحسنة ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق ، ثم ذكروا وجوباً في أن أصحاب اليمين من هم ؟ (أحدها) قال ابن عباس : هم المؤمنون (وثانيها) قال الكلبي : هم الذين قال [فيهم] الله تعالى « هؤلاء في الجنة ولا أبالي » وهم الذين كانوا على يمين آدم (وثالثها) قال مقاتل : هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم لا يرتنون بذنوبهم في النار (ورابعها) قال علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عمر : هم أطفال المسلمين ، قال الفراء : وهو أشبه بالصواب لوجهين : (الأول) لأن الولدان لم يكتبوا وإنما يرتنون به (والثاني) أنه تعالى ذكر في وصفهم ، فقال (في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر) وهذا إنما يليق بالولدان ، لأنهم لم يعرفوا الذنوب ، فسألوا (ما سلككم في سقر) (وخامسها) عن ابن عباس : هم الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ في جنات ﴾ أي هم في جنات لا يكتبته وصفها .

قوله تعالى : ﴿ يتساءلون عن المجرمين ﴾ وفيه وجهان (الأول) أن تكون كلمة عن صلة زائدة ، والتقدير : يتساءلون المجرمين فيقولون لهم ما سلككم في سقر ؟ فإنه يقال سألته كذا ، ويقال سألته عن كذا (الثاني) أن يكون المعنى أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين ، فإن قيل فعلى هذا الوجه كان يجب أن يقولوا : ما سلكهم في سقر ؟ قلنا أجاب صاحب الكشاف عنه فقال : المراد من هذا أن المسترلين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ،

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصَلِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ

﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ

﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾

فيقولون قلنا لهم (ما سلككم في سقر) وفيه وجه آخر ، فهو أن يكون المراد أن أصحاب اليمين كانوا يتساءلون عن المجرمين أين هم ؟ فلما رأوهم قالوا لهم (ما سلككم في سقر) والإضمارات كثيرة في القرآن .

قوله تعالى : ﴿ ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نحوض مع الخائضين ، وكنا نكذب يوم الدين ، حتى أتانا اليقين ﴾ .

المقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل ، والمعنى ما حسبكم في هذه الدركة من النار ؟ فأجابوا بأن هذا العذاب لأمور أربعة : (أولها) (قالوا لم نك من المصلين) (وثانيها) لم نك نطعم المسكين ، وهذان يجب أن يكونا محمولين على الصلاة الواجبة ، والزكاة الواجبة لأن ما ليس بواجب ، لا يجوز أن يعذبوا على تركه (وثالثها) (وكنا نحوض مع الخائضين) والمراد منه الأباطيل (ورابعها) (وكنا نكذب يوم الدين) أي بيوم القيامة حتى أتانا اليقين ، أي الموت قال تعالى (حتى يأتيك اليقين) والمعنى أنا بقينا على إنكار القيامة إلى وقت الموت ، وظاهر اللفظ يدل على أن كل أحد من أوائك الأقوام كان موصوفاً بهذه الخصال الأربعة ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفار يعذبون بترك فروع الشرائع ، والاستقصاء فيه قد ذكرناه في المحصول من أصول الفقه ، فإن قيل لم آخر التكذيب ، وهو أخش تلك الخصال الأربع ، قلنا أريد أنهم بعد انصافهم بتلك الأمور الثلاثة كانوا مكذبين بيوم الدين ، والغرض تعظيم هذا الذنب ، كقوله (ثم كان من الذين آمنوا) .

قوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ واحتج أصحابنا على ثبوت الشفاعة للفساق بمفهوم هذه الآية ، وقالوا إن تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدل على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين .

قوله تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ أي عن الذكر وهو العظة يريد القرآن أو غيره من المواعظ ، ومعرضين نصب على الحال كقولهم مالك قائماً .

كأنهم حمر مستنفرة ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى

صَحْفًا مَنشُورَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا

ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بحمر نافرة فقال ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ قال ابن عباس يريد الحمر الوحشية ، ومستنفرة أى نافرة . يقال نفر واستنفر مثل سخر ، واستنخر ، وعجب واستعجب ، وقرى بالفتح ، وهى المنفرة المحمولة على النفار ، قال أبو على الفارسي ، الكسر فى مستنفرة أولى ألا ترى أنه قال (فرت من قسورة) وهذا يدل على أنها هى استنفرت ، ويدل على صحة ما قال أبو على أن محمد بن سلام . قال سألت أبا سوار الغنوى ، وكان أعرابياً فصيحاً ، فقلت كأنهم حمر ماذا ؟ فقال مستنفرة طردها قسورة . قلت إنما هو فرت من قسورة ، قال أفرت ؟ قلت نعم ، قال فستنفرة إذا .

ثم قال تعالى ﴿ فرت ﴾ يعنى الحمر ﴿ من قسورة ﴾ .

وذكروا فى القسورة وجوهاً (أحدها) أنها الأسد يقال ليوث قساور ، وهى فعولة من القسر وهو القهر ، والغلبة سمي بذلك لأنه يقهر السباع ، قال ابن عباس الحمر الوحشية إذا عابثت الأسد هربت كذلك هؤلاء المشركين إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه ، كما يهرب الحمار من الأسد ، ثم قال ابن عباس : القسورة ، هى الأسد بلسان الحبشة ، وخالف عكرمة فقال : الأسد بلسان الحبشة ، غبسة (وثانيها) القسورة ، جماعة الرماة الذين يتصيدونها ، قال الأزهرى : هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه (وثالثها) القسورة : ركز الناس وأصواتهم (ورابعها) أنها ظلمة الليل . قال صاحب الكشاف : وفى تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله ، ولا ترى مثل نفار حير الوحش ، وإطرادها فى العدو إذا خافت من شئ .

ثم قال تعالى ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشورة ﴾ أنهم قالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تؤمن بك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، وتؤمر فيه باتباعك ، ونظيره (لن تؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) وقال (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم) وقيل : إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة من النار ، وقيل : كانوا يقولون بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح مكتوباً على رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك ، وهذا من الصحف المنشورة بمعزل ، إلا أن يراد بالصحف المنشورة ، الكتابات الظاهرة المكشوفة ، وقرأ سعيد بن جبير (صحفاً منشورة) بتخفيفهما على أن أنشر الصحف ونشرها واحد ، كأنزله ونزله .

ثم قال تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ وهو ردع لهم عن تلك الإرادة ، وزجر عن اقتراح الآيات .

بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ ﴿٥٦﴾

ثم قال تعالى ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ فلذلك أعرضوا عن التأمل ، فإنه لما حصلت المعجزات الكثيرة ، كفت في الدلالة على صحة النبوة فطلب الزيادة يكون من باب التعتت .

ثم قال تعالى ﴿كلا﴾ وهو ردع لهم عن إعراضهم عن التذكرة .

ثم قال تعالى ﴿إنه تذكرة﴾ يعنى تذكرة بليغة كافية ﴿فمن شاء ذكره﴾ أى جعله نصب عينه ، فإن نفع ذلك راجع إليه ، والضمير فى (إنه) (وذكره) للتذكرة فى قوله (فما لهم عن التذكرة معرضين) وإنما ذكر [ت] لأنها فى معنى الذكر أو القرآن .

ثم قال تعالى ﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ .

قالت المعتزلة : يعنى إلا أن يقسروهم على الذكر وبلجئهم إليه (والجواب) أنه تعالى نفى الذكر مطلقاً ، واستثنى عنه حال المشيئة المطلقة ، فيلزم أنه متى حصلت المشيئة أن يحصل الذكر فحيث لم يحصل الذكر علمنا أنه لم تحصل المشيئة ، وتخصيص المشيئة بالمشيئة القهرية ترك للظاهر ، وقرئ يذكرون بالياء والتاء مخففاً ومشدداً .

ثم قال تعالى ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ أى هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا وحقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم إذا آمنوا وأطاعوا ، والله سبحانه وتعالى أعلم . والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

(٧٥) سُورَةُ الْقِيَامَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا أَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المفسرون ذكروا في لفظة (لا) في قوله (لا أقسم) ثلاثة أوجه :
(الأول) أنها صلة زائدة والمعنى (أقسم بيوم القيامة) ونظيره (لتلا يعلم أهل الكتاب) وقوله (ما منعك أن لا تسجد ، فيما رحمة من الله) وهذا القول عندى ضعيف من وجوه : (أولها) أن تجوز هذا يفضى إلى الطعن في القرآن ، لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتاً والإثبات نفياً وتجوز يفضى إلى أن لا يبقى الاعتماد على إثباته ولا على نفيه (وثانيها) أن هذا الحرف إنما يزداد في وسط الكلام لا في أوله ، فإن قيل [فإن] كلام عليه من وجهين : (الأول) لانسلم أنها إنما تزداد في وسط الكلام ، ألا ترى إلى أمرى القيس كيف زادها في مستهل قصيدته وهى قوله :

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

(الثانى) هب أن هذا الحرف لا يزداد في أول الكلام إلا أن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض ، والدليل عليه أنه قد يذكّر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهو قوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وإذا كان كذلك ، كان أول هذه السورة جارياً مجرى وسط الكلام (والجواب عن الأول) أن قوله لا وأبيك قسم على النفي ، وقوله (لا أقسم) نفي للقسم ، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز ، وإنما قلنا إن قوله لا أقسم نفي للقسم ، لأنه على وزن قولنا لا أقتل لا أضرب ، لا أنصر ، ومعلوم أن ذلك يفيد النفي . والدليل عليه أنه لو حلف لا يقسم كان البر بترك القسم ، والحنت بفعل القسم ، فظهر أن البيت المذكور ، ليس من هذا الباب (وعن الثانى) أن القرآن كالسورة الواحدة فى عدم التناقض ، فيما فى أن يقرب بكل آية ما قرن بالآية الأخرى فذلك غير جائز ، لأنه يلزم جواز أن يقرب بكل إثبات حرف النفي فى سائر الآيات ، وذلك يقتضى انقلاب كل إثبات نفياً وانقلاب كل نفي إثباتاً ، وإنه لا يجوز (وثالثها) أن المراد من قولنا لا صلة أن لغو باطل ، يجب طرحه وإسقاطه حتى ينتظم الكلام ، ومعلوم أن وصف كلام الله تعالى بذلك

لا يجوز (القول الثاني) للفسرين في هذه الآية ، ما نقل عن الحسن أنه قرأ ، لا أقسم على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبير مبتدأ محذوف ، معناه لانا أقسم ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف واتفقوا في قوله ، ولا أقسم بالنفس اللوامة على لا أقسم ، قال الحسن معنى الآية أني أقسم بيوم القيامة لشرفها ، ولا أقسم بالنفس اللوامة لحساستها ، وطعن أبو عبيدة في هذه القراءة وقال لو كان المراد هذا لقال لا أقسم لأن العرب لا تقول لأفعل كذا ، وإنما يقولون لأفعلن كذا ، إلا أن الواحدى حكى جواز ذلك عن سيديويه والفراء ، واعلم أن هذا الوجه أيضاً ضعيف ، لأن هذه القراءة شاذة ، فهب أن هذا الشاذ استمر ، فما الوجه في القراءة المشهورة المتواترة ؟ ولا يمكن دفعها وإلا لكان ذلك قدحاً فيما ثبت بالتواتر ، وأيضاً فلا بد من إضمار قسم آخر لتكون هذه اللام جواباً عنه ، فيصير التقدير : والله لا أقسم بيوم القيامة ، فيكون ذلك قسماً على قسم ، وإنه ركيك ولأنه يفضى إلى التسلسل (القول الثالث) أن لفظة لا وردت للنفي ، ثم ههنا احتمالان (الأول) أنها وردت نفياً لكلام ذكر قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل لا ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل أقسم بيوم القيامة ، وهذا أيضاً فيه إشكال ، لأن إعادة حرف النفي مرة أخرى في قوله (ولا أقسم بالنفس اللوامة) مع أن المراد ما ذكره تقدح في فصاحة الكلام .

(الاحتمال الثاني) أن لاههنا لنفي القسم كأنه قال لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكنى أسألك غير مقسم أحسب أنا لا نجتمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك ، وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح ، ويمكن تقدير هذا القول على وجوه أخرى (أحدها) كأنه تعالى يقول (لا أقسم) بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإن هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه (وثانيها) كأنه تعالى يقول (لا أقسم) بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب ، فإن إثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى ، من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم ، ثم قال بعده (أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه) أى كيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد مع ظهور فساده (وثالثها) أن يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الإنكار والتقدير ألا أقسم بيوم القيامة . ألا أقسم بالنفس اللوامة على أن الحشر والنشر حق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في النفس اللوامة وجوهاً (أحدها) قال ابن عباس إن كل نفس فإنها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت برة أو فاجرة ، أما البرة فلأجل أنها لم تزد على طاعتها ، وأما الفاجرة فلأجل أنها لم تشتغل بالتقوى ، وطعن بعضهم في هذا الوجه من وجوه (الأول) أن من يستحق الثواب لا يجوز أن يلوم نفسه على ترك الزيادة ، لأنه لو جاز منه لوم نفسه على ذلك لجاز من غيره أن يلومها عليه (الثاني) أن الإنسان إنما يلوم نفسه عند الضجارة وضيق القلب ، وذلك لا يليق بأهل الجنة حال كونهم في الجنة ، ولأن المكلف يعلم أنه لا مقدار من

الطاعة إلا ويمكن الإتيان بما هو أزيد منه ، فلو كان ذلك موجباً للوم لامتنع الانفكاك عنه وما كان كذلك لا يكون مطلوب الحصول ، ولا يلام على ترك تحصيله (والجواب) عن السكك أن يحمل اللوم على تمنى الزيادة ، وحينئذ تسقط هذه الاسئلة (وثانيها) أن النفس اللوامة هي النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة بسبب أنها تركت التقوى .

(ثالثها) أنها هي النفوس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتمعت في الطاعة ، وعن الحسن أن المؤمن لا تراه إلا لأتماً نفسه ، وأما الجاهل فإنه يكون راضياً بما هو فيه من الأحوال الخسيسة (ورابعها) أنها نفس آدم لم نزل تلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة (وخامسها) المراد نفوس الأشقياء حين شاهدت أحوال القيامة وأهوالها ، فإنها تلوم نفسها على ما صدر عنها من المعاصي ، ونظيره قوله تعالى (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت) (وسادسها) أن الإنسان خلق ملولاً ، فأى شيء طلبه إذا وجده مله ، فحينئذ يلوم نفسه على أنى لم طلبته ، فلكثرة هذا العمل سمي بالنفس اللوامة ، ونظيره قوله تعالى (إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) واعلم أن قوله لوامة ، ينبىء عن التكرار والإعادة ، وكذا القول في لوام وعذاب وضرار ،

﴿ المسئلة الثالثة ﴾ اعلم أن في الآية إشكالات (أحدها) ما المناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة ، حتى جمع الله بينهما في القسم ؟ (وثانيها) المقسم عليه ، هو وقوع القيامة فيصير خاصه أنه تعالى أقسم بوقوع القيامة (وثالثها) لم قال (لا أقسم بيوم القيامة) ولم يقل والقيامة ، كما قال في سائر السور ، والطور والذاريات والضحي ؟ (والجواب) عن الأول من وجوه (أحدها) أن أحوال القيامة عجيبة جداً ، ثم المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوامة . أعنى سعادتها وشقاوتها ، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة (وثانيها) أن القسم بالنفس اللوامة تنبيه على عجائب أحوال النفس على ما قال عليه الصلاة والسلام « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ومن أحوالها العجيبة ، قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقوله (إنا عرضنا الأمانة - إلى قوله - وحملها الإنسان) وقال قائلون القسم وقع بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث إنها أبدأ تستحق فعلها وجدها واجتهادها في طاعة الله ، وقال آخرون إنه تعالى أقسم بالقيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة ، وهذا على القراءة الشاذة التي رويناها عن الحسن ، فكأنه تعالى قال (أقسم بيوم القيامة) تعظيماً لها ، ولا أقسم بالنفس اللوامة تحقيراً لها ، لأن النفس اللوامة إما أن تكون كافرة بالقيامة مع عظم أمرها ، وإما أن تكون فاسقة مقصرة في العمل ، وعلى التقديرين فإنها تكون مستحقرة .

(وأما السؤال الثاني) فالجواب عنه ما ذكرنا أن المحققين قالوا : القسم بهذه الأشياء قسم بربها وخالقها في الحقيقة ، فكأنه قيل أقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة .

أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٢١٧﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نَسْوِيَّ بَنَانَهُ

﴿٢١٧﴾

(وأما السؤال الثالث) فجوابه أنه حيث أقسم قال (والطور ، والذاريات) وأما ههنا فإنه نفي كونه تعالى مقسماً بهذه الأشياء ، فزال السؤال والله تعالى أعلم .
قوله تعالى : ﴿ أيجسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ فيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في جواب القسم وجوهاً (أحدها) وهو قول الجمهور أنه محذوف على تقدير ليبعث ويدل عليه (أيجسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه) ، (وثانيها) قال الحسن وقع القسم على قوله (بلى قادرين) ، (وثالثها) وهو أقرب أن هذا ليس بقسم بل هو نفي للقسم فلا يحتاج إلى الجواب ، فكانه تعالى يقول لا أقسم بكذا وكذا على شيء ، ولكني أسألك (أيجسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المشهور أن المراد من الإنسان إنسان معين ، روى أن عدى بن أبي ربيعة ختن الأحنس بن شريق ، وهما اللذان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهما « اللهم اكفني شر جارى السوء » قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لو عاينته ذلك اليوم لم أصدك يا محمد ولم أؤمن بك كيف يجمع الله العظام ؟ فنزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس يريد بالإنسان ههنا أبا جهل ، وقال جمع من الأصوليين بل المراد الإنسان المكذب بالبعث على الإطلاق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ قتادة (أن لن نجتمع عظامه) على البناء للمفعول ، والمعنى أن الكافر ظن أن العظام بعد تفرقها وصيرورتها تراباً واختلاط تلك الأجزاء بغيرها وبدد ما نسفتها الرياح وطيرتها في أبعاد الأرض لا يمكن جمعها مرة أخرى وقال تعالى في جوابه (بلى) فهذه الكلمة أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع ، فكانه قيل بل يجمعها ، وفي قوله (قادرين) وجهان (الأول) وهو المشهور أنه حال من الضمير في يجمع أي يجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادةها إلى التركيب الأول وهذا الوجه عندي فيه إشكال وهو أن الحال إنما يحسن ذكره إذا أمكن وقوع ذلك الأمر لا على تلك الحالة تقول رأيت زيداً راكباً لأنه لا يمكن أن نرى زيداً غير راكب ، وههنا كونه تعالى جامعاً للعظام يستحيل وقوعه إلا مع كونه قادراً ، فكان جعله حالاً جارياً مجرى بيان الواضحات ، وإنه غير جائز (والثاني) أن تقدير الآية كئنا قادرين على أن نسوي بنانه في الإبتداء فرجب أن نبقى قادرين على تلك التسوية في الانتهاء ، وقرىء قادرين أي ونحن قادرين ، وفي قوله (على أن نسوي بنانه) وجوه : (أحدها) أنه نبه بالبنان على بقية الأعضاء ، أي نقدر على أن نسوي بنانه

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿١٠٠﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿١٠١﴾

بعد صيرورته تراباً كما كان ، وتحقيقه أن من قدر على الشيء في الابتداء قدر أيضاً عليه في الإعادة وإنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم خلقه ، فكانه قيل نقدر على ضم سلاماته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت ، فكيف القول في كبار العظام (وثانيتها) بل قادرين على أن نسوى بنانه أى نجعلها مع كفه صفيحة مستوية لا شقوق فيها كحف البعير ، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وسائر الأعمال اللطيفة التي يستعان عليها بالأصابع ، والقول الأول أقرب إلى الصواب .

قوله تعالى : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾

اعلم أن قوله (بل يريد) عطف على يحسب ، فيجوز فيه أن يكون أيضاً استفهاماً كأنه استفهم عن شيء ثم استفهم عن شيء آخر ، ويجوز أن يكون إيجاباً كأنه استفهم أولاً ثم أتى بهذا الإخبار ثانياً . وقوله (ليفجر أمامه) فيه قولان : (الأول) أى ليدرء على فجره فيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه ، وعن سعيد بن جبير : يقدم الذنب ويؤخر النوبة ، يقول سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله (القول الثاني) ليفجر أمامه ، أى ليكذب بما أدامه من البعث والحساب ، لأن من كذب حقاً كان كاذباً وفاجراً ، والدليل عليه قوله (يسأل أيان يوم القيامة) فالمعنى يريد الإنسان ليفجر أمامه ، أى ليكذب بيوم القيامة وهو أمامه ، فهو يسأل أيان يوم القيامة ، متى يكون ذلك تكديباً له .

ثم قال تعالى ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ أى يسأل سؤال مستنعت مستبعد لقيام الساعة ، في قوله أيان يوم القيامة ، ونظيره يقولون متى هذا الوعد : واعلم أن إنكار البعث تارة يتولد من الشبهة وأخرى من الشهرة ، أما من الشبهة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله (يحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) وتقديره أن الإنسان هو هذا البدن فإذا مات تفرقت أجزاء البدن واختلطت تلك الأجزاء بسائر أجزاء التراب وتفرقت في مشارق الأرض ومغاربها فكان تمييزها بعد ذلك عن غيرها محالاً فكان البعث محالاً ، واعلم أن هذه الشبهة ساقطة من وجهين (الأول) لا نسلم أن الإنسان هو هذا البدن فلم لا يجوز أن يقال إنه شيء مدبر لهذا البدن فإذا فسد هذا البدن بقى هو حياً كما كان . وحينئذ يكون الله تعالى قادراً على أن يردّه إلى أى بدن شاء وأراد ، وعلى هذا القول يسقط السؤال ، وفي الآية إشارة إلى هذا لأنه أقدم بالنفس اللرامة ، ثم قال (يحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه وهو تصريح بالفرق بين النفس والبدن) (الثاني) إن سلمنا أن الإنسان هو هذا البدن فلم قلتم إنه بعد تفريق أجزائه لا يمكن جمعه مرة أخرى وذلك لأنه تعالى عالم بجميع الجزئيات فيكون عالماً بالجزء الذي هو بدن عمرو ، وهو تعالى قادر على كل الممكنات وذلك التركيب من

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَصْرُ ﴿١٠﴾

الممكنات ، وإلا لما وجد أولاً ، فيلزم أن يكون قادراً على تركيبها . ومتى ثبت كونه تعالى عالماً بجميع الجزئيات قادراً على جميع الممكنات لا يبقى في المسألة إشكال .

(وأما القسم الثاني) وهو إنكار من أنكر المعاد بناء على الشهوة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) ومعناه أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات والاستكثار من اللذات لا يكاد يقر بالحشر والنشر وبعث الأموات لئلا يتنقص عليه اللذات الجسمانية فيكون أبداً منسكراً لذلك قائلاً على سبيل الهزؤ والسخرية أيا ن يوم القيامة .

ثم إنه تعالى ذكر علامات القيامة فقال ﴿ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر من علامات القيامة في هذا الموضع أموراً ثلاثة (أولها) قوله (فإذا برق البصر) قرئ بكسر الراء وفتحها ، قال الأخفش المكسورة في كلامهم أكثر والمفتوحة لغة أيضاً ، قال الزجاج برق بصره بكسر الراء يبرق برقاً إذا تحير ، والأصل فيه أن يتحير الإنسان من النظر إلى لمعان البرق ، فيؤثر ذلك في ناظره ، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة ، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق ، كما قالوا قر بصره إذا فسد من النظر إلى القمر ، ثم استعير في الحيرة ، وكذلك بعل الرجل في أمره ، أي تحير ودهش ، وأصله من قولهم بعلت المرأة إذا فاجأها زوجها ، فنظرت إليه وتحيرت ، وأما برق بفتح الراء ، فهو من البريق ، أي لمع من شدة شخوصه ، وقرأ أبو السمال بلق بمعنى انفتح ، وانفتح يقال بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحتة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في أن هذه الحالة متى تحصل ؟ فقبل عند الموت ، وقيل عند البعث وقيل عند رؤية جهنم ، فمن قال إن هذا يكون عند الموت ، قال إن البصر يبرق على معنى يشخص عند معاينة أسباب الموت ، والملائكة كما يوجد ذلك في كل واحد إذا قرب موته ، ومن مال إلى هذا التأويل ، قال إنهم إنما سأئوه عن يوم القيامة ، ولكنه تعالى ذكر هذه الحادثة عند الموت والسبب فيه من وجهين : (الأول) أن المنكر لما قال (أيا ن يوم القيامة) على سبيل الاستهزاء فقبل له إذا برق البصر وقرب الموت زالت عنه الشكوك ، وتيقن حينئذ أن الذي كان عليه من إنكار البعث والقيامة خطأ (الثاني) أنه إذا قرب موته وبرق بصره تيقن أن إنكار البعث لأجل طلب اللذات الدنيوية كان باطلاً ، وأما من قال بأن ذلك إنما يكون عند قيام القيامة ، قال لأن السؤال إنما كان عن يوم القيامة ، فوجب أن يقع الجواب بما يكون من خواصه

وآثاره ، قال تعالى (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ، (وثانيها) قوله (وخسف القمر) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يحتمل أن يكون المراد من خسوف القمر ذهاب ضوئه كما نَعقله من حاله إذا خسف في الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد ذهابه بنفسه كقوله (نخسفنا به وبداره الأرض) .
﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ (وخسف القمر) على البناء للفعول (وثالثها) قوله (وجمع الشمس والقمر) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في كيفية الجمع وجرهاً (أحدها) أنه تعالى قال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) فإذا جاء وقت القيامة أدرك كل واحد منهما صاحبه واجتمعا (وثانيها) جمعا في ذهاب الضوء ، فهو كما يقال الشافعي يجمع ما بين كذا وكذا في حكم كذا (وثالثها) يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار ، وقيل يجمعان ثم يقذفان في البحر ، فهناك نار الله الكبرى واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها في قوله ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر إنما تستقيم على مذهب من يجعل برق البصر من علامات القيامة ، فأما من يجعل برق البصر من علامات الموت قال معنى (وخسف القمر) أي ذهب ضوء البصر عند الموت ، يقال عين خاسفة ، إذا فقت حتى غابت حدقتها في الرأس ، وأصلها من خسفت الأرض إذا ساخت بما عليها ، وقوله (وجمع الشمس والقمر) كناية عن ذهاب الروح إلى عالم الآخرة ، كأن الآخرة كالشمس ، فإنه يظهر فيها المغيبات وتتضح فيها المبهمات ، والروح كالقمر فإنه كما أن القمر يقبل النور من الشمس ، فكذا الروح تقبل نور المعارف من عالم الآخرة ، ولا شك أن تفسير هذه الآيات بعلامات القيامة أولى من تفسيرها بعلامات الموت وأشد مطابقة لها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء إنما قال جمع ، ولم يقل جمعت لأن المراد أنه جمع بينهما في زوال النور وذهاب الضوء ، وقال الكسائي ، المعنى جمع النوران أو الضيأان ، وقال أبو عبيدة ، القمر شارك الشمس في الجمع ، وهو مذكر ، فلا جرم غلب جانب التذكير في اللفظ ، قال الفراء ، قلت لمن نصر هذا القول : كيف تقولون الشمس جمع والقمر ؟ فقالوا جمعت ، فقلت ما الفرق بين الموضعين ؟ فرجع عن هذا القول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ طعن الملاحدة في الآية ، وقالوا خسوف القمر لا يحصل حال اجتماع الشمس والقمر (والجواب) الله تعالى قادر على أن يجعل القمر منخسفاً ، سواء كانت الأرض متوسطة بينه وبين الشمس ، أو لم تكن ، والدليل عليه أن الأجسام متماثلة ، فيصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر ، والله قادر على كل الممكنات ، فوجب أن يقدر على إزالة الضوء عن القمر في جميع الأحوال .

قوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ أي يقول هذا الإنسان المنكر للقيامة إذا

كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يَنْبِئُوا آلَ النَّسْنِ

يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾

عابن هذه الأحوال أين المفر ، والقراءة المشهورة بفتح الفاء ، وقرى أيضاً بكسر الفاء ، والمفر بفتح الفاء هو الفرار ، قال الأخفش والزجاج : المصدر من فعل يفعل مفتوح العين . وهو قول جمهور أهل اللغة ، والمعنى أين الفرار ، وقول القائل أين الفرار يحتمل معنيين (أحدهما) أنه لا يرى علامات ممكنة الفرار فيقول حينئذ أين الفرار ، كما إذا أيس من وجدان زيد يقول أين زيد (والثاني) أن يكون المعنى إلى أين الفرار ، وأما المفر بكسر الفاء فهو الموضع ، فزعم بعض أهل اللغة أن المفر بفتح الفاء كما يكون اسماً للمصدر ، فقد يكون أيضاً اسماً للموضع والمفر بكسر الفاء كما يكون اسماً للموضع ، فقد يكون مصدراً ونظيره المرجع .

قوله تعالى : ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع عن طلب المفر ﴿لَا وَزَرَ﴾ قال المبرد والزجاج أصل الوزر الجبل المنيع ، ثم يقال لكل ما التجأت إليه وتحصنت به وزر ، وأنشد المبرد قول كعب بن مالك :
الناس آلت علينا فإنيك ليس لنا إلا السيوف وأطراف القنا وزر

ومعنى الآية أنه لا شيء يعتصم به من أمر الله .

ثم قال تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون المستقر بمعنى الاستقرار ، بمعنى أنهم لا يقدر أن يستقروا إلى غيره ، وينصبوا إلى غيره ، كما قال (إن إلى ربك الرجعى ، وإلى الله المصير . ألا إلى الله تصير الأمور ، وأن إلى ربك المنتهى) (الثاني) أن يكون المعنى إلى ربك مستقرهم ، أى موضع قرارهم من جنة أو نار ، أى مفروض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة ، ومن شاء أدخله النار .

قوله تعالى : ﴿يَنْبِئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدم من عمل عمله ، وبما أخر من عمل لم يعمل ، أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه ، أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة ، فعمل بها بعده ، وعن مجاهد أنه مفسر بأول العمل وآخره ، ونظيره قوله (فنبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) وقال (ونكتب ما قدموا وآثارهم) واعلم أن الأظهر أن هذا الإنبا يكون يوم القيامة عند العرض ، والمحاسبة ووزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت وذلك أنه إذا مات بين له مقعده من الجنة والنار ،
قوله تعالى : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال (ينبؤ الإنسان) يومئذ بأعماله ، قال بل لا يحتاج إلى أن ينبئه غيره ، وذلك لأن نفسه شاهدة بكونه فاعلاً لتلك الأفعال ، مقدماً عليها ، ثم في قوله (بصيرة) وجهان (الأول) قال الأخفش جعله في نفسه بصيرة كما يقال فلان جود وكرم ، فهنا

وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾

أيضاً كذلك ، لأن الإنسان بضرورة عقله يعلم أن ما يقربه إلى الله ويشغله بطاعته وخدمته فهو السعادة ، وما يبعده عن طاعة الله ويشغله بالدنيا ولذاتها فهو الشقاوة ، فهب أنه بلسانه يروج ويزور ويرى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق ، لكنته بعقله السليم يعلم أن الذي هو عليه في ظاهره جيد أو ردىء (والثاني) أن المراد جوارحه تشهد عليه بما عمل فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه ، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل وهو كقوله (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) وقوله (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) وقوله (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) فأما تأنيث البصيرة ، فيجوز أن يكون لأن المراد بالإنسان ههنا الجوارح كأنه قيل بل جوارح الإنسان ، كأنه قيل بل جوارح الإنسان على نفس الإنسان بصيرة ، وقال أبو عبيدة هذه الهاء لأجل المبالغة كقوله رجل راوية وطاغية وعلامة .

واعلم أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الإنسان يخبر يوم القيامة بأعماله . ثم ذكر في هذا الآية أنه شاهد على نفسه بما عمل ، فقال الواحدى هذا يكون من الكفار فإنهم ينكرون ما عملوا فيختم الله على أفواههم وينطق جوارحهم .

قوله تعالى : ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ للفسرين فيه أقوال : (الأول) قال الواحدى المعاذير جمع معذرة يقال معذرة ومعاذير ومعاذير : قال صاحب الكشاف جمع المعذرة معاذير والمعاذير ليس جمع معذرة ، وإنما هو اسم جمع لها ، ونحوه المناكير في المنكر ، والمعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه وجادل عنها وأتى بكل عذر وحجة ، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه (القول الثانى) قال الضحاك والسدى والفراء والمبرد والزجاج المعاذير الستور واحدها معذار ، قال المبرد هي لغة يمانية ، قال صاحب الكشاف إن صححت هذه الرواية فذاك مجاز من حيث إن الستر يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب ، والمعنى على هذا القول أنه وإن أسبل الستر ليخفى ما يعمل ، فإن نفسه شاهدة عليه ،

قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ زعم قوم من قدماء الروافض أن هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص عنه ، واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها : ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك .

واعلم أن في بيان المناسبة وجوهاً (أولها) يحتمل أن يكون الاستعجال المنهى عنه ، إنما اتفق للرسول عليه السلام عند إنزال هذه الآيات عليه ، فلا جرم . نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت ، وقيل له ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقى على تلميذه

شديداً ، فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً ، فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس لا تلتفت يميناً وشمالاً ثم يعود إلى الدرس ، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثناءه ، فمن لم يعرف السبب يقول إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب ، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب (وثانيتها) أنه تعالى نقل عن الكفار أنهم يحبون السعادة العاجلة ، وذلك هو قوله (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) ثم بين أن التعجيل مذموم مطلقاً حتى التعجيل في أمور الدين ، فقال (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وقال في آخر الآية (كلا بل تحبون العاجلة) ، (وثالثها) أنه تعالى قال (بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولولأني معاذيره) فههنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر التعجيل في القراءة مع جبريل ، وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان ، فكانه قيل له إنك إذا أتيت بهذا العذر لكنك تعلم أن الحفظ لا يحصل إلا بتوفيق الله وإعانتة فترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى ، وهذا هو المراد من قوله (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) (ورابعها) كأنه تعالى قال يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم لكن لا حاجة إلى هذا فإن (الإنسان على نفسه بصيرة) وهم بقلوبهم يعلمون أن الذي هم عليه من الكفر وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث منكر باطل ، فإذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه ، ثم إن هذه المعرفة حاصلة عندهم ، فحينئذ لم يبق لهذا التعجيل فائدة ، فلا جرم قال (لا تحرك به لسانك) (وخامسها) أنه تعالى حكى عن الكافر أنه يقول أين المفر ، ثم قال تعالى (كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر) فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى إلى غيره فقيل لمحمد إنك في طلب حفظ القرآن ، تستعين بالتكرار وهذا استعانة منك بغير الله ، فترك هذه الطريقة ، واستعن في هذا الأمر بالله فكانه قيل إن الكافر يفر من الله إلى غيره ، وأما أنت فكن كالمضاد له فيجب أن تفر من غير الله إلى الله وأن تستعين في كل الأمور بالله ، حتى يحصل لك المقصود على ما قال (إن علينا جمعه وقرآنه) وقال في سورة أخرى (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك وأهلك وحيه ، وقل رب زدني علماً) أى لا تستعن في طلب الحفظ بالتكرار بل اطلبه من الله تعالى (وسادسها) ما ذكره القفال وهو أن قوله (لا تحرك به لسانك) ليس خطاباً مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله (يذنب الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) فكان ذلك للإنسان حال ما يذنب بقبائح أفعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له (اقرأ كتابك كنى بنفسك اليوم عليك حسيباً) فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به ، فانه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال ، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته ، وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية أن المراد منه أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله على سبيل التفصيل ، وفيه أشد الوعيد

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾

في الدنيا وأشد التهويل في الآخرة ، ثم قال القفال فهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من جوز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية ، فقال إن ذلك الاستعجال إن كان يأذن الله تعالى فكيف نهاه عنه وإن كان لا يأذن الله تعالى فقد صدر الذنب عنه (الجواب) لعل ذلك الاستعجال كان مأذوناً فيه إلى وقت النهي عنه ، ولا يبعد أن يكون الشيء مأذوناً فيه في وقت ثم يصير منهياً عنه في وقت آخر ، ولهذا السبب فلنا يجوز التسخير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى سـعـيـد بن جبـير عن ابن عباس ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه حفظ التنزيل وكان إذا نزل عليه الوحي يحرك لسانه وشفته قبل فراغ جبريل مخافة أن لا يحفظ ، فأنزل تعالى (لا تحرك به لسانك) أي بالوحي والتنزيل والقرآن ، وإنما جاز هذا الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه ، كما أضمر في قوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ونظير قوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) وقوله (لتعجل به) أي لتعجل بأخذه .

قوله تعالى : ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ . ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كلمة على للوجوب فقوله إن علينا يدل على أن ذلك كالواجب على الله تعالى ، أما على مذهبتنا فذلك الوجوب بحكم الوعد ، وأما على قول المعتزلة فلأن المقصود من البعثة لا يتم إلا إذا كان الوحي محفوظاً مبرأ عن النسيان ، فكان ذلك واجباً نظراً إلى الحكمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إن علينا جمعه) معناه علينا جمعه في صدرك وحفظك ، وقوله (وقرآنه) فيه وجهان (أحدهما) أن المراد من القرآن القراءة ، وعلى هذا التقدير ففيه احتمالان (أحدهما) أن يكون المراد جبريل عليه السلام ، سعيده عليك حتى تحفظه (والثاني) أن يكون المراد إنا سنقرئك يا محمد إلى أن تصير بحيث لا تنساه ، وهو المراد من قوله (سنقرئك فلا تنسى) فعلى هذا الوجه الأول القارىء جبريل عليه السلام ، وعلى الوجه الثاني القارىء محمد ﷺ (والوجه الثاني) أن يكون المراد من القرآن الجمع والتأليف ، من قرأه : ما قرأت الناقة سلاقط ، أي ما جمعت ، وبنت عمرو بن كلثوم لم تقرأ جنيناً ، وقد ذكرنا ذلك عند تفسير القرء . فإن قيل فعلى هذا الوجه يكون الجمع والقرآن واحداً فيلزم التكرار ، قلنا يحتمل أن يكون المراد من الجمع جمعه في نفسه ووجوده الخارجى ، ومن القرآن جمعه في ذهنه وحفظه ، وحينئذ يندفع التكرار .

قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ جعل قراءة جبريل عليه السلام قرآته ، وهذا يدل على الشرف العظيم لجبريل عليه السلام ، ونظيره في حق محمد عليه الصلاة والسلام (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ابن عباس : معناه فإذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه ، وفيه وجهان (الأول) قال قتادة : فاتبع حلاله وحرامه (والثاني) فاتبع قراءته ، أى لا ينبغي أن تكون قراءتك متعاقبة لقراءة جبريل ، لكن يجب أن تسكت حتى يتم جبريل عليه السلام القراءة ، فإذا سكت جبريل فخذ أنت في القراءة ، وهذا الوجه أولى لأنه عليه السلام أمر أن يدع القراءة ويستمع من جبريل عليه السلام ، حتى إذا فرغ جبريل قرأه ، وليس هذا موضع الأمر باتباع ما فيه من الحلال والحرام . قال ابن عباس : فكان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بعد هذه الآية أطرق واستمع فإذا ذهب قرأه .

قوله تعالى : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية تدل على أنه عليه السلام كان يقرأ مع قراءة جبريل عليه السلام وكان يسأل في أثناء قراءته مشكلاته ومعانيه لغاية حرصه على العلم ، فنهى النبي ﷺ عنه السلام عن الأمرين جميعاً ، أما عن القراءة مع قراءة جبريل فيقول (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) وأما عن إلقاء الاستئذان في البيان فيقول (ثم إن علينا بيانه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من جوز تأخير البيان عن وقت الخطاب بهذه الآية . وأجاب أبو الحسين عنه من وجهين (الأول) أن ظاهر الآية يقتضى وجوب تأخير البيان عن وقت الخطاب وأنتم لا تقولون به (الثاني) أن عندنا الواجب أن يقرن باللفظ إشعاراً بأنه ليس المراد من اللفظ ما يقتضيه ظاهره ، فأما البيان التفصيلي فيجوز تأخيره فتحمل الآية على تأخير البيان التفصيلي ، وذكر القفال (وجهاً ثالثاً) وهو أن قوله (ثم إن علينا بيانه) أى ثم إنا حبرك بأن علينا بيانه ، ونظيره قوله تعالى (فك رقبة - إلى قوله - ثم كان من الذين آمنوا) والجواب عن (الأول) أن اللفظ لا يقتضى وجوب تأخير البيان بل يقتضى تأخير وجوب البيان ، وعندنا الأمر كذلك لأن وجوب البيان لا يتحقق إلا عند الحاجة (وعن الثاني) أن كلمة ثم دخلت مطلق البيان فيتناول البيان المجمل والمفصل ، وأما سؤال القفال فضعيف أيضاً لأنه ترك للظاهر من غير دليل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ثم إنا علينا بيانه) يدل على أن بيان المجمل واجب على الله تعالى أما عندنا فالوعد والفضل . وأما عند المعتزلة فبالحكمة .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (كلا) ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وحث على الأناة والتؤدة ، وقد بالغ في ذلك باتباعه قوله (بل تحبون العاجلة) كأنه قال بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ، ومن ثم تحبون العاجلة

﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ ﴿

وتذرون الآخرة ، وقال سائر المفسرين (كلا) معناه حقاً أى حقاً تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ، والمعنى أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها ويتركون الآخرة ويعرضون عنها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ . تحبون وتذرون بالتاء والياء وفيه وجهان (الأول) قال الفراء القرآن إذا نزل تعريفاً لحال قوم ، فتارة ينزل على سبيل المخاطبة لهم . وتارة ينزل على سبيل المغايبه ، كقوله تعالى (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم) (الثاني) قال أبو علي الفارسي : الياء على ما تقدم من ذكر الإنسان في قوله (أychسب الإنسان) والمراد منه الكثرة ، كقوله (إن الإنسان خلق هلوياً) والمعنى أنهم يحبون ويذرون ، والتاء على قل لهم ، بل تحبون وتذرون .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال الليث : نضر اللون والشجر والورق ينضر نضرة ، والنضرة النعمة ، والناضر الناعم ، والنضر الحسن من كل شيء . ، ومنه يقال للون إذا كان مشرقاً : ناظر ، فيقال أخضر ناظر ، وكذلك في جميع الألوان ، ومعناه الذي يكون له برق ، وكذلك يقال : شجر ناظر ، وروض ناظر . ومنه قوله عليه السلام « نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها » الحديث . أ كثر الرواة رواه بالتخفيف ، وروى عكرمة عن الأصمعي : فيه التشديد ، وألفاظ المفسرين مختلفة في تفسير الناظر ، ومعناها واحد قالوا : مسرورة ، ناعمة ، مضيئة ، مسفرة ، مشرفة بهجة . وقال الزجاج : نضرت بنعيم الجنة ، كما قال (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) .

قوله تعالى : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ .

اعلم أن جمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة . أما المعتزلة فلهم ههنا مقامان (أحدهما) بيان أن ظاهره لا يدل على رؤية الله تعالى (والثاني) بيان التأويل .

(أما المقام الأول) فقالوا النظر المقرون بحرف إلى ليس اسماً للرؤية ، بل لمقدمة الرؤية وهي قلب الحدقة نحو المرئي التماس لرؤيته ، ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة ، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع ، فكما أن نظر القلب مقدمة للمعرفة ، والإصغاء مقدمة للسمع ، فكذا نظر العين مقدمة للرؤية ، قالوا والذي يدل على أن النظر ليس اسماً للرؤية وجوه (الأول) قوله تعالى (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) أثبت النظر حال عدم الرؤية ، فدل على أن النظر غير الرؤية (والثاني) أن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية ، يقال . نظر إليه نظراً شرساً ، ونظر غضبان ، ونظر راض ، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال ، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك ، فلا يقال رآه شرساً ، ورآه رؤية غضبان ، أو رؤية راض (الثالث) يقال انظر إليه حتى تراه ، ونظرت إليه فرايته ، وهذا يفيد كون الرؤية

غاية للنظر ، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية (الرابع) يقال دور فلان متناظرة ، أى متقابلة ، فسمى النظر حاصل ههنا ، ومسمى الرؤية غير حاصل (الخامس) قول الشاعر :

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصاً

أثبت النظر المقرون بحرف إلى مع أن الرؤية ما كانت حاصلة (السادس) احتج أبو علي الفارسي على أن النظر ليس عبارة عن الرؤية ، التي هي إدراك البصر ، بل هو عبارة عن تقليب الحدقة نحو الجهة التي فيها الشيء الذي يراد رؤيته ، لقول الشاعر :

فيأسمى هل يجزى بكأني بمثله مراراً وأنفاسي إليك الزوافر

واني متى أشرف على الجانب الذي به أنت من بين الجوانب ناظراً

قال : فلو كان النظر عبارة عن الرؤية لما طلب الجزاء عليه ، لأن المحب لم يطلب الثواب على رؤية المحبوب ، فإن ذلك من أعظم مطالبه ، قال : ويدل على ذلك أيضاً قول الآخر :

ونظرة ذى شجى وامق إذا ما الركائب جاوزن ميلا

والمراد منه تقليب الحدقة نحو الجانب الذي فيه المحبوب ، فعلينا بهذه الوجوه أن النظر المقرون بحرف إلى ليس اسماً للرؤية (السابع) أن قوله (إلى ربها ناظرة) معناه أنها تنظر إلى ربها خاصة ولا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول ، ألا ترى إلى قوله (إلى ربك يومئذ المستقر ، إلى ربك يومئذ المساق ، ألا إلى الله تصير الأمور ، وإليه ترجعون ، وإلى الله المصير ، عليه توكلت وإليه أنيب) كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ، ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة ، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون (الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله ، ودل العقل على أنهم يرون غير الله ، علمنا أن المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية (الثامن) قال تعالى (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) ولو قال لا يراهم كفى ، فلما نفى النظر ، ولم ينفى الرؤية دل على المغايرة ، فثبت بهذه الوجوه ، أن النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية .

(المقام الثاني) في بيان التأويل المفصل ، وهو من وجهين (الأول) أن يكون الناظر بمعنى المنتظر ، أى أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله ، وهو كقول القائل ، إنما أنظر إلى فلان في حاجتي والمراد أنتظر نجاحها من جهته ، وقال تعالى ، (فنناظرة بهم يرجع المرسلون) وقال (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) لا يقال النظر المقرون بحرف إلى غير مستعمل في معنى الانتظار ، ولأن الانتظار غم وألم ، وهو لا يليق بأهل السعادة يوم القيامة ، لآنا نقول (الجواب) عن الأول من وجهين (الأول) النظر المقرون بحرف إلى قد يستعمل بمعنى الانتظار ، والتوقع والدليل عليه أنه يقال : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، والمراد منه التوقع والرجاء ، وقال الشاعر :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعماً

وتحقيق الكلام فيه أن قولهم في الانتظار نظرت بغير صلة ، وإنما ذلك في الانتظار لمجيء الإنسان بنفسه ، فأما إذا كان منتظراً لرفده ومعوته ، فقد يقال فيه نظرت إليه كقول الرجل ، وإنما نظرى إلى الله ثم إليك ، وقد يقول ذلك من لا يبصر ، ويقول الأعمى في مثل هذا المعنى عيني شاخصة إليك ، ثم إن سلمنا ذلك لكن لا نسلم أن المراد من إلى ههنا حرف التعدى . بل هو واحد الآلاء ، والمعنى : وجوه يومئذ ناضرة نعمة ربها منتظرة .

(وأما السؤال الثاني) وهو أن الانتظار غم وألم ، فإجابته أن المنتظر . إذا كان فيما ينتظره على يقين من الوصول إليه ، فإنه يكون في أعظم اللذات ،

(التأويل الثاني) أن يضم المضاف ، والمعنى إلى ثواب ربها ناظرة ، قالوا وإنما صرنا إلى هذا التأويل ، لأنه لما دلت الدلائل السمعية والعقلية على أنه تعالى تمتنع رؤيته ووجب المصير إلى التأويل ، ولقائل أن يقول : فهذه الآية تدل أيضاً على أن النظر ليس عبارة عن تقليب الحدقة ، لأنه تعالى قال لا ينظر إليهم وليس المراد أنه تعالى يقاب الحدقة إلى جهنم فإن قلتم المراد أنه لا ينظر إليهم نظر الرحمة كان ذلك جوابنا عما قالوه .

(التأويل الثالث) أن يكون معنى (إلى ربها ناظرة) أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله ، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام « اعبد الله كأنك تراه » فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطعاهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه (الجواب) قوله ليس النظر عبارة عن الرؤبة ، قلنا ههنا مقامان :

(الأول) أن تقيم الدلالة على أن النظر هو الرؤبة من وجهين : (الأول) ما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام وهو قوله (أنظر إليك) فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئى ، لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام أثبت لله تعالى وجهة ومكاناً وذلك محال (الثاني) أنه جعل النظر أمراً مرتباً على الإرادة فيكون النظر متأخراً عن الإرادة ، وتقليب الحدقة غير متأخر عن الإرادة ، فوجب أن يكون النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئى .

(المقام الثاني) وهو الأقرب إلى الصواب ، سلمنا أن النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئى التماساً لرؤيته ، لكننا نقول لما تعذر حمله على حقيقته ووجب حمله على مسيبه وهو الرؤبة ، إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ، وحمله على الرؤبة أولى من حمله على الانتظار ، لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ولا تعلق بينه وبين الانتظار ، فكان حمله على الرؤبة أولى من حمله على الانتظار . أما قوله : النظر جاء بمعنى الانتظار ، قلنا لنا في الجواب مقامان :

(الأول) أن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن ، ولكنه لا يقرن البتة بحرف إلى كقوله تعالى (انظرونا نقبس من نوركم) وقوله (هل ينظرون إلا تأويله) (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) والذي ندعيه أن النظر المقرون بحرف إلى المعدى إلى الوجوه ليس إلا بمعنى الرؤبة

﴿ ٢٤ ﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿ ٢٥ ﴾

أو بالمعنى الذى يستعقب الرؤية ظاهر ، فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعا للاشتراك .
وأما قول الشاعر :

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا
قلنا هذا الشعر موضوع والرواية الصحيحة :

وجوه ناظرات يوم بكر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

والمراد من هذا الرحمن مسيلة الكذاب ، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليلمة ، فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء ، وأما قول الشاعر :

وإذا نظرت إليك من ملك

(فالجواب) أن قوله : وإذا نظرت إليك ، لا يمكن أن يكون المراد منه الانتظار ، لأن مجرد الانتظار لا يستعقب العطفية بل المراد من قوله : وإذا نظرت إليك ، وإذا سألتك لأن النظر إلى الإنسان مقدمة المكاملة فجاز التعبير عنه به ، وقوله كلمة إلى هنا ليس المراد منه حرف النعدي بل واحد الآلاء ، قلنا إن إلى على هذا القول تكون اسما للماهية التى يصدق عليه أنها نعمة ، فعلى هذا يكفى فى تحقق مسمى هذه اللفظة أى جزء فرض من أجزاء النعمة ، وإن كان فى غاية القلة والحقارة ، وأهل الثواب يكونون فى جميع مواقف القيامة فى النعم العظيمة المتكاملة ، ومن كان حاله كذلك كيف يمكن أن يبشر بأنه يكون فى توقع الشئ الذى ينطلق عليه اسم النعمة ، ومثال هذا أن يبشر سلطان الأرض بأنه سيصير حالك فى العظمة والقوة بعد سنة ، بحيث تكون متوقفاً لحصول اللقمة الواحدة من الخبز والقطرة الواحدة من الماء ، وكما أن ذلك فاسد من القول فكذا هذا .

(المقام الثانى) هب أن النظر المعدي بحرف إلى المقرون بالوجوه جاء فى اللغة بمعنى الانتظار لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه ، لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة فى الدنيا ، فلا بد وأن يحصل فى الآخرة شئ أزيد منه حتى يحسن ذكره فى معرض الترغيب فى الآخرة ، ولا يجوز أن يكون ذلك هو قرب الحصول ، لأن ذلك معلوم بالعقل فبطل ما ذكره من التأويل .

(وأما التأويل الثانى) وهو أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة ، فهذا ترك للظاهر ، وقوله إنما صرنا إليه لقيام الدلائل العقلية والنقلية على أن الله لا يرى ، قلنا بينا فى الكتب العقلية ضعف تلك الوجوه ، فلا حاجة هنا إلى ذكرها والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ الباسر : الشديد العبوس والباسل أشد منه ، ولكنه غلب فى الشجاع إذا اشتد كروحه ، والمعنى أنها عابسة كالحلة قد

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٦١﴾

أظلمت ألوانها وهدمت آثار السرور والنعمة منها ، لما أدركها من الشقاء واليأس من رحمة الله ، ولما سودها الله حين ميز الله أهل الجنة والنار ، وقد تقدم تفسير البسور عند قوله (عبس وبسر) وإنما كانت بهذه الصفة ، لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل ، وهو قوله (تظن أن يفعل بها فاقرة) والظن ههنا بمعنى اليقين ، هكذا قاله المفسرون ، وعندى أن الظن إنما ذكر ههنا على سبيل التهم كانه قيل إذا شاهدوا تلك الأحوال ، حصل فيهم ظن أن القيامة حق ، وأما الفاقرة ، فقال أبو عبيدة : الفاقرة الداهية ، وهو اسم للوسم الذى يفقر به على الأنف ، قال الأصمى : الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم ، أو قريب منه ، ثم يجعل فيه خشبة يجز البعير بها ، ومنه قيل عملت به الفاقرة ، قال المبرد : الفاقرة داهية تكسر الظهر ، وأصلها من الفقرة والفقارة كأن الفاقرة داهية تكسر فقار الظهر ، وقال ابن قتيبة : يقال فقرت الرجل ، كما يقال رأسه وبطنته فهو مفقور ، واعلم أن من المفسرين من فسّر الفاقرة بأنواع العذاب فى النار ، وفسرها الكلبي فقال : الفاقرة هى أن تحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال الزجاج : كلا ردع عن إثارة الدنيا على الآخرة ، كأنه قيل لما عرفتم صفة سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء فى الآخرة ، وعلمتم أنه لانسبة لها إلى الدنيا ، فارتدعوا عن إثارة الدنيا على الآخرة ، وتذهبوا على ما بين أيديكم من الموت الذى عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنقلون إلى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين ، وقال آخرون (كلا) أى حقاً إذا بلغت التراقي كان كذا وكذا ، والمقصود أنه لما بين تعظيم أحوال الآخرة بين أن الدنيا لا بد فيها من الانتهاء والنفاد والوصول إلى تجرع مرارة الموت . وقال مقاتل (كلا) أى لا يؤمن الكافر بما ذكر من أمر القيامة ، ولكنه لا يمكنه أن يدفع أنه لا بد من الموت ، ومن تجرع آلامها ، وتحمل آفاتها . ثم إنه تعالى وصف تلك الحالة التى تفارق الروح فيها الجسد فقال ﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد إذا بلغت النفس أو الروح أخبر عمالم يجر له ذكر اعلم المخاطب بذلك ، كقوله (إنا أنزلناه) والتراقي جمع ترقوة . وهى عظم وصل بين ثغرة النحر ، والعاتق من الجانبين .

واعلم أنه يكفى بلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت ، ومنه قول دريد بن الصمة :

ورب عزيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

ونظيره قوله تعالى (حتى إذا بلغت الحلقوم)

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض الطاعنين : إن النفس إنما تصل إلى التراقي بعد مفارقتها عن القلب

﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالتَّتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾

ومتى فارقت النفس القلب حصل الموت لاحالة ، والآية تدل على أن عند بلوغها التراقي ، تبقى الحياة حتى يقال فيه من راق ، وحتى تلتف الساق بالساق (والجواب) المراد من قوله (حتى إذا بلغت التراقي) أى إذا حصل القرب من تلك الحالة .

قوله تعالى : ﴿وقيل من راق﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ فى راق وجهان (الأول) أن يكون من الرقية يقال رقاها يرقه رقية إذا عوذه بما يشفيه ، كما يقال بسم الله أرقيك ، وقائل هذا القول على هذا الوجه ، هم الذين يكونون حول الإنسان المشرف على الموت ، ثم هذا الاستفهام ، يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طبيباً يشفيه ، وراقياً يرقه ، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، كما يقول القائل عند اليأس من الذى يقدر أن يرقى هذا الإنسان المشرف على الموت (الوجه الثانى) أن يكون قوله (من راق) من رقى يرقى رقىاً ، ومنه قوله تعالى (ولن تؤمن لرقيقك) وعلى هذا الوجه يكون قائل هذا القول هم الملائكة . قال ابن عباس إن الملائكة يكرهون القرب من الكافر ، فيقول ملك الموت من يرقى بهذا الكافر ، وقال الكلبي يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة ، وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت ، فإذا بلغت نفس العبد التراقي نظر بعضهم إلى بعض ، أيهم يرقى بروحه إلى السماء فهو (من راق)

﴿المسألة الثانية﴾ قال الواحدى إن إظهار النون عند حروف الفم لحسن ، فلا يجوز إظهار نون من فى قوله (من راق) وروى حفص عن عاصم إظهار النون فى قوله (من راق ، واللام بل ران) قال أبو على الفارسى ، ولا أعرف وجه ذلك ، قال الواحدى ، والوجه أن يقال قصد الوقف على من وبل ، فأظهرها ثم ابتداء بما بعدهما ، وهذا غير مرضى من القراءة .

قوله تعالى : ﴿وظن أنه الفراق﴾ قال المفسرون : المراد أنه أيقن بمفارقه الدنيا ، ولعله إنما سمى اليقين ههنا بالظن ، لأن الإنسان مادام يبقى روحه متعلقاً ببدنه ، فإنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال (كلا بل تحبون العاجلة) ولا ينقطع رجاءه عنها فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة ، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهمك .

واعلم أن الآية دالة على أن الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن ، لأنه تعالى سمى الموت فرافاً ، والفرق إنما يكون لو كانت الروح باقية ، فإن الفراق والوصال صفة ، والصفة تستدعى وجود الموصوف .

ثم قال تعالى ﴿والتفت الساق بالساق﴾ الالتفاف هو الاجتماع ، كقوله تعالى (جئنا بكم

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ
﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾

لغيفاً) وفي الساق قولان (القول الأول) أنه الأمر الشديد، قال أهل المعاني: لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمر لها عن ساقه، فمقيل للأمر الشديد ساق، وتقول العرب: قامت الحرب على ساق، أى اشتدت، قال الجعدى:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا
ثم قال: والمراد بقوله (التفت الساق بالساق) أى التفت شدة مفارقة الدنيا ولذاتها وشدة
الذهاب، أو التفت شدة ترك الأهل، وترك الولد، وترك المال، وترك الجاه، وشدة شماتة
الأعداء، وغم الأولياء، وبالجملة فالشدائد هناك كثيرة، كشدة الذهاب إلى الآخرة والقدوم على
الله، أو التفت شدة ترك الأحباب والآليات، وشدة الذهاب إلى دار الغربية (والقول الثانى) أن
المراد من الساق هذا العضو المخصوص، ثم ذكروا على هذا القول وجوهاً (أحدها) قال الشعبي
وقتادة: هما ساقاه عند الموت أما رايته في النزاع كيف يضرب بإحدى رجله على الآخري
(والثانى) قال الحسن وسعيد بن المسيب: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن (والثالث) أنه إذا مات
يبست ساقاه، والتصقت إحداهما بالآخري.

ثم قال تعالى ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ المساق مصدر من ساق يسوق، كما قال من قال
يقول، ثم فيه وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أن المسوق إليه هو الرب (والثانى) أن يكون
المراد أن السائق في ذلك اليوم هو الرب، أى سوق هؤلاء مفوض إليه.
قوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ ولكن كذب وتولى، ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴿
وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه، وفيما يتعلق
بدنياه. أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ما صدق بالدين، ولكنه كذب به، وأما ما يتعلق
بفروع الدين، فهو أنه ما صلى ولكنه تولى وأعرض وأما ما يتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى
أهله يتمطى، ويتبختر، ويختال في مشيته، واعلم أن الآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب
بترك الصلاة كما يستحقهما بترك الإيمان.

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (فلا صدق) حكاية عنمن؟ فيه قولان (الأول) أنه كناية عن الإنسان في
قوله (أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه) ألا ترى إلى قوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى)
وهو معطوف على قوله (يسأل أيا ن يوم القيامة) (والقول الثانى) أن الآية نزلت في أبى جهل.

أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ

سُدَىٰ ﴿٣٦﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في يتمط قولان (أحدهما) أن أصله يتمط أى يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه ، فقلبت الطاء فيه ياء ، كما قيل في تقصى أصله تقصص (والثاني) من المطا وهو الظهر لأنه يلوبه ، وفي الحديث « إذا مشت أمتى الميطى » أى مشية المتبختر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال أهل العربية : (لا) ههنا في موضع لم فقوله (فلا صدق ولا صلى) أى لم يصدق ولم يصل ، وهو كقوله (فلا اقتحم العقبة) أى لم يقتحم ، وكذلك ما روى في الحديث « رأيت من لا أكل ولا شرب ، ولا استهل » قال الكسائي لم أر العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها حتى تتبعها بأخرى ، إما مصرحاً أو مقدرأ ، أما المصرح فلا يقولون : لا عبد الله خارج حتى يقولون ، ولا فلان ، ولا يقولون : مررت برجل لا يحسن حتى يقولوا ، ولا يحمل ، وأما المقدر فهو كقوله (فلا اقتحم العقبة) ثم اعترض الكلام ، فقال (وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام) وكان التقدير لا فك رقبة ، ولا أطمع مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة ، ومنهم من قال التقدير في قوله (فلا اقتحم) أى أفلا اقتحم ، وهلا اقتحم .

قوله تعالى : ﴿ أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ﴾ قال قتادة والسكبي ومقاتل أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبى جهل . ثم قال (أولى لك فأولى) توعدده ، فقال أبو جهل بأى شىء تهددنى ؟ لا تستطع أنت ولا ربك أن تفعلانى شيئاً ، وإنى لأعز أهل هذا الوادى ، ثم انسل ذاهباً ، فأنزل الله تعالى كما قال له الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى قوله (أولى لك) بمعنى ويل لك ، وهو دعاء عليه ، بأن يليه ما يكرهه ، قال القاضى : المعنى بعد ذلك ، فبعداً [لك] فى أمر دنياك ، وبعداً لك ، فى أمر أخراك ، وقال آخرون المعنى الويل لك مرة بعد ذلك ، وقال القفال : هذا يحتمل وجوها (أحدها) أنه وعيد مبتدأ من الله للكافرين (والثاني) أنه شىء قاله النبي ﷺ لعدوه فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك (والثالث) أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه ، بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) فقل له يا محمد (أولى لك فأولى) أى احذر ، فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه .

قوله تعالى : ﴿ أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَىٰ ﴾ أى مهملاً لا يؤمر ، ولا ينهى ، ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب بعمله فى الآخرة ، والسدى فى اللغة المهمل يقال أسديت لبلبلى أسداه أهملتها . واعلم أنه تعالى لما ذكر فى أول السورة ، قوله (أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَىٰ) أعاد فى آخر السورة ذلك ، وذكر فى صفة البعث والقيامة دليلين (الأول) قوله (أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ

الرَّيِّكُ نُطْفَةٌ مِّنْ مَّنِيِّ يُمْنِي ۖ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً نَّخَلًا فَسَوَى ﴿٢٨﴾ فَعَمَلٌ
مِّنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أُنْ يُّجِيَّ الْمَوْتَىٰ ﴿٢٩﴾

أن يترك سدى) ونظيره قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) وقوله (أم يجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المنكر يقتضى كونه تعالى راضياً بقبائح الأفعال ، وذلك لا يليق بحكمته ، فإذا لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة .

(الدليل الثانى) على صحة القول بالحشر الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة ، وهو المراد قوله تعالى : ﴿ ألم يك نطفة من منى يمى ﴾ وفيه مسالتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ النطفة هى الماء القليل وجمعها نطاف ونطف ، يقول ألم يك ماء قليلا فى صلب الرجل وترائب المرأة ؟ وقوله (من منى يمى) أى يصب فى الرحم ، وذكرنا الكلام فى يمى عند قوله (من نطفة إذا تمى) وقوله (أفأرىتم ما تمنون) فإن قيل ما الفائدة فى يمى فى قوله (من منى يمى) ؟ قلنا فيه إشارة إلى حقارة حاله ، كأنه قيل إنه مخلوق من المنى الذى جرى على مخرج النجاسة ، فلا يليق بمثل هذا الشئ . أن يتمرد عن طاعة الله تعالى إلا أنه عبر عن هذا المعنى ، على سبيل الرمز كما فى قوله تعالى فى عيسى ومريم (كانا يأكلان الطعام) والمراد منه قضاء الحاجة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى يمى فى هذه السورة قرأتان التاء والياء ، فالتاء للنطفة ، على تقدير ألم يك نطفة تمى من المنى ، والياء للبنى من منى يمى ، أى يقدر خلق الإنسان منه . قوله تعالى : ﴿ ثم كان علقه ﴾ أى الإنسان كان علقه بعد النطفة .

أما قوله تعالى ﴿ نخلق فسوى ﴾ ففقيه وجهان (الأول) نخلق فقدر فسوى فعدل (الثانى) نخلق ، أى فننفض فيه الروح ، فسوى فكمل أعضائه ، وهو قول ابن عباس ومقاتل . ثم قال تعالى ﴿ فجعل منه ﴾ أى من الإنسان ﴿ الزوجين ﴾ يعنى الصنفين .

ثم فسرها فقال ﴿ الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ والمعنى أليس ذلك الذى أنشأ هذه الأشياء بقادر على الإعادة ، روى أنه ﷺ كان إذا قرأها قال : سبحانك بلى والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم .

(٧٦) سُورَةُ الْإِنْسَانِ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيُّهَا أَحَدِي وَتَلَاوُنٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ انفقوا على أن (هل) ههنا وفي قوله تعالى (هل أتاك حديث الغاشية) بمعنى قد، كما تقول هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول هل وعظمتك هل أعطيتك، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته، وقد تجيء بمعنى الجحد، تقول وهل يقدر أحد على مثل هذا، وأما أنها تجيء بمعنى الاستفهام فظاهر، والدليل على أنها ههنا ليست بمعنى الاستفهام وجهان (الأول) ما روى أن الصديق رضی الله عنه لما سمع هذه الآية قال: ياليتها كانت تمت فلا نبئني، ولو كان ذلك استفهاماً لما قال ليها تمت، لأن الاستفهام، إنما يجاب بلا أو بنعم، فإذا كان المراد هو الخبر، فحينئذ يحسن ذلك الجواب (الثاني) أن الاستفهام على الله تعالى محال فلا بد من حمله على الخبر.

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا في الإنسان المذكور ههنا فقال جماعة من المفسرين يريد آدم عليه السلام، ومن ذهب إلى هذا قال: إن الله تعالى ذكر خلق آدم في هذه الآية ثم عقب بذكر ولده في قوله (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه)، (والقول الثاني) أن المراد بالإنسان بنو آدم بدليل قوله (إنا خلقنا الإنسان من نطفة) فالإنسان في الموضعين واحد، وعلى هذا التقدير يكون نظم الآية أحسن.

﴿المسألة الثانية﴾ (حين) فيه قولان (الأول) أنه طائفة من الزمن الطويل الممتد وغير مقدر في نفسه (والثاني) أنه يتدر بالآربعين، فمن قال المراد بالإنسان هو آدم قال المعنى أنه مكث آدم عليه السلام أربعين سنة طيناً إلى أن نفخ فيه الروح، وروى عن ابن عباس أنه بقي طيناً أربعين سنة وأربعين من صلصال وأربعين من حمأ مسنون فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة، فهو في هذه المدة ما كان شيئاً مذكوراً، وقال الحسن خلق الله تعالى كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البر والبحر في الأيام الستة التي خلق فيها السموات والأرض وآخر ما خلق آدم عليه السلام وهو قوله (لم يكن شيئاً مذكوراً) فإن قيل إن الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

الروح فيه ما كان إنساناً ، والآية تقتضى أنه قد مضى على الإنسان حال كونه إنساناً حين من الدهر مع أنه فى ذلك الحين ما كان شيئاً مذكوراً ، فلنا إن الطين والصلصال إذا كان مصوراً بصورة الانسان ويكون محكوماً عليه بأنه سينفخ فيه الروح وسيصير إنساناً صح تسميته بأنه إنسان ، والذين يقولون الإنسان هو النفس الناطقة ، وإنها موجودة قبل وجود الأبدان ، فلاشكال عنهم زائل واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث ، ومتى كان كذلك فلا بد من محدث قادر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يكن شيئاً مذكوراً محله النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل : هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور أو الرفع على الوصف لحين ، تقديره : هل أتى على الإنسان حين لم يكن فيه شيئاً .

قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المشج : فى اللغة الخلط ، يقال مشج يمشج مشجاً إذا خلط ، والأمشاج الأخلط ، قال ابن الاعرابى واحدها مشج و مشيج ، ويقال للشئ إذا خلط مشيج كقولك خلطت وممشوج ، كقولك مخلوط . قال الهذلى :

كأن الريش والفوقين منه خلاف النصل شط به مشيج

يصف السهم بأنه قد بعد فى الرمية فالتطح ريشه وفرقاه بدم يسير ، قال صاحب الكشاف الأمشاج لفظ مفرد ، وليس يجمع بدليل أنه صفة للفرد وهو قوله (نطفة أمشاج) ويقال أيضاً نطفة مشيج ، ولا يصح أن يكون أمشاجاً جمعاً للمشج بل هما مشلان فى الإفراد ، ونظيره برمة أعشار (١) أى قطع مكسرة ، وثوب أخلاق وأرض سباب ، واختلفوا فى معنى كون النطفة مختلطة فالأكثر على أنه اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة كقوله (يخرج من بين الصلب والترائب) قال ابن عباس هو اختلاط ماء الرجل وهو أبيض غليظ وماء المرأة وهو أصفر رقيق فيختاطان ويخلق الولد منهما ، فإكان من عصب وعظم وقوة فن نطفة الرجل ، وما كان من لحم ودم فن ماء المرأة ، قال مجاهد هى ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء ، وقال عبد الله أمشاجها عروقها ، وقال الحسن يعنى من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة وذلك أن المرأة إذا تلقت ماء الرجل وجلت أمسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم ، وقال قتادة الأمشاج هو أنه يختلط الماء والدم أولاً ثم يصير علقة ثم يصير مضغة ، وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة إلى صفة ، ومن حال إلى حال . وقال قوم إن الله تعالى جعل فى النطفة أخلطاً من الطبائع التى تكون فى الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، والتقدير من نطفة ذات أمشاج خذف المضاف وتم الكلام ، قال بعض العلماء الأولى هو أن المراد اختلاط نطفة الرجل والمرأة

(١) فى المطبوعة التى نقل عنها وبرمة أشعار ، والذى أعرفه وذكره النحاة والفقهاء (برمة أعشار)

نَبْتَلِيهِ جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ

لأن الله تعالى وصف النطفة بأنها أمشاج ، وهي إذا صارت علقة فلم يبق فيها وصف أنها نطفة ، ولكن هذا الدليل لا يقدح في أن المراد كونها أمشاجاً من الأرض والماء والهواء والحر .
قوله تعالى : ﴿ نبتليه ﴾ فقيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ نبتليه معناه لنبتليه ، وهو كقول الرجل جئتكم أفضى حقلك ، أى لا قضى حقلك ، وأنتك أستمنحك ، أى لأستمنحك ، كذا قوله (نبتليه) أى لنبتليه ونظيره قوله (ولا تمنن تستكثر) أى لتستكثر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نبتليه في موضع الحال ، أى خلقناه مبتلين له ، يعنى مرادين ابتلاءه .
﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الآية قولان (أحدهما) أن فيه تقدماً وتأخيراً ، والمعنى (فجعلناه سميعاً بصيراً) لنبتليه (والقول الثاني) أنه لا حاجة إلى هذا التغيير ، والمعنى إنا خلقناه من هذه الآلهة شاج لا للبعث ، بل للابتلاء والامتحان .

ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر ، فقال ﴿ جمعاً سميعاً بصيراً ﴾ والسمع والبصر كنايةتان عن الفهم والتمييز ، كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) وأيضاً قد يراد بالسميع المطيع ، كقوله سمعاً وطاعة ، وبالبصير العالم يقال فلان بصير في هذا الأمر ، ومنهم من قال : بل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان . والله تعالى خصهما بالذكر ، لأنهما أعظم الحواس وأشرفها .

قوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أخبر الله تعالى أنه بعد أن ركب وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى والضلال ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية دالة على أن إعطاء الحواس كالمقدم على إعطاء العقل والأمر كذلك لأن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة - آلياً عن معرفة الأشياء ، إلا أنه أعطاه آلات تعينه على تحصيل تلك المعارف ، وهي الحواس الظاهرة والباطنة ، فإذا أحس بالمحسوسات تنبه لمشاركات بينها ومباينات ، ينتزع منها عقائد صادقة أولية ، كعلمنا بأن انفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وأن الكل أعظم من الجزء ، وهذه العلوم الأولية هي آلة العقل لأن بتركيباتها يمكن التوصل إلى استعلام المجهولات النظرية ، فثبت أن الحس مقدم في الوجود على العقل ، ولذلك قيل من فقد حساً فقد علماً ، ومن قال المراد من كونه سميعاً بصيراً هو العقل ، قال إنه لما بين في الآية الأولى أنه أعطاه العقل بين في هذه الآية ، أنه إنما أعطاه العقل ليبين له السبيل ويظهر له أن الذي يجب فعله ما هو . والذي لا يجوز ما هو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السبيل هو الذي يسلك من الطريق ، فيجوز أن يكون المراد بالسبيل

إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٤﴾

هنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك ، ويكون معنى هديناه ، أى عرفناه وبيننا كيفية كل واحد منهما له ، كقوله تعالى (وهديناه النجدين) ويكون السبيل اسماً للجنس ، فلماذا أفرد لفظه كقوله تعالى (إن الإنسان لني خسر) ويجوز أن يكون المراد بالسبيل ، هو سبيل الهدى لأنها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الإطلاق ، فأما سبيل الضلالة فإنما هي سبيل بالإضافة ، ألا ترى إلى قوله تعالى (إنا أطعنا سادتنا وكبرانا فأضلونا السبيل) وإنما أضلوهم سبيل الهدى ، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله (هديناه) أى أرشدناه ، وإذا أرشد لسبيل الحق ، فقد نبه على تجنب ما سواها ، فكان اللفظ دليلاً على الطريقتين من هذا الوجه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من هداية السبيل خلق الدلائل ، وخلق العقل الهادى وبعثة الأنبياء وإنزال الكتب ، كأنه تعالى قال : خلقتك للتبلاء ثم أعطيتك كل ما تحتاج إليه (لهلك من هلك عن بينة) وليس معناه خلقنا الهداية ، ألا ترى أنه ذكر السبيل ، فقال (هديناه السبيل) أى أريناه ذلك ﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الفراء هديناه السبيل ، وإلى السبيل وللسبيل ، كل ذلك جائز فى اللغة : قوله تعالى : ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الآية أقوال :

(الأول) أن شاكراً أو كفوراً حالان من الهاء ، فى هديناه السبيل ، أى هديناه السبيل كونه شاكراً وكفوراً ، والمعنى أن كل ما يتعلق بهداية الله وإرشاده ، فقد تم حالتى الكفر والإيمان .
(والقول الثانى) أنه انتصب قوله شاكراً وكفوراً بإضمار كان ، والتقدير سواء كان شاكراً أو كان كفوراً .

(والقول الثالث) معناه إنا هديناه السبيل ، ليكون إما شاكراً وإما كفوراً أى ليمتاز شكره من كفره وطاعته من معصيته كقوله (ليلوكم أيكم أحسن عملاً) وقوله : (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا) وقوله (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) قال القفال ، ومجاز هذه الكلمة هلى هذا التأويل قول القائل ، قد نصحت لك إن شئت فاقبل ، وإن شئت فترك ، أى فإن شئت فتحذف الفاء فكذا المعنى : إنا هديناه السبيل فإما شاكراً وإما كفوراً ، فتحذف الفاء وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد أى إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر وإن شاء فليشكر ، فإننا قد أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا ، كقوله (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

(القول الرابع) أن يكونا حالين من السبيل أى عرفناه السبيل ، أى إما سيلاً شاكراً ، وإما سيلاً كفوراً ، ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز .

واعلم أن هذه الأقوال كلها لا تفتي بمذهب المعتزلة .

(والقول الخامس) وهو المطابق لمذهب أهل السنة ، واختيار الفراء أن تكون إما هذه الآية كما ما في قوله (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) والتقدير (إنا هديناه السبيل) ثم جعلناه تارة (شاكراً) أو تارة (كفوراً) ويتأكد هذا التأويل بما روى أنه قرأ أبو السمال بفتح الهمزة في (أما) ، والمعنى أما شاكراً فبتوفيقنا وأما كفوراً فبخذلانا ، قالت المعتزلة هذا التأويل باطل ، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية تهديد الكفار فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً) ولو كان كفر الكافر من الله وبخلقه لما جاز منه أن يهدده عليه ، ولما بطل هذا التأويل ثبت أن الحق هو التأويل الأول وهو أنه تعالى هدى جميع المكلفين سواء آمن أو كفر ، وبطل بهذا قول المجبرة أنه تعالى لم يهد الكافر إلى الإيمان ، أجاب أصحابنا بأنه تعالى لما علم من الكافر أنه لا يؤمن ثم كلفه بأن يؤمن فقد كلفه بأن يجمع بين العلم بعدم الإيمان ووجود الإيمان وهذا تكليف بالجمع بين المتنافيين ، فإن لم يصرف هذا عذراً في سقوط التهديد والوعيد جاز أيضاً أن يخلق الكفر فيه ولا يصير ذلك عذراً في سقوط الوعيد ، وإذا ثبت هذا ظهر أن هذا التأويل هو الحق ، وأن التأويل اللائق بقول المعتزلة ليس بحق ، وبطل به قول المعتزلة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى ذكر نعمه على الإنسان فابتدأ بذكر النعم الدنيوية ، ثم ذكر بعده النعم الدينية ، ثم ذكر هذه القسمة .

واعلم أنه لا يمكن تفسير الشاكر والكفور بمن يكون مشتغلاً بفعل الشكر وفعل الكفران وإلا لم يتحقق الحصر ، بل المراد من الشاكر الذي يكون مقراً معترفاً بوجوب شكر خالقه عليه والمراد من الكفور الذي لا يقر بوجوب الشكر عليه ، إما لأنه ينكر الخالق أو لأنه وإن كان يثبت له لكنه ينكر وجوب الشكر عليه ، وحينئذ يتحقق الحصر وهو أن المكلف ، إما أن يكون شاكراً وإما أن يكون كفوراً ، واعلم أن الخوارج احتجوا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين المطيع والكافر ، قالوا لأن الشاكر هو المطيع ، والكفور هو الكافر ، والله تعالى نفي الواسطة وذلك يقتضى أن يكون كل ذنب كفراً ، وأن يكون كل مذب كفراً ، واعلم أن البيان الذى لخصناه يدفع هذا الإشكال ، فإنه ليس المراد من الشاكر الذى يكون مشتغلاً بفعل الشكر فإن ذلك باطل طرداً وعكساً ، أما الطرد فلأن اليهودى قد يكون شاكراً لربه مع أنه لا يكون مطيعاً لربه ، والفاستق قد يكون شاكراً لربه ، مع أنه لا يكون مطيعاً لربه ، وأما العكس فلأن المؤمن قد لا يكون مشتغلاً بالشكر ولا بالكفران ، بل يكون ساكناً غافلاً عنهما ، فثبت أنه لا يمكن تفسير الشاكر بذلك ، بل لا بد وأن يفسر الشاكر بمن يقر بوجوب الشكر والكفور بمن لا يقر بذلك ، وحينئذ يثبت الحصر ، ويسقط سؤالهم بالكلية والله أعلم .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين أتبعهما بالوعيد والوعد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الاعتداد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيداً حاضراً متى احتيج إليه ، كقوله تعالى (هذا ما لدى عتيد) وأما السلاسل فتشد بها أرجلهم ، وأما الأغلال فتشد بها أيديهم إلى رقابهم ، وأما السعير فهو النار التي تسمر عليهم فتوقد فيكونون حطباً لها ، وهذا من أغاظ أنواع الترهيب والتخويف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الجحيم بسلاسلها وأغلالها مخلوقة ، لأن قوله تعالى (اعتدنا) إخبار عن الماضي ، قال القاضي إنه لما توعد بذلك على التحقيق صار كأنه موجود ، قلنا هذا الذي ذكرتم ترك للظاهر فلا يصار إليه إلا لضرورة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرئ سلاسل بالتونين ، وكذلك (قواريرا قواريراً) ومنهم من يصل بغير تنوين ، ويقف بالالف فلين نون وصرف وجهان (أحدهما) أن الاخفش قال قد سمعنا من العرب صرف جميع مالا ينصرف ، قال وهذا لغة الشعراء لأنهم اضطروا إليه في الشعر فصرفوه ، فجرت ألسنتهم على ذلك (الثاني) أن هذه الجموع أشبهت الآحاد ، لأنهم قالوا صواحبات يوسف ، فلما جمعوه جمع الآحاد المنصرفة جعلوها في حكمها فصرفوها ، وأما من ترك الألف فإنه جعله كقوله (لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) وأما إلحاق الألف في الوقف فهو كالحاقها في قوله (الظنونا ، والرسولا ، والسبيلا) فيشبه ذلك بالإطلاق في القوافي .

ثم إنه تعالى ذكر ما أعد للشاكرين الموحدين فقال ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ الأبرار جمع بر ، كالأرباب جمع رب ، والقول في حقيقة البر قد تقدم في تفسير قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله) ثم ذكر من أنواع نعيمهم صفة مشروبه ، فقال (يشربون من كأس) يعني من إناء فيه الشراب ، ولهذا قال ابن عباس ومقاتل : يريد الخمر ، وفي الآية سؤالان : ﴿ السؤال الأول ﴾ أن مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيقاً ، فما السبب في ذكره ههنا ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الكافور اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورأحتها وبرده ، ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته ، فالعنى أن ذلك الشراب يكون بمزجاً بماء هذه العين (وثانيها) أن رائحة الكافور عرض فلا يكون إلا في جسم ، فإذا خلق الله تلك الرائحة في جرم ذلك الشراب سمي ذلك الجسم كافوراً ، وإن كان طعمه طيباً (وثالثها) أي بأس في أن

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٢٤١﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ

يخلق الله تعالى الكافور في الجنة لكن من طعم طيب لذيد ، ويسلب عنه ما فيه من المضرة ؟ ثم إنه تعالى يمزجه بذلك المشروب ، كما أنه تعالى سلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها في الدنيا من المضار .

(السؤال الثاني) ما فائدة كان في قوله (كان مزاجها كافورا) ؟ (الجواب) منهم من قال إنها زائدة ، والتقدير من كأس مزاجها كافورا ، وقيل بل المعنى كان مزاجها في علم الله ، وحكمه كافورا قوله تعالى : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن قلنا الكافور اسم النهر كان عينا بدلا منه ، وإن شئت نصبت على المدح ، والتقدير أعنى عينا ، أما إن قلنا إن الكافور اسم لهذا الشيء المسمى بالكافور كان عينا بدلا من محل من كأس على تقدير حذف مضاف ، كأنه قيل يشربون خمر أخمر عين ، ثم حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .
﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في الآية الأولى (يشربون من كأس) وقال ههنا يشرب بها ، فذكر هناك من وههنا الباء ، والفرق أن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته . وأما العين فيها يمزجون شرابهم فكان المعنى : يشرب عباد الله بها الخمر ، كما تقول شربت الماء بالعسل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (يشرب بها عباد الله) عام فيفيد أن كل عباد الله يشربون منها ، والكفار بالاتفاق لا يشربون منها ، فدل على أن لفظ عباد الله مختص بأهل الإيمان ، إذا ثبت هذا فقوله (ولا يرضى لعباده الكفر) لا يتناول الكفار بل يكون مختصا بالمؤمنين ، فيصير تقدير الآية ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، فلا تدل الآية على أنه تعالى لا يريد كفر الكافر .

قوله تعالى : ﴿ يفجرونها تفجيرا ﴾ معناه يفجرونها حيث شاءوا من منازلهم تفجيرا سهلا لا يمتنع عليهم واعلم أنه سبحانه لما وصف ثواب الأبرار في الآخرة شرح أعمالهم التي بها استوجبوا ذلك الثواب فالأول قوله تعالى ﴿ يوفون بالنذر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإيفاء بالشيء هو الإتيان به وافيًا ، أما النذر فقال أبو مسلم النذر كالوعد ، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر ، وإن كان من الله تعالى فهو وعد ، واختص هذا اللفظ في عرف الشرع بأن يقول لله على كذا وكذا من الصدقة ، أو يعلق ذلك بأمر ياتمه من الله تعالى مثل أن يقول إن شق الله مريضى ، أو رد غائبى فعلى كذا كذا ، واختلفوا فيما إذا علق ذلك بما ليس من وجوه البر ، كما إذا قال إن دخل فلان الدار فعلى كذا ، فن الناس من جعله كاليمين ، ومنهم من جعله من باب النذر ، إذا عرفت هذا ، فنقول المفسرين في تفسير الآية أقوال (أولها) أن المراد من النذر هو النذر فقط ، ثم قال الأصم هذا مبالغة في وصفهم بالترفر على أداء الواجبات . لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان بما أوجبه الله عليه أوفى ، وهذا

وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾

التفسير في غاية الحسن (وثانيتها) المراد بالنذر ههنا كل ما وجب عليه سواء وجب بإيجاب الله تعالى ابتداءً أو بأن أوجبه المكلف على نفسه فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات ، وذلك لأن النذر معناه الإيجاب (وثالثتها) قال الكلبي المراد من النذر العهد والعقد ، ونظيره قوله تعالى (أوفوا بعهدي أوف بعهدكم) فسمى فرائضه عهداً ، وقال (أوفوا بالعقود) سماها عقوداً لأنهم عقدها على أنفسهم باعتقادهم الإيمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر ، لأنه تعالى عقبه بيخافون يوماً وهذا يقتضى أنهم إنما وفوا بالنذر خوفاً من شر ذلك اليوم ، والخوف من شر ذلك اليوم لا يتحقق إلا إذا كان الوفاء به واجباً ، وتأكد هذا بقوله تعالى (ولا تنقضوا الإيمان) بعد تركيدها وبقوله (ثم ليقضوا تفهم وليوفوا نذورهم) فيحتمل لوفوا أعمال نسكهم التي ألزموا أنفسهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الفراء وجماعة من أرباب المعاني : كان في قوله (كأن مزاجها كافوراً) زائدة . وأما ههنا فكان محذوفة ، والتقدير كانوا يوفون بالنذر . ولقائل أن يقول : إنا بينا أن كان في قوله (كأن مزاجها) ليست بزائدة ، وأما في هذه الآية فلا حاجة إلى إضمارها ، وذلك لأنه تعالى ذكر في الدنيا أن الأبرار يشربون أى سيشربون ، فإن لفظ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال ، ثم قال السبب في ذلك الثواب الذي سيجدونه أنهم الآن (يوفون بالنذر) .

(النوع الثانى) من أعمال الأبرار التي حكها الله تعالى عنهم قوله تعالى ﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ .

واعلم أن تمام الطاعة لا يحصل إلا إذا كانت النية مقرونة بالعمل ، فلما حكى عنهم العمل وهو قوله (يوفون) حكى عنهم النية وهو قوله (ويخافون يوماً) وتحقيقه قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » وجموع هذين الأمرين سماهم الله تعالى بالأبرار ، وفي الآية سوالات :

(السؤال الأول) أحوال القيامة وأهلها كلها فعل الله ، وكل ما كان فملا لله فهو يكون حكمة وصواباً ، وما كان كذلك لا يكون شراً ، فكيف وصفها الله تعالى بأنها شر ؟ (الجواب) أنها إنما سميت شراً لكونها مضرّة بمن تنزل عليه وصعبة عليه ، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شروراً .

(السؤال الثانى) ما معنى المستطيراً ؟ (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) الذى يكون فاشياً منتشراً بالغاً أقصى المبالغ ، وهو من قولهم : استطار الحريق ، واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر ، فإن قيل كيف يمكن أن يقال شر ذلك اليوم مستطير منتشر ، مع أنه تعالى قال في صفة أوليائه (لا يحزنهم الفزع الأكبر) ؟ قلنا الجواب من وجهين (الأول) أن هول القيامة شديد ، ألا ترى أن السموات تنشق وتنفطر وتصير كالمهل ، وتتناثر الكواكب ، وتمتلك

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ
لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا قَطْرِيرًا ﴿١٠﴾

الشمس والقمر ، وتفرغ الملائكة ، وتبدل الأرض غير الأرض ، وتنسف الجبال ، وتسجر البحار
وهذا الهول عام يصل إلى كل المكلفين على ما قال تعالى (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت
وقال (يوما يجعل الولدان شيباً) إلا أنه تعالى بفضله يؤمن أوليائه من ذلك الفزع (والجواب
الثاني) أن يكون المراد أن شر ذلك اليوم يكون مستطيراً في العصاة والفجار . وأما المؤمنون فهم
آمنون ، كما قال (لا يحزنهم الفزع الأكبر ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الحمد لله الذي
أذهب عنا الحزن) إلا أن أهل العقاب في غاية الكثرة بالنسبة إلى أهل الثواب ، فأجرى الغالب
مجرى الكل على سبيل المجاز .

(القول الثاني) في تفسير المستطير أنه الذي يكون سريع الوصول إلى أهله ، وكأن هذا
القائل ذهب إلى أن الطيران إسراع .

(السؤال الثالث) لم قال كان شره مستطيراً ، ولم يقل وسيكون شره مستطيراً؟ (الجواب)
اللفظ وإن كان للداخى ، إلا أنه بمعنى المستقبل ، وهو كقوله (وكان عهد الله مسؤلاً) ويحتمل
أن يكون المراد إنه كان شره مستطيراً في علم الله وفي حكمته ، كأنه تعالى يفتنر ويقول إيصال
هذا الضرر إنما كان لأن الحكمة تقتضيه ، وذلك لأن نظام العالم لا يحصل إلا بالوعد والوعيد ،
وهما يوجبان الوفاء به ، لاستحالة الكذب في كلامي ، فكأنه تعالى يقول كان ذلك في الحكمة
لازماً ، فلهذا السبب فعلته ،

(النوع الثالث) من أعمال الأبرار قوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً
وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً
قطريراً ﴾

اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله
(يوفون بالنذر) والشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله (ويطعمون الطعام) وههنا مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ لم يذكر أحد من أكابر المعتزلة ، كأبي بكر الأصم وأبي علي الجبائي
وأن القاسم الكعبي ، وأبي مسلم الأصفهاني ، والقاضي عبد الجبار بن أحمد في تفسيرهم أن هذه
الآيات نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام ، والواحدى من أصحابنا ذكر في كتاب

البسيط أنها نزلت في حق علي عليه السلام ، وصاحب الكشاف من المعتزلة ذكر هذه القصة ، فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الحسن والحسين عليهما السلام مرضاً فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس معه ، فقالوا يا أبا الحسن لو نذرت علي ولدك ، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما ، إن شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء فاستقرض علي من شعرون الخيبرى اليهودى ثلاثة أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص علي عددهم ووضعها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فأثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صائمين ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يقيم فأثروه وجاءهم أسير في الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي عليه السلام بيد الحسن والحسين ودخلوا على الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفرخ من شدة الجوع قال ما أشد ما يسوءنى ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظورها وغارت عيناها فساءه ذلك ، فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأها السورة» والأولون يقولون إنه تعالى ذكر في أول السورة أنه إنما خلق الخلق للابتلاء والامتحان ، ثم بين أنه هدى الكل وأزاح عنهم ثم بين أنهم انقسموا إلى شاكر وإلى كافر ثم ذكر وعيد الكافر ثم أتبعه بذكر وعد الشاكر فقال (إن الأبرار يشربون) وهذه صيغة جمع فتناول جميع الشاكرين والأبرار ، ومثل هذا لا يمكن تخصيصه بالشخص الواحد ، لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضى أن يكون هذا بياناً لحال كل من كان من الأبرار والمطيعين ، فلو جعلناه مختصاً بشخص واحد لفسد نظم السورة (والثاني) أن المرصوفين بهذه الصفات المذكورون بصيغة الجمع كقوله (إن الأبرار يشربون ، ويوفون بالنذر ، ويخافون ويطعمون) وهكذا إلى آخر الآيات فتخصيصه بجمع معينين خلاف الظاهر ، ولا يتكر دخول علي بن أبي طالب عليه السلام فيه ، ولكنه أيضاً داخل في جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين ، فكما أنه داخل فيها فكذا غيره من أتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها ، فحينئذ لا يبقى للتخصيص معنى البتة ، اللهم إلا أن يقال السورة نزلت عند صدور طاعة مخصوصة عنه ، ولكنه قد ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المعلن يقولون هذه الآية مختصة بعلي بن أبي طالب عليه السلام ، قالوا المراد من قوله (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) هو ما روينا أنه عليه السلام أطعم المسكين واليتيم والأسير ، وأما الذين يقولون الآية عامة في حق جميع الأبرار [فانهم] قالوا إطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأى وجه كان ، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه ، ووجه ذلك أن أشرف أنواع الإحسان هو الإحسان بالطعام وذلك لأن قوام الأبدان

بالطعام ولا حياة إلا به ، وقد يتوهم إمكان الحياة مع فقد ما سواه ، فلما كان الإحسان لا جرم عبر به عن جميع وجوه المنافع والذي يقوى ذلك أنه يعبر بالأكل عن جميع وجوه المنافع ، فيقال أكل فلان ماله إذا أتلفه في سائر وجوه الإتلاف ، وقال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) وقال (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) إذا ثبت هذا فذموا : إن الله تعالى وصف هؤلاء الأبرار بأنهم يواسون بأموالهم أهل الضعف والحاجة ، وأما قوله تعالى (على حبه) ففيه وجهان (أحدهما) أن يكون الضمير للطعام أى مع اشتهاه والحاجة إليه ونظيره (وآتى المال على حبه ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فقد وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم على ما قال (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (والثاني) قال الفضيل بن عياض على حب الله أى لحبهم لله : واللام قد تقام مقام على ، وكذلك تقام على مقام اللام ، ثم إنه تعالى ذكر أصناف من تجب مواساتهم ، وهم ثلاثة (أحدهم) المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه (والثاني) اليتيم وهو الذى مات كاسبه فيبقى عاجزاً عن الكسب لصغره مع أنه مات كسبه (والثالث) الأسير وهو المأخوذ من قومه المملوك [هـ] رقبته الذى لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة ، وهؤلاء الذين ذكروهم الله تعالى ههنا هم الذين ذكروهم في قوله (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة) وقد ذكرنا اختلاف الناس في المسكين قبل هذا ، أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال (أحدها) قال ابن عباس والحسن وقتادة إنه الأسير من المشركين ، روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الأسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم ، وذلك لأنه يجب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيهم من قتل أو من أوفداه أو استرقاق ، ولا يمتنع أيضاً أن يكون المراد هو الأسير كافر أو مسلماً ، لأنه إذا كان مع الكفر يجب إطعامه فمع الإسلام أولى ، فإن قيل لما وجب قتله فكيف يجب إطعامه ؟ قلنا القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى ، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر ، ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص أن يفعل به ما هو دون القتل ثم هذا الإطعام على من يجب ؟ فنقول الإمام يطعمه فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين (وثانيها) قال السدي الأسير هو المملوك (وثالثها) الأسير هو الغريم قال عليه السلام « غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك » (ورابعها) الأسير هو المسجون من أهل القبلة وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير ، وروى ذلك مرفوعاً من طريق الخدرى أنه عليه السلام قال (مسكيناً) فقيراً (ويتيماً) لا أب له (وأسيراً) قال المملوك المسجون (وخامسها) الأسير هو الزوجة لأنهن أسراء عند الأزواج ، قال عليه الصلاة والسلام « اتقوا الله في النساء فانهن عندكم أعوان » قال القفال واللفظ محتمل كل ذلك لأن الأصل الأسر هو الشد بالقد ، وكان الأسير يفعل به ذلك حبساً له ، ثم سمي بالأسير من شد ومن لم يشد فعاد المعنى إلى الحبس .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين بين أن لهم فيه غرضين (أحدهما) تحصيل رضا الله . وهو المراد من قوله (إنما نطعمكم لوجه الله) (والثاني) الاحتراز من خرف يوم القيامة وهو المراد من قوله (إننا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (إنما نطعمكم لوجه الله) إلى قوله (قمطريراً) يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون هؤلاء الأبرار قد قالوا هذه الأشياء باللسان ، إما لاجل أن يكون ذلك القول منعاً لأولئك المحتاجين عن المجازاة بمثله أو بالشكر ، لأن إحسانهم مفعول لاجل الله تعالى فلا معنى لمكافأة الخلق ، وإما أن يكون لاجل أن يصير ذلك القول تفتيحاً وتنبهياً على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله حتى يقتدي غيرهم بهم في تلك الطريقة (وثانيها) أن يكونوا أرادوا أن يكون ذلك (وثالثها) أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئاً . وعن مجاهد أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى عليهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن الإحسان من الغير تارة يكون لاجل الله تعالى ، وتارة يكون لغير الله تعالى إما طلباً لمكافأة أو طلباً للحمد وثناء وتارة يكون لهما وهذا هو الشرك والأول هو المقبول عند الله تعالى ، وأما القسمان الباقيان فردودان قال تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس) وقال (وما أوتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عنه) الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجهه الله فأوائلكم هم المضعفون) ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى . إذا عرفت هذا فنقول : القوم لما قالوا (إنما نطعمكم لوجه الله) بقى فيه احتمال أنه أطعمه لوجه الله وأسائر الأغراض على سبيل التمشريك ، فلا جرم نفي هذا الاحتمال بقوله (لا تريد منكم جزاء ولا شكوراً) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر ، وهو على وزن الذخول والخروج ، هذا قول جماعة أهل اللغة ، وقال الأخفش إن شئت جعلت الشكور جماعة الشكر وجعلت الكفور جماعة الكفر لقوله (فأني الظالمون إلا كفوراً) مثل برد وبرود وإن شئت مصدرأ واحداً في معنى جمع مثل قعد قعوداً وخرج خروجاً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (إننا نخاف من ربنا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن إحساناً إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافآتكم (والثاني) أنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة ، فإن قيل إنه تعالى حكى عنهم الإيفاء بالنذر وعلل ذلك بخوف القيامة فقط ، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين بطلب رضا الله وبالخوف عن القيامة فما السبب فيه ؟ فلنا الإيفاء بالنذر دخل في حقيقة طلب رضا الله تعالى ، وذلك لأن النذر هو الذي أوجبه الإنسان على نفسه لاجل الله فلما كان كذلك لا جرم ضم إليه خوف القيامة فقط ، أما الإطعام ، فإنه لا يدخل في حقيقة طلب رضا الله ، فلا جرم ضم إليه طلب رضا الله وطلب الحذر من خوف القيامة .

فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْم نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّهْم بِمَا
صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ

﴿ المسألة الخامسة ﴾ وصف اليوم بالعبوس مجازاً على طريقتين (أحدهما) أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم نهارك صائم ، روى أن الكافر يحبس حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران (والثاني) أن يشبه في شدته وضاوته بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال الزجاج جاء في التفسير أن قطرياً معناه تعيس الوجه ، فيجتمع ما بين العينين ، قال : وهذا سائغ في اللغة يقال انقطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورست بأنفها يعني أن معنى انقطر في اللغة جمع ، وقال الكلبي قطرياً يعني شديداً وهو قول الفراء وأبي عبيدة والمبرد وابن قتيبة ، قالوا يوم قطري ، وقاطر إذا كان صعباً شديداً أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء ، قال الواحدي هذا معنى والتفسير هو الأول .

قوله تعالى : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعات لغرضين طلب رضا الله والخوف من القيامة بين في هذه الآية أنه أعطاهم هذين الغرضين ، أما الحفظ من هول القيامة ، فهو المراد بقوله (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) وسمى شدائدنا شرّاً توسعاً على ما علمت ، واعلم أن هذه الآية أحد ما يدل على أن شدائد الآخرة لا تصل إلا إلى أهل العذاب ، وأما طلب رضا الله تعالى فأعطاهم بسببه نضرة في الوجه وسروراً في القلب ، وقد مر تفسير (ولقاهم) في قوله (ويلاقون فيها تحية) وتفسير النضرة في قوله (وجوه يومئذ ناضرة) والتتكير في (سروراً) للتعظيم والتفخيم .

قوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ والمعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدى إليه من الجوع والعري ، بسناناً فيه ما كل هنيء وحريراً فيه ملبس بهي ، ونظيره قوله تعالى (ولباسهم فيها حرير) أقول وهذا يدل على أن المراد من قوله (إنما نطعمكم) ليس هو الإطعام فقط بل جمع أنواع المواساة من الطعام والكسوة ، ولما ذكر تعالى طعامهم ولباسهم ، وصف مساكنهم ، ثم إن المعتبر في المساكن أمور :

﴿ أحدها ﴾ الموضع الذي يجلس فيه فوصفه بقوله : ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ وهي السرر في المجال ، ولا تكون أريكة إلا إذا اجتمعت ، وفي نصب متكئين وجهان (الأول) قال الأخفش إنه نصب على الحال ، والمعنى وجزاهم جنة في حال اتكائهم كما تقول جزاهم ذلك قياماً ، (والثاني) قال الأخفش وقد يكون على المدح .

لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذَلَّتْ

قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ﴿١٤﴾

(والثاني) هو المسكن فوصفه بقوله ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زهريراً ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) أن هواها معتدل في الحر والبرد (والثاني) أن الزمهرير هو القمر في لغة طى . هكذا رواه ثعلب وأنشد :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزهري مازهر

والمعنى أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر .

(والثالث) كونه بستاناً نزهاً ، فوصفه الله تعالى بقوله ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ وفي الآية سؤالان (الأول) ما السبب في نصب (ودانية) ؟ (الجواب) ذكر الاخفش والكسائي والفراء والزجاج فيه وجهين (أحدهما) الحال بالعطف على قوله (متسكنين) كما تقول في الدار : عبد الله متسكناً ومرسلة عليه الجمال ، لأنه حيث قال عليهم رجوع إلى ذكرهم (والثاني) الحال بالمعطف على محل (يرون فيها شمساً ولا زهريراً) والتقدير غير رائين فيها شمساً ولا زهريراً (ودانية عليهم ظلالها) ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم الجنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والبرد ، ودنو الظلال عنهم (والثالث) أن يكون دانية نعتاً للجنة ، والمعنى : وجزاهم الجنة دانية ، وعلى هذا الجواب تكون دانية صفة لموصوف محذوف ، كأنه قيل وجزاهم بما صبروا الجنة وحريراً ، وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، وذلك لأنهم وعدوا جنتين ، وذلك لأنهم خافوا بدليل قوله (إنا نخاف من ربنا) وكل من خاف فله جنتان ، بدليل قوله (ولن خاف مقام ربه جنتان) وقرى . (ودانية) بالرفع على أن (ظلالها) مبتدأ (ودانية) خبر ، والجملة في موضع الحال ، والمعنى (لا يرون فيها شمساً ولا زهريراً) والحال أن ظلالها دانية عليهم . (السؤال الثاني) الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس ، فإن كان لا شمس في الجنة فكيف يحصل الظل هناك ؟ (والجواب) أن المراد أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الأشجار مظلة منها .

قوله تعالى : ﴿ وذلك قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ﴾ ذكروا في ذلك وجهين (الأول) قال ابن قتيبة : ذلك أدنيت منهم من قولهم : حائط ذليل إذا كان قصير السمك (والثاني) ظلت أى جعلت منقادة ولا تمتنع على قطاقها كيف شاءوا . قال البراء بن عازب : ذلك لهم فهم يتناولون منها كيف شاءوا ، فن أكل قائماً لم يؤذه ومن أكل جالساً لم يؤذه ومن أكل مضطجماً لم يؤذه .

واعلم أنه تعالى لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف بعد ذلك شرابهم وقدم عليه

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ

فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾

وصف تلك الأواني التي فيها يشربون فقال ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قوارير من فضة قدروها تقديراً﴾ في الآية سوالات :

﴿السؤال الأول﴾ قال تعالى (ويطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) والصحاف هي القصاص ، والغالب فيها الأكل فإذا كان ما ياكلون فيه ذهباً فما يشربون فيه أولى أن يكون ذهباً لأن العادة أن يتنوق في إناء الشرب ما لا يتنوق في إناء الأكل وإذا دلت هذه الآية على أن إناء شربهم يكون من الذهب فكيف ذكر ههنا أنه من الفضة (والجواب) أنه لا منافاة بين الأمرين فتارة يسقون بهذا وتارة بذلك .

﴿السؤال الثاني﴾ ما الفرق بين الآنية والأكواب ؟ (الجواب) قال أهل اللغة الأكواب السكيزان التي لا عرى لها ، فيحتمل أن يكون على معنى أن الإناء يقع فيه الشرب كالقدح ، والسكوب ما صب منه في الإناء كالإبريق .

﴿السؤال الثالث﴾ ما معنى كانت ؟ (الجواب) هو من يكون في قوله (كن فيكون) أي تكونت قوارير بتسكين الله تفخيماً لتلك الحلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين ، ﴿السؤال الرابع﴾ كيف تكون هذه الأكواب من فضة ومن قوارير ؟ (الجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن أصل القوارير في الدنيا الرمل وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة فكما أن الله تعالى قادر على أن يقلب الرمل الكشيف زجاجة صافية ، فكذلك هو قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة ، فالغرض من ذكر هذه الآية ، التنبه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة فضة الجنة إلى رمل الدنيا ، فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين ، فكذا بين القارورتين في الصفاء واللطافة (وثانيها) قال ابن عباس ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء وإذا كان كذلك فكالمال الفضة في بقائها ونقاؤها وشرفها إلا أنه كثيف الجوهر ، وكالمال القارورة في شفافيتها وصفائها إلا أنه سريع الانكسار ، فأنية الجنة آنية يحصل فيها من الفضة بقاؤها ونقاؤها ، وشرف جوهرها ، ومن القارورة ، صفائها وشفافيتها (وثالثها) أنها تكون فضة ولكن لها صفاء القارورة ، ولا يستبعد من قدرة الله تعالى الجمع بين هذين الوصفين (ورابعها) أن المراد (بالقوارير) في الآية ليس هو الزجاج ، فإن العرب تسمى ما استدار من الأواني التي تجمل فيها الأشربة ورق وشفافقارورة ، فمعنى الآية (وأكواب من فضة) مستديرة صافية رقيقة .

وَيَسْقُونَ فِيهَا كَاسًا كَانَتْ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

(السؤال الخامس) كيف القراءة في (قواريرا ، قوارير) ؟ (الجواب) قرئاً غير منونين وبتنوين الأول وبتنوينهما ، وهذا التنوين يدل عن ألف الإطلاق لأنه فاصلة ، وفي الثاني لاتباعه الأول لأن الثاني يدل من الأول فيتبع البدل المبدل ، وقرئ (قوارير من فضة) بالرفع على هي قوارير ، وقدروها صفة لقوارير من فضة .

أما قوله تعالى (قدروها تقديراً) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المفسرون معناه (قدروها تقديراً) على قدر زهيم لا يزيد ولا ينقص من الرى ليكون الذ لشربهم ، وقال الربيع بن أنس : إن تلك الأواني تكون بمقدار ملء الكف لم تعظم فيثقل حملها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن منتهى مراد الرجل في الأنية التي يشرب منها الصفاء والنقاء والشكل . أما الصفاء فقد ذكره الله تعالى بقوله (كانت قوارير) وأما النقاء فقد ذكره بقوله من فضة ، وأما الشكل فقد ذكره بقوله (قدروها تقديراً) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المقدر لهذا التقدير من هو ؟ فيه قولان (الأول) أنهم هم الطائفون الذين دل عليهم قوله تعالى (ويطاف عليهم) وذلك أنهم قدروا شرايها على قدر رى الشارب (والثاني) أنهم هم الشاربون وذلك لأنهم إذا اشتبهوا مقداراً من المشروب جاءهم على ذلك القدر وإعلم أنه تعالى لما وصف أواني مشروبهم ذكر بعد ذلك وصف مشروبهم ، فقال ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ العرب كانوا يحبون جمل الزنجبيل في المشروب ، لأنه يحدث فيه ضرباً من اللذع ، فلذا كان كذلك وصف الله شراب أهل الجنة بذلك ، ولا بد وأن تكون في الطيب على أقصى الوجوه . قال ابن عباس : وكل ما ذكره الله تعالى في القرآن بما في الجنة ، فليس منه في الدنيا إلا الاسم ، وتتمام القول ههنا مثل ما ذكرناه في قوله (كان مزاجها كافوراً) .

قوله تعالى : ﴿ عينا فيها تسمى سلسبيلا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن الأعرابي لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن ، فعلى هذا لا يعرف له اشتقاق ، وقال الآكثرون يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل أى عذب سهل المساغ ، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة سداسية ، ودلت على غاية السلاسة ، قال الزجاج السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة ، والفائدة في ذكر السلسبيل هو أن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل ، وليس فيه لذعة لأن نقيض اللذع هو السلاسة ، وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام أن معناه : سل سبيلا إليها ، وهو بعيد إلا أن يراد أن جملة قول

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا

رَأَيْتَ تُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

القائل سلسيلا جعلت علماً للعين ، كما قيل تأبط شراً ، وسميت بذلك ، لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سيلا بالعمل الصالح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في نصب عيناً وجهان (أحدهما) أنه بدل من زنجيلا (وثانيهما) أنه نصب على الاختصاص .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سلسيلا صرف لأنه رأس آية ، فصار كقوله الظنونا والسبيلا ، وقد تقدم في هذه السورة بيان ذلك . واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك من يكون خادماً في تلك المجالس .

فقال ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة و الأقرب أن المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها ، وذلك يتضمن دوام حياتهم و حسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة ، قال الفراء يقال مخلدون مسورون ويقال مقرطون . وروى نبطويه عن ابن الأعرابي مخلدون محلون .

﴿ والصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى : ﴿ إذا رأيتهم لوأوا منشوراً ﴾ وفي كيفية التشبيه وجوه (أحدها) شهبوا في حسنهم و صفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنشور و لو كان صفاً لشهبوا باللؤلؤ المنظوم ، ألا ترى أنه تعالى قال (ويطوف عليهم) فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين (وثانيها) أنهم شهبوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفة لأنه أحسن وأكثر ماء . (وثالثها) قال القاضي هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفاً للمجتمع منه . واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة ، أتبعه بما يدل على أن هناك أموراً أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال ﴿ وإذا رأيتهم نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ رأيت هل له مفعول ؟ فيه قولان (الأول) قال الفراء : المعنى وإذا رأيت ما ثم وصلح إضمار ما كما قال (لقد قطع بينكم) يريد ما بينكم ، قال الزجاج لا يجوز إضمار ما لأن ثم صلة وما موصولة ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة (الثاني) أنه ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر والغرض منه أن يشبع ويعم ، كأنه قيل وإذا وجدت الرؤية ثم ، ومعناه أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير ، و ثم في موضع النصب على الظرف يعنى في الجنة . .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة . قضاء الشهوة ، وإمضاء

عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ

الغضب ، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بجمع المال والجاه ، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها ، فالملك الكبير الذي ذكره الله هنا لا بد وأن يكون مغابراً لملك اللذات الحفيرة ، وما هو إلا أن تصير نفسه منقشة بقدر المسكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت ، وأما ما هو على أصول المتكلمين ، فالوجه فيه أيضاً أنه الثراب والمنفعة المقرونة بالتعظيم فيبين تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبين في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم ، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره ، قال ابن عباس لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه . ويقال إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أفضاه كما يرى أدناه ، وقيل لازوال له وقيل إذا أرادوا شيئاً حصل ، ومنهم من حمله على التعظيم . فقال الكلبي هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه ، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم قوله (وإذا رأيت) خطاب لمحمد خاصة ، والدليل عليه أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت إن دخلت الجنة أتري عيناى ما ترى عيناك ؟ فقال نعم ، فيبكي حتى مات ، وقال آخرون بل هو خطاب لكل أحد .
قوله تعالى : ﴿ عليهم ثياب سندس خضر واستبرق ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وحزمة عليهم بإسكان الياء والباقون بفتح الياء (أما القراءة الأولى) فالوجه فيها أن يكون عليهم مبتدأ ، وثياب سندس خبره ، والمعنى ما يعلم من لباسهم ثياب سندس ، فإن قيل عليهم مفرد ، وثياب سندس جماعة ، والمبتدأ إذا كان مفرداً لا يكون خبره جمعاً ، قلنا : المبتدأ ، وهو قوله (عليهم) وإن كان مفرداً في اللفظ ، فهو جمع في المعنى ، نظيره قوله تعالى (مستكبرين به سامراً تهجرون ، فقطع دابر القوم) كأنه أفرد من حيث جعل بمنزلة المصدر (أما القراءة الثانية) وهى فتح الياء ، فذكروا في هذا النصب ثلاثة أوجه (الأول) أنه نصب على الظرف ، لأنه لما كان على بمعنى فوق أجرى مجراه في هذا الإعراب ، كما كان قوله (والركب أسفل منكم) كذلك وهو قول أبي على الفارسي (والثاني) أنه نصب على الحال ، ثم هذا أيضاً يحتمل وجوهاً (أحدها) قال أبو على الفارسي : التقدير : ولقاهم نضرة وسروراً حال ما يكون عليهم ثياب سندس (وثانيها) التقدير : وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً حال ما يكون عليهم ثياب سندس (وثانيها) أن يكون التقدير ويطوف على الأبرار ولدان ، حال ما يكون الأبرار عليهم ثياب سندس (ورابعها) حسبهم لؤلؤاً مشوراً ، حال ما يكون

وَحَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ

عاليهم ثياب سندس ، فعلى الاحتمالات الثلاثة (الأول) تكون الثياب الأبرار ، وعلى الاحتمال الرابع تكون الثياب ثياب الولدان (الوجه الثالث) فى سبب هذا النصب ، أن يكون التقدير : رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب سندس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وعاصم : خضر واستبرق ، كلاهما بالرفع ، وقرأ الكسائى وحزة : كلاهما بالخفض ، وقرأ ابن كثير : خضر بالخفض ، واستبرق بالرفع ، وقرأ أبو عمرو وعبد الله بن عامر : خضر بالرفع ، واستبرق بالخفض ، وحاصل الكلام فيه أن خضراً يجوز فيه الخفض والرفع ، أما الرفع فإذا جعلتها صفة لثياب ، وذلك ظاهر لأنها صفة مجموعة لموصوف مجموعة ، وأما الخفض فإذا جعلتها صفة سندس ، لأن سندس أريد به الجنس ، فكان فى معنى الجمع ، وأجاز الأخفش وصف اللفظ الذى يراد به الجنس بالجمع ، كما يقال أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض إلا أنه قال إنه قبيح ، والدليل على قبحه أن العرب تجيء بالجمع الذى هو فى لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد وذلك قولهم حصى أبيض وفى التنزيل (من الشجر الأخضر) و (أعجاز نخل منقعر) إذ كانوا قد أفردوا صفات هذا الضرب من الجمع ، فالواحد الذى فى معنى الجمع أولى أن تفرد صفته ، وأما استبرق فيجوز فيه الرفع والخفض أيضاً معاً ، أما الرفع فإذا أريد به العطف على الثياب ، كأنه قيل : ثياب سندس واستبرق وأما الخفض فإذا أريد إضافة الثياب إليه كأنه قيل ثياب سندس واستبرق ، والمعنى ثيابهما فأضاف الثياب إلى الجنس كما يقال ثياب خز وكتان ، وبدل على ذلك قوله تعالى (ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق) واعلم أن حقائق هذه الآية قد تقدمت فى سورة الكهف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ السندس مارق من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه ، وكل ذلك داخل فى اسم الحرير قال تعالى (ولباسهم فيها حرير) ثم قيل إن الذين هذا لباسهم هم الولدان المخلدون ، وقيل بل هذا لباس الأبرار ، وكانهم يلبسون عدة من الثياب فيكون الذى يعلوها أفضلها ، ولهذا قال (عاليهم) وقيل هذا من تمام قوله (متكئين فيها على الأرائك) ومعنى (عاليهم) أى فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس ، والمعنى أن حجالهم من الحرير والديباج .

قوله تعالى : ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ وفيه سؤالات :

(السؤال الأول) قال تعالى فى سورة الكهف (أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب) فكيف جعل تلك الأساور ههنا من فضة ؟ (والجواب) من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه لا منافاة بين الأمرين فلعلمهم يسورون بالجنسين إما على المعاقبة أو على الجمع كما تفعل النساء فى الدنيا (وثانيها) أن الطبايع مختلفة فرب إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب ، فالله تعالى يعطى كل أحد ما تكون رغبته فيه أتم ، وميله إليه

وَسَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾

أشد (وثالثها) أن هذه الأسورة من الفضة إنما تكون للوالدان الذين هم الخدم وأسورة الذهب للناس .

(السؤال الثاني) السوار إنما يليق بالنساء وهو عيب للرجال ، فكيف ذكر الله تعالى ذلك في معرض الترغيب ؟ (الجواب) أهل الجنة جرد مرد شباب فلا يبعد أن يحملوا ذهباً وفضة وإن كانوا رجالاً ، وقيل هذه الأسورة من الفضة والذهب إنما تكون للنساء أهل الجنة وللصبيان فقط ، ثم غاب في اللفظ جانب التذكير ، وفي الآية وجه آخر ، وهو أن آلة أكثر الأعمال هي اليد وتلك الأعمال والمجاهدات هي التي يتوسل بها إلى تحصيل المعارف الإلهية والأنوار الصمدية ، فتكون تلك الأعمال جارية مجرى الذهب والفضة التي يتوسل بهما إلى تحصيل المطالب ، فلما كانت تلك الأعمال صادرة من اليد كانت تلك الأعمال جارية مجرى سوار الذهب والفضة ، فسميت الأعمال والمجاهدات بسوار الذهب والفضة ، وعبر عن تلك الأنوار الفائضة عن الحضرة الصمدية بقوله (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) وبالجملة فقوله (وحلوا أساور من فضة) إشارة إلى قوله (والذين جاهدوا فينا) وقوله (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) إشارة إلى قوله (لنهدينهم سبلنا) فهذا احتمال خطر بالبال ، والله أعلم بمراده .

قوله تعالى : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ الطهور فيه قولان (الأول) المبالغة في كونه طاهراً ، ثم فيه على هذا التفسير احتمالات (أحدها) أنه لا يكون نجساً كحمر الدنيا (وثانيها) المبالغة في البعد عن الأمور المستقذرة يعنى ما مسته الأيدي الوضرة ، وما داسته الأقدام الدنسة (وثالثها) أنها لا تؤول إلى النجاسة لأنها ترشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك (القول الثاني) في الطهور أنه المطهر ، وعلى هذا التفسير أيضاً في الآية احتمالان (أحدهما) قال مقاتل هو عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد ، وما كان في جوفه من قدر وأذى (وثانيهما) قال أبو قلابة : يؤتون الطعام والشراب فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتطهر بذلك بطونهم ، ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك ، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور ، مطهراً لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة ، والأشياء المؤذية ، فإن قيل قوله تعالى (وسقاهم ربهم) هو عين ما ذكر تعالى قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور ، والزنجبيل ، والسلسبيل أو هذا نوع آخر ؟ قلنا بل هذا نوع آخر ، وبدل عليه وجوه (أحدها) دفع التكرار (وثانيها) أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه ، فقال (وسقاهم ربهم) وذلك يدل على فضل في هذا دون غيره (وثالثها) ما روينا أنه تقدم إليهم الأطعمة والأشربة ، فإذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون ،

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

فيطهر ذلك بطونهم ، ويفيض عرفاً من جلودهم مثل ريح المسك ، وهذا يدل على أن هذا الشراب مغاير لتلك الأشربة ، ولأن هذا الشراب يهضم سائر الأشربة ، ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب ، وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرفاً يفوح منه ريح كريح المسك ، وكل ذلك يدل على المغايرة (ورابعها) وهو أن الروح من عالم الملائكة ، والأنوار الفائضة من جواهر أكبر الملائكة ، وعظماهم على هذه الأرواح مشبهة بالماء العذب الذي يزيل العطش ويقوى البدن ، وكما أن العيون متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوة ، فكذا يتابع الأنوار العلوية مختلفة ، بعضها تكون كافرورية على طبع البرد واليبس ، ويكون صاحبها في الدنيا في مقام الخوف والبكاء والانتفاض ، وبعضها تكون زنجبيلية على طبع الحر واليبس ، فيكون صاحب هذه الحالة قليل الالتفات إلى ما سوى الله تعالى فليل المبالاة بالأجسام والجسمانيات ، ثم لا تزال الروح البشرية منتقلة من ينوع إلى ينوع ، ومن نور إلى نور ، ولا شك أن الأسباب والمسببات متناهية في ارتقائها إلى واجب الوجود الذي هو النور المطلق جل جلاله وعز كماله ، فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب من ذلك الشراب انضمت تلك الأشربة المتقدمة ، بل فنيت ، لأن نور ما سوى الله تعالى يضمحل في مقابلة نور الله وكبريائه وعظمته ، وذلك هو آخر سير الصديقين ، ومنتهى درجاتهم في الإرتقاء والكمال ، فلهذا السبب ختم الله تعالى ذكر ثواب الأبرار على قوله (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) .

واعلم أنه تعالى لما تم شرح أحوال السعداء ، قال تعالى ﴿ إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

اعلم أن في الآية وجهين (الأول) قال ابن عباس المعنى أنه يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها ، ومشاهدتهم لنعيمها : إن هذا كان لكم جزاء قد أعده الله تعالى لكم إلى هذا الوقت ، فهو كله لكم بأعمالكم على قلة أعمالكم ، كما قال حاكياً عن الملائكة إنهم يقولون لأهل الجنة (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وقال (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) والعرض من ذكر هذا الكلام أن يزداد سرورهم ، فإنه يقال للمعاقب : هذا بعملك الردي . فيزداد غمه وألم قلبه ، ويقال للثاب ، هذا بطاعتك ، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة في سروره ، والقائل بهذا التفسير جعل القول مضمراً ، أى ويقال لهم هذا الكلام (الوجه الثانى) أن يكون ذلك إخباراً من الله تعالى لعباده في الدنيا ، فكأنه تعالى شرح جواب أهل الجنة ، أن هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم بامعاشر عبادي ، لكم خلقتها ، ولا جلم أعددتها ، وبقي في الآية سؤالان :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾

(السؤال الأول) : إن كان فعل العبد خلقاً لله ، فكيف يعقل أن يكون فعل الله جزءاً على فعل الله ؟ (الجواب) الجزء هو الكافي ، وذلك لا ينافي كونه فعلاً لله تعالى .

(السؤال الثاني) : كون سعى العبد مشكوراً لله يقتضى كون الله شاكراً له (والجواب) كون الله تعالى شاكراً للعبد محال إلا على وجه المجاز ، وهو من ثلاثة أوجه (الأول) قال القاضى إن الثواب مقابل لعلمهم ، كما أن الشكر مقابل للنعم (الثانى) قال الففال إنه مشهور فى كلام الناس ، أن يقولوا للراضى بالقليل والمثنى به إنه شكور ، فيحتمل أن يكون شكر الله لعباده هو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات ، وإعطاؤه إياهم عليه ثواباً كثيراً (الوجه الثالث) أن منتهى درجة العبد أن يكون راضياً من ربه مرضياً لربه على ما قال (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وكونها راضية من ربه ، أقل درجة من كونها مرضية لربه ، فقوله إن هذا كان لكم جزاء (إشارة إلى الأمر الذى به تصير النفس راضية من ربه وقوله (وكان سعيكم مشكوراً) إشارة إلى كونها مرضية لربه ، ولما كانت هذه الحال أعلى المقامات وآخر الدرجات لا جرم وقع الختم عليها فى ذكر مراتب أحوال الأبرار والصادقين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾

اعلم أنه سبحانه بين فى أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم بقوله (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) ثم بين أنه سبحانه خلقه من أمشاج ، والمراد منه إما كونه مخلوقاً من العناصر الأربعة أو من الأخلاط الأربعة أو من ماء الرجل والمرأة أو من الأعضاء والأرواح أو من البدن والنفس أو من أحوال متعاقبة على ذلك الجسم مثل كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ، وعلى أى هذه الوجوه تحمل هذه الآية ، فلذلك يدل على أنه لا بد من الصانع المختار جل جلاله وعظم كبرياؤه . ثم بين بعد ذلك أنى ما خلقته ضائعاً عاطلاً باطلا ، بل خلقته لأجل الابتلاء والامتحان ، وإليه الإشارة بقوله (نبئنيه) وههنا موضع الخصومة العظيمة القائمة بين أهل الجبر والقدر ، ثم ذكر تعالى أنى أعطيته جميع ما يحتاج إليه عند الابتلاء والامتحان ، وهو السمع والبصر والعقل ، وإليه الإشارة بقوله (فجعلناه سميعاً بصيراً) ولما كان العقل أشرف الأمور المحتاج إليها فى هذا الباب أفردته عن السمع والبصر ، فقال (إنا هديناه السبيل) ثم بين أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين : منهم شاكر ، ومنهم كفور ، وهذا الإنقسام باختيارهم كما هو تأويل القدريه ، أو من الله على ما هو تأويل الجبرية ، ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار ، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء ، وهو إلى قوله (وكان سعيكم مشكوراً) واعلم أن الاختصار فى ذكر العقاب مع الإطناب فى شرح الثواب يدل على أن جانب

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آئِمًّا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾

الرحمة أغلب وأقوى ، فظهر بما بينا أن السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة ، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا ، وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين . أما المطيعون فهم الرسول وأمه ، والرسول هو الرأس والرئيس ، فلهذا خص الرسول بالخطاب . واعلم أن الخطاب إما النهي وإما الأمر ، ثم إنه تعالى قبل الخوض فيها يتعلق بالرسول من النهي والأمر ، قدم مقدمة في تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإزالة الغم والوحشة عن خاطره ، وإنما فعل ذلك ، لأن الاشتغال بالطاعة والقيام بعبدة التكليف لا يتم إلا مع فراغ القلب ثم بعد هذه المقدمة . ذكر نهيه عن بعض الأشياء ، ثم بعد الفراغ عن النهي ، ذكر أمره ببعض الأشياء ، وإنما قدم النهي على الأمر ، لأن دفع الضرر أهم من جلب النفع ، وإزالة مالا ينبغي مقدم على تحصيل ما ينبغي ، ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال المتمردين والكفار على ما سيأتي تفصيل بيانه ، ومن تأمل فيها ذكرناه علم أن هذه السورة ، وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام ، فالحمد لله الذي نور عقل هذا المسكين الضعيف بهذه الآوار ، وله الشكر عليه أبداً لا يباد . ولنرجع إلى التفسير ، فنقول أما تلك المقدمة ، فهي : قوله تعالى (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً) واعلم أن المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر ، فذكر الله تعالى أن ذلك وحى من الله ، فلا جرم بالغ وكرر الضمير بعد إيقاعه اسماً ، لأن تأكيداً على تأكيد أبلغ ، كأنه تعالى يقول إن كان هؤلاء الكفار يقولون إن ذلك كهانة ، فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة إن ذلك وحى حق وتنزيل صدق من عندي ، وهذا فيه فائدتان :

(إحداهما) إزالة الوحشة المتقدمة الحاصلة بسبب طعن أولئك الكفار ، فإن بعض الجهال وإن طعنوا فيه إلا أن جبار السموات عظمه وصدقه .

(والثانية) تقويته على تحمل التكليف المستقبل ، وذلك لأن الكفار كانوا يببالغون في إيذائه ، وهو كان يريد مقاتلتهم فلما أمره الله تعالى بالصبر على ذلك الإيذاء وترك المقاتلة ، وكان ذلك شاقاً عليه ، فقال له (إنا نزلنا عليك القرآن تنزيلاً) فكأنه قال له إني ما نزلت عليك هذا القرآن مفرقاً منجماً إلا الحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شيء بوقت معين ، ولقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال ، فاصبر لحكم ربك الصادر عن الحكمة المحضة المبرأ عن العيب والعبث والباطل . ثم إنه تعالى لما قدم هذه المقدمة ذكر النهي فقال تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آئماً أو كفوراً ﴾ .

فإما أن يكون المعنى (فاصبر لحكم ربك) في تأخير الإذن في القتال ونظيره (فاصبروا حتى

يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) أو يكون المعنى عاماً في جميع التكليف ، أي فاصبر في كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليماً خاصاً بك من العبادات والطاعات أو متعلقاً بالغير وهو التبليغ وأداء الرسالة ، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك ، ثم في الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (فاصبر لحكم ربك) دخل فيه أن (لا تطع آثماً أو كفوراً) فكأن ذكره بعد هذا تكريراً (الجواب) الأول أمر بالمأمورات ، والثاني نهي عن المنهيات ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح فيكون التصريح به مفيداً .

﴿ السؤال الثاني ﴾ أنه عليه السلام ما كان يطيع أحداً منهم ، فما الفائدة في هذا النهي ؟ (الجواب) المقصود بيان أن الناس يحتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد ، لأجل ما تركب فيهم من الشهوات الداعية إلى الفساد ، وأن أحداً لو استغنى عن توفيق الله وإمداده وإرشاده ، لبكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم ، ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم ، لأنه لا بد له من الرغبة إلى الله والتضرع إليه في أن يصونه عن الشبهات والشهوات .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما الفرق بين الآثم والكفور ؟ (الجواب) الآثم هو المقدم على المعاصي أي معصية كانت ، والكفور هو الجاحد للنعمة ، فكل كفور آثم ، أما ليس كل آثم كفوراً ، وإنما قلنا إن الآثم عام في المعاصي كلها لأنه تعالى قال (ومن يشرك بالله . فقد افترى إثماً عظيماً) فسمى الشرك إثماً ، وقال (ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) وقال (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) وقال (يستلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) فالت هذه الآيات على أن هذا الإثم شامل لكل المعاصي ، واعلم أن كل من عبد غير الله فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان ، لأنه لما عبد غيره ، فقد عصاه وجحد إنعاده ، إذا عرفت هذا فنقول في الآية قولان (الأول) أن المراد شخص معين ، ثم منهم من قال الآثم ، والكفور هو شخص واحد وهو أبو جهل ، ومنهم من قال الآثم هو الوليد والكفور هو عتبة ، قال القفال ، ويدل عليه أنه تعالى سمي الوليد أثمياً في قوله (ولا تطع كل حلاف مهين) إلى قوله (مناع للخير معتد أثيم) وروى صاحب الكشاف أن الآثم هو عتبة . والكفور هو الوليد لأن عتبة كان ركاباً للآثم متعاطياً لأنواع الفسوق والوليد كان غالباً في الكفر ، والقول الأول أولى لأنه متأيد بالقرآن ، يروى أن عتبة بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ولدي فأبى من أجل قريش ولداً وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فأبى من أكثرهم مالا ، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ عشر آيات من أول (حم - ال - جده إلى قوله - فإن أعرضوا فقل أنذر تكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فانصرفا عنه وقال أحدهما ظننت أن الكعبة ستقع على (القول الثاني) أن الآثم والكفور مطلقان غير مختصين بشخص معين ، وهذا هو الأقرب إلى الظاهر ، ثم قال الحسن الآثم هو المناق والكفور مشركوا العرب ، وهذا ضيف بل الحق ما ذكرناه من أن الآثم عام والكفور خاص

وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا

٢٦

(السؤال الرابع) كانوا كلهم كفرة ، فإمغى القسمة في قوله (آثماً أو كفوراً) ؟ (الجواب) (الكفور) أخصت أنواع الآثم ، فخصه بالذكر تنبيهاً على غاية خبثه ونهاية بعده عن الله .
 (السؤال الخامس) كلمة أو تقتضى النهى عن طاعة أحدهما فلم لم يذكر الواو حتى يكون نهياً عن طاعتهما جميعاً ؟ (الجواب) ذكروا فيه وجهين : (الأول) وهو الذى ذكره الزجاج واختاره أكثر المحققين أنه لو قيل ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما لأن النهى عن طاعة مجموع شخصين لا يقتضى النهى عن طاعة كل واحد منهما وحده ، أما النهى عن طاعة أحدهما فيكون نهياً عن طاعة مجموعهما لأن الواحد داخل في المجموع ، ولقائل أن يقول هذا ضعيف ، لأن قوله (لا تطع) هذا وهذا معناه كن مخالفاً لأحدهما ، ولا يلزم من إيجاب مخالفة أحدهما إيجاب مخالفتها معاً . فإنه لا يبعد أن يقول السيد لعبد إذا أمرك أحد هذين الرجلين بخالفه ، أما إذا توافقا فلا تخالفهما .
 (والثاني) قال الفراء تقدير الآية لا تطع منهم أحداً سواء كان (آثماً أو كفوراً) كقول الرجل لمن يسأله شيئاً : لا أعطيك سواء سألت أو سكت .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا النهى عقبه بالأمر ، فقال ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ وفى هذه الآية قرآن :

(الأول) أن المراد هو الصلاة قالوا لأن التقييد بالبكرة والأصيل يدل على أن المراد من قوله (واذكر اسم ربك) الصلوات . ثم قالوا بالبكرة هي صلاة الصبح والأصيل صلاة الظهر والعصر (ومن الليل فاسجد له) المغرب والعشاء ، فتكون هذه الكلمات جامعة الصلوات الخمس وقوله (وسبحه ليلا طويلا) المراد منه التهجد ، ثم اختلفوا فيه فقال بعضهم كان ذلك من الوجبات على الرسول عليه السلام ، ثم نسخ كما ذكرنا فى سورة المزمل واحتجوا عليه بأن قوله (فاسجد له وسبحه) أمر وهو للوجوب لا سيما إذا تكرر على سبيل المبالغة ، وقال آخرون بل المراد التطوع وحكمه ثابت .

(القول الثانى) أن المراد من قوله (واذكر اسم ربك) إلى آخر الآية ليس هو الصلاة بل المراد التسبيح الذى هو القول والاعتقاد . والمقصود أن يكون ذا كراً لله فى جميع الأوقات ليلا ونهاراً بقلبه ولسانه ، وهو المراد من قوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا) .

واعلم أن فى الآية لطيفة أخرى وهى أنه تعالى قال (إننا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً) أى

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ
وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

هديناك إلى هذه الأسرار ، وشرحنا صدرك بهذه الأنوار ، وإذا قد فعلنا بك ذلك فكن منقاداً مطيعاً لأمرنا ، وإياك وأن تكون منقاداً مطيعاً لغيرنا ، ثم لما أمره بطاعته ، ونهاه عن طاعة غيره قال (واذكر اسم ربك) وهذا إشارة إلى أن العقول البشرية ليس عندها إلا معرفة الأسماء والصفات ، أما معرفة الحقيقة فلا ، فتارة يقال له (واذكر اسم ربك) وهو إشارة إلى معرفة الأسماء ، وتارة يقال له (واذكر ربك في نفسك) وهو إشارة إلى مقام الصفات ، وأما معرفة الحقيقة المخصوصة التي هي المستلزمة لسائر اللوازم السلبية والإضافية ، فلا سبيل لشيء من الممكنات والمحدثات ، إلى الوصول إليها والاطلاع عليها ، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره واحتجب عنها بكامل نوره .

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله بالتعظيم والنهي والأمر عدل إلى شرح أحوال الكفار والمرتدين ، فقال تعالى ﴿ إن هؤلاء يجنون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ والمراد أن الذي حمل هؤلاء الكفار على الكفر ، وترك الالتفات والإعراض عما ينفعهم في الآخرة ليس هو الشبهة حتى ينتفعوا بالدلائل المذكورة في أول هذه السورة ، بل الشهوة والحبة لهذه اللذات العاجلة والراحات الدنيوية ، وفي الآية سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال وراءهم ولم يقل قدامهم ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) لما لم يلتفتوا إليه ، وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم (وثانيها) المراد ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقیل فأسقط المضاف (وثالثها) أن وراء تستعمل بمعنى قدام كقوله (من ورائه جهنم) (وكان وراءهم ملك) .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما السبب في وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقیل ؟ (الجواب) استعير الثقل لبشده وهوله ، من الشيء الثقيل الذي يتعب حامله ونحوه (ثقلت في السموات والأرض) .

ثم إنه تعالى لما ذكر أن الداعي لهم إلى هذا الكفر حب العاجل ، قال ﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ .

والمراد أن حبهم للعاجلة يوجب عليهم طاعة الله من حيث الرغبة ومن حيث الرهبة ، أما من حيث الرغبة فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة ، وخلق جميع ما يمكن الانتفاع به ، فإذا أحبوا اللذات العاجلة ، وتلك اللذات لا تحصل

إِنَّ هَلِيلَهُ تَذِكْرَةٌ ﴿٢٩﴾ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٠﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

إلا عند حصول المنتفع وحصول المنتفع به ، وهذان لا يحصلان إلا بتكوين الله وإيجاده ، فهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله وتكاليفه وترك التمرد والإعراض ، وأما من حيث الرهبة فلأنه قادر على أن يبيتهم ، وعلى أن يسلب النعمة عنهم ، وعلى أن يلقيهم في كل محنة وبليّة ، فلأجل من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم أن ينقادوا لله ، وأن يتركوا هذا التمرد ، وحاصل الكلام كأنه قيل لهم هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة مستحسنه ، إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله والانقياد له ، فلو أنكم توسلمت به إلى الكفر بالله ، والإعراض عن حكمه ، لكنتم قد تمردتم ، وهذا ترتيب حسن في السؤال والجواب ، وطريقة لطيفة : وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أهل اللغة الأسر الربط والتوثيق ، ومنه أسر الرجل إذا وثق بالقد وفرس مأسور الخلق وفرس مأسور بالعقب ، والمعنى شددنا توصيل أعضائهم ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم) أي إذا شئنا أهلكتناهم وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلا منهم ، وهو كقوله (على أن نبدل أمثالكم) والغرض منه بيان الاستغناء التام عنهم كأنه قيل لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين البتة ، وبتقدير أن تثبت الحاجة فلا حاجة إلى هؤلاء الأقوام ، فإننا قادرون على إفنائهم ، وعلى إيجاد أمثالهم ، ونظيره قوله تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديراً) وقال (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) ثم قيل بدلنا أمثالهم أي في الخلقة ، وإن كانوا أضدادهم في العمل ، وقيل (أمثالهم في الكفر) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف في قوله (وإذا شئنا) إن حقه أن يجيء بأن لا يابذا كقوله (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم) (إن يشأ يذهبكم) واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن ، وهو ضعيف لأن كل واحد من إن وإذا حرف الشرط ، إلا أن حرف إن لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ، فلا يقال إن طلعت الشمس أكرمك ، أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع ، تقول آتيتك إذا طلعت الشمس ، فهنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة ، لا جرم حسن استعمال حرف إذا .

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال السعداء وأحوال الأشقياء قال بعده ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ والمعنى أن هذه السورة بما فيها من

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
الْيَمِيمًا ﴿٣١﴾

الترتيب العجيب والنسق البعيد والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، تذكرة للمتأملين وتبصرة للمستبصرين ، فمن شاء الخيرة لنفسه في الدنيا والآخرة اتخذ إلى ربه سبيلاً . واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه ، واعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر والقدر ، فالقدرى يتمسك بقوله تعالى (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) ويقول إنه صريح مذهبي ونظيره (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) والجبري يقول متى ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منه صريح مذهب الجبر ، وذلك لأن قوله (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) يقتضى أن تكون مشيئة العبد متى كانت خالصة فانها تكون مستلزمة للفعل ، وقوله بعد ذلك (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) يقتضى أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد ومستلزم المستلزم مستلزم ، فإذا مشيئة الله مستلزمة لفعل العبد ، وذلك هو الجبر ، وهكذا الاستدلال على الجبر بقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) لأن هذه الآية أيضاً تقتضى كون المشيئة مستلزمة للفعل ثم التقرير ما تقدم ، واعلم أن الاستدلال على هذا الوجه الذى لخصناه لا يتوجه عليه كلام القاضى إلا أنا نذكره وننبه على ما فيه من الضعف ، قال القاضى المذكور فى هذه الآية اتخاذ السبيل إلى الله ، ونحن نسلم أن الله قد شاءه لأنه تعالى قد أمر به ، فلا بد وأن يكون قد شاءه . وهذا لا يقتضى أن يقل العبد لا يشاء إلا ما قد شاءه الله على الإطلاق ، إذ المراد بذلك الأمر المخصوص الذى قد ثبت أنه تعالى قد أراد به . واعلم أن هذا الكلام الذى ذكره القاضى لا تعاق له بالاستدلال على الوجه الذى ذكرناه ، وأيضاً فخالص ما ذكره القاضى تخصيص هذا العام بالضرورة التى مر ذكرها فيها قبل هذه الآية ، وذلك ضعيف ، لأن خصوص ما قبل الآية لا يقتضى تخصيص هذا العام به . لا احتمال أن يكون الحكم فى هذه الآية وارداً بحيث يعم تلك الصورة وسائر الصور ، بقى فى الآية سؤال يتعاق بالإعراب ، وهو أن يقال : ما محل أن يشاء الله ؟ وجوابه النصب على الظرف ، وأصله إلا وقت مشيئة الله ، وكذلك قراءة ابن مسعود « إلا ما شاء الله » لأن ما مع الفعل كأن معه ، وقرئ أيضاً يشاءون بالياء ..

ثم قال تعالى ﴿ إن الله كان عليهما حكيماً ﴾ أى عليهما بأحوالهم وهما يكون منهم حيث خلقهم مع علمه بهم .

ثم ختم السورة فقال ﴿ يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ اعلم أن خاتمة هذه السورة عجيبة ، وذلك لأن قوله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) يدل على أن جميع

ما يصدر عن العبد فبمشيئة الله ، وقوله (يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) يدل على أن دخول الجنة والنار ليس إلا بمشيئة الله ، فخرج من آخر هذه السورة إلا الله وما هو من الله ، وذلك هو التوحيد المطلق الذي هو آخر سير الصديقين ومنتهى معارجهم في أفلاك المعارف الإلهية ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (يدخل من يشاء في رحمته) إن فسرنا الرحمة بالإيمان ، فالآية صريحة في أن الإيمان من الله ، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق ، وذلك لأنه لو ثبت الاستحقاق لسكان تركه يفضى إلى الجهل والحاجة المحالين على الله ، والمفضى إلى المحال محال فتركه محال فوجوده واجب عقلاً وعدمه ممنوع عقلاً ، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة البتة ، وأيضاً لأن من كان مديوناً من إنسان فأدى ذلك الدين إلى مستحقه لا يقال بأنه إنما دفع ذلك القدر إليه على سبيل الرحمة والفضل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) يدل على أنه جف القلم بما هو كائن ، لأن معنى أعد أنه علم ذلك وقضى به ، وأخبر عنه وكتبه في اللوح المحفوظ ، ومعلوم أن التغيير على هذه الأشياء محال ، فكان الأمر على ما بيناه وقلناه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الزجاج نصب الظالمين لأن قبله منصوباً ، والمعنى يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين وقوله (أعد لهم عذاباً أليماً) كالتفسير لذلك المضمرة ، وقرأ عبد الله ابن الزبير : والظالمون ، وهذا ليس باختيار لأنه معطوف على يدخل من يشاء وعطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية غير حسن ، وأما قوله في حم عسق (يدخل من يشاء في رحمته والظالمون) فأنما ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصبه في المعنى ، فلم يجوز أن يعطف على المنصوب قبله ، فارتفع بالابتداء ، وههنا قوله (أعد لهم عذاباً أليماً) يدل على ذلك الناصب المضمرة ، فظهر الفرق والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٧٧) سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبِيَاؤها خَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾

فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمَلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشراً ، فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً ، عُدراً أو نُذراً ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن هذه الكلمات الخمس إما أن يكون المراد منها جنساً واحداً أو أجناساً مختلفة ﴿ أما الاحتمال الأول ﴾ فذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن المراد منها بأسرها الملائكة فالمرسلات هم الملائكة الذين أرسلهم الله إما بإيصال النعمة إلى قوم أو لإيصال النعمة إلى آخرين ، وقوله (عرفاً) فيه وجوه (أحدها) متتابعة كشعر العرف يقال جاؤا عرفاً واحداً وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه (والثاني) أن يكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكرة فإن هؤلاء الملائكة إن كانوا يعثوا للرحمة ، فهذا المعنى فيهم ظاهر وإن كانوا لأجل العذاب فذلك العذاب ، وإن لم يكن معروفاً للكفار ، فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم (والثالث) أن يكون مصدرأ كأنه قيل والمرسلات أرسالا أي متتابعة واتصبا عرفاً على الوجه الأول على الحال ، وعلى الثاني لكونه مفعولا أي أرسلت للأحسن والمعروف وقوله (فالعاصفات عصفاً) فيه وجهان (الأول) يعني أن الله تعالى لما أرسل أوائك الملائكة فهم عصفوا في طيرانهم كما تعصف الرياح (والثاني) أن هؤلاء الملائكة يهصفون بروح الكافر يقال عصف بالشئ إذا أباده وأهلكه ، يقال نافة عصف ، أي تعصف براكبها فتمضي كأنها ريح في السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم ، أي ذهبت بهم ، قال الشاعر :

في فلتق شهباء ملبومة تعصف بللقبل والمدبر

وقوله تعالى (والناشرات نشراً) معناه أنهم نشروا أجنحتهم عند انحطاطهم إلى الأرض ، أو نشروا الشرائع في الأرض ، أو نشروا الرحمة أو العذاب ، أو المراد الملائكة الذين يبشرون

الكتب يوم الحساب ، وهي الكتب التي فيها أعمال بني آدم ، قال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) وبالجملة فقد نشروا الشيء الذي أمروا بإيصاله إلى أهل الأرض ونشره فيهم وقوله تعالى (فالفرقات فرقا) معناه أنهم يفرقون بين الحق والباطل ، وقوله (فالملقيات ذكراً) معناه أنهم يلقون الذكر إلى الأنبياء ، ثم المراد من الذكر يحتمل أن يكون مطلق العلم والحكمة ، كما قال (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) ويحتمل أن يكون المراد هو القرآن خاصة ، وهو قوله (ألقى الذكر عليه من بيننا) وقوله (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) وهذا الملقى وإن كان هو جبريل عليه السلام وحده ، إلا أنه يجوز أن يسمى الواحد باسم الجماعة على سبيل التعظيم .

واعلم أنك قد عرفت أن المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به ، وشرف الملائكة وعلو رتبهم أمر ظاهر من وجوه (أحدها) شدة مواظبتهم على طاعة الله تعالى ، كما قال تعالى (ويفعلون ما يؤمرون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (وثانيها) أنهم أقسام : فمنهم من يرسل لإنزال الوحي على الأنبياء ، ومنهم من يرسل للزوم بني آدم لكتابة أعمالهم ؛ طائفة منهم بالنهار وطائفة منهم بالليل ، ومنهم من يرسل لقيض أرواح بني آدم ، ومنهم من يرسل بالوحي من سماء إلى أخرى ، إلى أن ينزل بذلك الوحي ملك السماء إلى الأرض ، ومنهم الملائكة الذين ينزلون كل يوم من البيت المعمور إلى الكعبة على ما روى ذلك في الإخبار ، فهذا مما ينتظمه قوله (والمرسلات عرفاً) ثم ما فيها من سرعة السير ، وقطع المسافات الكثيرة في المدة اليسيرة ، كقوله (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ثم ما فيها من نشر أجنحتهم العظيمة عند الطيران ، ونشر العلم والحكمة والنبوة والهداية والإرشاد والوحي والتنزيل ، وإظهار الفرق بين الحق والباطل بسبب إنزال ذلك الوحي والتنزيل ، وإلقاء الذكر في القلب واللسان بسبب ذلك الوحي ، وبالجملة فالملائكة هم الوسائط بين الله تعالى ، وبين عباده في الفوز بجميع السعادات العاجلة والآجلة والخيرات الجسدية والروحانية ، فلذلك أقسم الله بهم :

(القول الثاني) أن المراد من هذه الكلمات الخمس بأسرها الرياح ، أقسم الله بريح عذاب أرسلها عرفاً ، أي متتابعة كشعر العرف ، كما قال (يرسل الرياح ، وأرسلنا الرياح) ثم إنها تشتد حتى تصير عواصف ورياح رحمة نشرت السحاب في الجو ، كما قال (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) وقال (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء) ويجوز أيضاً أن يقال : الرياح تعين النبات والزرع والشجر على النشور والإنبات ، وذلك لأنها تلقح فيبرز النبات بذلك ، على ما قال تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) فهذا الطريق تكون الرياح ناشرة للنبات وفي كون الرياح فارقة وجوه (أحدها) أن الرياح تفرق بعض أجزاء السحاب عن بعض (وثانيها) أن الله تعالى خرب بعض القرى بتسليط الرياح عليها ، كما قال (وأما عاد فأهلكوا)

يرج صرصر) وذلك سبب لظهور الفرق بين أولياء الله وأعداء الله (وثالثها) أن عند حدوث الرياح المختلفة ، وترتيب الآثار العجيبة عليها من تومج السحاب وتخريب الديار تصير الخلق مضطرين إلى الرجوع إلى الله والتضرع على باب رحمته ، فيحصل الفرق بين المقر والمنكرو والموحد والملحد ، وقوله (فالملقيات ذكراً) معناه أن العاقل إذا شاهد هبوب الرياح التي تقلع القلاع ، وتهدم الصخور والجبال ، وترفع الأمواج تمسك بذكر الله والتجأ إلى إعانة الله ، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر والإيمان والعبودية في القلب ، ولا شك أن هذه بالإضافة تكون على سبيل المجاز من حيث إن الذكر حصل عند حدوث هذه .

(القول الثالث) من الناس من حمل بعض هذه الكلمات الخسنة على القرآن ، وعندى أنه يمكن حمل جميعها على القرآن ، فقوله (والمرسلات) المراد منها الآيات المتتابعة المرسلة على لسان جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ ، وقوله (عرفاً) أى نزلت هذه الآيات بكل عرف وخير وكيف لا وهى الهداية إلى سبيل النجاة والموصلة إلى مجامع الخيرات (والعاصفات عصفاً) فالمراد أن دولة الإسلام والقرآن كانت ضعيفة فى الأول ، ثم عظمت وقهرت سائر الملل والأديان ، فكأن دولة القرآن عصفت بسائر الدول والملل والأديان وقهرتها ، وجعلتها باطلة دائرة ، وقوله (والناشرات نشرأ) المراد أن آيات القرآن نشرت آثار الحكمة والهداية فى قلوب العالمين شرقاً وغرباً ، وقوله (فالفارقات فرقاً) كذلك ظاهر ، لأن آيات القرآن هى التى تفرق بين الحق والباطل ، ولذلك سمى الله تعالى القرآن فرقاناً ، وقوله (فالملقيات ذكراً) فالأمر فيه ظاهر ، لأن القرآن ذكر ، كما قال تعالى (ص ، والقرآن ذى الذكر ، وإنه لذكر لك واقومك ، وهذا ذكر مبارك ، وتذكرة) كما قال (وإنه لتذكرة للمتقين وذكري) كما قال (وذكري للعالمين) فظهر أنه يمكن تفسير هذه الكلمات الخمسة بالقرآن ، وهذا وإن لم يذكره أحد فإنه محتمل .

(القول الرابع) يمكن حماها أيضاً على بعثة الأنبياء عليهم السلام (والمرسلات عرفاً) هم الأشخاص الذين أرسلوا بالوحي المشتمل على كل خير ومعروف ، فإنه لا شك أنهم أرسلوا بلا إله إلا الله ، وهو مفتاح كل خير ومعروف (فالعاصفات عصفاً) معناه أن أمر كل رسول يكون فى أول الأمر حقيراً ضعيفاً ، ثم يشتد ويعظم ريصير فى القرة كعصف الرياح (والناشرات نشرأ) المراد منه انتشار دينهم ومذهبهم ومقاتلتهم (فالفارقات فرقاً) المراد أنهم يفرقون بين الحق والباطل والوحيد والإلحاد (فالملقيات ذكراً) المراد أنهم يدعون الخلق إلى ذكر الله ، وبأمرهم به ويحثونهم عليه .

(القول الخامس) أن يكون المراد أن الرجل قد يكون مشتغلاً بمصالح الدنيا مستغرقاً فى طلب لذاتها وراحاتها ، فى أثناء ذلك يرد فى قلبه داعية الإعراض عن الدنيا والرغبة فى خدمة المولى ، فملك الدواعى هى المرسلات عرفاً ، ثم هذه المرسلات لها أثران (أحدهما) إزالة حب

ما سوى الله تعالى عن القلب ، وهو المراد من قوله (فالعاصفات عصفاً) (والثاني) ظهور أثر تلك الداعية في جميع الجوارح والأعضاء حتى لا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا الله ، ولا ينظر إلا الله ، فذلك هو قوله (والناشرات نشرأ) ثم عند ذلك يتكشف له نور جلال الله فيراه موجوداً ، ويرى كل ماسواه معدوماً ، فذلك قوله (فالفارقات فرقأ) ثم يصير العبد كالمشتهر في محبته ، ولا يبقى في قلبه ولسانه إلا ذكره ، فذلك قوله (فالملقيات ذكرأ) .

واعلم أن هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة ، وإن كانت غير مذكورة إلا أنها محتملة جداً . (وأما الاحتمال الثاني) وهو أن لا يكون المراد من الكلمات الخمس شيئاً واحداً ، ففيه وجوه (الأول) ما ذكره الزجاج واختيار القاضى ، وهو أن الثلاثة الأولى هي الرياح ، فقوله (والمرسلات عرفأ) هي الرياح التي تتصل على العرف المعتاد (والعاصفات) ما يشتد منه ، (والناشرات) ما ينشر السحاب . أما قوله (فالفارقات فرقأ) فهم الملائكة الذين يفرقون بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، بما يتحملونه من القرآن والوحى ، وكذلك قوله (فالملقيات ذكرأ) أنها الملائكة المتحملة للذكر الملقية ذلك إلى الرسل ، فإن قيل : وما المجانسة بين الرياح وبين الملائكة حتى يجمع بينهما في القسم ؟ قلنا الملائكة روحانيون ، فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركتهم كالرياح (القول الثاني) أن الإثنين الأولين هما الرياح ، فقوله (والمرسلات عرفأ) فالعاصفات عصفأ) هما الرياح ، والثلاثة الباقية الملائكة ، لأنها تنشر الوحى والدين ، ثم لذلك الوحى أتران (أحدهما) حصول الفرق بين الحق والمبطل (والثاني) ظهور ذكر الله في القلوب والألسنة ، وهذا القول ما رأيت له لأحد ، ولكنه ظاهر الاحتمال أيضاً ، والذي يؤكد أنه قال (والمرسلات عرفأ) فالعاصفات عصفأ) عطف الثاني على الأول بحرف الفاء ، ثم ذكر الواو فقال (والناشرات نشرأ) وعطف الإثنين الباقيين عايشه بحرف الفاء ، وهذا يقتضى أن يكون الأولان يمتازين عن الثلاثة الأخيرة (القول الثالث) يمكن أيضاً أن يقال المراد بالأوليين الملائكة ، فقوله (والمرسلات عرفأ) ملائكة الرحمة ، وقوله (فالعاصفات عصفأ) ملائكة العذاب ، والثلاثة الباقية آيات القرآن ، لأنها تنشر الحق في القلوب والأرواح ، وتفرق بين الحق والباطل ، وتلقى الذكر في القلوب والألسنة ، وهذا القول أيضاً ما رأيت له لأحد ، وهو محتمل ، ومن وقف على ما ذكرناه أمكنه أن يذكر فيه وجوهاً ، والله أعلم بمراده .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال القفال : الوجه في دخول الفاء في بعض ما وقع به القسم ، والواو في بعض مبنى على الأصل ، وهو أن عند أهل اللغة الفاء تقتضى الوصل والتعلق ، فإذا قيل قام زيد فذهب ، فالمعنى أنه قام ليذهب فكان قياده سبباً لذهابه وبتصلا به ، وإذا قيل قام وذهب فهما خبران كل واحد منهما قائم بنفسه لا يتعلق بالآخر ، ثم إن القفال لما همد هذا الأصل فرع الكلام عليه في هذه الآية بوجوه لا يميل قلبى إليها ، وأنا أفرع على هذا الأصل فأقول : أما من

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾

جعل الأولين صفتين لشيء والثلاثة الأخيرة صفات لشيء واحد . فالإشكال عنه زائل ، وأما من جعل الكل صفات لشيء واحد ، فنقول إن حملناها على الملائكة ، فالملائكة إذا أرسلت طارت سريعاً ، وذلك الطيران هو العصف ، فالعصف مرتب على الإرسال فلا جرم ذكر الغاء ، أما النشر فلا يترتب على الإرسال ، فإن الملائكة أول ما يبلغون الوحي إلى الرسل لا يصير في الحال ذلك الدين مشهوراً منتشرأ ، بل الخلق يؤذون الأنبياء في أول الأمر وينسبونهم إلى الكذب والسحر والجنون ، فلا جرم لم يذكر الغاء التي تفيد التعقيب بل ذكر الواو ، بلى إذا حصل النشر ترتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل وظهور ذكر الحق على الألسنة فلا جرم ذكر هذين الأمرين بحرف الغاء ، فكأنه والله أعلم قيل يا محمد إنى أرسلت الملك إليك بالوحي الذي هو عنوان كل سعادة ، وقاتحة كل خير ، ولكن لا تطمع في أن تنشر ذلك الأمر في الحالة ، ولكن لا بد من الصبر وتحمل المشقة ، ثم إذا جاء وقت النصرة أجعل دينك ظاهراً منتشرأ في شرق العالم وغربه ، وعند ذلك الانتشار يظهر الفرق فتصير الأديان الباطلة ضعيفة ساقطة ، ودينك هو الدين الحق ظاهراً غالباً ، وهناك يظهر ذكر الله على الألسنة . وفي المحاريب وعلى المنابر ويصير العالم مملوأ من ذكر الله ، فهذا إذا حملنا هذه الكلمات الخمس على الملائكة ، ومن عرف هذا الوجه أمكنه ذكر ما شابهه في الرياح وسائر الوجوه والله أعلم .

أما قوله (عذراً أو نذراً) ففيه مسالتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيهما قرأتان التخفيف وهو قراءة أنى عمرو وعاصم من رواية حفص والباقون قرأوا بالثقل ، أما التخفيف فلا نزاع في كونه مصدراً ، والمعنى إعداراً وإنذار ، وأما الثقل فزعم أبو عبيدة أنه جمع وليس بمصدر ، وأما الأخفش والزجاج فزعموا أنه مصدر ، والثقل والتخفيف لغتان ، وقرر أبو علي قول الأخفش والزجاج ، وقال العذر والعذير والنذر والنذير مثل النسكر والنكير ، ثم قال أبو علي : ويجوز في قراءة من ثقل أن يكون عذراً جمع عاذر كسرف وشارف . وكذلك النذر يجوز أن يكون جمع نذير ، قال تعالى (هذا نذير من النذر الأولى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في النصب ثلاثة أوجه ، أما على تقدير كونه مصدراً فوجهان (أحدهما) أن يكون مفعولاً على البدل من قوله ذكرأ (والثاني) أن يكون مفعولاً له ، والمعنى والمقبات ذكرأ للإعدار والإنذار ، وأما على تقدير كونه جمعاً ، فنصب على الحال من الإلقاء والتقدير فالمقبات ذكرأ حال كونهم عاذرين ومنذرين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ جراب القسم والمعنى ، إن الذي توعدون به من محي .

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ﴿١٠﴾
وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ ﴿١١﴾

يوم القيامة لسكان نازل ، وقال الكلبي المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع ، واحتج القائلون بالتفسير الأول بأنه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات ، علامات يوم القيامة ، فدل على أن المراد من هذه الآية هو القيامة فقط ، ثم إنه ذكر علامات وقوع هذا اليوم .

(أولها) قوله تعالى ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ وذكرونا تفسير الطمس عند قوله (ربنا اطمس على أموالهم) وبالجملة فيحتمل أن يكون المراد محقت ذواتها ، وهو موافق لقوله (انتشرت ، وانكدرت) وأن يكون المراد محقت أنوارها ، والأول أولى ، لأنه لا حاجة فيه إلى الإضمار . ويجوز أن يحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور .

(وثانيها) قوله ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ الفرج الشق يقال فرجه الله فانفرج ، وكل مشقوق فرج ، فهنا قوله فرجت أى شقت نظيره (وإذا السماء انشقت) (ويوم تشقق السماء بالغمام) وقال ابن قتيبة معناه ، فتحت نظيره ، وفتحت السماء قال الشاعر :

الفارجي باب الأير المهم

(وثالثها) قوله ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ وفيه وجهان (أحدها) نسفت كالحب المغاث إذا نسف بالمنسف ، ومنه قوله (لنحرقنه ثم لننسفنه) ونظيره (وبست الجبال بساً) (وكانت الجبال كشيئاً مهيلاً) (فقل ينسفها ربي نسفاً) (والثاني) اقتلعت بسرعة من أما كتبها من انتسفت الشيء إذا اختطفته ، وقرىء طمست وفرجت ونسفت مشددة .

(ورابعها) قوله تعالى : ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أقتت أصلها وقتت وبدل عليه وجوه (أحدها) قراءة أبي عمرو وقتت بالواو (وثانيها) أن أصل الكلمة من الوقت (وثالثها) أن كل واو انضمت وكانت ضميتها لازمة فإنها تبدل على الاطراد همزة أو لا وحشواً ، ومن ذلك أن تقول صلى القوم لإحدانا ، وهذه أجوه حسان وأدور في جمع دار ، والسبب فيه أن الضمة من جنس الواو ، فالجمع بينهما يجرى مجرى جمع المثاليين فيكون ثقيلاً ، ولهذا السبب كان كسر الياء ثقيلاً .

أما قوله تعالى (ولا تنسوا الفضل بينكم) فلا يجوز فيه البدل لأن الضمة غير لازمة ، ألا ترى أنه لا يسوغ في نحو قولك (هذا وعد) أن تبدل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في التأقيت قولان (الأول) وهو قول مجاهد والزجاج أنه تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على أنهم ، وهذا ضعيف ، وذلك لأن هذه الأشياء جمعت علامات

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾

وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

لقيام القيامة ، كأنه قيل إذا كان كذا وكذا كانت القيامة ، ولا يليق بهذا الموضع أن يقال ، وإذا بين لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أنهم قامت القيامة لأن ذلك البيان كان حاصلًا في الدنيا ولأن الثلاثة المتقدمة وهي الطمس والفرج والذنف مختصة بوقت قيام القيامة ، فكذا هذا التوقيت يجب أن يكون مختصاً بوقت قيام القيامة (القول الثاني) أن المراد بهذا التأقيت تحصيل الوقت وتكوينه ، وهذا أقرب أيضاً إلى مطابقة اللفظ ، لأن بناء التفعيلات على تحصيل تلك الماهيات ، فالتسويد تحصيل السواد والتحرك تحصيل الحركة ، فكذا التأقيت تحصيل الوقت ثم إنه ليس في اللفظ بيان أنه تحصيل لوقت أى شيء ، وإنما لم يبين ذلك ولم يبين لأجل أن يذهب الوهم إلى كل جانب فيكون النهويل فيه أشد فيجتمه أن يكون المزداد تكوين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أنهم وأن يكون هو الوقت الذي يجتمعون فيه للفرز بالثواب ، وأن يكون هو وقت سؤال الرسل عما أجيبوا به وسؤال الأمم عما أجابوهم ، كما قال (فلنساءن الذين أرسل إليهم ولنساءن المرسلين) وأن يكون هو الوقت الذي يشاهدون الجنة والنار والعرض والحساب والوزن وسائر أحوال القيامة ، وإليه الإشارة بقوله (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) .

قوله تعالى : ﴿ لأي يوم أجلت ﴾ أى أخرت كأنه تعالى يجب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال (لأي يوم أخرت) الأمور المتعلقة بهؤلاء : وهى تعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به من الأهوال والعرض والحساب ونشر الدراوين ووضع الموازين .

ثم إنه تعالى بين ذلك فقال ﴿ ليوم الفصل ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما ، يوم يفصل الرحمن بين الخلائق ، وهذا كقوله (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) .
ثم أتبع ذلك تعظيماً ثانياً فقال ﴿ وما أدراك ما يوم انفصل ﴾ أى وما علمك بيوم الفصل وشدته ومهافته .

ثم أتبعه بهويل ثالث فقال ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى المكذبين بالتوحيد والنبوة والمعاد وبكل ما ورد من الأنبياء عليهم السلام وأخبروا عنه ، بقى ههنا سؤالان :
(السؤال الأول) كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله (ويل يومئذ للمكذبين) ؟ (الجواب) هو في أصله مصدر منصوب ساد مسد فعله ، وإمكانه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك

أَلَمْ نُهَلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ

﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

ودوامه للردع عليه ، ونحوه (سلام عليكم) ويجوز ويلا بالنصب ، ولكن لم يقرأ به .
 (السؤال الثاني) أين جواب قوله (فإذا النجوم طمست) ؟ (الجواب) من وجهين (أحدهما) التقدير : إنما توعدون لواقع . إذا النجوم طمست ، وهذا ضعيف ، لأنه يقع في قوله (فإذا النجوم طمست) ، (الثاني) أن الجواب محذوف ، والتقدير (فإذا النجوم طمست) وإذا وإذا ، فينبذ تقع المجازاة بالأعمال وتقوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخريين ، كذلك نفعل بالمجرمين ويل يومئذ للمكذبين ﴾ اعلم أن المقصود من هذه الصورة تخويف الكفار وتحذيرهم عن الكفر .

﴿ فالنوع الأول ﴾ من التخويف أنه أقسم على أن اليوم الذي يوعدون به ، وهو يوم الفصل واقع ثم هول فقال (وما أدراك ما يوم الفصل) ثم زاد في التهويل فقال (ويل يومئذ للمكذبين) (والنوع الثاني من التخويف) ما ذكر في هذه الآية . وهو أنه أهلك الكفرة المتقدمين بسبب كفرهم . فإذا كان الكفر حاصلًا في هؤلاء المتأخرين ، فلا بد وأن يهلكهم أيضاً ثم قال (ويل يومئذ للمكذبين) كأنه يقول ، أما الدنيا فخالصهم الهلاك ، وأما الآخرة فالعذاب الشديد وإليه الإشارة بقوله (خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) وفي الآية سؤالان (الأول) ما المراد من الأولين والآخريين ؟ (الجواب) فيه قولان (الأول) أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ثم أتبعهم الآخريين قوم شعيب ولوط وموسى كذلك نفعل بالمجرمين وهم كفار قريش ، وهذا القول ضعيف لأن قوله (نتبعهم الآخريين) بلفظ المضارع فهو يتناول الحال والاستقبال ولا يتناول الماضي البتة (القول الثاني) أن المراد بالأوليين جميع الكفار الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله (ثم نتبعهم الآخريين) على الاستئناف على معنى سنفعل ذلك ونتبع الأول الآخر ، وبدل على الاستئناف قراءة عبدالله سنتبعهم ، فإن قيل قرأ الأعرج ثم نتبعهم بالجزم وذلك يدل على الاشتراك في ألم ، وحينئذ يكون المراد به الماضي والمستقبل ، قلنا القراءة الثابتة بالترانز نتبعهم بحركة العين وذلك يقتضى المستقبل ، فلو اقضت القراءة بالجزم أن يكون المراد هو الماضي لوقع التناقض بين القراءتين ، وإنه غير جائز . فعلنا أن تسكين العين ليس للجزم للتخفيف كما روى في بيت امرئ القيس :

واليوم أشرب غير مستحتم

ثم إنه تعالى لما بين أنه يفعل هؤلاء المتأخرين مثل ما يفعل بأولئك المتقدمين قال (كذلك)

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ

﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

نفعل بالجرمين) أى هذا الإهلاك إنما نفعله بهم لكونهم مجرمين ، فلا جرم عم في جميع المجرمين ، لأن عموم العلة يقتضى عموم الحكم .

ثم قال تعالى ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى هؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا في الدنيا ، فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ المراد من الإهلاك فى قوله (ألم نهلك الأولين) هو مطلق الإمامة أو الإمامة بالعذاب ؟ فإن كان ذلك هو الأول لم يكن تخويفاً للكفار ، لأن ذلك أمر حاصل للدؤمن والكافر ، فلا يصح تحذيراً للكافر ، وإن كان المراد هو الثانى وهو الإمامة بالعذاب ، فقولته (ثم تتبعهم الآخريين ، كذلك نفعل بالمجرمين) يقتضى أن يكون الله قد فعل بكفار قريش مثل ذلك ، ومن المعلوم أنه لم يوجد ذلك ، وأيضاً فلأنه تعالى قال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الجواب : لم لا يجوز أن يكون المراد منه الإمامة بالتعذيب ، وقد وقع ذلك فى حق قريش وهو يوم بدر ؟ سلمنا ذلك ، فلم لا يجوز أن يكون المراد من الإهلاك معنى ثالثاً مغايراً للأمرين اللذين ذكروهما وهو الإمامة المستعقبة للذم واللعن ؟ فكأنه قيل إن أولئك المتقدمين لحرصهم على الدنيا عاندوا الأنبياء وخاصيرهم ، ثم ماتوا فقد فاتتهم الدنيا وبقي اللعن عليهم فى الدنيا والعقوبة الآخروية دائماً سرمداً ، فهكذا يكون حال هؤلاء الكفار الموجودين ومعلوم أن مثل هذا الكلام من أعظم وجوه الزجر .

قوله تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقد رنا فنعم

القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾

اعلم أن هذا هو (النوع الثالث) من تخويف الكفار ووجه التخويف فيه من وجهين : (الأول) أنه تعالى ذكرهم عظيم إنعامه عليهم ، وكلما كانت نعمة الله عليهم أكثر كانت جنايتهم فى حقه أقبح وأخس ، وكلما كان كذلك كان العقاب أعظم ، فللهذا قال عقيب ذكر هذا الإنعام (ويل يومئذ للمكذبين) . (الوجه الثانى) أنه تعالى ذكرهم كونه قادراً على الابتداء ، وظاهر فى العقل أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ، فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة ، لاجرم قال فى حقهم (ويل يومئذ للمكذبين) وأما التفسير فهو أن قوله (ألم نخلقكم من ماء مهين) أى من النطفة ، كقولته (ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين) وهو الرحم ، لأن ما يخلق منه الولد لا بد وأن يثبت فى الرحم ويتمكن بخلاف ما لا يخلق منه الولد ، ثم قال (إلى

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ

مَشِخَلَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

قدر معلوم) والمراد كونه في الرحم إلى وقت الولادة ، وذلك الوقت معلوم لله تعالى لا لغيره كقوله (إن الله عنده علم الساعة) إلى قوله (ويعلم ما في الأرحام) ، (فقدرنا) قرأ نافع وعبد الله ابن عامر بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، أما التشديد فالعنى إنا قدرنا ذلك تقديراً فنعم المقدرون له نحن ، ويتأكد هذا الوجه بقوله تعالى (من نطفة خلقه فقدره) ولأن إقناع الخلق على هذا التقدير والتحديد نعمة من المقدر على المخلوق فحين ذكره في موضع ذكر المنة والنعمة ، ومن طعن في هذه القراءة قال لو صححت هذه القراءة لوجب أن يقال فقدرنا فنعم المقدرون وأجيب عنه بأن العرب قد تجمع بين اللغتين ، قال تعالى (فهل الكافرين أمهلهم رويداً) وأما القراءة بالتخفيف ففيها وجهان : (الأول) أنه من القدرة أى قدرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا وأردنا (فنعم القادرون) حيث خلقناه في أحسن الصور والهيئات (والثاني) أنه يقال قدرت الشيء بالتخفيف على معنى قدرته ، قال الفراء العرب تقول : قدر عليه الموت ، وقدر عليه الموت ، وقدر عليه رزقة وقدر بالتخفيف والتشديد ، قال تعالى (فقدر عليه رزقه) .

قوله تعالى : ألم نجعل الأرض كفاتاً ، أحياء وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ، ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

اعلم أن هذا هو (النوع الرابع) من تخويف التكفار وذلك لأنه ذكرهم بالنعم التي له عليهم في الأنفس ، وفي هذه الآية ذكرهم بالنعم التي له عليهم في الآفاق ، ثم قال في آخر الآية (ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) والسبب فيه ما قدمنا أن النعم كلما كانت أكثر كانت الجناية أقبح فكان استحقاق الذم عاجلاً والعقاب أجلاً أشد ، وإنما قدم تلك الآية على هذه الآية ، لأن النعم التي في الأنفس كالأصل للنعم التي في الآفاق ، فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان الانتفاع بشيء من المخلوق ممكناً . واعلم أنه تعالى ذكر ههنا ثلاثة أشياء (أولها) الأرض ، وإنما قدمها لأن أقرب الأشياء إلينا من الأمور الخارجية هو الأرض ، ومعنى الكفات في اللغة الضم والجمع يقال . كفت الشيء أى ضمته ، ويقال جراب كفيت وكفت إذا كان لا يضيع شيئاً مما يجعل فيه ، ويقال للقدر كفت . قال صاحب الكشاف هو اسم ما يكفت ، كقولهم الضمام والجماع لما يضم ويجمع ، ويقال هذا الباب جماع الأبواب ، وتقول شددت الشيء ثم تسمى الخيط الذي تشد به الشيء شداداً ، وبه انتصب أحياء وأمواتاً كأنه قيل كافتة أحياء وأمواتاً ، أو بفعل مضممر يدل عليه وهو نكفت ويكون المعنى نكفتكم أحياء وأمواتاً ، فينصبان على الحال من الضمير هذا هو اللفظ ، ثم في المعنى

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾
لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ رَكَالٍ قَصِيرٍ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جُمِلَتْ صُفْرًا
﴿٣٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

وجوه (أحدها) أنها تكفّت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها والمعنى أن الأحياء يسكنون في منازلهم والأموات يدفنون في قبورهم ، ولهذا كانوا يسمون الأرض أما لأنها في ضمنها للناس كلام التي تضم ولدها وتكفله ، ولما كانوا يضمنون إليها جعلت كأنها تضمهم (وثانيتها) أنها كفّت الأحياء بمعنى أنها تفصل الأحياء من الأمور المستفجرة ، فأما أنها تكفّت [الأحياء] حال كونهم على ظهرها فلا (وثالثها) أنها كفّت الأحياء بمعنى أنها جامعة لما يحتاج الإنسان إليه في حاجاته من ما كل ومشرب ، لأن كل ذلك يخرج من الأرض والأبنية الجامعة للمصالح الدافعة للضرر مبنية منها (ورابعها) أن قوله (أحياء وأمواتاً) معناه راجع إلى الأرض ، والحى ما أنبت والميت ما لم ينبت ، بقى في الآية سؤالان :

﴿ الأول ﴾ لم قيل (أحياء وأمواتاً) على التنكير وهي كفّت الأحياء والأموات جميعاً ؟ (الجواب) هو من تنكير التفعيل ، كأنه قيل تكفّت أحياء لا يعدون ، وأمواتاً لا يحصرون .
﴿ السؤال الثاني ﴾ هل تدل هذه الآية على وجوب قطع النباش ؟ (الجواب) نقل القفال أن ربيعة قال دلت الآية على أن الأرض كفّت الميت فتكون حرزاً له ، والسارق من الحرز يجب عليه القطع .

﴿ النوع الثاني ﴾ من النعم المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (وجعلنا فيها رواسي شامخات) فقوله (رواسي) أى ثوابت على ظهر الأرض لا تزول (شامخات) أى عاليات ، وكل عال فهو شامخ ، ويقال للمتكبر شامخ بأنفه ، ومنافع خلقه الجبال قد تقدمت في هذا الكتاب .
﴿ النوع الثالث ﴾ من النعم قوله تعالى (وأسقيناهم ماء فراثاً) الفرات هو الغاية في العذوبة ، وقد تقدم تفسيره في قوله (هذا عذاب فرات) .

قوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، إنها ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جمالت صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .
اعلم أن هذا هو ﴿ النوع الخامس ﴾ من وجوه تحريف الكفار وهو بيان كيفية عذابهم في الآخرة فأما قوله (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) فالمعنى أنه يقال لهم (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) من العذاب ، والظاهر أن القائلين هم خزنة النار (وانطلقوا) الثانى تكرير ، وقرأ

يقوب (انطلقوا) على لفظ الماضي ، والمعنى أنهم انقادوا للأمر لأجل أنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعاً منه ، وهذا بعيد لأنه كان ينبغي أن يقال فانطلقوا بالفاء ، ليرتبط آخر الكلام بأوله ، قال المفسرون إن الشمس تقرب يوم القيامة من رؤوس الخلائق ، وليس عليهم يومئذ لباس ولا كنان ، فتلفحهم الشمس وتسفعهم وتأخذ بأنفاسهم ويمتد ذلك اليوم ، ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظل من ظله فهناك يقولون (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) ويقال للمكذبين (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) من عذاب الله وعقابه ، وقوله (إلى ظل) يعني دخان جهنم كقوله (وظل من يحموم) ثم إنه تعالى وصف هذا الظل بصفات :

(الصفة الأولى) قوله (ذى ثلاثة شعب) وفيه وجوه (أحدها) قال الحسن : ما أدرى ما هذا الظل ، ولا سمعت فيه شيئاً (وثانيها) قال قوم المراد بقوله إلى ظل ذى ثلاثة شعب كون النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومحيطه بهم ، وتسمية النار بالظل مجاز من حيث إنها محيطة بهم من كل جانب كقوله (لهم من فوقهم ظلال من النار ، ومن تحتهم ظلل) وقال تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) (وثالثها) قال قتادة بل المراد الدخان وهو من قوله (أحاط بهم سرادقها) وسرادق النار هو الدخان ، ثم إن شعبة من ذلك الدخان على يمينه وشعبة أخرى على يساره ، وشعبة ثالثة من فوقه . وأقول هذا غير مستبعد لأن الغضب عن يمينه والشهوة عن شماله ، والقوة الشيطانية في دماغه ، ومنبع جميع الآفاق الصادرة عن الإنسان في عقائده ، وفي أعماله ، ليس إلا هذه الثلاثة ، فتولدت من هذه الينابيع الثلاثة أنواع من الظلمات ، ويمكن أيضاً أن يقال ههنا درجات ثلاثة ، وهى الحس والخيال ، والوهم ، وهى مانعة للروح عن الاستنارة بأنوار عالم القدس والطهارة ، ولكل واحد من تلك المراتب الثلاثة نوع خاص من الظلمة (ورابعها) قال قوم هذا كناية عن كون ذلك الدخان عظيماً ، فإن الدخان العظيم ينقسم إلى شعب كثيرة (وخامسها) قال أبو مسلم ويحتمل في ثلاث شعب ما ذكره بعد ذلك ، وهو أنه : غير ظليل وأنه لا يغنى من اللهب وبأنها ترمى بشرر كالقصر .

(الصفة الثانية) لذلك الظل قوله (لا ظليل) وهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظلمهم غير ظل المؤمنين ، والمعنى أن ذلك الظل لا يمنع حر الشمس .

(الصفة الثالثة) قوله تعالى (ولا يغنى من اللهب) يقال أغنى عنى وجهك ، أى أبعدته لأن الغنى عن الشيء يباعده ، كما أن المحتاج يقاربه ، قال صاحب الكشاف إنه في محل الجر ، أى وغيره مغن عنهم ، من حر اللهب شيئاً ، قال الففال وهذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن هذا الظل إنما يكون في جهنم ، فلا يظلمهم من حرها ، ولا يستترهم من لهيبها ، وقد ذكر الله في سورة الواقعة الظل فقال (في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم) وهذا كأنه في جهنم إذا دخلوها ، ثم قال (لا بارد ولا كريم) فيحتمل أن يكون قوله (لا ظليل) في معنى (لا بارد) وقوله (ولا يغنى من اللهب)

في معنى (ولا كريم) أى لاروح له يلجأ إليه من لهب النار (والثاني) أن تكون ذلك إنما يكون قبل أن يدخلوا جهنم بل عند ما يحسرون للحساب والعرض ، فيقال لهم إن هذا الظل لا يظلمكم من حر الشمس ولا يدفع لهب النار ، وفي الآية (وجه ثالث) : وهو الذى قاله قطرب وهو أن اللهب هنا هو العطش يقال لهب لهباً ورجل لهبان وامرأة لهي .

(الصفة الرابعة) قوله تعالى (إنها ترمى بشرر) قال الواحدي : يقال شررة وشرر وشرارة وشرار ، وهو ما تطاير من النار متبدداً في كل جهة وأصله من شررت الثوب إذا أظهرته وبسطته للشمس والشرار يبسط متبدداً ، واعلم أن الله تعالى وصف النار التي كان ذلك الظل دخاناً لها بأنها ترمى بالشرارة العظيمة ، والمقصود منه بيان أن تلك النار عظيمة جداً ، ثم إنه تعالى شبه ذلك الشرر بشيئين (الأول) بالقصر وفي تفسيره قولان (أحدهما) أن المراد منه البناء المسمى بالقصر قال ابن عباس يريد القصور العظام . (الثاني) أنه ليس المراد ذلك ، ثم على التقدير في التفسير وجوه (أحدها) أنها جمع قصرة ساكنة الصاد كتمر وتمر وجمرة وجمر ، قال المبراد يقال للواحد من الحطب الجزل الغليظ قصرة والجمع قصر ، قال عبد الرحمن بن عباس سألت ابن عباس عن القصر فقال هو خشب كنا ندخره للشتاء نقطعه وكنا نسميه القصر ، وهذا قول سعيد بن جبير ومقاتل والضحاك ، إلا أنهم قالوا هي أصول النخل والشجر العظام ، قال صاحب الكشاف قرى . كالقصر بفحيتين وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر ، وقرأ ابن مسعود كالقصر بمعنى القصر كرهن وورهن ، وقرأ سعيد بن جبير كالقصر في جمع قصرة كحاجة وحرج .

(التشبيه الثاني) قوله تعالى (كأنه جمالات صفر) وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ جمالات جمع جمال كقولهم رجالات ورجال وبيوتات وبيوت ، وقرأ ابن عباس جمالات بضم الجيم وهو قراءة يعقوب وذكروا وجوهاً (أحدها) قيل الجمالات بالضم الحبال الغلاظ وهي حبال السفن ، ويتال لها القلوس ومنهم من أنكر ذلك وقال المعروف في الحبال إنما هو الجمل بضم الجيم وتشديد الميم وقرى . (حتى يلج الجمل) (وثانيها) قيل هي قطع النحاس ، وهو مروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وابن عباس ومعظم أهل اللغة لا يعرفونه . (وثالثها) قال الفراء يجوز أن يكون الجمالات بالضم من الشئ الجميل ، يقال أجملت الحساب ، وجاء القوم جملة أى مجتمعين ، والمعنى أن هذه الشررة ترتفع كأنها شئ بمجموع غليظ أصفر ، وهذا قول الفراء (ورابعها) قال الفراء يجوز أن يقال جمالات بضم الجيم جمع جمال بضم الجيم وجمال بضم الجيم يكون جمع جميل ، كما يقاله رخل ورخال ورخال . (القراءة الثانية) جملة بكسر الجيم هي جمع جمل مثل حجر وحجارة ، قال أبو علي والتاء إنما لحقت جمالا لتأنيث الجمع ، كما لحقت في فحل وفحالة .

(القراءة الرابعة) جملة بضم الجيم وهى القلس ، وقيل صفر لإرادة الجنس ، أما قوله صفر قالوا كثرون على أن المراد منه سود تضرب إلى الصفرة ، قال الفراء لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشوب صفرة ، والشعر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه بالجلج الأسود الذى يشوبه شيء من الصفرة . وزعم بعض العلماء أن المراد هو الصفرة لا السواد ، لأن الشعر إنما يسمى شرراً ما دام يكون ناراً ، ومتى كان ناراً كان أصفر ، وإنما يصير أسود إذا انطقاً ، وهناك لا يسمى شرراً ، وهذا القول عندي هو الصواب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنه تعالى شبه الشرر فى العظم بالقصر ، وفى اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر ، وقيل أيضاً إن ابتداء الشرر يعظم فيكون كالعصر ثم يفترق فتكون تلك القطع المنفرقة المتتابعة كالجمالات الصفر ، واعلم أنه نقل عن ابن عباس أنه قال فى تفسير قوله (إنها ترمى بشرر كالقصر) أن هذا التشبيه إنما ورد فى بلاد العرب ، وقصورهم قصيرة السمك جارية مجرى الخيمة ، فبين تعالى أنها ترمى بشرر كالقصر ، فلما سمع أبو العلاء المعرى بهذا تصرف فيه وشبهه بالخيمة من الأديم ، وهو قوله :

حمرأ ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف

ثم زعم صاحب الكشاف أنه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية ، وأقول كان الأولى لصاحب الكشاف أن لا يذكر ذلك ، وإذ قد ذكره فلا بد لنا من تحقيق الكلام فيه ، فنقول تشبيه الشرارة بالطراف يفيد التشبيه فى الشكل والعظم ، أما الشكل فمن وجهين (الأول) أن الشرارة تكون قبل انشعابها كالنقطة من النار ، فاذا انشعبت اتسعت فهى كالنقطة التى تتسع فهى تشبه الخيمة فإن رأسها كالنقطة ثم إنها لا تزال تتسع شيئاً فشيئاً (الثانى) أن الشرارة كالكرة أو الأسطوانة فهى شديدة الشبه بالخيمة المستديرة وأما التشبيه بالخيمة فى النظم فالامر ظاهر ، هذا منتهى هذا التشبيه . وأما وجه القدح فيه فمن وجوه (الأول) أن لون الشرارة أصفر يشوبها شيء من السواد ، وهذا المعنى حاصل فى الجمالات الصفر وغير حاصل فى الخيمة من الأديم (الثانى) أن الجمالات متحركة والخيمة لا تكون متحركة فتشبيه الشرار المتحرك بالجمالات المتحركة أولى (والثالث) أن الشرارات متتابعة يجىء بعضها خلف البعض وهذا المعنى حاصل فى الجمالات الصفر وغير حاصل فى الطراف (الرابع) أن القصر مأمن الرجل وموضع سلامته فتشبيه الشرر بالقصر تشبيه على أنه إنما تولدت آفته من الموضع الذى توقع منه الأمن والسلامة ، وحال الكافر كذلك فإنه كان يتوقع الخير والسلامة من دينه ، ثم إنه ما ظهرت له آفة ولا محنة إلا من ذلك الدين ، والخيمة ليست مما يتوقع منها الأمن الكلى (الخامس) أن العرب كانوا يعتقدون أن كل اجمال فى ملك اجمال وتمام النعم إنما يحصل بملك النعم ، ولهذا قال تعالى (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) فتشبيه الشرر بالجمال الأسود كالتهم بهم ، كأنه قيل لهم كنتم تتوقعون من دينكم كرامة ونعمة وجمالاً إلا أن ذلك اجمال هو هذه الشرارات التى هى كالجمال ، وهذا المعنى غير حاصل فى

الطراف (السادس) أن الجمال إذا انفردت واختلط بعضها بالبهض فكل من وقع فيما بين أيديها وأرجلها في ذلك الوقت نال بلاء شديداً وألماً عظيماً ، فتشبيه الشرارات بها حال متابعتها يفيد حصول كمال الضرر ، والطراف ليس كذلك (السابع) الظاهر أن القصر يكون في المقدر أعظم من الطراف والجمالات الصفر تكون أكثر في العدد من الطراف فتشبيه هذه الشرارات بالقصر وبالجمالات يقضى الزيادة في المقدر وفي العدد وتشبهها بالطراف لا يفيد شيئاً من ذلك ، ولما كان المقصود هو التهويل والتخريف كان التشبيه الأول أولى (الثامن) أن التشبيه بالشئتين في إثبات وصفين أقوى في ثبوت ذنبك الوصفين من التشبيه بالشئ الواحد في إثبات ذنبك الوصفين ، وبيانه أن من سمع قوله (إنها ترمى بشرور كالقصر) تسارع ذهنه إلى أن المراد إثبات عظم تلك الشرارات ، ثم إذا سمع بعد ذلك قوله (كأنه جمالة صفر) تسارع ذهنه إلى أن المراد كثرة تلك الشرارات وتتابرها ولونها . أما من سمع أن الشرار كالطراف يبقى ذهنه متوقفاً في أن المقصود بالتشبيه إثبات العظم أو إثبات اللون ، فالتشبيه بالطراف كالمجمل ، والتشبيه بالقصر وبالجمالات الصفر ، كالبيان المفصل المكرر المؤكد . ولما كان المقصود من هذا البيان هو التهويل والتخويف ، فكما كان بيان وجوه العذاب أتم وأبين كان الخوف أشد ، فثبت أن هذا التشبيه أتم (التاسع) أنه قال في أول الآية (انطلقوا إلى ظل) والإنسان إنما يكون طيب العيش وقت الانطلاق ، والذهاب إذا كان ركباً ، وإنما يجد الظل الطيب إذا كان في قصره ، فوقع تشبيه الشرارة بالقصر والجمالات ، كأنه قيل له : مركوبك هذه الجمالات ، وظلك في مثل هذا القصر ، وهذا يجرى مجرى التهمم ، وهذا المعنى غير حاصل في الطراف (العاشر) من المعلوم أن تطاير القصر إلى الهواء أدخل في التعجب من تطاير الخيمة ، لأن القصر يكون مركباً من اللبن والحجر والخشب . وهذه الأجسام أدخل في الثقل والاكتمال من الخيمة المتخذة إما من الكرباس أو من الأديم ، والشئ كلما كان أثقل وأشد اكتمالاً كان تطايره في الهواء أبعد ، فكانت النار التي تطير القصر إلى الهواء أقوى من النار التي تطير الطراف في الهواء ، ومعلوم أن المقصود تعظيم أمر النار في الشدة والقوة ، فكان التشبيه بالقصر أولى (الحادي عشر) وهو أن سقوط القصر على الإنسان أدخل في الإيلام والإيجاع من سقوط الطراف عليه ، فتشبيه تلك الشرارات بالقصر يفيد أن تلك الشرارات إذا ارتفعت في الهواء ثم سقطت على الكافر فأبها تؤلمه إبلاًماً شديداً ، نصار ذلك تنبيهاً على أنه لا يزال يسقط عليه من الهواء شرارات كالقصور بخلاف وقوع الطراف على الإنسان ، فإنه لا يؤلم في الغاية (الثاني عشر) أن الجمال في أكثر الأمور تكون موقرة ، فتشبيه الشرارات بالجمال تنبيه على أن مع كل واحد من تلك الشرارات أنواعاً من البلاء والمحنة لا يحصى عددها إلا الله ، فكأنه قيل تلك الشرارات كالجمالات الموقرة بأنواع المحنة والبلاء ، وهذا المعنى غير حاصل في الطراف فكان التشبيه بالجمالات أتم .

واعلم أن هذه الوجوه توالى على خاطر في اللحظة الواحدة ولو تضرعنا إلى الله تعالى في طلب الأزيد

هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

لأعطانا أى قدر شيئاً بفضلله ورحمته ، ولكن هذه الوجوه كافية في بيان الترجيح والزيادة عليها تعد من الأطناب والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ نصب الأعمش يوم أى هذا الذى قص عليكم واقع يومئذ ، أعلم أن هذا هو (النوع السادس) من أنواع تخويف الكفار وتشديد الأمر عليهم ، وذلك لأنه تعالى بين أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أوا به من القبايح ، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم ، فيجتمع في حقه في هذا المقام أنواع من العذاب (أحدها) عذاب الخجالة ، فإنه يفتضح على رؤوس الأشهاد ، ويظهر لكل قصوره وتقصيره وكل من له عقل سليم ، علم أن عذاب الخجالة أشد من القتل بالسيف والاحتراق بالنار (وثانيها) وقوف العبد الآبق على باب المولى ووقوعه في يده مع علمه بأنه الصادق الذى يستحيل الكذب عليه ، على ما قال (ما يبدل القول لدى) (وثالثها) أنه يرى في ذلك الموقف خصمه الذى كان يستخف بهم ويستحقرهم فائزين بالثواب والتعظيم ، ويرى نفسه فائزاً بالخزى والنكال ، وهذه ثلاثة أنواع من العذاب الروحاني (ورابعها) العذاب الجسماني وهو مشاهدة النار وأهوالها نمود بالله منها فلما اجتمعت في حقه هذه الوجوه من العذاب بل ما هو مما لا يصف كنهه إلا الله ، لا جرم قال تعالى في حقهم (ويل يومئذ للمكذبين) وفي الآية سؤالان :

(الأول) كيف يمكن الجمع بين قوله (هذا يوم لا ينطقون) وقوله (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) وقوله (والله ربنا ما كنا مشركين) وقوله (ولا يكتفون الله حديثاً) ويروى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن هذا السؤال (والجواب) عنه من وجوه (أحدها) قال الحسن فيه إضمار ، والتقدير : هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، لأنه ليس لهم فيما عملوه عذر صحيح وجواب مستقيم ، فإذا لم ينطقوا بحجة سليمة وكلام مستقيم فكأنهم لم ينطقوا ، لأن من نطق بما لا يفيد فكأنه لم ينطق ، ونظيره ما يقال لمن ذكر كلاماً غير مفيد ما قلت شيئاً (وثانيها) قال الفراء : أراد بقوله (يوم لا ينطقون) تلك الساعة وذلك القدر من الوقت الذى لا ينطقون فيه ، كما يقول : آتيتك يوم يقدم فلان ، والمعنى ساعة يقدم وليس المراد باليوم كله ، لأن القدم إنما يكون في ساعة يسيرة ، ولا يمتد في كل اليوم (وثالثها) أن قوله (لا ينطقون) لفظ مطلق ، والمطلق لا يفيد العموم لا في الأنواع ولا في الأوقات ، بدليل أنك تقول : فلان لا ينطق بالشر ولكنه ينطق بالخير ، وتارة تقول : فلان لا ينطق بشيء البتة ، وهذا يدل على أن مفهوم لا ينطق قدر مشترك

بين أن لا ينطق ببعض الأشياء ، وبين أن لا ينطق بكل الأشياء ، وكذلك تقول : فلان لا ينطق في هذه الساعة ، وتقول فلان لا ينطق البتة ، وهذا يدل على أن مفهوم لا يتناقض مشترك بين الدائم والموقت ، وإذا كان كذلك ففهم لا ينطق يكفي في صدقه عدم النطق ببعض الأشياء وفي بعض الأوقات ، وذلك لاستينافى حصول النطق بشيء آخر في وقت آخر ، فيكفي في صدق قوله (لا ينطقون) أنهم لا ينطقون بعذر وعلة في وقت السؤال ، وهذا الذي ذكرناه إشارة إلى صحة الجوابين الأولين بحسب النظر العقلي ، فإن قيل : لو حلت لا ينطق في هذا اليوم ، فنطق في جزء من أجزاء اليوم يحتمل ؟ قلنا مبنى الإيمان على العرف ، والذي ذكرناه بحث عن مفهوم اللفظ من حيث إنه هو (ورابعها) أن هذه الآية وردت عقيب قول خزانة جهنم لهم (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب) فينقادون ويذهبون ، فكأنه قيل إنهم كانوا يؤمرون في الدنيا بالطاعات فما كانوا يلتفتون . أما في هذه الساعة [فقد] صاروا منقادين مطيعين في مثل هذا الكليف الذي هو أشق من كل شيء ، تنبيهاً على أنهم لو تركوا الخصومة في الدنيا لما احتاجوا في هذا الوقت إلى هذا الانقياد الشاق ، والحاصل أن قوله (هذا يوم لا ينطقون) متقيد بهذا الوقت في هذا العمل ، وتقيد المطلق بسبب مقدمة الكلام مشهور في العرف ، بدليل أن المرأة إذا قالت : أخرج هذه الساعة من الدار ، فقال الزوج : لو خرجت فأنت طالق ، فإنه يتقيد هذا المطلق بتلك الخرجة ، فكذا ههنا .

(السؤال الثاني) قوله (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) يومهم أن لهم عذراً وقد منعوا من ذكره ، وهذا لا يليق بالحكيم (والجواب) أنه ليس لهم في الحقيقة عذر ولكن ربما تخيلوا خيالا فاسداً أن لهم فيه عذراً ، فهم لا يؤذن لهم في ذكر ذلك العذر الفاسد ، ولعل ذلك العذر الفاسد هو أن يقول لما كان الكل بقضائك وعلمك ومشيتك وخلقك فلم تعذبني عليه ، فإن هذا عذر فاسد إذ ليس لأحد أن يمنع المالك عن التصرف في ملكه كيف شاء وأراد ، فإن قيل أليس أنه قال (رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) والمقصود من كل ذلك أن لا يبقى في قلبه ، أن له عذراً ، فهب أن عذره في موقف القيامة فاسد فلم لا يؤذن له في ذكره حتى يذكره ، ثم يبين له فساده ؟ قلنا لما تقدم الاعتذار والإذار في الدنيا بدليل قوله (فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً) كان إعادتها غير مفيدة .

(السؤال الثالث) لم لم يقل ولا يؤذن لهم فيعتذرون ؟ كما قال (لا يقضى عليهم فيموتوا) (الجواب) الفاء ههنا للنسق فقط ، ولا يفيد كونه جزء البتة ومثله (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له) بالرفع والنصب ، وإنما رفع يعتذرون بالمطف لأنه لو نصب لكان ذلك يومهم أنهم ما يعتذرون لأنهم لم يؤذنوا في الاعتذار ، وذلك يومهم أن لهم فيه عذراً منعوا عن ذكره وهو غير جائز . أما لما رفع كان المعنى أنهم لم يؤذنوا في العذر وهم أيضاً لم يعتذروا لا لأجل عدم الإذن بل لأجل عدم العذر في نفسه ، ثم إن فيه فائدة أخرى وهي حصول الموافقة في رسالات الآيات

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا
 ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَهَ مِمَّا
 يَسْتَهْوُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا ﴿٤٣﴾ وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٥﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

لأن الآيات بالواو والنون ، ولو قيل فيعتذروا لم تتوافق الآيات ، ألا ترى أنه قال في سورة
 اقتربت الساعة (إلى شيء نكر) فنقل لأن آياتها مثقلة ، وقال في موضع آخر (وعذبنا عذابا نكرا)
 وأجمع القراء على تثقيب الأول وتخفيف الثاني ليوافق كل منهما ما قبله .
 قوله تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ، ويل يومئذ
 للمكذبين ﴾ .

اعلم أن هذا هو ﴿ النوع السابع ﴾ من أنواع تهديد الكفار ، وهذا القسم من باب التعذيب
 بالتقريع والتنجيل ، فأما قوله (هذا يوم الفصل) فاعلم أن ذلك اليوم يقع فيه نوعان من الحكومة
 (أحدهما) ما بين العبد والرب وفي هذا القسم كل ما يتعلق بالرب فلا حاجة فيه إلى الفصل وهو
 ما يتعلق بالثواب الذي يستحقه المرء على عمله وكذا في العقاب إنما يحتاج إلى الفصل فيما يتعلق
 بجانب العبد وهو أن تقرر عليهم أعمالهم التي عملوها حتى يعترفوا .

﴿ والقسم الثاني ﴾ ما يكون بين العباد بعضهم مع بعض ، فإن هذا يدعى على ذلك أنه ظلمي
 وذلك يدعى على هذا أنه ظلمي فهنا لا بد فيه من الفصل وقوله (جمعناكم والأولين) كلام موضح
 لقوله (هذا يوم الفصل) لأنه لما كان هذا اليوم يوم فصل حكومات جميع المكلفين فلا بد من
 إحصار جميع المسككين لا سيما عند من لا يجوز القضاء على الغائب ، ثم قال (فإن كان لكم كيد
 فكيدون) يشير به إلى أنهم كانوا يدفعون الحقوق عن أنفسهم بضروب الخيل والكيد ، فكأنه قال
 فهنا إن أمكنكم أن تفعلوا مثل تلك الأفعال المنكرة من الكيد والمكر والخداع والتلبس فافعلوا ،
 وهذا كقوله تعالى (فأتوا بسوة من مثله) ثم إنهم يعلمون أن الخيل منقطعة والتلبسات غير
 ممكنة ، فخطاب الله تعالى لهم في هذه الحالة بقوله (فإن كان لكم كيد فكيدون) نهاية في التنجيل
 والتقريع ، وهذا من جنس العذاب الروحاني ، فلماذا قال عقيبه (ويل يومئذ للمكذبين) .

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئاً بما
 كنتم تعملون ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

اعلم أن هذا (النوع الثامن) من أنواع تهديد الكفار وتعذيبهم ، وذلك لأن الخصرمة الشديدة والنفرة العظيمة كانت في الدنيا قائمة بين الكفار والمؤمنين ، فصارت تلك النفرة بحيث أن الموت كان أسهل على الكافر من أن يرى للمؤمن دولة وقوة ، فلما بين الله تعالى في هذه السورة اجتماع أنواع العذاب والحزى والشكال على الكفار ، بين في هذه الآية اجتماع أنواع السعادة والكرامة في حق المؤمن ، حتى أن الكافر حال ما يرى نفسه في غاية الذل والهوان والحزى والخسران ، ويرى خصمه في نهاية العز والكرامة والرفعة والمنقبة ، تتضاعف حسرته وتزايد غمومه وهمرمه ، وهذا أيضاً من جنس العذاب الروحاني ، فلهذا قال في هذه الآية (ويل يومئذ للكاذبين) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال مقاتل والكلبي المراد من قوله (إن المتقين) الذين يتقون الشرك بالله ، وأقول هذا القول عندي هو الصحيح الذي لا معدل عنه ، ويدل عليه وجوه (أحدها) أن المتق عن الشرك يصدق عليه أنه متق ، لأن المتق عن الشرك ماهية مركبة من قيدتين (أحدهما) أنه متق (والثاني) خصوص كونه عن الشرك ، ومتى وجد المركب ، فقد وجد كل واحد من مفرداته لا محالة ، فثبت أن كل من صدق عليه أنه متق عن الشرك ، فقد صدق عليه أنه متق أقصى مافي الباب ، أن يقال هذه الآية على هذا التقدير تتناول كل من كان متقياً لأى شيء كان ، إلا أنا نقول كونه كذلك لا يقدح فيها قلناه ، لأنه خص كل من لم يكن متقياً عن جميع أنواع الكفر فيبقى عداه حجة لأن العالم الذي دخل التخصيص يبقى حجة فيما عداه (وثانيها) أن هذه السورة من أولها إلى آخرها مرتبة في تفريع الكفار على كفرهم وتخويفهم عليه ، فهذه الآية يجب أن تكون مذكورة لهذا الغرض ، وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها ، والنظم إنما يبقى لو كان هذا الوعد حاصلًا للمؤمنين بسبب إيمانهم ، لأنه لما تقدم وعيد الكافر بسبب كفره ، وجب أن يقرن ذلك بوعد المؤمن بسبب إيمانه حتى يصير ذلك سبباً في الزجر عن الكفر ، فأما أن يقرن به وعد المؤمن بسبب طاعته ، فذلك غير لائق بهذا النظم والترتيب ، فثبت بما ذكرنا أن المراد من قوله (إن المتقين) كل من كان متقياً عن الشرك والكفر (وثالثها) أن حمل اللفظ على المسمى الكامل أولى ، وأكمل أنواع التقوى هو التقوى عن الكفر والشرك ، فكان حمل اللفظ عليه أولى :

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى لما بعث الكفار إلى ظل ذي ثلاث شعب أعد في مقابله للمؤمنين ثلاثة أنواع من النعمة (أولها) قوله (إن المتقين في ظلال وعيون) كأنه قيل ظلهم ما كانت ظليلاً ، وما كانت مغنية عن اللهب والعطش أما المتقون فظلهم ظليلاً ، وفيها عيون عذبة مغنية لهم عن العطش وحاجة بينهم وبين اللهب والعطش معهم الفواكه التي يشتهونها ويتمنونها ، ولما قال للكفار (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب) قال للمتقين كلوا واشربوا هنيئاً ، فإما أن يكون ذلك الإذن من جهة الله تعالى لا بواسطة ، وما أعظمها ، أو من جهة الملائكة على وجه الإكرام ، ومعنى (هنيئاً) أى خالص اللذة لا يشوبه سقم ولا تنغيص .

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ جَرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ أَرَكِعُوا لَا يَرَكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف العلماء في أن قوله (كلوا واشربوا) أمر أو إذن قال أبو هاشم هو أمر ، وأراد الله منهم الأكل والشرب ، لأن سرورهم يعظم بذلك ، وإذا علموا أن الله أرادهم جزءا على عملهم فسكا يزيد لإجلهم وإعظامهم بذلك ، فكذلك يريد نفس الأكل والشرب معهم ، وقال أبو علي ذلك ليس بأمر ، وإنما يريد بقوله على وجه الإكرام ، لأن الأمر والنهي إنما يحصلان في زمان التكليف ، وليس هذا صفة الآخرة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ تمسك من قال العمل بوجوب الثواب بالباء في قوله (بما كنتم تعملون) وهذا ضعيف لأن الباء للاضافة ، ولما جعل الله تعالى ذلك العمل علامة لهذا الثواب كان الإتيان بذلك العمل كآلة المرصلة إلى تحصيل ذلك الثواب ، وقوله (إنا كذلك نجزي المحسنين) المقصود منه أن يذكر الكفار ما فاتهم من النعم العظيمة ، ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفاضوا بمثل تلك الخيرات ، وإذا لم يفعلوا ذلك لاجرم وقعوا فيها ووقعوا فيه .

قوله تعالى : ﴿ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ . اعلم أن هذا هو (النوع التاسع) من أنواع تخويف الكفار . كأنه تعالى يقول للكافر حال كونه في الدنيا إنك إنما عرضت نفسك لهذه الآفات التي وصفناها ولهذه المحن التي شرعناها لأجل حبك للدنيا ورغبتك في طيباتها وشهواتها إلا أن هذه الطيبات قليلة بالنسبة إلى تلك الآفات العظيمة والمشتغل بتحصيلها يجرى مجرى لقمة واحدة من الحلواء ، وفيها السم المهلك فإنه يقال لمن يريد أكلها ولا يتركها بسبب نصيحة الناصحين وتذكير المذكرين ، كل هذا وويل لك منه بعد هذا فإنك من الهالكين بسببه ، وهذا وإن كان في اللفظ أمرا إلا أنه في المعنى نهي بليغ وزجر عظيم ومنع في غاية المبالغة .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم أركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ . اعلم أن هذا هو (النوع العاشر) من أنواع تخويف الكفار كأنه قيل لهم هب أنكم تحبون الدنيا ولذاتها ولكن لا تعرضوا بالكلية عن خدمة خالفكم بل تواضعوا له فإنكم إن آمنتم ثم ضمتم إليه طلب اللذات وأنواع المعاصي حصل لكم رجاء الخلاص عن عذاب جهنم والفوز بالثواب ، كما قال (إن الله لا يفتقر أن يشرك به ويفقر مادون ذلك لمن يشاء) ثم إن هؤلاء الكفار لا يفعلوا ذلك ولا يتقادون لطاعته ، ويقفون مصرين على جهلهم وكفرهم وتعريضهم لأنفسهم للعقاب العظيم ، فلماذا قال ، (ويل يومئذ للمكذبين) أي الويل لمن يكذب هؤلاء الأنبياء الذين يرشدونهم إلى هذه المصالح الجامعة بين خيرات الدنيا والآخرة ، وههنا مسائل .

نَبَأِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما قوله (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) مراد به الصلاة ، وهذا ظاهر لأن الركوع من أركانها ، فبين تعالى أن هؤلاء الكفار من صفتهم هم إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون ، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، وأنهم بال كفرهم كما يستحقون الذم والعقاب ترك الإيمان ، فكذلك يستحقون الذم والعتاب بترك صلاة لأن الله تعالى ذمهم حال كفرهم على ترك الصلاة ، وقال قوم آخرون المراد بالركوع الخضوع والخشوع لله تعالى ، وأن لا يعبد سواه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بأن الأمر للوجوب استدلوا بهذه الآية ، لأنه تعالى ذمهم بمجرد ك المأمور به ، وهذا يدل على أن مجرد الأمر للوجوب ، فإن قيل إنهم كفار فلكفرهم ذمهم ؟ فإنه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه كثيرة ، إلا أنه تعالى إنما ذمهم في هذه الآية لأنهم كوا المأمور به ، فملنا أن ترك المأمور به غير جائز .
قوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة إلى آخرها بالوجوه العشرة التي رحناها ، وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من كفرهم . وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليها ووضوحها (فبأى حديث بعده يؤمنون) قال القاضي هذه الآية تدل على أن القرآن محدث لأنه تعالى وصفه بأنه حديث ، والحديث القديم والصدان لا يجتمعان ، فإذا كان حديثاً وجب أن لا يكون قديماً ، وأجاب الأصحاب ، المراد منه هذه الألفظ ولا نزاع في أنها محدثة ، والله تعالى أعلم . والحمد لله رب العالمين لصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله أجمعين .

﴿ تم الجزء الثلاثون وبلية الجزء الحادى والثلاثون وأوله سورة النبأ ﴾

فهرست

الجزء الثلاثون من التفسير الكبير للامام نجر الدين الرازي (٢٨٥)

صفحة	صفحة
٢٣ قوله تعالى : ذلك بأنه كانت تأتيمهم رسلهم الآية	(تفسير سورة الجمعة)
٢٤ زعم الذين كفروا	٢ قوله تعالى : يسبح لله ما في السموات الآية
٢٥ فآمنوا بالله ورسوله	٣ هو الذي بعث في الأميين
والذين كفروا وكذبوا بآياتنا	٤ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم
ما أصاب من مصيبة	٥ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء
وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول	٦ مثل الذين حملوا التوراة
الله لا إله إلا هو	٧ قل يا أيها الذين هادوا
يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم	ولا يئتمنونه أبداً
إنما أموالكم وأولادكم فتنة	٨ قل إن الموت الذي تفرون منه
فاتقوا الله ما استطعتم	٩ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي
إن تقرضوا الله قرضاً حسناً	فإذا قضيت الصلاة
عالم الغيب والشهادة	١٠ وإذا رأوا تجارة أو لهواً
(تفسير سورة الطلاق)	(تفسير سورة المنافقون)
٢٩ قوله تعالى : يا أيها النبي إذا طلقتم النساء	١٢ قوله تعالى : إذا جاءك المنافقون الآية
وانقوا الله ربكم	١٣ اتخذوا أيمانهم جنة
فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن	١٤ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا
ويرزقن من حيث لا يحتسب	وإذا رأيتهم تهجيك أجسامهم
واللائئ يئسن من المحيض	وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم
ذلك أمر الله أنزله إليكم	سواء عليهم أستغفرت لهم
أسكنوهن من حيث سكنتم	١٦ هم الذين يقولون لا تنفقوا
لينفق ذو سعة من سعته	يقولون لن رجعنا إلى المدينة
وكأين من قرية عتت عن أمر ربها	١٨ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم
فذاقت وبال أمرها	وأنفقوا مما رزقناكم
أعد الله لهم عذاباً شديداً	ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها
رسولاً يتلو عليكم آيات الله	(تفسير سورة التغابن)
ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً	٢٠ قوله تعالى : يسبح لله ما في السموات الآية
الله الذي خلق سبع سموات	٢١ هو الذي خلقكم
(تفسير سورة التحريم)	٢٢ خلق السموات والأرض
٤١ قوله تعالى : يا أيها النبي لم تحرم	٢٣ يعلم ما في السموات والأرض
قد فرض الله عليكم تحلماً أيمانكم	٢٤ ألم يأتكم نبي الذين كفروا

صفحة	صفحة
٧٢	٤٢
قوله تعالى: أمن هذا الذى يرزقكم	قوله تعالى: وإذا سر النى إلى بعض أرواح الآيات
أفمن يمشى مكباً	إن تتوبا إلى الله
٧٣	٤٤
قل هو الذى أنشأكم	عسى ربه إن طامكن
٧٤	٤٦
قل هو الذى ذرأكم	يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم
ويقولون متى هذا الوعد	يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا
٧٥	٤٧
قل إنما العلم عند الله	يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله
٧٦	٤٩
قل رأيتم إن أهلكتنى الله	يا أيها النبي جاهد الكفار
٧٧	٥٠
قل هو الرحمن آمنا به	وضرب الله مثلاً للذين كفروا
٧٨	٥٢
قل رأيتم إن أصبح ماؤكم	ومريم ابنة عمران
(تفسير سورة القلم)	(تفسير سورة الملك)
٧٧	٥٢
قوله تعالى: ن	قوله تعالى: تبارك الذى بيده الملك الآيات
٧٨	٥٤
والقلم وما يسطرون	الذى خلق الموت والحياة
٧٩	٥٥
ما أنت بنعمة ربك بمجنون	ليبلوكم أيكم أحسن عملاً
٨٠	٥٦
وإن لك لأجراً غير ممنون	الذى خلق سبع سموات
٨١	٥٨
وإنك لعلى خلق عظيم	ثم ارجع البصر كرتين
٨٢	٥٩
فستبصر ويبصرون	ولقد زينا السماء الدنيا
٨٣	٦٢
بأيكم المفتون	وللذين كفروا بربهم
٨٤	٦٣
إن ربك هو أعلم	إذا أقفوا فيها سمعوا
٨٥	٦٤
فلا تطع المكذبين	تكاد تميز من الغيظ
٨٦	٦٥
ودوا لو تدهن فيدهنون	كلما ألقى فيها فوج
٨٧	٦٦
ولا تطع كل حلاف مهين	قالوا بلى قد جاءنا نذير
٨٨	٦٧
هماز مشاء بنميم	وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل
٨٩	٦٨
مناع للخير معتد أثيم	فاعترفوا بذنبهم
٩٠	٦٩
عتل بعد ذلك زنيم	إن الذين يخشون ربهم
٩١	٧٠
أن كان ذا مال وبنين	وأسروا قولكم أو اجهروا
٩٢	٧١
إذا تتلى عليه آياتنا	ألا يعلم من خلق
٩٣	٧٢
سنسسه على الخراطوم	هو الذى جعل لكم الأرض
٩٤	٧٣
إنا بلوناهم	أأنتم من فى السماء
٩٥	٧٤
ولا يستشون	أم أنتم من فى السماء
٩٦	٧٥
فطاف عليها طائف	ولقد كذب الذين من قبلهم
٩٧	٧٦
فأصبحت كالصريم	أو لم يروا إلى الطير
٩٨	٧٧
فتنادوا مضجين	أمن هذا الذى هو جند لكم

صفحة	
١٠٣	قوله تعالى: كذبت ثمود وعاد بالعارعة
»	فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية
»	وأما عاد فأهلكوا الآية
١٠٤	سخرها عليهم سبع ليال
١٠٥	وجاء فرعون ومن قبله
١٠٦	فعضو رسول ربهم
»	إنما لما طغى الماء
»	لنجعلها لكم تذكرة
١٠٧	فإذا نفخ في الصور
»	وحملت الأرض
١٠٨	فيومئذ وقعت الواقعة
»	وانشقت السماء
»	والملك على أرجائها
١٠٩	يومئذ تعرضون
١١٠	لاتخفى منكم خافية
»	فأما من أوتى كتابه
١١١	إني ظننت أني ملاق حسابه
١١٢	فهو في عيشة راضية
»	في جنة عالية
»	قطوفها دانية
»	كلوا واشربوا هنيئاً
١١٣	وأما من أوتى كتابه
»	ولم أدر ما حسابه
١١٣	ياليتها كانت القاضية
١١٤	ما أغنى عنى ماله
»	هلك عنى سلطانيه
»	خذوه فغلوه
»	ثم الجحيم صلوه
»	ثم في سائلة ذرعها
١١٥	إنه كان لا يؤمن بالله العظيم
»	ولا يحض على طعام المسكين
»	فليس له اليوم ههنا حميم
»	ولا طعام إلا من غسلين
١١٦	لا يأكله إلا الخاطئون

صفحة	
٨٨	قوله تعالى: أن اغدوا على حرثكم الآية
٨٩	فانطلقوا وهم يتخافون
»	أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين
»	وغدوا على حرد قادرين
»	فلبا رأوها قالوا إنا لضالون
»	بل نحن محرومون
٩٠	قال أوسطهم
»	قالوا سبحان ربنا
»	فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون
»	قالوا يا ويلنا
»	عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها
»	كذلك العذاب
»	إن المتقين عند ربهم
٩٢	أفنجعل المسكين كالمجرمين
»	مالكم كيف تحكمون
»	أم لكم كتاب فيه تدرسون
»	إن لكم لما تخيرون
٩٣	أم لكم إيمان علينا بالغة
»	أم لهم شركاء
»	يوم يكشف عن ساق
»	ويدعون إلى السجود
»	خاشعة أبصارهم
»	فذرني ومن يكذب
٩٧	وأملى لهم إن كيدى متين
»	أم تسألهم أجراً
»	أم عندهم الغيب فهم يكتبون
»	فاصبر لحكم ربك
»	لولا أن تداركه نعمه
»	فاجتبه ربه فجعله من الصالحين
»	وإن يكاد الذين كفروا
١٠١	ويقولون إنه لجنون
»	وما هو إلا ذكر للعالمين
	(تفسير سورة الحاقة)
١٠٣	قوله تعالى: الحاقة ما الحاقة الآية

صفحة	صفحة
١٢٩	١١٦
قوله تعالى: إذا مسه الشر جزوعاً	قوله تعالى: فلا أقسم بما تبصرون
وإذا مسه الخير منوعاً	إنه لقول رسول كريم
إلا المصلين	وما هو بقول شاعر
الذين هم على صلاتهم دائمون	ولا يقول كاهن
والذين في أموالهم حق معلوم	تزيل من رب العالمين
للسائل والمحروم	ولو تقول علينا
والذين يصدقون بيوم الدين.	لأخذنا منه باليمين
والذين هم من عذاب ربهم مشفقون	ثم لقطعنا منه الوتين
إن عذاب ربهم غير مأمون	فأما منكم من أحد عنه حاجزين
والذين هم لفروجهم حافظون	وإنه لتذكرة للستين
إلا على أزواجهم	وإننا لنعلم أن منكم مكذبين
فمن ابتغى وراء ذلك	وإنه لحسرة على الكافرين
والذين هم لأماناتهم	وإنه لحق اليقين
والذين هم بشهاداتهم قاننون	فسمح باسم ربك العظيم
والذين هم على صلاتهم يحافظون	(تفسير سورة المعارج)
أولئك في جنات مكرمون	١٢١ قوله تعالى: سأل سائل بعذاب واقع
قال الذين كفروا	للكافرين ليس له دافع
عن اليمين وعن الشمال عزين	من الله ذي المعارج
أيطمع كل امرئ منهم	تعرج الملائكة والروح
كلا إننا خلقناهم مما يعلمون	فاصبر صبراً جميلاً
فلا أقسم برب المشارق	إنهم يروونه بعيداً
على أن نبذل خيراً منهم	ونراه قريباً
فذرهم يخوضوا ويلعبوا	يوم تكون السماء كالمهل
يوم يخرجون من الأجداث	وتكون الجبال كالعهن
خاشعة أبصارهم	ولا يسأل حميم حميماً
(تفسير سورة نوح)	١٢٦ يبصرونهم يود المجرم
١٣٤ قوله تعالى: إننا أرسلنا نوحاً	وصاحبه وأخيه
أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون	وفصيلته التي تؤويه
يغفر لكم من ذنوبكم	ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه
قال رب إنى دعوت قومي	كلا إنها لظى
فلم يزدكم دعائى إلا فرار	نزاعة للشوى
وإنى كلما دعوتهم	تدعوا من أدبر وتولى
ثم إنى دعوتهم جهاراً	وجمع فأوعى
ثم إنى أعلنت لهم	إن الإنسان خلق هلوعاً

صفحة	صفحة
١٥٩	١٣٧
قوله تعالى : وأناظننا أن لن نعجز الله في الآية	قوله تعالى : فقلت استغفروا ربكم الآية
وأنما سمعنا الهدى آمنا به	يرسل السماء عليكم مدرارا
وأنامنا المسلمون ومنا القاسطون	ويعمدكم بأموال ربين
وأنما القاسطون فكانوا	مالكم لانرجون الله وقاراً
وأن لو استقاموا على الطريقة	وقد خلقكم أطواراً
لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر	ألم تروا كيف خلق الله
وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله	وجعل القمر فيهن نوراً
وأنه لما قام عبد الله	والله أنبتكم من الأرض نباتاً
قل إنما أَدْعُورِي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا	ثم يعيدكم فيها ويخرجكم لإخراجاً
قل إني لا أملك لكم ضرراً	والله جعل لكم الأرض بساطاً
قل إني لن يجيرني من الله أحد	لتسلكوا منها سبيلاً لجاجاً
إلا بلاغاً من الله ورسالاته	قال نوح رب إنهم عصوني
حتى إذا رأوا ما يوعدون	ومكروا مكراً كياراً
قل إن أدري أقرب	وقالوا لا تدرن آلهتمكم
عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً	وقد أضلوا كثيراً
إلا من ارتضى من رسول	بما خطبناهم أفرقوا فادخلوا ناراً
فإنه يسلك من بين يديه	فتم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً
وأحاط بما لديهم	قال نوح رب لا تذر
(تفسير سورة المزمل)	إنك إن تذرهم يضلوا
١٧١	رب اغفر لي ولوالدي
قوله تعالى : يا أيها المزمل	(تفسير سورة الجن)
نصفه أو انقص	١٤٨
ورتل القرآن ترتيلاً	قوله تعالى : قل أوحى إلى أنه أستمع الآية
إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً	١٥٤
١٧٥	فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً
الآية	يهدى إلى الرشد فآمنا به
١٧٧	وأنه تعالى جد ربنا
إن لك في النهار سبحاً طويلاً	وأنه كان يقول سفيهاً
واذكر اسم ربك	وأننا ظننا أن لن نقول الإنس
رب الشرق والمغرب	وأنه كان رجال من الإنس
واصبر على ما يقولون	وأنهم ظنوا كما ظننتم
وذرتي والمكذبين	وأننا لمسنا السماء فوجدناها
١٨١	وأننا كنا نقعد منها مقاعد للسمع
إن لدينا أنكالا وجملاً	وأننا لاندري أشر أريد بمن في
وطعاماً ذا غصة وعداباً ألماً	وأنامنا الصالحون ومنا دون
يوم ترجف الأرض والجبال	١٥٩
إنا أرسلنا إليكم رسولا	

صفحة	صفحة
٢٠٨	١٨١
قوله تعالى: وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا الذكرى للبشر . كلا والقمر الآية	قوله تعالى : يوم ترجف الأرض والجبال الآية
٢٠٩	١٨٢
والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر	إنا أرسلنا إليك رسولا
٢١٠	١٨٣
كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين	فكيف تقولون إن كفرتم
٢١١	١٨٥
ما سللكم في سقر . قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أنا واليقيين فانتفهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة	السما منفطر به كان وعده
٢١٢	١٨٦
كأنهم حرم مستنفرة فرت من قسورة بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة كلا بل لا يخافون الآخرة	إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ
٢١٣	١٨٧
كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله الآية (تفسير سورة القيامة)	إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى
٢١٤	١٨٨
قوله تعالى: لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة	علم أن سيكون منكم مرضى وما تقدموا لأنفسكم من خير
٢١٧	١٨٩
أحسب الإنسان أن لن نجوع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة	قوله تعالى : يا أيها المدثر
٢١٨	١٩٠
بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة	قم فأندر ؛ ولربك فكبر
٢١٩	١٩١
فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين الفر	وتيا بك فظهر
٢٢١	١٩٣
كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره لا تحرك به لسانك لتعجل به	والرجز فاهجر الآيات
٢٢٢	١٩٦
ولو ألقى معاذيره لا تحرك به لسانك لتعجل به	فإذا تقر في الناكور
٢٢٤	١٩٧
إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه الآية	فذلك يومئذ يوم عسير
	١٩٨
	١٩٩
	٢٠٠
	٢٠١
	٢٠٢
	٢٠٣
	٢٠٤
	٢٠٧

صفحة	صفحة
٢٤٩	٢٢٥ قوله تعالى ثم إن علينا بيانها كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة
٢٤٩	٢٢٦ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة
٢٥٠	٢٢٩ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن أن يفعل بها فاقرة
٢٥١	٢٣٠ كلا إذا بلغت التراقي
٢٥٢	٢٣١ وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق
٢٥٣	٢٣٢ إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلي ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطي
٢٥٤	٢٣٣ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى
٢٥٥	٢٣٤ ألم يك نطفة من منى يمى ثم كان علقة مخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى
٢٥٦	(تفسير سورة الإنسان)
٢٥٧	٢٣٥ قوله تعالى هل أتق على الإنسان حين الآية
٢٥٩	٢٣٦ إنا خلقنا الإنسان من نطفة
٢٦٠	٢٣٧ إنا هدنا السبيل
٢٦١	٢٣٨ إما شاكرًا وإما كفورًا
٢٦٢	٢٤٠ إنا أعتدنا للكافرين الآيات
٢٦٤	٢٤١ عينا يشرب بها عبداً لله يفجرها وتفجيراً يوفرن بالندر
٢٦٨	٢٤٢ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً
٢٦٩	٢٤٣ ويطعمون الطعام على حبه الآية
٢٧٠	٢٤٧ إنما نطعمكم لوجه الله
	٢٤٧ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً
	٢٤٧ فوقيهم الله شر ذلك اليرم
	٢٤٧ وجزيم بما صبروا جنة وحريراً
	٢٤٧ متكئين فيها على الأرائك
	٢٤٧ قوله تعالى لا يرون فيها شمساً ولا زمهراً
	٢٤٩ ودانية عليهم ظلالها وذلّت الآية
	٢٤٩ ويطاف عليهم بأنية من فضة
	٢٥٠ قوارير من فضة قدروها تقديراً
	٢٥٠ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها
	٢٥١ عينا فيها تسمى سلسبيلاً
	٢٥١ ويطوف عليهم ولدان مخلدون
	٢٥٢ وإذا رأيت ثم رأيت
	٢٥٢ عاليم ثياب سندس خضر
	٢٥٣ وحلوا أساور من فضة
	٢٥٤ وسقيهم ربهم شراباً طهوراً
	٢٥٥ إن هذا كان لكم جزاء وكان
	٢٥٦ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً
	٢٥٧ فاصبر لحكم ربك ولا تطع الآية
	٢٥٩ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً
	٢٦٠ ومن الليل فاجتهد له وسبحه ليلاً طويلاً
	٢٦٠ إن هؤلاء يحبون العاجلة الآية
	٢٦١ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم
	٢٦١ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ
	٢٦٢ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله
	٢٦٢ إن الله كان علماً حكماً
	٢٦٢ يدخل من يشاء في رحمته
	(تفسير سورة المرسلات)
	٢٦٤ قوله تعالى والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً
	٢٦٨ والنشرات نشرأ فالقارقات فرقاً
	٢٦٨ فالملقيات ذكرأ عذراً أو نذراً
	٢٦٨ إنما توعدون لواقع
	٢٦٩ فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت
	٢٦٩ وإذا الجبال نسفت وإذا الرسل أقتت
	٢٧٠ لأى يوم أجلت ليوم الفصل وما
	٢٧٠ أدريك ما يوم الفصل ويل يومئذ
	٢٧٠ للسكذبين

صفحة	صفحة
٢٧٩ قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ويل يومئذ للمكذبين	٢٧١ قوله تعالى ألم نهلك الأولين ثم تبعهم الآخريين كذلك تفعل بالمجرمين ويل يومئذ للمكذبين
٢٨١ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ويل يومئذ للمكذبين إن المتقين في ظلال وعيون وفوكة مما يشتهون كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون إنا كذلك نجزي المحسنين ويل يومئذ للمكذبين	٢٧٢ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدنا فنعلم القادرون ويل يومئذ للمكذبين
٢٨٣ كارا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ويل يومئذ للمكذبين وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل يومئذ للمكذبين	٢٧٣ ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً الآيات
٢٨٤ فيأى حديث بعده يؤمنون	٢٧٤ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلى ظل ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب إنها ترمى بشرراً كالقصر كأنه جمالة صفر ويل يومئذ للمكذبين